نوع گزارش : نمايش متن
روز:١٣٨٧/١٢/٢٨ ساعت:٥۶: ١١

تفسير الكاشف، ج١، ص ۵

الجزء الأول

مقدّمة

بسم اللّه الرحمن الرحيم، و الحمد للّه ربّ العالمين، و صلى اللّه على محمد و آله الطيبين الطاهرين.

و بعد:

فاني ألفت في العقيدة و أصولها سلسلة من ثمانية كتب صغار «١» خاطبت بها الجيل الجديد بأسلوبه و منطقه، هذا الجيل الذي لا يصدق شيئا إلا ما يريده، و يتفق مع تربيته و ثقافته.

و قدر اللّه لهذه السلسلة النجاح و التوفيق، و أعيد طبعها مرات، و للّه الحمد، و بديهة ان كل عمل يوافق الحكمة، و الهدف الذي يرمي اليه يكتب اللّه النجاح له و التوفيق .. ان التوفيق من اللّه ما في ذلك ريب، و لكنه جل و عز أبى أن يجري الأمور إلا على طرقها و سننها .. و مجرد وضع الحبر على الورق ليس من سنن النجاح في شيء، و انما السبيل الى النجاح و الرواج ان يرضى القارئ عما يقرأ، و يعجب به، و هو لا يرضى عن أية كتابة إلا إذا كانت من أجله، لا من أجل الكاتب، و هذا الرضا بدوره يشجع الكاتب على المضي، و هكذا يؤثر و يتأثر كل من القارئ و الكاتب بالآخر.

و على أية حال، فقد شجعني انتشار السلسلة على تأليف كتب أكبر و أوسع، منها كتاب معالم الفلسفة الاسلامية، و الفقه على المذاهب الخمسة، و الشيعة

---

(١) هي اللّه و العقل، و النبوة و العقل، و الآخرة و العقل، و إمامة علي و العقل، و المهدي المنتظر و العقل، و علي و القرآن، و مفاهيم انسانية في كلمات الإمام جعفر الصادق، و فلسفة المبدأ و المعاد.

تفسير الكاشف، ج١، ص ۶

و الحاكمون، و الشيعة و التشيع، و فضائل الإمام علي، و غيرها .. و شاء اللّه لهذه ما شاءه لتلك، فدفعت بي مشيئته تعالى، و كمال توفيقه الى تأليف موسوعة فقه الإمام جعفر الصادق في ستة أجزاء كبار، و نفس الشيء حصل لهذه الموسوعة، فتولاها جلت حكمته بعنايته، تماما كما تولى أخواتها من قبل .. و أيضا نفس الشيء حصل لي، حيث أغراني نجاح الموسوعة بما هو أضخم و أعظم، و أعني به تفسير القرآن الكريم الذي أسميته «التفسير الكاشف».

و قد تم منه بحول اللّه و قوته، و توفيقه و فضله هذا الجزء الذي اقدم له، و فيه تفسير سورتي الحمد و البقرة بكاملهما .. و لا أدري: هل تمتد بي الحياة الى النهاية، و أرى نتاج ما ضحيت و قاسيت، أو ان الأقدار قد تتصرف عكس ما رسمت و أردت؟. و إذا تم «التفسير الكاشف» كما أريد، فهل يكتب له من الرواج ما كتب لغيره مما ألفت و نشرت؟ و في حال تمامه و رواجه، هل يثمر كتابا يأتي من بعده، كما جاء هو نتاجا لموسوعة الفقه؟

أسئلة لا يعلم أجوبتها الا صاحب الكلمة الأولى، و الارادة العليا: «و ما تدري نفس ما ذا تكسب غدا، و ما تدري نفس بأي أرض تموت». و إيماني بهذه الحقيقة لا يمنعني أبدا من التصميم و المضي في الجهد و العمل الدائب .. لأني أومن أيضا بأن لعزمي الجاد أثره البالغ في تحقق ما أريد .. و هذا الايمان يدفع بي الي بذل المزيد من الجهد خوفا من فوات الفرصة .. و من أجل هذا أظل أكتب و أكتب، و أحلم بالتمام و النجاح، حتى الموت فهو وحده الذي يحد من نشاطي، فأنا دائما أبذل الجهد، ما دام الموت بعيدا عني.

و أغلى أمنية على قلبي أن يفاجئني الأجل، و أنا أكتب داعيا الى اللّه و الحق و العدل .. بل أسمى الرغائب لدي ان أدخل الجنة لاقرأ فيها و أكتب خالي البال، متحررا من الأشغال، و هموم العيال .. و كم مر بخيالي هذا السؤال- جاء السجع من غير قصد-: إذا أنعم اللّه بالجنة فهل أكون فيها بطالا؟ و هل يتسنى لي أن أقرأ فيها و أكتب؟ و أجيب نفسي: أجل، ان فيها ما تلذ الأعين، و تشتهي الأنفس، حتى و لو اشتهت القراءة و الكتابة .. و يعود السؤال، و لكن بصيغة ثانية: و لمن أكتب؟ و أهل الجنة كلهم على غاية الكمال ..

و معذرة من هذا الاسترسال مع القلم، و على الأصح مع ذاتي في التعبير عن نفسها .. و هل أنا الا مجرد انسان يصعب عليه أن يتحرر من ذاته و ينفصل عنها؟

تفسير الكاشف، ج١، ص ٧

أو يصعب عليه أن يمنعها عن التعبير عما في كهوفها و قرارتها حين تجد فرصة و منفذا لهذا التعبير.

الجيل الجديد:

كل شيء يخضع لأسبابه الواقعية، سواء أكان ظاهرة من ظواهر الطبيعة، كالطوفان و الزلزال، أو ظاهرة اجتماعية، كالجهل و الفقر، أو كان شأنا من شئون القلب، كالايمان و الكفر، و لا شيء على الإطلاق يوجد لمجرد الصدفة من غير سبب و تدبير .. مهدت بهذه الاشارة للسؤال و الجواب التاليين:

لما ذا لا يهتم الجيل الجديد بالقيم الدينية، كما كانت تهتم بها الأجيال السابقة؟

فأكثر شباب هذا الجيل قد انصرفوا عن العبادات و الطقوس الدينية .. بل أثقل شيء على نفوسهم ان يسمعوا موعظة و نصيحة تمت الى الدين بسبب. حتى القيم الانسانية، كالاخاء و المساواة، و السلام و التعاون، و الصدق و العدل لا صدى لها في نفوسهم .. و ان تحدثوا عنها و عن قداستها فإنما يقدسونها بألسنتهم لا بقلوبهم، و بأقوالهم لا بأفعالهم .. اللهم الا في حدود منفعتهم الشخصية.

الجواب: لقد كانت الشعوب الاسلامية العربية منها و غير العربية لا تثق بمبدإ من المبادئ، و لا بقيمة من القيم إلا إذا كان مصدرها كتاب اللّه جل و عز، و سنة رسول اللّه (ص) .. فلا اشتراكية، و لا وجودية، و لا ديمقراطية، و لا قومية، لا شيء على الإطلاق إلا وحي السماء، منه تستمد أصول العقيدة، و آداب السلوك، و عليه توضع مناهج التعليم، و منه تستخرج القوانين و الأحكام التي يعمل بها في دور القضاء، و تراعى في الدوائر، و سائر التصرفات الفردية و الاجتماعية.

و من هنا كانت تعاليم الدين واضحة في أذهان الكثير من الناس، يعرفون ما يقره الشرع، و يأمر به، و ما يرفضه و ينهى عنه. و كان الذي يعيش الدين معايشة صحيحة محل ثقة الجميع، و موضع أمانتهم، و من انحرف عنها لا يأتمنونه على شيء، و لا يثقون به في شيء .. و معنى هذا في واقعه ان القيم الاجتماعية كانت هي القيم الدينية بالذات، فإذا ما شذ فرد عنها، و خرج عليها كان تماما كمن يخرج على النظام السليم، و الوضع القويم.

تفسير الكاشف، ج١، ص ٨

ثم دارت الأيام، و حدث الانقلاب الخطير بنفوذ الغرب، و سيطرته على البلاد الاسلامية، فاتجه أول ما اتجه الى شريعة القرآن، و محا أثرها من دور القضاء، و أبدلها بالقانون الوضعي الفرنسي و الانكليزي، و ألغى تعلم العقائد و الأخلاق الدينية من مناهج التعليم، و أفسح المجال للميسر و الفجور، و حانات الخمور، و لكل ما من شأنه أن يشل العقيدة و الأخلاق، فاختفت سمات القرآن و السنة النبوية من الحياة الاجتماعية، حتى اللغة العربية أصابها ما أصاب العقيدة و الشريعة، فكان هذا الجيل الجديد الذي لا يهتم بعقيدة و لا خلق، و هو في الواقع نتاج للاوضاع الفاسدة التي نشأ فيها، و ربّي عليها، فمن الطبيعي أن يكون انعكاسا لها، و من الخطأ ان ننظر الى الجيل مستقلا عن مجتمعه و بيئته .. و حقا ما قاله الفلاسفة:

ان المعلول اظهار لعلته.

العلاج:

و تسأل: لقد وصفت الداء، فما هو الدواء؟

و الحق ان الجواب عن هذا السؤال لا ينبغي أن ينفرد به مثقف واحد، و لا بدّ أن تمعن فيه و تتلاقى عقول كبيرة و مخلصة، لأن الأخلاق و العادات إذا حلت في بيئة و طال عليها الأمد تصبح حقيقة واقعة تنزع إلى البقاء و الاستمرار، و ليس استئصالها بالشيء اليسير .. انها تعمل في عالم النفوس تماما كما تعمل الأسباب الطبيعية في عالم الطبيعة، و يحتاج تغييرها إلى جهد و جهاد طويل و شاق من نوع الجهد الذي بذله الرسول الأعظم (ص) لتغيير عادات أهل الجاهلية و عقائدهم ..

و قد جاءت الاشارة في الأحاديث الى ذلك، منها: «بدأ الإسلام غريبا، و سيعود غريبا كما بدأ». اذن، لن يؤوب من غربته، و تقر عيناه في عودته إلا بقائد كالنبي محمد (ص)، و اصحاب كالمهاجرين و الأنصار .. و ليس على اللّه بعزيز أن يتيح الظروف ليوم يعود فيه سلطان القرآن، و شريعة القرآن، و أخلاق القرآن.

و لكن علينا أن نعمل جهد المستطيع، و لا ننتظر معجزة السماء، و العمل الذي نستطيعه الآن- كما يبدو لي- هو:

أولا: أن نجعل للدين في المدارس مكانا مرموقا، بخاصة لقراءة القرآن و حفظه و تفسيره، لأنه حجر الأساس. فإذا رفض ذلك القائمون على شئون التعليم

تفسير الكاشف، ج١، ص ٩

في المدارس الحكومية- و سيرفضون من غير جدال- فعلينا ان ننشىء مدارس أهلية لهذه الغاية الى جانب العلوم الزمنية الدارجة، ننشىء هذه المدارس من الملايين التي تدفع باسم الحقوق الإلهية للمراجع و غيرهم، و لا أعرف موردا لها خيرا من إنفاقها لإحياء التعاليم الدينية، و انتشارها، و تربية النشء عليها.

ثانيا: أن يؤدي كل واحد من رجال الدين مهمته بإخلاص بعد أن يؤهل نفسه لأن يكون هاديا واعيا يعرف من أين ينفذ الى قلوب الشباب و كيف يقنعهم بأن الدين مصدر القيم التي تمنحهم حياة أفضل.

ثالثا: أن نوضح الحقائق الدينية، و نيسرها للافهام، و نذيعها بالكتب و الخطب و المقالات و النشرات، و نثبت للجاهل و المشكك ان الإسلام بعقيدته و شريعته و أخلاقه ينبع من حاجات الإنسان الروحية و المادية، و يضع لمشاكله الحلول السليمة، و يهدف الى سعادته دنيا و آخرة .. و سيجد القارئ الدليل على ذلك في هذا التفسير الذي يربط الدين بالحياة

بشتى مظاهرها، و يهتم بالجانب الانساني أكثر مما يهتم ببلاغة الكلمة.

المفسر:

التفسير في اللغة الاستبانة، و في الاصطلاح علم يبحث فيه عن معاني ألفاظ القرآن و خصائصه.

و لا بد لهذا العلم من معدات و مؤهلات، منها العلوم العربية بشتى أقسامها، و علم الفقه و أصوله، و منها الحديث و علم الكلام، ليكون المفسر على بينة مما يجوز على اللّه و أنبيائه، و ما يستحيل عليه و عليهم، و منها كما يرى البعض علم التجويد و القراءات.

و هنا شيء آخر يحتاج اليه المفسر، و هو أهم و أعظم من كل ما ذكره المفسرون في مقدمة تفاسيرهم، لأنه الأساس و الركيزة الأولى لتفهم كلامه جل و علا. و لم أر من أشار اليه، و قد اكتشفته بعد أن مضيت قليلا في التفسير، و هو ان معاني القرآن لا يدركها، و لن يدركها على حقيقتها، و يعرف عظمتها الا من يحسها من أعماقه، و ينسجم معها بقلبه و عقله، و يختلط إيمانه بها بدمه

تفسير الكاشف، ج ١، ص ١٠

و لحمه، و هنا يكمن السر في قول الإمام أمير المؤمنين (ع): ذاك القرآن الصامت، و أنا القرآن الناطق.

و أيضا أيقنت- و أنا ماض في تفسير آي الذكر الحكيم- ان أي مفسر لا يأتي بجديد لم يسبق اليه، و لو بفكرة واحدة في التفسير كله، أيقنت ان هذا المفسر لا يملك عقلا واعيا، و انما يملك عقلا قارئا، يرتسم فيه ما يقرأه لغيره، تماما كما ترتسم صورة الشيء في المرآة على ما هو من لون و حجم ..

ذلك ان معاني القرآن عميقة الى أبعد الحدود، و لا يبلغ أحد نهايتها مهما بلغت مكانته من العلم و الفهم، و انما يكتشف منها ما تسعفه معارفه و مؤهلاته، فإذا وقف المفسر السابق عند حد من الحدود، ثم جاء اللاحق و ترسم خطاه لا يتجاوزها، و لو بخطوة واحدة كان تماما كالأعمى يتوكأ على عكاز، فإذا فقدها جمد في مكانه.

و قد تحصل لي الكثير من الآراء و المعتقدات غير هذا و ذاك خلال التفسير، و بالأصح إن التفسير صحح الكثير من مفاهيمي السابقة .. من ذلك اني أيقنت- و أنا أتدبر كلمات اللّه سبحانه- انه لا ايمان بلا تقوى، و ان الجنة حرام الا على من جاهد و ضحّى في سبيل الحق، و ان ما من أصل من اصول الإسلام أو فرع من فروعه من الايمان باللّه الى أصغر حكم في الشريعة، كلها دون استثناء إلا و ترتبط بالحياة ارتباطا وثيقا و قويا، كما أيقنت و آمنت بأن أجهل الناس بحقيقة الإسلام و مراميه هم المنتمون اليه، الى غير ذلك مما يجده القارئ في مطاوي الصفحات، و خصصت لكثير منه فقرات مستقلة بعناوين تدل عليها.

و بالتالي، فاني لا أعرف مهمة أشق و أصعب من مهمة المفسر لكلمات اللّه ..

انه يتصدى للكشف عن ارادته، جلت كلمته، و ليس هذا بالشيء اليسير ..

و الذي يهون الخطب ان المفسر يعبر عن فهمه و تصوره لمعاني القرآن و مقاصده، كما هي في ذهنه، لا كما هي في واقعها، تماما كالفقيه المجتهد الذي يؤجر ان أصاب، و يعذر ان أخطأ، بل و يؤجر أيضا على نيته و اجتهاده و عدم تقصيره.

دعوة القرآن:

من تتبع آي الذكر الحكيم، و تدبر معانيها يجد وراءها مقسما مشتركا،

تفسير الكاشف، ج١، ص ١١

و إطارا عاما يربط بين جميع قواعده و مبادئه، و سوره و آياته، و هذا الرابط هو الدعوة إلى أن يحيا الناس، كل الناس، حياة طيبة يسودها الأمن و العدل، و يغمرها الخصب و السلام: «يٰا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَ لِلرَّسُولِ إِذٰا دَعٰاكُمْ لِمٰا يُحْيِيكُمْ- الأنفال ٢٣».

و لدعوة اللّه و الرسول الى الحياة أسلوب خاص، و ركائز تقوم عليها، أما أسلوب الدعوة فقد حدده اللّه سبحانه بقوله لنبيه الأكرم (ص): «ادْعُ إِلىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَ الْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَ جٰادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ- النحل ١٢٥».

و المراد هنا بالحكمة و الموعظة الحسنة ان يخاطب القلب و العقل، و يعرض في دعوته الى اللّه بدائع المخلوقات، و عجائب الكائنات: «سَنُرِيهِمْ آيٰاتِنٰا فِي الْآفٰاقِ وَ فِي أَنْفُسِهِمْ حَتّٰى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ- فصلت ٥٣».

و ان يحذر المشاغبين و المعاندين من سوء العاقبة و المصير، و يضرب لهم الأمثال من الأمم السابقة، كما فعل شعيب، حيث قال لقومه: «وَ يٰا قَوْمِ لاٰ يَجْرِمَنَّكُمْ شِقٰاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مٰا أَصٰابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صٰالِحٍ وَ مٰا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ- هود ٨٩». فإن أصروا على العناد تركهم و شأنهم، حيث لا مزيد من البينات و البراهين: «فَإِنْ حٰاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَ مَنِ اتَّبَعَنِ- آل عمران ٢٠»: «فَإِنَّمٰا عَلَيْكَ الْبَلاٰغُ وَ عَلَيْنَا الْحِسٰابُ».

أما ركائز الدعوة الى الحياة الطيبة فنذكر منها ما يلي:

١- ان الإنسان لم يوجد في هذه الحياة صدفة و من غير قصد: «وَ اللّٰهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفّٰاكُمْ- النحل ٧٠».

٢- ان اللّه سبحانه لم يترك الإنسان سدى تتحكم فيه الأهواء و النزوات، بل اختط له طريقا سويا لا يجوز أن يتخطاه و يتعداه: «أَ يَحْسَبُ الْإِنْسٰانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدىً- القيامة ٦». «فَوَ رَبِّكَ لَنَسْئَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ عَمّٰا كٰانُوا يَعْمَلُونَ- الحجر ٩٢».

٣- الأمن و صيانة النظام، و من أخل به، و سعى في الأرض الفساد عوقب بأشد العقوبات في الدنيا، و له في الآخرة عذاب أليم: «إِنَّمٰا جَزٰاءُ الَّذِينَ يُحٰارِبُونَ اللّٰهَ وَ رَسُولَهُ وَ يَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسٰاداً أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَ أَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلاٰفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذٰلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيٰا وَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذٰابٌ عَظِيمٌ- المائدة ٣٣».

تفسير الكاشف، ج١، ص ١٢

٤- ان صيانة الأمن و النظام لا تتحقق و لن تتحقق إذا لم يكن كل انسان أمينا على نفسه و كرامته، لأن المجتمع الصالح في منطق القرآن هو الذي لا يوجد فيه بذرة واحدة من بذور الفساد: «مَنْ قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسٰادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمٰا قَتَلَ النّٰاسَ جَمِيعاً وَ مَنْ أَحْيٰاهٰا فَكَأَنَّمٰا أَحْيَا النّٰاسَ جَمِيعاً- المائدة ٣٢».

ذلك ان حقيقة الانسانية تقوم بكل فرد، تماما كقيامها في جميع الأفراد، فمن أساء الى واحد منها فقد أساء الى الانسانية بكاملها، و من أحسن اليه فقد أحسن اليها كذلك. و قوله تعالى: (قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسٰادٍ فِي الْأَرْضِ) اشارة الى ان لكل فرد قدسيته الانسانية، و انه في حرم محرم، حتى ينتهك هو حرمة نفسه بارتكاب جريمة ترفع عنه تلك القدسية و الحصانة الانسانية.

٥- ان العلاقات بين الناس تقوم على أساس حصانة الكرامة و صيانتها لكل فرد من غير فرق بين الذكر و الأنثى و الأسود و الأبيض و الغني و الفقير .. من أي ملة كان و يكون، و قد أقر اللّه هذه الحقيقة بأوجز عبارة و أبلغها: «وَ لَقَدْ كَرَّمْنٰا بَنِي آدَمَ- الأسراء ٧٠». و من استهان بمن كرمه اللّه سبحانه فقد استهان باللّه و شريعته.

٦- ان الايمان باللّه، و نبوة محمد، و اليوم الآخر، و ما إلى ذاك من الأصول و الفروع ليس مجرد شعار ديني يرفعه القرآن،

بل ان لكل أصل من أصول الإسلام، و كل حكم من أحكامه ثمرات و حقائق يجمعها الخلق الكريم، و العمل النافع .. فلقد قرن اللّه الايمان به بالعمل الصالح في العديد من الآيات، أما الإيمان بنبوة محمد (ص) فهو ايمان بالانسانية و رفاهيتها: «وَ ما أَرْسَلْناكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعالَمِينَ- الأنبياء ١٠٧». أما دخول الجنة فيرتبط أقوى ارتباط بالجهاد و العمل الصالح في هذه الحياة: «أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَ لَمَّا يَعْلَمِ اللهُ الَّذِينَ جاهَدُوا مِنْكُمْ وَ يَعْلَمَ الصَّابِرِينَ- آل عمران ١٤٢».

و هكذا يرسم القرآن الطريق الايجابي لبلوغ مقاصده، و استجابة الدعوة الى الحياة التي أشار اليها بقوله: «اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَ لِلرَّسُولِ إِذا دَعاكُمْ لِما يُحْيِيكُمْ».

و هذا دليل واضح على ان أية دعوة لا تمت الى الحياة بصلة فما هي من الدين في شيء، و من نسبها الى اللّه و رسوله فقد افترى على الدين كذبا .. و على هذا الأساس حاولت ان أفسر آي الذكر الحكيم و التفصيل فيما يلي.

تفسير الكاشف، ج١، ص ١٣

المنهج:

المراد بالمنهج هنا اطار من الضوابط العامة يسير المؤلف في ضوئها و لا ينحرف عنها، و أي عمل لا يقف وراءه منهج فهو عمل عشوائي يسوده الارتجال و التناقضات .. و المنهج الذي اتبعته في هذا التفسير يتألف من الضوابط التالية:

١- نظرت الى القرآن على انه في حقيقته و طبيعته كتاب دين و هداية، و إصلاح و تشريع يهدف قبل كل شيء الى أن يحيا الناس جميعا حياة تقوم على أسس سليمة يسودها الأمن و العدل، و يغمرها الخصب و الرفاهية، و أشرت الى ذلك فيما سبق.

٢- اهتم جماعة من المفسرين القدامى أشد الاهتمام باللغة، و أطالوا في بيان السر لاعجاز الكلمة و الأسلوب، و افترضوا أسئلة: مثل لما ذا ذكر الواو دون الفاء، أو الفاء دون الواو؟. و لما ذا قال يفسقون و لم يقل يظلمون .. الى غير ذلك، و أجابوا عنها بما لا يجدي شيئا، و لا يدخل تحت ضابط .. و لذا لم أتعرض لشيء من هذا النوع.

و إذا كان لكل تفسير لون يغلب عليه فان اللون الذي يغلب على تفسيري هذا هو عنصر الاقناع، اقناع القارئ بأن الدين بجميع أصوله و فروعه، و سائر تعاليمه يستهدف خير الإنسان و كرامته و سعادته، و ان من انحرف عن هذا الهدف فقد انحرف عن حقائق الدين و صراط الحياة القويم .. و كي أصل الى هذه الغاية حاولت جهدي أن يجيء الشرح سهلا بسيطا واضحا، يفهمه القارئ في أي مستوى كان.

و إذا اهتم المفسرون القدامى بالتراكيب الفصيحة، و المعاني البليغة أكثر من اهتمامهم باقناع القارئ بالقيم الدينية فلأن العصر الذي عاشوا فيه لم يكن عصر التهاون و الاستخفاف بالدين و شريعته و قيمه، كما هو الشأن في هذا العصر، فكان من الطبيعي أن تكون لغة التفسير ايام زمان غيرها في هذا الزمان.

ان التفسير تماما كالفن ينبع من ظروف محلية .. و من هنا اتجهت بتفسيري الى اقناع الجيل بالدين اصولا و فروعا، و انه يسير مع الحياة جنبا الى جنب، و لا يعني هذا اني أغفلت الجهات النافعة التي تعرّض لها المفسرون الكبار .. كلا، فاني لخصتها و عرضتها بأوضح بيان، بل و أبديت رأيي فيها، بخاصة المشكلات

تفسير الكاشف، ج١، ص ١٤

الفلسفية، مثل الجبر و الاختيار، و الهدى و الضلال، و الإمامة و عصمة الأنبياء، و الشفاعة و الإحباط، و مرتكب الكبيرة،

و حساب القبر .. و ما الى ذلك، كما خصصت لكل آية- في الغالب- فقرة بعنوان (اللغة) لتفسير بعض المفردات غير المألوفة المعروفة، و أخرى بعنوان (الاعراب) لبيان الأحكام النحوية لكلمة مشكلة .. مع العلم بأن التفاسير الحديثة قد أغفلتها، و لكني راعيت رغبة بعض القراء، و ان ندروا أما علم البديع و البيان، و التنظيم و الترصيف فقد تركته لكشاف الزمخشري، و البحر المحيط للأندلسي الغرناطي، و غيرهما ممن تعرضوا لذلك.

و بمناسبة الاشارة الى ان لغة التفسير تختلف باختلاف العصور أذكر كلمة لمحيي الدين ابن العربي في الجزء الرابع من الفتوحات المكية، باب (حضرة الحكمة) قالها خلال حديثه عن تلاوة القرآن، و هي تحمل أعمق المعاني، و تتفق مع أحدث النظريات و أهمها، أعني النظرية النسبية لـ«انشتين» التي اعتبرت الزمان و المكان من الأبعاد المقوّمة للشيء، قال ابن العربي: «... يتلو المحفوظ من القرآن فيجد في كل تلاوة معنى لم يجده في التلاوة الأولى، مع ان الحروف المتلوة هي هي بعينها، و انما الموطن و الحال تجدّد، و لا بد من تجدده، فان زمان التلاوة الأولى غير زمان التلاوة الثانية» .. و قوله: لا بد من تجدده يدل على إيمانه و ثقته بأن الشيء يتجدد و يتعدد بتجدد الزمن .. و صدق فيلسوف العصر «راسل»، حيث قال: ان القدامى استنبطوا من اجتهادهم و مجرد أفكارهم نظريات أثبت العلم صدقها و انها الرأي العلمي الصائب بينما لم تكن في ايامهم أكثر من اجتهاد مقترح.

٣- نظرت إلى الاسرائيليات التي جاءت في بعض التفاسير على انها خرافة و أساطير، و لا شيء أصدق في الدلالة على كذبها و زيفها من نسبتها الى (إسرائيل).

و أيضا تجاهلت ما جاء من الروايات في أسباب التنزيل إلا قليلا منها، لأن العلماء لم يمحصوا أسانيدها، و يميزوا بين صحيحها و ضعيفها، كما فعلوا بروايات الأحكام، حتى هذه قد تسامحوا في سند المستحب منها، و لم يدققوا إلا في سند الواجب و الحرام .. بل عقدوا بحثا مستقلا في كتب الأصول بعنوان التسامح بأدلة السنن و المستحبات.

تفسير الكاشف، ج١، ص ١٥

و أيضا لم أشغل نفسي و القارئ بذكر العلاقة و المناسبة بين الآيات و اتصال بعضها ببعض، كما فعل المفسرون، لأن القرآن لم يوح الى النبي (ص) جملة واحدة، و انما نزل منجما بين وقت يتابع أحيانا، و يبطئ أحيانا أخرى، و لم ترتب السور و الآيات في القرآن الذي نقرأه حسب نزولها. قال أحد العارفين بترتيب القرآن و بلاغته:

«رتب القرآن- كما هو بين أيدينا- سورا منذ أيام النبي (ص)، و قدمت في المصحف طوال السور على أوساطها و أوساطها على قصارها، و لم يراع في هذا الترتيب نزول السور و الآيات في مكة أو المدينة، و لا تاريخ نزول الآيات.

و نحن نجد البقرة و آل عمران و المائدة في أول المصحف بعد الفاتحة، مع انها مدنية .. و ربما وجدنا في السورة المدنية آيات نزلت بمكة، و في السورة المكية آيات نزلت بالمدينة».

و نقل صاحب تفسير المنار عن استاذه الشيخ محمد عبده في الجزء الثاني ص ٤٥١ طبعة ثانية انه قال:

«ليس القرآن كتابا فنيا، فيكون لكل مقصد من مقاصده باب خاص به، و انما هو كتاب هداية و وعظ، ينتقل بالإنسان من شأن من شئونه الى آخر، و يعود الى مباحث المقصد الواحد المرة بعد المرة، مع التفنن بالعبارة، و التنوع في البيان، حتى لا يمل تاليه و سامعه من المواظبة على الاهتداء».

٤- اعتمدت- قبل كل شيء- في تفسير الآية و بيان المراد منها- على حديث ثبت في سنة الرسول (ص)، لأنها ترجمان القرآن، و السبيل الى معرفة معانيه: «وَ ما آتاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ. وَ ما نَهاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا- الحشر ٧».

فإذا لم يكن حديث من السنة اعتمدت ظاهر الآية، و سياقها، لأن المتكلم الحكيم يعتمد في بيان مراده على ما يفهمه المخاطب من دلالة الظاهر، كما ان المخاطب بدوره يأخذ بهذا الظاهر، حتى يثبت العكس.

و إذا وردت آية ثانية في معنى الأولى، و كانت أبين و أوضح ذكرتهما معا، لغاية التوضيح، لأن مصدر القرآن واحد، ينطق بعضه ببعض، و يشهد بعضه على بعض.

و إذا تعارض ظاهر اللفظ مع حكم العقل و بداهته اوّلت اللفظ بما يتفق مع العقل باعتباره الدليل و الحجة على وجوب العمل بالنقل.

تفسير الكاشف، ج ١، ص ١٦

و إذا تعارض ظاهر اللفظ مع اجماع المسلمين في كل عصر و مصر على مسألة فقهية حملت الظاهر على الإجماع، كقوله تعالى: «إِذٰا تَدٰايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ» حيث دلت (اكتبوه) على الوجوب، و الإجماع قائم على استحباب كتابة الدين، فاحمل الظاهر على الاستحباب دون الوجوب ..

أما أقوال المفسرين فلم اتخذ منها حجة قاطعة، و دليلا مستقلا، بل مؤيدا و مرجحا لأحد الوجوه إذا احتمل اللفظ لأكثر من معنى. فلقد بذل المفسرون جهودا كبرى للكشف عن معاني القرآن و أسراره، و إبراز خصائصه و شوارده، و أولوا كتاب اللّه من العناية ما لم يظفر بمثلها كتاب في أمة من الأمم قديمها أو حديثها .. هذا و ان في المفسرين أئمة كبارا في شتى علوم القرآن التي كانت الشغل الشاغل للمسلمين في تاريخهم الطويل، فإذا لم تكن أقوال هؤلاء الأقطاب حجة، كقول المعصوم، فإنها تلقي ضوءا على المعنى المراد، و تمهد السبيل الى تفهمه.

الأخطاء المطبعية:

لا أذكر اني قرأت كتابا أخرجته المطابع قديما و حديثا، دون أن أجد فيه أغلاطا مطبعية، و أحسب اني لن أقرأ كتابا يخلو منها، و حرصت جاهدا ان أتجنبها في مؤلفاتي فلم أفلح .. و كنت من قبل لا أطيق أن أرى شيئا منها في كتاب أو مقال، ثم ألفتها بالتتابع و التكرار .. و الشيء الذي لم آلفه، و لم يكن لي بحسبان ان أرى هذه الأغلاط في كتابة المصحف الشريف، من ذلك- على سبيل المثال دون الحصر- ما جاء في بعض الطبعات (يبصط) بالصاد مكان يبسط بالسين و في كتابة القرآن المطبوع متنا في تفسير الرازي سنة ١٩٣٥ بمصر جاءت الآية ١٤٦ من سورة البقرة هكذا: «وَ إِنَّ فَرِيقاً مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَ هُمْ يَعْلَمُونَ». و الصواب و هم يعلمون، و مثل هذه الغلطة لا يتسامح بها.

و في تفسير المنار الطبعة الثانية، الآية ٢١٢ من سورة البقرة كتب قوله تعالى:

«و الذين اتقوا فوقهم الى يوم القيامة» و الصواب فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيٰامَةِ، و هذه الغلطة لا تقل فظاعة عن تلك .. و يعتذر المخطئ عندنا في جبل عامل بمثل مشهور: «الغلطة في كتابة المصحف». و في تفسير مجمع البيان طبعة العرفان الآية ١٥ من سورة الأحقاف كتب قوله تعالى- متنا- حتى «إذا بلغ أربعين سنة» و الصواب «حَتّٰى إِذٰا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَ بَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً».

تفسير الكاشف، ج ١، ص ١٧

و ليس الغرض من هذه الاشارة ان أعتذر سلفا عما يجده القارئ من أخطاء مطبعية في هذا الكتاب .. و ان كانت اشارتي هذه معذرة في واقعها، أردت، أو لم أرد، و انما غرضي الأول ان أقول لمن يفتح عينيه على خطأ اللفظ و لحنه، و يعمى عن اعراب المعنى و حسنه، أقول لهذا، و لمن قال لي ذات يوم: ان في كتبك أغلاطا مطبعية، و سكت عن غيرها، حتى

كأن لا شيء في مؤلفاتي الا الأخطاء المطبعية، أقول له: سامحك اللّه و عافاك، و هداني و إياك.

و كيف كان، فاني أعتذر من الأخطاء الفكرية و المطبعية أيضا .. «و الناس كلهم منقوصون مدخولون الا من عصم اللّه» كما قال الإمام أمير المؤمنين (ع) ..

و اللّه سبحانه المسئول أن يتقبل مني ما أصبت، و يتجاوز عما أخطأت بالنبي و آله، عليه و عليهم أفضل الصلوات، و أزكى التحيات.

تفسير الكاشف، ج١، ص ١٩

تمهيد

الاستعاذة

إذا قرأت القرآن:

قال تعالى: فَإِذٰا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطٰانِ الرَّجِيمِ- النحل ٨٩.

و قال: وَ إِمّٰا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطٰانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ- الاعراف ٢٠٠.

معنى الاستعاذة:

و هذه الاستعاذة التي ندب اللّه اليها لا تنحصر بقولك، «أعوذ باللّه من الشيطان الرجيم»، بل ان إطلاقها يشمل الثقة باللّه، و التوكل عليه، و الخوف منه، و ان لم يقترن باللفظ و القول .. فمن أقدم في المهمات معتقدا ان من ورائه قوة تمده و تعينه على العمل الصالح، و من مالت نفسه إلى فعل الحرام فصدها عنه طاعة للّه، و من مر به خاطر لا يدري: أ ربانيّ هو، أم شيطاني، و قبل تنفيذه عرضه على شريعة اللّه، و اتخذ منها مقياسا للاقدام، و الاحجام، كل أولاء مستعيذون باللّه حقا و واقعا من الشيطان الرجيم.

و لا ظاهرة أقوى و أدل على الاستعاذة باللّه، و اللجوء اليه من ثقة الإنسان بخالقه، موقنا بأن العبد لا يضر و لا ينفع، و انه لا شيء إطلاقا يغني عن عناية اللّه و رعايته .. فلقد علمتنا التجارب ان من اعتز بغير اللّه ذل، و ان من استجار

تفسير الكاشف، ج١، ص ٢٠

بسواه خاب، و ان الأماني لا تنال باللجوء الى الحكام، و لا الى السواد، و لا إلى خزائن الأغنياء، انها في اللّه وحده لا شريك له.

من هو الشيطان:

نحن لم نر الشيطان وجها لوجه، و لكن أخبر الوحي عنه فوجب التصديق، و لسنا مكلفين بالبحث و السؤال عن هويته و شكله، و عرضه و طوله .. أجل، لقد وصفه اللّه سبحانه في كتابه العزيز بالتصدى لغواية الناس، و صرفهم عن طاعة اللّه، و عمل الخير، و على هذا فكل خاطر، أو انسان يحول بينك و بين الطاعة و الخير، و يغريك بالمعصية و الشر، و يموه الأباطيل و الأضاليل، و يلبسها ثوب الهداية و الحقيقة فهو شيطان حسي أو معنوي.

و من الطريف ان شياطين الانس يتعوذون من الشيطان، و هم بذلك يتعوذون من أنفسهم، من حيث لا يشعرون، تماما كمن يقرأ القرآن، و القرآن يلعنه، كما جاء في الحديث الشريف .. ذلك ان القرآن يلعن الكاذب الخائن، فإذا قرأه هذا فقد نطق بلعنة اللّه على نفسه بنفسه .. و قال تعالى: «أُولٰئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللهِ وَ الْمَلاٰئِكَةِ وَ النّٰاسِ أَجْمَعِينَ».

الحكم:

الاستعاذة قبل قراءة القرآن مستحبة، و ليست بواجبة، و الأمر بها تماما كالأمر بغسل اليد و التسمية قبل الطعام، و لو كانت واجبة لوجبت في الصلاة، لمكان الفاتحة و السورة، مع ان الإجماع قائم على عدم الوجوب، قال صاحب مفتاح الكرامة: «لم يخالف في ذلك إلا ابن الجنيد، و قد رموه- أي الفقهاء- بالشذوذ و الغرابة».

منطق إبليس:

و بمناسبة الاستعاذة من الشيطان نشير الى بعض ما يعزى الى إبليس من الأساطير، لأنها صورة واضحة للكثير من أهل هذا العصر، بخاصة الانتهازيين من كل مهنة في مغالطاتهم و تلاعبهم بالألفاظ بقصد التمويه، و إخفاء الحقائق .. و قد تصرفنا

تفسير الكاشف، ج١، ص ٢١

بإنشاء الكلمات فقط مع الاحتفاظ بالمضمون و المحتوى.

قيل: ان إبليس قال للّه جل و عز: لا يجوز أن تعاقبني على ترك السجود لآدم.

قال سبحانه: و لم؟

قال: لو أردت السجود مني حقا لا جبرتني عليه قهرا.

قال تعالى: و متى علمت اني لم أرد منك السجود لآدم؟ هل علمت ذلك بعد أن أمرتك و عصيت أمري، أو قبل أن آمرك بالسجود؟

قال: بعد أن أمرتني.

قال عظمت كلمته: اذن لزمتك الحجة، لأنك خالفت و امتنعت قبل أن تعلم بأني أردت غير ما أظهرت .. هذا، و لو ألجأتك الى السجود قهرا لم يبق من داع للأمر به إطلاقا.

و تجد في منطق إبليس هذا صورة واضحة لمن يلقي جميع التبعات و المسئوليات على العناية الإلهية .. ان اللّه سبحانه لا يعامل المكلفين بارادة الخلق و التكوين، و على طريقة «كن فيكون» و انما يعاملهم بالإرشاد، و ارادة الطلب و التشريع التي يعبر عنها بالأمر و النهي.

و قيل: ان إبليس التقى ذات يوم بمحمد (ص)، فقال له: ان اللّه نعتك بالمرشد الهادي، و وصفني بالمضلل الغاوي .. و كل من الهداية و الغواية في يده، و ليس في يدك و يدي شيء.

قال الرسول الأعظم (ص): كلا، ان في يدي بيان الباطل و الزجر عنه، و الوعيد عليه، و في يدك الخداع و النفاق و الإغراء بالباطل، و في يد الإنسان القدرة و التمييز و الاختيار، فمن أحسن الاختيار فلنفسه، و من أساء فعليها.

و قيل: انه جاء الى عيسى (ع)، و قال له: ألا تزعم ان لك مكانا عليا عند اللّه؟ فألق بنفسك من شاهق لنرى: هل ينقذك من الهلاك؟

قال السيد المسيح: ان للّه ان يمتحن عبده، و ليس للعبد أن يمتحن ربه.

و قيل: انه قصد نوحا بعد أن غرق الناس، و جف الماء، و قال له يا نبي اللّه ان لك عندي يدا، و أريد مكافأتك عليها.

تفسير الكاشف، ج١، ص ٢٢

قال نوح (ع): استغفر اللّه أن يكون لي على مثلك يد «١».

قال إبليس: هو ما أقول لك.

قال نوح: ما هي يدي عليك؟

قال إبليس: دعوت على قومك بالهلاك، فهلكوا، و قد كنت من قبل مشغولا ليل نهار في اغوائهم، و تضليلهم .. و أنا الآن بعد هلاكهم في اجازة، لا أجد من أغويه.

قال نوح: بماذا تكافئني؟

قال: أنصحك أن لا تغضب، فما غضب انسان الا و هان عليّ انقياده، و لا تحكم بين اثنين، فإذا فعلت كنت ثالثا لكما، و لا تخل بامرأة و الا أغريتك بها، و أغريتها بك.

و يشعر هذا المنطق الشيطاني ان إبليس من أنصار الحرب، و انه يبارك الأسلحة الجهنمية.

و قيل: مرّ رسول اللّه (ص) و أصحابه برجل، يركع و يسجد، و يتضرع، فقالوا: يا رسول اللّه ما أحسن صلاة هذا العابد!

قال: هذا الذي أخرج أباكم من الجنة.

و تهدف هذه النادرة، أو الأسطورة الى ان الإنسان ينبغي له ألا يغتر، و ينخدع بمظاهر الزهد و التعبد.

و قيل: ان موسى (ع) كان ذاهبا يناجي ربه، فالتقى صدفة بإبليس، فقال له: الى أين يا كليم اللّه؟

قال: ذاهب الى ربي أتلقى كلمات منه .. و أنا على استعداد ان أتوسط لك لديه سبحانه، كي يعفو عنك إذا وعدتني بالإقلاع عن غيك و ضلالك.

قال إبليس: أنا لا استشفع بك و لا بسواك اليه .. بل هو عليه- استغفر اللّه- أن يطلب مرضاتي.

قال له موسى: قبحت من كافر لعين.

قال إبليس: و لم يا كليم اللّه؟ و أي ذنب لي؟ لقد طلب مني السجود لآدم،

---

(١) قيل لعالم صالح: ان فلانا يثني عليك، و كان فلان هذا معروفا بالفسق و الفجور، فقال العبد الصالح:

لا بد اني اقترفت سيئة، و الا فان مثله لا يثني على مثلي.

تفسير الكاشف، ج١، ص ٢٣

و أنا من شدة اخلاصي له لا أسجد لسواه .. و متى كان الإخلاص ذنبا؟

قال موسى: ان هذه مغالطات، و تلاعب بالألفاظ لا يغني عنك فتيلا، و سترى ما ذا سيحل بك غدا.

قال إبليس: و أنت أيضا سترى ما ذا سأفعل غدا ..

قال موسى: و ما أنت بفاعل؟

قال إبليس: أطالب اللّه بوعده، و أحتج بقوله: «ان رحمتي وسعت كل شيء» و أنا شيء، فوجب أن تتسع لي رحمته .. و إذا كنت أنا لا شيء فاللاشيء لا يحاسب و لا يعاقب.

قال موسى: ان رحمة اللّه تتسع لمن فيه الأهلية و القابلية لها، و أنت بعيد عنها كل البعد.

قال إبليس: اذن اسلك سبيلا آخر.

قال موسى: و أي سبيل تسلك؟

قال إبليس: أدعو من اتبعني من الغاوين، و أطلب منه تعالى أن يدعو هو من اتبعه من المؤمنين، و نجري الانتخاب و الاقتراع، و عندها يعرف من الفائز الحائز على أكثرية الأصوات، و إذا ألغى الانتخاب قمت مع جمعي بمظاهرة صاخبة حتى أبلغ ما أريد.

و هذه الاسطورة تهدف إلى أن أهل الباطل أكثر من أهل الحق عددا، لأن الحق ثقيل، و الباطل خفيف، كما قال أمير المؤمنين (ع)، و ان على العاقل أن لا يتخذ من منطق الأكثرية مقياسا للحق، و لا من منطق الأقلية ميزانا للباطل، كقاعدة كلية، و مبدأ عام، فلقد جاء في نهج البلاغة: «ان الفرقة أهل الباطل و ان كثروا، و الجماعة أهل الحق و إن قلوا».

و جاء في القرآن الكريم: و أكثرهم للحق كارهون، و في آية ثانية: و لكن أكثر الناس لا يعلمون، و في ثالثة: لا يشكرون، و في رابعة: لا يعقلون، و في خامسة: لا يؤمنون .. و في رواية إذا اجتمع أعوان إبليس ملأوا الخافقين.

و لهذه النصوص و غيرها كثير و كثير قال الشيعة: ان خليفة الرسول، تماما كالنبي يختاره اللّه، و يستخلفه على عباده، لا من اختاره الناس، و بايعوه، و قدموه لأنفسهم و على أنفسهم .. ان هذا ملك على الناس، و ليس بخليفة لرسول اللّه .. أما المرجع الديني الأول عند الشيعة فهو الذي يتحلى بالصفات التي نص

تفسير الكاشف، ج١، ص ٢٤

عليها صاحب الشريعة الأصيل، لا من ينتخبه الناس للدين، و لا من يعينه الحاكم الدنيوي بمرسوم .. كيف؟ .. و هل لأرباب الشهوات و الأهواء ان يؤتمنوا على دين اللّه؟ .. اذن فليختاروا و ينتخبوا الرسل و الأنبياء، و يفرضوهم على اللّه فرضا، و يلجئوه الى الاعتراف بهم الجاء .. تعالى اللّه عما يقول الظالمون علوا كبيرا ..

و النتيجة المنطقية ان خليفة الرسول لا يكون، و لن يكون إلا بالنص عليه من الرسول بالذات، و ان المرجع الأكبر في الدين من نص عليه بالصفات .. فمن تصدى لمنصب الخلافة بلا نص على اسمه، أو تصدى لمنصب المرجعية بلا نص على صفاته فهو مفتر على اللّه و رسوله .. و قد خاب من افترى.

و بعد، فان القضية، أية قضية، سواء أ كانت في الخلافة، أو في المرجعية، أو غيرها لا تصدق إلا إذا كانت انعكاسا عن الواقع، و ان التلاعب بالألفاظ لا يجعل المبطل محقا، و لا المحق مبطلا، و لا غير المعقول معقولا .. و ان دلت المقدرة على التبرير بالأقوال، لا بالحق و الواقع، ان دلت هذه المقدرة على شيء فإنما تدل على ان صاحبها تلميذ ناجح لإبليس في تمويه الحقائق، و تغطيتها بالطلاء المغشوش المزيف.

البسملة، و تحديد الإسلام بكلمة واحدة:

«/ بسم اللّه الرحمن الرحيم/» هذه الكلمة المقدسة شعار مختص بالمسلمين، يستفتحون بها أقوالهم و أعمالهم، و تأتي من حيث الدلالة على الإسلام بالمرتبة الثانية من كلمة الشهادتين: لا إله إلا اللّه، محمد رسول اللّه. أما غير المسلمين فيستفتحون باسمك اللهم، و باسمه تعالى، أو باسم المبدئ المعيد، أو باسم الأب و الابن و روح القدس و نحو ذلك.

و تحذف الهمزة من لفظة (اسم) نطقا و خطا في البسملة، و تكتب هكذا:

بسم اللّه الرحمن الرحيم، لكثرة الاستعمال، و تحذف الهمزة نطقا، لا خطا في غير البسملة، نحو سبح باسم ربك الأعلى، و اقسم باسم اللّه.

و لفظ الجلالة (اللّه) علم للمعبود الحق الذي يوصف بجميع صفات الجلال و الكمال، و لا يوصف به شيء .. و قيل: ان

للّه اسما هو الاسم الأعظم، و ان

تفسير الكاشف، ج١، ص ٢٥

الذي يعرفه تفيض عليه الخيرات، و تقع على يده المعجزات .. و نحن نؤمن و نعتقد بأن كل اسم للّه هو الاسم الأعظم، أي انه عظيم، لأن التفضيل لا يصح إطلاقا، لعدم وجود طرف ثان تسوغ معه المفاضلة ... و بكلمة ان المفاضلة تستدعي المشاركة و زيادة .. و الذي ليس كمثله شيء لا يشاركه أحد في شيء.

و الرحمن في الأصل وصف مشتق من الرحمة، و معناها بالنسبة اليه تعالى الإحسان، و بالنسبة إلى غيره معناها رقة القلب، ثم شاع استعمال الرحمن في الذات القدسية، حتى صار من أسماء اللّه الحسنى، قال تعالى: «قُلِ ادْعُوا اللهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمٰنَ أَيًّا ما تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْماءُ الْحُسْنىٰ». و على هذا فلك ان تعرب لفظة الرحمن صفة للّه بالنظر الى الأصل، و لك أن تجعلها بدلا بالنظر الى النقل.

الرحيم أيضا وصف مشتق من الرحمة، بمعنى الإحسان بالنسبة اليه جل و عز.

و فرّق أكثر المفسرين، أو الكثير منهم، بين لفظة الرحمن، و لفظة الرحيم بأن الرحمن مشتق من الرحمة الشاملة للمؤمن و الكافر، و الرحيم من الرحمة الخاصة بالمؤمن، و فرعوا على ذلك ان تقول: يا رحمن الدنيا و الآخرة، و ان تقول: يا رحيم الآخرة فقط دون الدنيا .. أما أنا فأقول: يا رحمن يا رحيم الدنيا و الآخرة: «أَ هُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ- الزخرف ٣٢».

و معنى «بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ» بجملة انك قد ابتدأت عملك مستعينا باللّه الذي وسعت رحمته كل شيء مسجلا على نفسك ان ما تفعله هو باسم اللّه، لا باسمك أنت، و لا باسم أحد سواه، تماما كما يقول موظف الدولة للرعايا: باسم الدولة عليكم كذا و كذا .. و ان عملك الذي باشرت هو حلال لا شائبة فيه لما حرم اللّه .. فان كان حراما، و فعلته باسم اللّه فقد عصيت مرتين في آن واحد، و فعل واحد: مرة لأنه حرام بذاته، و مرة لأنك كذبت في نسبته الى اللّه .. تعالى علوا كبيرا.

و البسملة جزء من السورة عند الشيعة الإمامية .. و قد أوجبوا الجهر بها فيما يجب الجهر فيه بالقراءة، كصلاة الصبح، و أوليي المغرب و العشاء، و يستحب الجهر بها فيما يخافت فيه بالقراءة، كأوليي الظهر و العصر، و يجوز الإخفات.

و قال الحنفية و المالكية: يجوز ترك البسملة في الصلاة كلية، لأنها ليست جزءا من السورة .. و قال الشافعية و الحنابلة: بل هي جزء لا تترك بحال، سوى ان الحنابلة قالوا: يخفت بها إطلاقا، و قال الشافعية: يجهر بها في الصبح، و اوليي العشاءين، و ما عدا ذلك إخفات .. و يتفق قول الشافعية و الحنابلة مع قول الإمامية.

تفسير الكاشف، ج١، ص ٢٦

و تجمل الاشارة الى أن اسم اللّه سبحانه و صفاته تتألف من هذه الحروف، و تلفظ و تكتب كغيرها من الكلمات، و مع هذا لها قدسية و أحكام خاصة بها، فلا يجوز أن يكتب شيء منها على ورق، أو غيره، أو بمداد، أو قلم نجس، و أيضا لا يجوز مسها الا للمطهرين.

و أفتى فقهاء الإمامية بكفر و ارتداد «من ألقى المصحف عامدا عالما في القاذورات و القمامة، أو ضربه برجله، أو مزقه اهانة و إعراضا، و نحو ذلك مما يدل على الاستهزاء بالشرع و الشارع».

و قال قائل: ان سورة الفاتحة تضمنت جميع معاني القرآن دون استثناء، و ان البسملة تضمنت جميع معاني الفاتحة، و ان

الباء من البسملة تضمنت جميع معاني البسملة، و بالتالي تكون الباء من بسم اللّه الرحمن الرحيم فيها معاني القرآن بكامله.

و هذا القائل أشبه بمن يحاول أن يدخل الكون بأرضه و سمائه في البيضة دون أن تكبر البيضة، أو يصغر الكون ..

تحديد الإسلام بكلمة واحدة:

قرأت في جريدة الجمهورية المصرية تاريخ ٢١ نيسان سنة ١٩٦٧ كلمة قال كاتبها ضياء الريس: انه قرأ مقالا في مجلة أدبية لكاتب عربي شهير، قال فيه: انه- أي الكاتب- حين كان عضوا في البعثة العلمية بالنكلترا اشتبك في نقاش حاد مع انكليزية مثقفة حول الإسلام و المسيحية، فقالت الانكليزية- متحدية جميع المسلمين بشخص الكاتب المسلم- اني ألخص مبادئ المسيحية كلها بكلمة واحدة، و هي المحبة، فهل تستطيع أنت- أيها المسلم- ان تأتي بكلمة تجمع مبادئ الإسلام؟ فأجابها الكاتب المسلم: أجل، انها كلمة التوحيد.

و بعد ان نقل الريس هذا الحوار قال: لم يكن الجواب موفقا، و ذكر أسبابا وجيهة و صحيحة تدعم حكمه على الكاتب بعدم التوفيق، و بعد ان انتهى الريس من حكمه و أسبابه الموجبة قال: لو وجه الي هذا السؤال لأجبت بأن هذه الكلمة هي الرحمة، و استدل على صحة جوابه هذا بالعديد من الآيات و الروايات مبتدئا ببسم اللّه الرحمن الرحيم .. الى و ما أرسلناك الا رحمة للعالمين .. الخ و صدق الريس في قوله: ان الكاتب لم يكن موفقا في جوابه .. و لكن الريس أيضا لم يكن موفقا في اختياره كلمة الرحمة، لأنه لم يزد شيئا على ما قالته الانكليزية، حيث أخذ كلمة المحبة منها، و ترجمها الى كلمة الرحمة، و على هذا لا يكون للإسلام أية ميزة على المسيحية.

تفسير الكاشف، ج ١، ص ٢٧

و لو كنت حاضرا مع البعثة العلمية بانكلترا لأجبت بكلمة «الاستقامة» فإنها الكلمة الجامعة المانعة الشاملة للاستقامة في العقيدة بما فيها التوحيد و التنزيه عن الشبيه، و أيضا تشمل الاستقامة في الأعمال و الأخلاق و الأحكام و جميع التعاليم بما فيها الرحمة و المحبة و التعاون. ان الرحمة من مبادئ الإسلام، و ليست الإسلام بكامله، كما ان التوحيد أصل من أصوله، لا أصوله بأجمعها.

و بما ان الاستقامة تجمع المحبة و الرحمة و التوحيد، و سائر الأصول الحقة، و الأعمال الخيرية، و الأخلاق الكريمة المستقيمة، و بما انها المقياس الصحيح للفضيلة و الكمال الذي يبلغ بالإنسان الى سعادة الدنيا و الآخرة .. لذلك كله أمرنا أن نكرر في صلاتنا صباح مساء: «اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ» .. و قال عز من قائل مخاطبا نبيه الأكرم (ص): فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ، وَ مَنْ تَابَ مَعَكَ، وَ لاٰ تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمٰا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ- هود ١١٣». و قال: «إِنَّ الَّذِينَ قٰالُوا رَبُّنَا اللّٰهُ ثُمَّ اسْتَقٰامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلاٰئِكَةُ أَلاّٰ تَخٰافُوا وَ لاٰ تَحْزَنُوا وَ أَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ- فصلت ٣٠».

و لا شيء أدل على ان الاستقامة هي الكل في الكل من قول إبليس اللعين:

«لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرٰاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ».

و جاء في الحديث الشريف: «قال سفيان الثقفي: يا رسول اللّه قل لي في الإسلام قولا لا اسأل عنه أحدا بعدك. قال رسول اللّه: قل: آمنت باللّه، ثم استقم».

و اختصارا ان معنى الاستقامة أن نقف عند حدود اللّه، و لا ننحرف عن الحق الى الباطل، و عن الهداية الى الضلال، و ان نسير بعقيدتنا و عاطفتنا، و جميع أقوالنا و أفعالنا على الصراط المستقيم، صراط الذين أنعم اللّه عليهم غير المغضوب

عليهم و لا الضالين.

تفسير الكاشف، ج١، ص ٢٩

الجزء الأوّل في سورة الحمد و سورة البقرة

تفسير الكاشف، ج١، ص ٣١

الفاتحة

«بسم اللّه الرّحمن الرّحيم»

[سورة الفاتحة (١): الآيات ١ الى ٧]

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ (١)
الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعٰالَمِينَ (٢) الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ (٣) مٰالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (٤) إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَ إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (٥)
اهْدِنَا الصِّرٰاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦) صِرٰاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَ لا الضّٰالِّينَ (٧)

النزول:

اختلفوا في مكان نزولها، فقيل: في مكة المكرمة. و قيل: بل في المدينة.

و قال ثالث: نزلت مرتين: في مكة أولا، و في المدينة ثانية تأكيدا لأهميتها، و مبالغة في تشريفها. و أكثر المفسرين على انها نزلت في مكة.

و هذا الخلاف عقيم لا فائدة له، لأن هذه السورة الكريمة لا تحتوي على آية يختلف معناها باختلاف النزول.

تفسير الكاشف، ج١، ص ٣٢

الأسماء:

ذكروا لها أسماء عديدة، أشهرها:

١- الفاتحة، لأنها أول سورة في كتابة المصاحف، و لوجوب قراءتها في أول الصلاة .. هذا الى ان التعليم على وجه العموم كان يفتتح أول ما يفتتح بها ايام زمان.

٢- الحمد، لأنه أول لفظها.

٣- أمّ الكتاب، و أمّ القرآن، لأنها متقدمة على غيرها من السور، و لو كتابة .. تقدم الأم على أبنائها، و لأنها اشتملت على أصلين: ذكر الربوبية و العبودية، و عليهما ترتكز تعاليم القرآن.

٤- السبع المثاني، لأنها سبع آيات، و بقراءتها يثنى في الصلاة، أو لأنها جمعت بين ذكر الربوبية و العبودية.

و منهما يكن، فان التسمية تصح لأدنى شبه.

[سورة الفاتحة (١): آية ٢]

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعٰالَمِينَ (٢)

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعٰالَمِينَ:

هذه الجملة إخبار بمعنى الإنشاء، لأن المتكلم قصد احداث الحمد للّه، لا الأخبار عن ثبوت الحمد للّه .. و هي تلقين و تعليم من اللّه لعباده: كيف يحمدونه أي قولوا يا عبادي: الحمد للّه.

و معنى الحمد للّه الثناء عليه سبحانه بقصد التعظيم و التبجيل على كل حال، حتى على الضراء، قال أمير المؤمنين (ع) في بعض خطب النهج: «نحمده على آلائه، كما نحمده على بلائه».

و محمد و أحمد و محمود و حامد و حميد و حمدان أسماء مأخوذة من الحمد .. و قد يأتي الحمد وصفا للشيء الذي ترضى عنه، قال تعالى: «عَسىٰ أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقاماً مَحْمُوداً- الاسراء ٧٩» .. و قالوا: حمد السوق من ربح .. و عند الصباح يحمد القوم السرى.

تفسير الكاشف، ج ١، ص ٣٣

و لفظ الرب يطلق على السيد و المالك، و كل من المعنيين يصح ارادته هنا، و لكن معنى الخالق هو المتبادر من لفظ هذه الآية الكريمة.

و العالمين جمع عالم بفتح اللام، و العالم يطلق على نوع خاص من الكائنات، فيقال: عالم الجماد، و عالم النبات، و عالم الحيوان، و عالم الإنسان، و لا يطلق لفظ عالم على المفرد، لأنه اسم للجمع .. و المراد بالعالمين هنا كل ما عدا اللّه سبحانه، فيعم جميع الكائنات .. و قد يطلق على جميع أصناف الناس، كقوله:

«هُدىً لِلْعالَمِينَ- آل عمران ٩٦» .. و إذا صح جمع العالمين بالياء نصبا و جرا فينبغي أن يصح جمعه بالواو رفعا، فيقال: العالمون .. و قال أبو حيان الأندلسي في تفسير البحر المحيط: انه شاذ.

و معنى رب العالمين خالق كل شيء و مدبره، و لفظ رب بدل كل من لفظ الجلالة، و يشعر بالعلية، أي اني أحمد اللّه، لأنه رب العالمين.

[سورة الفاتحة (١): آية ٣]

الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ (٣)

الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ:

مر الكلام عن لفظ الرحمن و الرحيم في فصل البسملة.

و من أقوال أمير المؤمنين (ع) في وصف اللّه جل و عز قوله: «لا يشغله غضب عن رحمة، و لا تلهيه رحمة عن عقاب» .. و الذي فهمته من هاتين الجملتين ان غضب اللّه على العاصين، و عقابهم غدا- لا يمنعه عن رحمتهم في هذه الحياة التي يتمتعون بنعيمها، و يتقلبون في ملذاتها، و ان رحمته غدا للمؤمنين لا تدفع عنهم البلاء و الأسواء في هذه الحياة.

[سورة الفاتحة (١): آية ٤]

مٰالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (٤)

مٰالِكِ يَوْمِ الدِّينِ:

للفظ الدين معان شتى، منها المكافأة و الجزاء، مثل كما «تدين تدان».

و هذا المعنى يناسب المقام، حيث تجازى في ذاك اليوم كل نفس بما كسبت ..

و قرئ «مٰالِكِ يَوْمِ الدِّينِ» بالألف، كما تقول: فلان مالك هذا البستان بمعنى الاختصاص .. و قرئ «ملك يوم الدين» بكسر اللام، كما تقول:

ملك اليونان بمعنى الحكم و السلطة، و القراءتان متواترتان، و الأولى أكثر استعمالا.

و المعنى المنساق إلى الذهن واحد على كلتا القراءتين، و هو ان كل شيء بيد اللّه وحده اليوم و غدا، فهو رب العالمين، و رب يوم الدين، و الغرض التخويف من المعصية، و الترغيب في الطاعة.

تفسير الكاشف، ج ١، ص ٣٤

و على القراءة الأولى يكون «مالك» وصفا، و على القراءة الثانية يكون «ملك» بدلا.

و في نهج البلاغة: إنّا لا نملك مع اللّه شيئا، و لا نملك الا ما ملّكنا، فمتى ملّكنا ما هو أملك به منا كلّفنا، و متى أخذه منا وضع تكليفه عنا.

[سورة الفاتحة (١): آية ٥]

إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَ إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (٥)

إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَ إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ:

إياك ضمير منفصل، و محله النصب مفعولا للفعل الذي بعده، و قدم للحصر و الاختصاص .. و المعنى نعبدك، و لا نعبد سواك، و نستعين بك، لا بغيرك، و خاطب العبد ربه بضمير المفرد إخلاصا في التوحيد، و تنزيها عن الشريك، و من أجل هذا لا يخاطب الواحد القهار بصيغة الجمع .. أما ضمير نحن في نعبد و نستعين فللمتكلم و من معه، لا للتعظيم.

و تتحقق العبادة بالصوم و الصلاة، و الحج و الزكاة لوجه اللّه تعالى، و أيضا تتحقق بكل عمل انساني يسد حاجة من حاجات الناس، فلقد جاء في الحديث:

«أهل المعروف بالدنيا أهل معروف في الآخرة .. خير الناس أنفع الناس للناس».

و ليس معنى «إِيَّاكَ نَعْبُدُ، وَ إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ» ان اللّه أهل للعبادة و كفى، بل تدل الآية أيضا على ان الإنسان مخلوق كريم حرره اللّه من العبودية و الخضوع إطلاقا إلا للحق الذي يعلو على كل شيء، و لا يعلو عليه شيء .. و بديهة ان الحرية التي لا يحدها الحق تنعكس الى فوضى .. و مما قرأته في هذا الباب قول جان بول سارتر: «ان التحرر الحقيقي ان يلتزم الإنسان بوضع نفسه و حريته في خدمة الآخرين» «١».

---

(١) معنى الوجودية التي كان يقول بها سارتر ان كل فرد من افراد الإنسان هو في عزلة و استقلال عن غيره، و انه لا شيء بالنسبة اليه إلا وجوده وحده، و لا يتحقق له وجود إلا إذا انطلق مع حريته، دون قيد أو شرط ... أما الدين و المبادئ و المعايير و المقاييس فكلام فارغ، فلا خير إلا خير الفرد نفسه، و لا شر إلا شره بالذات ... و يستدل سارتر على ذلك بأن الإنسان أتى من عالم مجهول، و يذهب إلى عالم مجهول و انه وجد قبل القوانين العقلية و الدينية، و من استسلم لدين من الأديان، أو لمبدإ من المبادئ فقد قيد نفسه، و تنازل عن حريته، و بالتالي عن وجوده .. ثم عدل سارتر عن فلسفته هذه، و اعتنق «حرية أعظم، و هي الحرية من أجل الملايين، و ان الإنسان يكسب نفسه حينما يضعها في خدمة الآخرين، و ان الإنسان الحقيقي هو الذي يلتزم بهذا المبدأ» .. و بعد أن كان سارتر يتكلم عن الفرد و يدافع عنه أصبح يتكلم عن الشعوب و يدافع عنها.

و قيل: ان اثنين كانا يتنزهان في حديقة، و مع أحدهما قضيب يلعب به، فمس طرف القضيب أنف الآخر، و لما اعترض هذا قال صاحب القضيب: أنا حر، فقال له صاحبه: لحريتك حد ينتهي عند أنفي.

و لا أعدو الحقيقة إذا حددت الحرية بالايمان باللّه، و التعبد له وحده لأن من تعبد للحق دون سواه فقد تحرر من الباطل و من تحرر من عبادة الحق فقد عبد الباطل حتما، و التفكيك محال إلا عند فوضوي، لا يؤمن بحلال و لا بحرام، و لا بشيء على الإطلاق إلا بنفسه وحدها لا شريك لها.

[سورة الفاتحة (١): آية ٦]

اهْدِنَا الصِّرٰاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦)

اهْدِنَا الصِّرٰاطَ الْمُسْتَقِيمَ:

الصراط في اللغة الطريق المحسوس، و فيه قراءتان بالسين و الصاد، و السين هي الأصل، و المستقيم المعتدل الذي لا عوج فيه و هو صفة للصراط، و المراد بالصفة و الموصوف هنا الحق.

و ليس المراد بالهداية مجرد العلم، بل العلم مع التوفيق الى العمل، فمن دعا لك بالهداية فقد دعا لك بالخير كل الخير، و من دعا لك بالعلم فقد دعا لك ببعض الخير .. و الغريب ان أكثر الناس يثقل عليهم الدعاء بالهداية، بخاصة العلماء و الكبراء مع العلم بأن الرسول الأعظم (ص) كان يكرر الدعاء بها ليل نهار في صلواته و غيرها.

و لست أعرف هداية و توفيقا أفضل و أعظم من أن يكتشف الإنسان عيوب نفسه بنفسه، و يشعر بالتأنيب و وخز الضمير من أجلها .. و بهذا الشعور يمكن النجاة و الخلاص، أعاذنا اللّه من الغرور و أسوائه.

[سورة الفاتحة (١): آية ٧]

صِرٰاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَ لا الضَّالِّينَ (٧)

صِرٰاطَ الَّذِينَ:

جاء في بعض الروايات ان المغضوب عليهم هم اليهود، و الضالين هم النصارى، و لكن لفظ الآية عام لا تخصيص فيه، و لا استثناء، فكل مطيع تشمله نعمة اللّه و رحمته، و كل عاص ضال و مغضوب عليه.

تفسير الكاشف، ج ١، ص ٣٦

و مهما يكن، فان الغرض من هذه الآية، و من سورة الفاتحة بكاملها ان يقف العبد بين يدي سيده مؤمنا موحدا، و شاكرا حامدا، و مخلصا و داعيا ان يوفقه لمرضاته علما و عملا.

و كل انسان واجد عند خالقه ما قدم من عمل، أما الأقوال فلا أثر لها إلا ان تقرّب من طاعة، أو تبعد عن معصية.

تفسير الكاشف، ج ١، ص ٣٧

سورة البقرة

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

[سورة البقرة (٢): الآيات ١ الى ٣]

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

الم (١) ذٰلِكَ الْكِتٰابُ لاٰ رَيْبَ فِيهِ هُدىً لِلْمُتَّقِينَ (٢)

فواتح بعض السور، و القرآن و العلم الحديث:

قال صاحب مجمع البيان هي مدنية كلها الا قوله تعالى: وَ اتَّقُوا يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللهِ.

[سورة البقرة (٢): آية ١]

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

الم (١)

الم:

اختلفوا فيما هو المقصود منها، و من فواتح بعض السور، مثل الر، و كهيعص، و حم، و ما اليها .. فقيل: هو من علم الغيب الذي لم يظهر اللّه عليه أحدا.

و يلاحظ بأن اللّه سبحانه لا يخاطب الناس بأشياء لا يريد أن يعرفوها و يطلعوا عليها .. كيف، و الغيب هو السرّ المكنون؟! بالاضافة إلى انه قد ندد بالذين لا يتدبرون القرآن في الآية ٢٤ من سورة محمد: «أَ فَلاٰ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلىٰ قُلُوبٍ أَقْفٰالُهٰا».

و قيل: ان هذه الفواتح أسماء للسورة و قيل: بل هي أسماء للّه. و قيل:

بل لمحمد (ص). و قيل غير ذلك.

و أقرب الأقوال إلى الواقع و الفهم ان اللّه سبحانه بعد أن تحدى بالقرآن الجاحدين و المعاندين و عجزوا عن الإتيان بمثله، أو بعشر سور مثله، أو بسورة

تفسير الكاشف، ج ١، ص ٣٨

واحدة، بعد هذا أشار بذكر هذه الحروف (الم) و نحوها إلى ان هذا الكتاب المعجز مؤلف من جنس هذه الحروف التي هي في متناول الأطفال و الجهال ..

فعجزكم- اذن- دليل قاطع على ان هناك سرا و لا تفسير لهذا السر الا ان هذا القرآن من وحي السماء، لا من صنع الأرض.

[سورة البقرة (٢): آية ٢]

ذٰلِكَ الْكِتٰابُ لاٰ رَيْبَ فِيهِ هُدىً لِلْمُتَّقِينَ (٢)

ذٰلِكَ الْكِتٰابُ الآية ٢:

ذلك اسم اشارة، و محله الرفع بالابتداء، و الكاف للتعظيم، لا للبعد، كقولك: أنا ذلك الرجل .. و المراد بالكتاب القرآن. و بنفي الريب عنه انه كتاب حق و صدق .. و عجزهم عن صياغة مثله يستدعي ان لا يرتابوا فيه إطلاقا لو كانوا طلاب حقيقة.

القرآن و العلم الحديث:

قوله تعالى: «**هُدىً لِلْمُتَّقِينَ**» فيه دلالة واضحة على ان القرآن لا يلتمس فيه علم التاريخ، و لا الفلسفة، و لا العلوم الطبيعية و الرياضية، و ما اليها، و انما يلتمس فيه هداية الإنسان، و إرشاده الى صلاحه و سعادته في الدارين .. و بكلمة ان القرآن كتاب دين و أخلاق و عقيدة و شريعة.

و تسأل: و ما ذا أنت صانع بالآيات الكونية: «و الشمس تجري لمستقر».

و القمر قدرناه منازل .. و ما إلى ذلك من عشرات الآيات؟.

الجواب: لم يكن الغرض من هذه الآيات ان يبين اللّه لنا ما في الطبيعة من حقائق علمية، كلا، فان ذلك موكول الى عقل الإنسان و تجاربه، و انما الهدف الأول من ذكرها أن نسترشد بالكون و نظامه الى وجود اللّه سبحانه، و انه لا شيء من هذه الكائنات وجد صدفة، و من غير قصد كما يزعم الماديون، بل وجد بارادة عليمة حكيمة، و قد بين اللّه ذلك صراحة في قوله تعالى: «سَنُرِيهِمْ آياتِنا فِي الْآفاقِ وَ فِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ- ٥٣ حم السجدة». أي سنكشف للكافرين باللّه عن تدبير الكون و أحكامه ما يعلمون معه انهم على ضلال ..

تفسير الكاشف، ج ١، ص ٣٩

ان القرآن حين يدعو الى النظر في الكون فانه يقول بلسان مبين ان دلائل الكون أصدق حجة، و أقوى دلالة على وجود اللّه من كل شيء، حتى من الدور و التسلسل. قال بعض الحكماء: ان للّه كتابين: كتابا يتلوه اللسان، و كتابا يتلوه العقل، و هو الكون.

أجل، ان القرآن حث على دراسة العلوم الطبيعية، و كل علم يعود على الانسانية بالخير و الهناء، و لكن حثه على العلم شيء، و كونه كتابا في العلوم شيء آخر.

و أيضا لا يشك عارف بالقرآن و آياته ان معانيه لا تحصيها كثرة، و لا يحيط بها عقل بالغا ما بلغ من العظمة، و انما يدرك منها كل عالم ما تتسع له مؤهلاته و مواهبه، و هي عميقة إلى أبعد الحدود، فإذا اكتشف عالم معنى منها فانه يكتشف طرفا من أطرافه، وجهة من جهاته يستعين بها على معرفة بعض ما يحويه الكون ..

و لكن هذا شيء، و الحقائق العلمية التي يستنتجها الاخصائيون في مختبراتهم شيء آخر.

«ملحوظة»: اني ما مضيت في تفسير القرآن إلا قليلا، حتى أيقنت ان أي مفسر لا يأتي بجديد لم يسبق اليه، و لو بفكرة واحدة في التفسير كله يخالف فيها من تقدمه من أهل التفسير، ان هذا المفسر لا يملك عقلا واعيا، و انما يملك عقلا قارئا يرتسم فيه ما يقرأه لغيره دون محاكمة، أو تقليم و تطعيم، تماما كما يرتسم الشيء في المرآة على ما هو من لون و حجم .. و أيضا اكتشفت من تفسيري للقرآن ان معانيه لا يدركها، و لن يدركها على حقيقتها إلا المؤمن حقا الذي اختلط الإيمان بدمه و لحمه .. و انسجم مع أهداف القرآن انسجاما كاملا. و هنا يكمن السر في قول الإمام أمير المؤمنين: ذلك القرآن الصامت، و أنا القرآن الناطق.

و مما يعزز و يؤيد ان القرآن أولا و قبل شيء هو كتاب هدى و دين و شريعة و أخلاق و انه أنزل لأجل هذه الغاية قوله تعالى:

«كِتابٌ أَنْزَلْناهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ».

و قوله: «هذا بَصائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَ هُدىً وَ رَحْمَةٌ» .. و كفى دليلا على ذلك قول الرسول الأعظم (ص) انما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق. و قال الإمام

تفسير الكاشف، ج ١، ص ٤٠

أمير المؤمنين (ع) في الخطبة ١٧٤ من خطب النهج: «ان في القرآن شفاء من أكبر الداء، و هو الكفر و النفاق، و الغي و الضلال». و بهذا نجد تفسير قوله تعالى: «وَ نُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ ما هُوَ شِفاءٌ وَ رَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَ لا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلاَّ خَساراً- ٨٢ الأسرى» .. و عسى أن يتعظ بقول الإمام (ع) من يطلب الشفاء لأوجاعه الجسمية بتلاوة هذه الآية إلا أن يضيف اليها

(روشتة) الطبيب.

و تسأل مرة ثانية و ما ذا تقول بهذه الآية: «ما فَرَّطْنا فِي الْكِتابِ مِنْ شَيْءٍ- ٣٨ الانعام». حيث دلت بظاهرها على أن في القرآن جميع العلوم؟.

الجواب: ان عموم كل شيء بحسبه، فإذا قلت: هذا البيت فيه كل شيء فهم منه ان فيه ما تدعو اليه حاجة المقيم فيه من مؤنة و أثاث .. و إذا قلت عن كتاب فقهي: فيه كل شيء. فهم منه جميع المسائل الفقهية .. و القرآن كتاب دين، و عليه يكون معنى ما فرطنا في الكتاب من شيء يتصل بخير الإنسان و هدايته.

سؤال ثالث: و ما قولك في هذه الكتب التي تحمل اسم القرآن و العلم الحديث، و الإسلام و الطب الحديث، و ما الى هذا؟.

الجواب: أولا ان كل من يحاول الملاءمة بين مستكشفات العلم قديما كان أو حديثا، و بين القرآن الكريم فانه يحاول المحال .. ذلك ان علم الإنسان محدود بطاقته العقلية، و القرآن من علم اللّه الذي لا حد له .. فكيف تصح الملاءمة بين المحدود، و غير المحدود؟.

ثانيا: ان علم الإنسان عرضة للخطأ، لأنه عبارة عن نظريات و فروض تخطئ و تصيب. و كم رأينا العلماء يجمعون على نظرية، و انها صحيحة مائة بالمائة ثم اكتشفوا، أو من جاء بعدهم من العلماء انها خطأ مائة بالمائة .. و القرآن معصوم عن الخطأ .. فكيف تصح الملاءمة بين ما هو عرضة للخطأ، و بين المعصوم عنه؟ ثم هل نستمر في تأويل نصوص القرآن، و نحملها ما لا تتحمل كلما نسخت أو عدلت فروض العلم و نظرياته؟

أجل، لا بأس أن نستعين بما يكتشفه العلم من حقائق على فهم بعض الآيات، على شريطة أن لا نجعلها مقياسا لصدق القرآن و صحته، بل وسيلة

تفسير الكاشف، ج ١، ص ٤١

للتعرف على أسراره و حكمة بعض أحكامه .. و من الجائز ان يكون هذا ما قصد اليه الذين كتبوا و ألفوا في القرآن و العلم الحديث.

و مهما يكن، فنحن على يقين راسخ بأننا أقوياء في ديننا، أغنياء فيما لدينا من البراهين على صدقه .. و لسنا أبدا بحاجة الى ما عند الغير، بل نعتقد ان الغير بحاجة إلينا في ذلك .. ان البشرية في تاريخها كله لم تعرف، و لن تعرف دينا أصلح لها من دين الإسلام، و لا كتابا أنفع من كتابه، و لا نبيا أعظم من نبيه، و من لم يهتد بدلائل القرآن، و دعوته الى الحياة الطيبة فلا تقنعه الكشوف العلمية قديمة كانت أو حديثة. و خطر في بالي الآن شيء .. ربما خفف عن القارئ وطأة الملل من القراءة، و أغراه في المضي، كما انه يصلح- على ما أظن- ردا على من يحاول تطبيق القرآن على العلم الحديث، و هذا هو الخاطر:

مر عزير على قرية خاوية على عروشها، و كان معه حماره، و طعامه، و شرابه، فتعجب و استغرب، و قال: انّى يحيي هذه اللّه بعد موتها؟! و أراد اللّه أن يزيل استغرابه، و استبعاده فأماته مائة عام، و أبقى طعامه و شرابه طوال هذه المدة على حالهما دون أن ينالهما تغير و فساد .. و لما أحيا اللّه عزيرا و أراد أن يريه من آياته عجبا قال له: أنظر الى طعامك و شرابك لم يتسنه، أي لم يتغير.

فهل يا ترى كان طعام عزير و شرابه في ثلاثة؟! السؤال موجه لصاحب القرآن و العلم الحديث .. و ليس من شك ان هذه

الثلاجة التي حفظت الطعام و الشراب مائة عام ليس من شك انها من موديل سنة الألفين، لا موديل سنة الـ ٦٧.

أجل، ان فهم معاني القرآن الكريم يمكن تطبيقه على العلم الحديث، و بصورة خاصة على النظرية النسبية .. ذلك ان الفهم لجهة من جهات معنى من معانيه الدقيقة العميقة يختلف باختلاف زمن التلاوة و مكانها، و حال من يتلو أو يسمع.

و ان قال قائل: ان هذا الاختلاف لا يختص بالفهم لتلاوة القرآن وحده، لأن النظرية النسبية عامة لا تقبل التخصيص.

قلنا في جوابه: هذا صحيح، و لكن لمعاني القرآن استعدادا لذلك لا يوجد في غيرها .. و هذا يعزز ملاحظتنا بأن من يقف عند قول المفسرين، لا يتعداه و لو في تفسير آية واحدة فهو قاصر يملك عقلا قارئا، لا عقلا واعيا .. و اللّه سبحانه المسئول أن يجعل فهمنا لآياته فهم وعي و دراية، لا فهم نقل و رواية.

تفسير الكاشف، ج ١، ص ٤٢

و «**لِلْمُتَّقِينَ**» أوله واو، لأنه وقي وقاية، ثم قلبت الواو تاء، و الوقاية في اللغة مطلق الصيانة و التحفظ، و في الشريعة الوقاية من سخط اللّه و عقابه على ترك واجب، أو فعل محرم، قال أمير المؤمنين (ع): التقى رأس الأخلاق.

و قال بعضهم: التقى ان لا يراك اللّه، حيث نهاك، و لا يفقدك، حيث أمرك، و بالتقوى وحدها يكون التفاضل عند اللّه: «إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقاكُمْ».

و تسأل: ان المتقين مهتدون، فلا يحتاجون الى من يهديهم، تماما كما لا يحتاج العالم الى من يعلمه؟.

الجواب: ان المعلم يلقي دروسه على جميع الطلاب، الأذكياء و البلداء، و لكن الذين ينتفعون بالمعلم هم الأذكياء المجتهدون الذين تكون عاقبتهم الى النجاح، و عليه يصح أن يقال: ان المعلم هو معلم الناجحين، و كذا القرآن الكريم، فانه قد خاطب الجميع دون استثناء، و لكن الذين انتفعوا به هم الذين صاروا من المؤمنين المتقين، و من أجل هذا خصهم بالذكر، على ان المتقي يستمر و يزداد. تقى بالقرآن: «وَ الَّذِينَ اهْتَدَوْا زادَهُمْ هُدىً».

[سورة البقرة (٢): الآيات ٣ الى ٥]

الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَ يُقِيمُونَ الصَّلاٰةَ وَ مِمَّا رَزَقْنٰاهُمْ يُنْفِقُونَ (٣) وَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمٰا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَ مٰا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (٤) أُولٰئِكَ عَلىٰ هُدىً مِنْ رَبِّهِمْ وَ أُولٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٥)

الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ الآية ٣- ٥:

العالم بكل شيء لا مكان له:

قيل: ان عالما كان يجلس في مكان الصدارة، و الناس من حوله يستمعون

تفسير الكاشف، ج ١، ص ٤٣

له، و يخشعون، فحسده منافس له في المهنة، فقال له بمسمع من الجميع:

ما قولك بكذا؟ و سأله مسألة أشبه بالطلاسم.

فقال العالم: لا أعلم.

قال السائل: ان المكان الذي أنت فيه لمن يعلم، لا لمن لا يعلم.

قال العالم: ويلك، ان هذا المكان لمن يعلم شيئا و لا يعلم أشياء، و الذي يعلم كل شيء لا مكان له.

أجل، ان الإنسان يستحيل أن يحيط بكل شيء علما: «وَ مٰا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلاّٰ قَلِيلاً».

المعرفة:

لا أحد من الناس يخلق عالما بشيء من الأشياء، و انما تتجدد له المعرفة آنا بعد آن بسبب من أسبابها، حتى اسمه العلم لا يعرفه إلا بعد أن ينادى به أكثر من مرة، و قد ذكر أهل الاختصاص للمعرفة أسبابا، منها:

١- أن يتلقى الإنسان معلوماته من إحدى حواسه الخمس، كمعرفته الألوان بالبصر، و الأصوات بالسمع، و الروائح بالأنف، و الطعوم بالذوق، و الصلابة و ما اليها باللمس .. و مثلها ما يتصوره الإنسان عن طريق مشاعره الباطنية، كالجوع و الشبع، و الحب و البغض.

٢- أن يتلقى معارفه من المراقبة و التجربة.

٣- أن يتلقاها بالبديهة، أي أن يشترك في معرفتها جميع العقلاء مثل: واحد و واحد اثنان، و الأشياء المساوية لواحد متساوية، و الشيء النافع خير من الضار، أو يتلقاها من إعمال الفكر و اجتهاد العقل الذي يتلقاها بدوره من الحواس، أو التجربة أو البديهة، مثل الحكم على كل قطعة من قطع الحديد بأنها جسم صلب، فان هذا الحكم على كل قطعة ما وقع منها في خبرة الحس، و ما لم يقع، ان هذا الحكم لا يعتمد على اختبار كل القطع الحديدية، و انما اعتمد على مجرد تصور العقل و تنبؤه بوجود قدر جامع بين جميع قطع الحديد، و على هذا يكون الحكم الشامل عقليا لكنه استخرج من المعرفة التي تستند الى التجربة.

تفسير الكاشف، ج١، ص ٤٤

٤- أن لا يتلقى معلوماته من الحس، أو التجربة، أو القوة العقلية، بل يتلقاها مباشرة و بلا واسطة. و ذلك بعد جهاد النفس لتنقيتها من الشوائب كما يقول المتصوفة .. و بكلمة أوضح ان القلب عند المتصوفة تماما كالعقل عند غيرهم فكما ان العقل يدرك بعض الأشياء بالبديهة، و من غير نظر، و البعض يدركه بالاجتهاد و النظر كذلك القلب، فانه يشعر بأشياء من غير حاجة الى جهاد النفس، كشعوره بالحب و البغض و البعض يشعر به بعد جهاد النفس، كوجود الباري و صفاته، فالاجتهاد العقلي عندنا يقابله جهاد النفس عند المتصوفة.

و لا أحد يستطيع أن يناقش الصوفي في آرائه و معتقداته، لأنك إذا سألته عن الدليل يجيبك بأن ايماني و علمي ينبع من ذاتي وحدها .. و إذا قلت له:

و لما ذا لا ينبع هذا الإيمان، و هذا العلم من ذوات الناس، كل الناس؟ يقول:

لأنهم لم يمروا بالتجربة الروحية التي مررت بها.

و نحن نقف من هذا التصوف موقف المحايد المتحفظ، فلا نثبته، لبعده عما عرفنا و ألفنا، و لا ننفيه، لأن المئات من العلماء في كل عصر، حتى في عصرنا هذا يؤمنون بالتصوف على تفوقهم، و اختلافهم في الجنس و الدين و الوطن و اللغة، و ليست لدينا أية حجة تنفي التجارب الشخصية البحتة، و من الجائز أن تكون تجربة الصوفي أشبه شيء باللحظات التي يلهم فيها الشاعر و الفنان، و لكن هذا شيء يعنيه وحده، و لا حجة له فيه على غيره، حيث لا ضابط له، و لا رابط.

الغيب:

و هناك أشياء لا وسيلة الى معرفتها بالحس و التجربة و القوة العقلية، منها:

اللوح المحفوظ و الملائكة، و إبليس، و حساب القبر، و الجنة و النار. و منها:

انقلاب العصا حية، و احياء الموتى، و ما الى ذلك مما اخبر به النبي، و لا يستقل العقل بادراكه، و لم نره نحن بالعين، كل

ذلك هو المقصود بالغيب في قوله تعالى: «يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ». فالغيب هو الذي لا يمكن التوصل الى معرفته الا بالوحي من السماء على لسان من ثبتت نبوته و صدقه بالعقل: «وَ عِنْدَهُ مَفاتِحُ

تفسير الكاشف، ج ١، ص ٤٥

الْغَيْبِ لا يَعْلَمُها إِلاَّ هُوَ- الانعام ٥٩». و بهذا يتبين ان الايمان بالغيب جزء من الإسلام، و ان من لا يؤمن به فليس بمسلم .. و أيضا يتبين ان ما لا يمكن استكشافه بالمشاهدة و التجربة، أو بالعقل، و لم تنزل به آية من كتاب اللّه، أو تأتي به رواية عن رسول اللّه فهو أسطورة و خرافة، كأكثر ما يرويه الرواة من الاسرائيليات، و ما اليها.

الدين و العلم:

و الغريب ان الطبيعيين يؤمنون بالغيب، لأنهم يعتقدون اعتقادا جازما بأن الكون وجد صدفة .. و ليس من شك ان الايمان بالصدفة ايمان بالغيب، لأن الطبيعيين لم يشاهدوها بالعيان، إذ المفروض انهم وجدوا بعد الكون، و أيضا لم يدركوها بالعقل، لأن العقل يبطل الصدفة، أو لا تقع تحت اختباره اثباتا و لا نفيا- على الأقل-.

و الاغرب انهم يسمحون لأنفسهم أن يفترضوا وجود مادة لطيفة يطلقون عليها اسم الأثير، و منها وجد الكون بزعمهم، بل يؤمنون بذلك ايمانا لا يشوبه ريب، ثم يحرمون على غيرهم أن يفترض و يؤمن بوجود قوة حكيمة مدبرة وراء هذا الكون .. مع العلم بأن هذا الافتراض أقرب الى العقل و القلب من افتراض وجود مادة عمياء صماء.

و على أية حال، فان الغيب يدل اسمه عليه، يدرك بالوحي فقط، لا بالتجربة و لا بالعقل .. أجل شرطه الوحيد أن لا يتنافى مع العقل، لا أن يستقل العقل بادراكه .. و على هذا فلا يبقى مجال لأية محاولة تهدف الى اخضاع الوحي و نصوصه للعلم التجريبي .. ان مهمة هذا العلم تنحصر في محاولة الإنسان لفهم الطبيعة، و السيطرة عليها، و يجيب عن هذه الأسئلة: ما هي القوى التي تتألف منها طبائع الأشياء من جماد و نبات و حيوان؟ و كيف نصمم طائرة تزيد سرعتها على سرعة الصوت؟ و لا يدرك العلم التجريبي من أوجد الطبيعة و نظامها.

أما الدين فانه يعرفنا بأسباب الوجود و يعطينا المفاتيح الرئيسية لمعرفة خالق الكون و يقودنا الى ما ينبغي عمله في هذه الحياة، لنحقق أهدافنا الروحية و المادية. ان

تفسير الكاشف، ج ١، ص ٤٦

المصنع وحده، و الحقل وحده، أو هما معا لا يفيان بجميع أغراض الإنسان و أهدافه، لأن الإنسان ليس جسما و مادة فقط، انه مادة و روح و عاطفة و وعي ..

ان في داخل الإنسان رحمة شاملة، اسمها الانسانية، و نورا ساطعا، اسمه العقل الذي يتصاغر أمامه، و يتضاءل العالم الأكبر.

ان مطالب جسمنا هذا المحسوس من الأكل و الشرب و النوم قد فرضت نفسها علينا فرضا، و لا خيار لنا في رفضها، فنحن نسعى للقيام بها دون اختيار، و لا يختلف في ذلك فرد عن فرد عالما كان أو جاهلا، نبيا أو غير نبي. أما الروح فتختلف مواهبها و مطالبها باختلاف الأشخاص و الأفراد، و كثيرا ما يكبت الإنسان عواطفه و ميوله، و يكظم غيظه، و يتجرعه طواعية، لا قسرا، و يكون الخير كل الخير في هذا الكبت و الردع، على العكس من الجسم إذا لم نلب مطالبه.

هذا، و لو كان الإنسان جسما فقط لتحكم به علماء الطبيعة، كما يتحكمون بالمادة، و لاستطاعوا أن يعرفوا أسرار النفس و كوامنها، و ان يحولوا جحودها إلى ايمان، و إيمانها الى جحود، و حزنها الى فرح و فرحها الى حزن، و حبها إلى بغض و

بغضها الى حب، و إدراكها الى جنون، و جنونها الى ادراك، و شيخوختها الى شباب، و شبابها الى شيخوخة .. و لو استرسلت في هذا الباب لملأت العديد من الصفحات .. و أرجو أن أوفق لعرض هذه المسألة في المناسبات الآتية بصورة أكمل و أوضح.

و القصد من هذه الاشارة هو البيان بأن موضوع العلم التجريبي شيء، و موضوع الدين و الوحي شيء آخر .. فالأول موضوعه المادة جامدة كانت، أو نامية، و هدفه الكشف عما تحتوي عليه من قوى، و الثاني موضوعه حياة الإنسان بشقيها المادي و الروحي، و ان شئت قلت حياته الروحية و العملية. أما هدفه فهو أن يعيش الناس، كل الناس عيشة راضية مرضية.

أجل، ان الإسلام يحترم العقل و العلم النافع، و يحث على طلبه، و يعتبره فريضة على كل مسلم و مسلمة، و يرفع أهله درجات، و من أجل هذا يجب على المسلم بما هو مسلم أن يعتقد بأنه لا شيء في العلم الصحيح أو العقل السليم، يتنافى مع الإسلام، و لا في أحكام الإسلام ما يتنافى معهما .. ان عدم المنافاة و المناقضة

تفسير الكاشف، ج ١، ص ٤٧

شرط أساسي، أما أن يستقل العقل، أو العلم التجريبي بإدراك كل حكم من أحكام الإسلام فليس بشرط.

و تسأل: لقد ثبت عن الرسول الأعظم (ص) قوله: «أصل ديني العقل» و هو بظاهره يدل على ان العقل يدرك جميع الأحكام الدينية الاسلامية؟.

الجواب: ان الإسلام يرتكز أول ما يرتكز على الألوهية و النبوة، و منهما تنبع تعاليمه و أحكامه، و السبيل الى معرفتهما هو العقل «١»، و عليه يكون معنى الحديث الشريف ان الإسلام الذي يرتكز على الألوهية و النبوة اعتمد في إثباتهما على العقل، لا على التقليد و المتابعة العمياء، و لا على الخرافات و الأساطير.

[إقامة الصلاة]

وَ يُقِيمُونَ الصَّلاٰةَ:

قد تحكم السلطة على شخص بالإقامة الجبرية في بلد معين، و تحجر عليه ان يتعداه الى غيره، و تلزمه بالحضور كل يوم في الدائرة المختصة اثباتا لوجوده، فان تخلف كان مسؤولا.

و اختط الإسلام للمؤمن مخططا خاصا يثبت به و يؤكد كل يوم خمس مرات إيمانه باللّه فاطر السموات و الأرض، و إخلاصه في جميع أعماله: «وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضَ حَنِيفاً وَ مٰا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ» .. «قُلْ إِنَّ صَلاٰتِي وَ نُسُكِي وَ مَحْيٰايَ وَ مَمٰاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعٰالَمِينَ لاٰ شَرِيكَ لَهُ وَ بِذٰلِكَ أُمِرْتُ وَ أَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ»: ١٦٢- ١٦٣.

و من ترك الصلاة جاحدا فهو مرتد عن الإسلام، أو متهاونا فهو فاسق مستحق للعقاب. و بهذا نجد تفسير قول الإمام أمير المؤمنين في نهج البلاغة: «ان رسول اللّه شبه الصلاة بالحمّة- هي عين تنبع بالماء الحار- تكون على باب الرجل، فهو يغتسل منها في اليوم و الليلة خمس مرات، فما عسى أن يبقى عليه من الدرن».

أي ان المواظبة على الصلاة تزكي القلب من الارتداد و الفسق، تماما كما يطهر الاغتسال الجسم من الاقذار، و أي شيء أقذر من الكفر و الفسوق؟!

(١) يعرف اللّه سبحانه بالعقل عن طريق الكون، و يعرف النبي بالعقل عن طريق المعجزة.

تفسير الكاشف، ج ١، ص ٤٨

[الإنفاق]

وَ مِمَّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ:

الإنفاق هنا يشمل جميع ما يبذله الإنسان في سبيل الخير زكاة كان، أو غيرها .. و ليس من شك ان البذل في سبيل الخير راجح في ذاته، و لكن هل: يجب في الأموال شيء غير الزكاة و الخمس؟

لقد جاء في طريق السنة، كما عن الترمذي، و في طريق الشيعة كما عن الكافي ان في الأموال حقا آخر. و فسر الإمام جعفر الصادق (ع) هذا الحق بأنه الشيء يخرجه الرجل من ماله، ان شاء أكثر، و ان شاء أقل على قدر ما يملك، و استدل بقوله تعالى: «وَ فِي أَمْوالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَ الْمَحْرُومِ- الذاريات ١٩» ..

و الآية ٢٤ من سورة المعارج: «وَ الَّذِينَ فِي أَمْوالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ لِلسَّائِلِ وَ الْمَحْرُومِ».

غير ان أكثر العلماء حملوا ذلك على الاستحباب دون الوجوب إلا الشيخ الصدوق من الشيعة، حيث نقل عنه القول بأن في الأموال حقا لازما غير الخمس و الزكاة، يخرجه المالك حسب ما يملك كثرة و قلة .. و مهما يكن، فان الذي لا شك فيه ان بذل المال في سبيل الخير يطهر من الاقذار، و ينجي من عذاب النار، قال تعالى في الآية ١٠٣ من سورة التوبة: «خُذْ مِنْ أَمْوالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَ تُزَكِّيهِمْ بِها».

[الإيمان]

يُؤْمِنُونَ بِما أُنْزِلَ إِلَيْكَ:

الخطاب الى محمد (ص)، و المراد «بِما أُنْزِلَ إِلَيْكَ» القرآن و السنة معا، لأنه (ص) ما ينطق عن الهوى ان هو إلاّ وحي يوحى: «وَ ما آتاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَ ما نَهاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا».

و المراد بما انزل من قبلك الكتب التي نزلت على من سبق من الرسل، كزبور داود، و توراة موسى، و إنجيل عيسى (ع) .. و لا أثر اليوم للايمان بهذه الكتب من الوجهة العملية، لأنها في عقيدة المسلمين اما غير موجودة، و اما الموجود منها محرّف .. و ندع الكلام فيما يتعلق بالأناجيل للمسيحيين أنفسهم، قرأت في كتاب «فولتر» تأليف «جوستان لانسون»، ترجمه محمد غنيمي هلال ص ١٩٣ طبعة ١٩٦٢ ما نصه بالحرف الواحد: «كان المعروف من هذه

تفسير الكاشف، ج ١، ص ٤٩

الأناجيل يبلغ اربعة و خمسين انجيلا، و كان تحرير الأناجيل الأربعة متأخرا عن ذلك، و الرابع- لوقا- هو أحدثها».

و قال الياس نجمة في كتاب «يسوع المسيح» ص ١١ طبعة ١٩٦٢: «و لما رأى الرسل- يريد تلاميذ المسيح- و تلاميذهم انه من الضروري تدوين بعض تعاليم الرب، و بعض أعماله و معجزاته كتبوا بعضا من تلك التعاليم و الأعمال و المعجزات، و هذا ما نسميه بالضبط الإنجيل المكتوب، فجاء الإنجيل المكتوب واحدا في صور أربع، أو نصوص أربعة».

و هذا اعتراف صريح بأن الأناجيل الأربعة ليست وحيا بنصها و حروفها، كما هو الشأن في القرآن، و انما هي مجرد نقل عن السيد المسيح (ع)، تماما ككتب الحديث عند المسلمين التي دونوا بها أقوال محمد (ص) و اعماله و معجزاته ..

و الفارق الوحيد ان رواة الأناجيل الأربعة، و هم: متى و يوحنا و مرقس و لوقا معصومون عن الخطأ عند المسيحيين لا

يجوز الطعن برواياتهم «١». و لا عصمة و لا حصانة لرواة الحديث عن النبي عند المسلمين، بل لا يجوز الأخذ و العمل بأخبارهم إلا بعد التحقيق و التمحيص، و لا فرق في منطق العقل بين الأناجيل الأربعة، و بين كتب الحديث من حيث جواز الطعن بهما معا، ما دام كل منهما مجرد نقل عن صاحب الرسالة .. أما الفرق بين القرآن و الأناجيل فواضح، لأن القرآن يتحدى الأجيال أن تأتي بسورة من مثله دون جميع الكتب السماوية.

و حاول الياس نجمة أن يدفع هذا الاشكال بقوله في ص ١٢: «الكنيسة تشهد للانجيل، و الإنجيل يشهد للكنيسة، و كلاهما يثبت الآخر».

و بديهة ان هذا اثبات للدعوى بالدعوى نفسها، لأنه تماما كقول من قال:

أنا صادق في دعواي، لأن فلانا يشهد لي بالصدق .. فإذا قيل له: و من يشهد لفلان بأنه صادق قال: أنا أشهد بذلك .. و معنى هذا في واقعه ان الشاهد هو

---

(١) في ملحق جريدة «النهار» البيروتية، تاريخ ١٢- ٧- ١٩٦٤، مقال مطول، جاء فيه: ان العلماء المختصين، و المسيحيين أيضا أثبتوا بالتجربة و بالدماغ الاكتروني ان أكثر الرسائل المنسوبة إلى بولس الرسول المؤسس الأكبر للمسيحية، ان أكثر هذه الرسائل مزورة .. و بهذه المناسبة لا بأس ان تقرأ التعليق على الآية ٧٩ من هذه السورة.

تفسير الكاشف، ج ١، ص ٥٠

عين المدعي .. و الفلاسفة يسمون هذا النوع بالدور الذي يحيله العقل .. و قد نظمه بعض الشعراء بقوله:

مسألة الدور جرت بيني و بين من أحب

لو لا مشيبي ما جفا لو لا جفاه لم أشب

و البيت الأخير- كما ترى- أشبه بهذيان المجانين، لأن معنى العجز ان مشيب الشاعر حدث بعد هجر الحبيب، و ان سبب المشيب هو الهجر .. و معنى الصدر ان الهجر حدث بعد المشيب، و ان سبب الهجر هو المشيب، و على هذا يلزم أن يكون كل من الهجر و المشيب سببا و مسببا، و دليلا و مدلولا، و علة و معلولا في آن واحد، كقول القائل: فصّلت هذا الثوب كي ألبسه، و لبسته كي أفصّله.

[سورة البقرة (٢): الآيات ٦ الى ٧]

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَواءٌ عَلَيْهِمْ أَ أَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (٦) خَتَمَ اللهُ عَلى قُلُوبِهِمْ وَ عَلى سَمْعِهِمْ وَ عَلى أَبْصارِهِمْ

غِشاوَةٌ وَ لَهُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ (٧)

انذرت ام لم تنذر آية ٦- ٧ **إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَواءٌ عَلَيْهِمْ أَ أَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ خَتَمَ اللهُ عَلى قُلُوبِهِمْ وَ عَلى سَمْعِهِمْ وَ عَلى أَبْصارِهِمْ غِشاوَةٌ وَ لَهُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ**- البقرة ٦- ٧ **سَواءٌ** اسم بمعنى الاستواء، و الفعل منه استوى، و الوصف مستو، و جملة **لا يُؤْمِنُونَ** خبر انّ، و **سَواءٌ** مبتدأ، و **أَنْذَرْتَهُمْ** خبره، و الجملة من المبتدأ و الخبر معترضة بين **إِنَّ** و خبرها، و على هذا يكون تقدير الكلام ان الذين كفروا لا يؤمنون، حتى و لو أنذرتهم، و الهمزة هنا للتسوية لا للاستفهام.

تفسير الكاشف، ج١، ص ٥١

منهج الإسلام:

سبقت الاشارة الى أن تعاليم الإسلام و مبادئه على نوعين: عقائدية، و عملية، أي أصول و فروع، عقيدة و شريعة عبّر بما شئت، و موضوع العقيدة يتصل بنفس الإنسان و مشاعره، و موضوع الشريعة أعمال الإنسان و أفعاله، و قد دعا الإسلام الى الايمان به عقيدة و شريعة.

أما المنهج الذي اتبعه الإسلام لانتشار دعوته فيما يتصل بالعقيدة فقد جاء بيانه في الآية ١٢٥ من سورة النحل: «ادْعُ إِلى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَ الْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَ جادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ، وَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ».

و المراد بالحكمة و الموعظة الحسنة الاعتماد على العقل فيما يستقل بادراكه، كالألوهية التي يتوصل الإنسان الى معرفتها بالامعان و التأمل في خلقه، و في خلق السموات و الأرض، و كنبوة محمد (ص) التي يعرفها الباحثون من سيرته، و طبيعة رسالته ..

أما منهج الإسلام في معرفة ما لا يستقل العقل بادراكه من أصول العقيدة، كبعض المغيبات فهو الاعتماد على وحي من اللّه الى نبيه الذي ثبت بدليل العقل نبوته و صدقه فيما أخبر به عن اللّه جل و عز.

أما المنهج لاثبات الشريعة فهو الكتاب و السنة و العقل .. و ترتكز أحكام هذه الأصول الثلاثة على المصالح و المفاسد، الطيبات و الخبائث، العدل و البغي، عبّر بما أردت: «وَ يُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّباتِ وَ يُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبائِثَ وَ يَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَ الْأَغْلالَ الَّتِي كانَتْ عَلَيْهِمْ- الأعراف ١٥٦» .. «يَسْئَلُونَكَ ما ذا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّباتُ- المائدة ٥» .. «وَ أَوْحَيْنا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْراتِ- الأنبياء ٧٣» .. «إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَ الْإِحْسانِ وَ إِيتاءِ ذِي الْقُرْبى وَ يَنْهى عَنِ الْفَحْشاءِ وَ الْمُنْكَرِ وَ الْبَغْيِ- النحل ٩٠».

و اختصارا ان العقيدة منها ما يقوم على العقل، و منها على الوحي، و أحكام الشريعة ترتكز على المصالح و المفاسد .. و استجاب للإسلام و دعوته الذين آمنوا بالغيب، و أقاموا الصلاة، و آتوا الزكاة، و أعرض عنه الكافرون و المنافقون، و قد ذكر اللّه المؤمنين أولا في الآيات السابقة، و ثنّى بذكر الكافرين، و ثلّث بالمنافقين و أوصافهم، كما يأتي:

تفسير الكاشف، ج١، ص ٥٢

الملتزم بالحق:

الناس من حيث الالتزام بالحق و عدمه اثنان: الأول يلتزم به لوجه الحق، سواء أوافق غرضه الخاص، أو خالفه، بل لا غرض له يتنافى مع الحق، و الا لم يكن ملتزما، و من أجله يضحي، و يتحمل المشاق، تماما كالمريض، ينشد الصحة في شرب الدواء المر، و في ألم المبضع، و الثاني لا يلتزم بشيء، و لا قيمة عنده لشيء إلا إذا اتفق مع غرضه و هواه، و لا يبالي بالنقد، مهما كان صائبا .. و لا يخلو هذا المستهتر من أحد اثنين: اما مستهتر بالحق باطنا و ظاهرا، في قلبه و لسانه، و اما باطنا لا ظاهرا، و يسمى الأول كافرا، و الثاني منافقا في عرف القرآن، و يفترق الملتزم بالحق عن المستهتر بكلا قسميه، يفترقان من وجوه:

«منها»: ان الملتزم يشعر بالمسؤولية، على العكس من غير الملتزم الذي لا يشعر بشيء.

و «منها»: ان الملتزم لا يؤمن بشيء إلا مع الدليل المقنع، أما غير الملتزم فلا يؤمن بشيء اسمه دليل و حجة و منطق، فالمبرر عنده عدم المبرر إلا ما يريد ..

و إذا تظاهر بتبرير ارادته فإنما يفعل ذلك استخفاء من الناس، و حرصا على حرمته عندهم.

و «منها»: ان الملتزم يفسح المجال للنقد، و يرحب به، و يصغي للناقد بامعان، و يعدل عن رأيه إذا استبان له الخطأ، و هذا هو المعني بقوله تعالى:

«الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ- الزمر ١٨». و غير الملتزم: عنز و لو طارت «١» .. و قد صوّر اللّه الذين يصرون على ضلالتهم بأدق تعبير و أبلغه في العديد من الآيات الكريمة: «وَ قالُوا قُلُوبُنا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونا إِلَيْهِ وَ فِي آذانِنا وَقْرٌ وَ مِنْ بَيْنِنا وَ بَيْنِكَ حِجابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنا عامِلُونَ- فصلت ٥» .. «إِنْ تَدْعُوهُمْ لا يَسْمَعُوا دُعاءَكُمْ وَ لَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجابُوا لَكُمْ- فاطر ١٤».

---

(١) قيل: ان رجلين أبصرا سوادا من بعيد، فقال أحدهما: هذه عنز. و قال الآخر: بل غراب و أصر كل منهما على ما قال .. و بعد ثوان طار الغراب. فقال الذي أصاب لصاحبه: أ رأيت؟ فقال زميله: عنز و لو طارت .. فذهبت مثلا.

تفسير الكاشف، ج ١، ص ٥٣

و «منها»: ان الملتزم معفو عن خطأه إذا أخطأ بعد البحث و الفحص، و لا عذر لغيره و لا جزاء إلا اللعنة و العذاب.

و أكثر الناس لا يؤمنون، و لا يقتنعون إلا بمصالحهم الخاصة، من حيث لا يشعرون، أو يشعرون .. و كيف تقنع جاهليا بأن أكرم الناس عند اللّه أتقاهم و هو يعتز و يتعالى بنسبه؟ أو تقنع حاكما بالعدل في حين ان حكمه و سلطانه قائم على العسف و الجور .. أو تقنع محتكرا بتحريم الاحتكار و تركه، و هو المصدر الأول لثروته؟.

ان هؤلاء، و من اليهم من المستهترين و المتمردين على الحق هم المقصودون بقوله تعالى «: **سَواءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ**».

و تسأل: ما ذا تقول بالذين لا ينطبق عليهم وصف الملتزم، و لا غير الملتزم، كالحمقى السذج الذين يسارعون الى التصديق من غير حجة و لا برهان، بل بدافع من سلامة الطوية، و كفى؟.

الجواب: ان هؤلاء أشبه بالمجاذيب و المستضعفين: «عَسَى اللهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَ كانَ اللهُ عَفُوًّا غَفُوراً».

سؤال ثان: ان الظاهر من قوله تعالى: «خَتَمَ اللهُ عَلىٰ قُلُوبِهِمْ» انه هو الذي منعهم من الايمان و اتّباع الحق، و عليه يكون الكافر مسيرا لا مخيرا، و بالتالي، فلا يستحق ذما و لا عقابا؟.

الجواب: ان كل شيء لا ينتفع به، و لا يؤدي الغرض المطلوب منه يكون وجوده و عدمه سواء، و الغرض المطلوب من القلب أن ينتفع و يهتدي بالأدلة و البراهين الصحيحة، كما ان الغرض من السمع أن ينتفع بما يسمع من أصوات، و من البصر بما يشاهد من كيفيات و كميات، فإذا قامت الدلائل القاطعة على الحقيقة، و انصرف الإنسان عنها مصرا على ضلاله فان معنى هذا انه لم ينتفع بقلبه، و لا قلبه انتفع بما ينبغي الانتفاع به، حتى كأن اللّه قد خلقه بلا قلب، أو بقلب موصد لا ينفتح للحق .. و لذا جاز أن ينعت قاسي القلب بأنه لا قلب له .. قال عز من قائل: «إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَذِكْرىٰ لِمَنْ كٰانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَ هُوَ شَهِيدٌ- ق ٣٧». مع العلم بأن القلب موجود و ثابت، لكنه ليس بشيء ما دام بعيدا عن الهدى و الرشاد .. و عليه تكون نسبة الختم اليه سبحانه

تفسير الكاشف، ج١، ص ٥٤

مجازا لا حقيقة، و يؤيد هذا ان لا غشاوة حسية على سمع الكافرين و بصرهم، فكذلك لا ختم حقيقي على القلوب .. أما مسألة الجبر و الاختيار، و هل الإنسان مسير أو مخير فيأتي الكلام عنها مفصلا ان شاء اللّه.

[سورة البقرة (٢): الآيات ٨ الى ٣٠]

وَ مِنَ النّٰاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنّٰا بِاللهِ وَ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَ مٰا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ (٨) يُخٰادِعُونَ اللهَ وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ مٰا يَخْدَعُونَ إِلاّٰ أَنْفُسَهُمْ وَ مٰا يَشْعُرُونَ (٩) فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزٰادَهُمُ اللهُ مَرَضاً وَ لَهُمْ عَذٰابٌ أَلِيمٌ بِمٰا كٰانُوا يَكْذِبُونَ (١٠) وَ إِذٰا قِيلَ لَهُمْ لاٰ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قٰالُوا إِنَّمٰا نَحْنُ مُصْلِحُونَ (١١) أَلاٰ إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَ لٰكِنْ لاٰ يَشْعُرُونَ (١٢)

وَ إِذٰا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمٰا آمَنَ النّٰاسُ قٰالُوا أَ نُؤْمِنُ كَمٰا آمَنَ السُّفَهٰاءُ أَلاٰ إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهٰاءُ وَ لٰكِنْ لاٰ يَعْلَمُونَ (١٣) وَ إِذٰا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قٰالُوا آمَنّٰا وَ إِذٰا خَلَوْا إِلىٰ شَيٰاطِينِهِمْ قٰالُوا إِنّٰا مَعَكُمْ إِنَّمٰا نَحْنُ مُسْتَهْزِؤُنَ (١٤) اللهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَ يَمُدُّهُمْ فِي طُغْيٰانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١٥) أُولٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلاٰلَةَ بِالْهُدىٰ فَمٰا رَبِحَتْ تِجٰارَتُهُمْ وَ مٰا كٰانُوا مُهْتَدِينَ (١٦) مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ ناراً فَلَمّٰا أَضٰاءَتْ مٰا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللهُ بِنُورِهِمْ وَ تَرَكَهُمْ فِي ظُلُمٰاتٍ لاٰ يُبْصِرُونَ (١٧)

صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاٰ يَرْجِعُونَ (١٨) أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمٰاءِ فِيهِ ظُلُمٰاتٌ وَ رَعْدٌ وَ بَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصٰابِعَهُمْ فِي آذٰانِهِمْ مِنَ الصَّوٰاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَ اللهُ مُحِيطٌ بِالْكٰافِرِينَ (١٩) يَكٰادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصٰارَهُمْ كُلَّمٰا أَضٰاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَ إِذٰا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قٰامُوا وَ لَوْ شٰاءَ اللهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَ أَبْصٰارِهِمْ إِنَّ اللهَ عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٠)

المنافقون الآية ٨- ٣٠:

تفسير الكاشف، ج١، ص ٥٥

ذكر سبحانه المؤمنين أولا، و هم الذين أخلصوا للحق قلبا و قالبا، و ثنّى بالكافرين الذين محضوا الكفر باطنا و ظاهرا، و الآن جاء دور المنافقين الذين تظاهروا بالإيمان، و ما هم بمؤمنين، و كفر هؤلاء أخبث الكفر، و أبغضه إلى اللّه، و لذا أطنب بأوصافهم، و ما يؤول اليه حالهم بثلاث عشرة آية بينما اقتصر في وصف الكافرين على آيتين، بل أنزل سورة خاصة بالمنافقين .. و هذه الآيات واضحة الدلالة، لا تقبل التأويل، و لا تحتاج الى تفسير، تماما كقوله سبحانه: «وَ اللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ». لذا نكتفي بالفقرة التالية:

من هو المنافق؟

كل منا يريد أن يكون شيئا مذكورا عند الناس، و على الأقل ان لا ينتقدوه في تصرفاته، و لا يتناولوه بالذم في ألسنتهم، بخاصة إذا كان نجاحه في عيشه و مهنته يتوقف على ثقة الناس به .. و من أجل هذا ينبغي الشك و الريب في دخيلة كل انسان من هذا النوع، و ان لم يبد من أمره ما يريب .. انه معرّض دائما للخداع و الرياء حرصا على مصلحته، و لو لا اطلاق الدليل لاستثنيته من قاعدة «حمل فعل المسلم على الصحة» «١».

و مهما يكن، فان كل من يؤثر الاستخفاء من الناس، و يتظاهر بما ليس فيه، و يخشى أن ينكشف الستر عن حقيقته فهو كذاب منافق، و مراء مخادع،

---

(١) لقد تسالم الفقهاء على قاعدة، أسموها حمل فعل المسلم على الصحة، و مثالها: ان ترى شخصا يشرب مائعا، و لا تدري: هل هو حلال أو حرام، أو علمت بأنه حرام، و شككت: هل يشر به للتداوي، أو جاهلا بالتحريم، أو يشربه من غير عذر؟ .. فعليك أن تحمله على الصحة، حتى يثبت العكس.

تفسير الكاشف، ج١، ص ٥٦

حتى و لو حاز على ثقة الناس أجمعين، بل ان هذه الثقة تضاعف من جريمته، و تكون و بالا عليه عند اللّه، و الناس أيضا إذا انكشفت عنه حجب الخداع.

و تسأل: إذا اعتقد الناس ان فعلا من الأفعال محرم، و اعتقد شخص بينه و بين اللّه انه مباح لا ضمير فيه، و تعاطاه في الخفاء خوفا من كلام الناس، فهل يعد منافقا و مرائيا، ثم هل يجب عليه أن يبين لهم ما يعتقد، و يكون مسؤولا لو سكت عن خطأهم؟.

الجواب: لا بأس عليه في فعل ما يعتقد بإباحته، و لا يعد من المنافقين و المراءين ما دام مرتاح الضمير، لأن تكليفه الخاص يرتبط بوجدانه، و ليس بوجدان الناس .. بل يعذر في الخطأ، إذ لا جرم و لا عيب في الخطأ، أما بيان الحقيقة فيجب عليه من باب الأمر بالمعروف، و النهي عن المنكر، لأن المفروض انه خطأ في معرفة الحكم، لا في تشخيص الموضوع «١».

و الآيات التي نحن بصددها تحدثت عن المنافقين الذين قامت الحجة عليهم بنبوة محمد (ص)، و اثبات الحق، و مع ذلك أصروا على الإنكار عنادا و تمردا، كما قامت على المشركين الذين عاندوا و حاربوا، و الفرق ان المشركين أعلنوا معاندتهم للحق، و قالوا بجرأة و صراحة: لا نتبع الحق لأن الفقراء اتبعوه و اعتنقوه:

«قالُوا أَ نُؤْمِنُ لَكَ وَ اتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ- الشعراء ١١١». أما المنافقون فإنهم رفضوا الحق لهذا السبب أو لمثيله، و لكنهم آثروا العناد، و أظهروا التسليم جبنا و خداعا فكانوا أسوأ حالا من الكافرين، حيث لاءم هؤلاء بين ظاهرهم و باطنهم، و صدّقوا في إعلان الكفر و العناد، تماما كمن يشرب الخمر على قارعة الطريق، و خالف المنافقون بين ما أضمروا و أظهروا، كالسفاح يلبس مسوح القديسين.

و لا دلالة لهذا الخداع إلا ان المنافق لا وازع له من دين أو عقل، و لا من حق أو عدل، و لا يتحرك ضميره لشيء ما دام

بعيدا عن أعين الناس، و من كان هذا شأنه فمن الصعب ان يؤوب الى خير. و لذا نعت اللّه المنافقين في هذه

---

(١) إذا رأيت إنسانا يأكل الخنزير- مثلا- و هو يعلم بأنه لحم خنزير، و لكن لا يعلم بحكمه و تحريمه فعليك ان ترشده إلى حكم اللّه، و تبين له انه محرم، أما إذا كان يعلم بالحكم، و لكنه يعتقد ان هذا اللحم هو لحم غنم فلا يجب عليك البيان، لأنه معذور، و الأول يسمى جاهلا بالحكم، و الثاني جاهلا بالموضوع.

تفسير الكاشف، ج ١، ص ٥٧

الآيات بالخديعة و الغفلة و مرض القلب و السفه و الغرور و متابعة الهوى و الخبث و الإصرار على الضلالة .. و نعتهم الناس بالطابور الخامس، و بالعملاء الأدنياء، و بالمفسدين و المراءين، و هم موجودون في هذا العصر، كما وجدوا في عهد الرسول و قبله، و سيوجدون في الأجيال الآتية، و لكنهم ملعونون أينما وجدوا، حتى و هم في قبورهم، و ان نجحوا فالى حين، أما نجاح الصادقين المخلصين فالى آخر يوم.

و من طريف ما قرأته عن المنافقين قول محي الدين المعروف بابن عربي في الجزء الرابع من الفتوحات المكية: «ما أحسن ما قال تعالى: «يَسْتَخْفُونَ مِنَ النّاسِ» فإنهم مجبولون على النسيان، و لا يستخفون من اللّه الذي لا يضل و لا ينسى، و كان الأولى لو صح عكس القضية».

و معنى هذه العبارة ان المنافق لو تدبر أمره، و كان على شيء من الفكر و العقل لوجب ان يخفي جرائمه و نقائصه عن اللّه- لو أمكن- لا عن الناس، لأن الناس لا يملكون له نفعا و لا ضرا، و الذي في يده النفع و الضر هو وحده ..

هذا، إلى أن الناس ينسون ما يرونه من السيئات و الموبقات، فيتكلمون على صاحبها، و ينالون منه بعض الوقت، ثم ينسون و يسكتون، كأن لم يكن شيء ..

و قد شاهدنا الكثير ممن ارتكب العظائم، و افتضح بها لدى الملأ، حتى توارى من سوء فعلته .. ثم ظهر للناس، و جالسوه، و تعاملوا معه، كأي بريء و نزيه .. و ربما منحوه ثقتهم، و اختاروه للمناصب العامة، بل قد يتولى منصبا دينيا مقدسا لا يتولاه الا نبي أو وصي نبي. و بالاضافة الى ان الناس ينسون فإنهم يمدحون و يذمون تبعا للغرض و الهوى، فيجدر بالعاقل أن يخاف اللّه، و لا يخاف الناس، و ان يكون رقيبا على نفسه، فيجنبها ما يستحي منه، و لا يحب أن يعرف به، و يؤاخذ عليه. و لا أحد أجبن ممن يعمل في السر ما يستحي منه في العلانية.

تفسير الكاشف، ج ١، ص ٥٨

[سورة البقرة (٢): الآيات ٢١ الى ٢٢]

يٰا أَيُّهَا النّٰاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٢١) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرٰاشاً وَ السَّمٰاءَ بِنٰاءً وَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمٰاءِ مٰاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرٰاتِ رِزْقاً لَكُمْ فَلاٰ تَجْعَلُوا لِلّٰهِ أَنْدٰاداً وَ أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٢)

اعْبُدُوا رَبَّكُمُ آية ٢١- ٢٢:

بعد ان ذكر سبحانه كلا من المؤمنين و الكافرين و المنافقين بسماتهم و أوصافهم، و ما يؤول اليه حال كل منهم انتقل

الى مخاطبة البالغين العاقلين، مؤمنين كانوا أو غير مؤمنين، الموجود منهم في زمن الخطاب، و من سيوجد آمرا الجميع بعبادة اللّه وحده .. و الأمر بالنسبة الى المؤمنين يراد به الثبوت و الاستمرار على الايمان و الطاعة، و بالنسبة الى غيرهم من الكافرين و المنافقين و الفاسقين يراد به التوبة و الانابة.

و تسأل: كيف عممت الخطاب لمن سيوجد مع العلم بأن يا أيها الناس خطاب مشافهة، و المشافهة مع المعدوم لا تجوز؟.

و الجواب: ان القضايا على نحوين: خارجية و حقيقية، و الأولى تختص بمن وجد بالفعل، و لا تشمل من سيوجد، مثل غرق من في السفينة، و الثانية تشمل من وجد، و من سيوجد، مثل اعدلوا أيها الحكام، فان هذه القضية تنطبق على كل حاكم موجود بالفعل أو بالقوة، و قوله تعالى: **يٰا أَيُّهَا النّٰاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ** من هذا الباب.

الفرع يتبع الأصل:

من تتبع آيات القرآن، و تدبرها بروية و إمعان يرى انه إذا قرر أصلا من

تفسير الكاشف، ج ١، ص ٥٩

أصول العقيدة، كالتوحيد و النبوة و البعث قرنه بالحجة و البرهان، و إذا ذكر حكما شرعيا، كتحريم الزنا- مثلا- أرسل القول فيه من غير دليل، فما هو السر؟.

الجواب: إذا ثبت وجود الباري، و نبوة محمد (ص) بالحجة العقلية كان قولهما هو الدليل و الحجة، و لا يجوز مخالفته بحال، لأن مخالفة قول اللّه و الرسول نقض لدليل العقل القاطع على التوحيد و النبوة، فمن آمن و سلّم بهذين الأصلين فعليه أن يسلّم بكل ما ثبت بنص الكتاب و السنة من أحكام الشريعة و فروعها من غير سؤال، و طلب للجواب، و من أنكرهما فلا جدوى من الحديث معه في الشريعة و فروعها، و من أجل هذا اهتم القرآن بإيراد الأدلة و البراهين على التوحيد و النبوة و البعث، و ابتدأ بالأول، لأنه الأساس.

التوحيد:

ترتكز الأديان السماوية كلها على أصول ثلاثة: التوحيد، و النبوة، و البعث، و ما من نبي من آدم الى محمد (ص) إلا و تقوم دعوته على هذه الأصول، و ما عداها يتفرع عنها، فعدالة اللّه و قدرته و حكمته فرع عن التوحيد، و الإمامة و القرآن فرع عن النبوة، و الحساب و الجنة و النار فرع عن البعث.

و ابتدأ القرآن الكريم بالأصل الأول، و أرشد الى دلائله، لأنه الأساس، و خاطب الناس بقوله: اعبدوا ربكم الذي خلقكم الخ .. و بديهة ان عبادته تستدعي معرفته أولا بطريق القطع و الجزم، لا بطريق التخمين و الظن «١» لأن الظن لا يغني عن الحق شيئا بشهادة القرآن نفسه. فما هو الطريق الذي يؤدي قطعا الى معرفة اللّه جل و علا؟

---

(١) الإسلام عقيدة و شريعة، و العقيدة كالايمان باللّه و صفاته، و النبي و عصمته، و البعث و ما اليه من الغيب.

و لا يثبت شيء من مسائل العقيدة إلا بطريق القطع، و من هنا لم تكن محلا للاجتهاد. و الشريعة كالعبادات و المعاملات و الجنايات، و يجوز اثبات مسائلها بطريق الظن و الاجتهاد، على شريطة أن يقوم دليل قطعي على صحة العمل بهذا الطريق الظني الخاص، بحيث يكون القطع مصدرا للعمل بالظن.

تفسير الكاشف، ج١، ص ٦٠

لقد اختلف العلماء في نوعية هذا الطريق، و قرره كل بما رآه صوابا .. فمنهم من اعتمد على الدليل الكوني، و أورده على هذه الصورة: ان الطبيعة و حوادثها المتكررة المتجددة تتطلب وجود علة لها، و لا يصح أن تكون العلة هي الطبيعة نفسها، و إلا لزم أن يكون الشيء علة و معلولا في آن واحد، و هذا هو الدور الباطل الذي أوضحناه في الفقرة السابقة «يُؤْمِنُونَ بِما أُنْزِلَ إِلَيْكَ» الآية ٤ من هذه السورة، و ان كانت العلة خارجة عن الطبيعة نقلنا اليها الكلام و سألنا: هل هي نتيجة لعلة سابقة، أو انها وجدت لذاتها من غير علة، و على الأول يأتي الكلام و السؤال عن كل علة سابقة، و هكذا دواليك .. و هذا هو التسلسل المحال، فتعين الثاني، أي وجود علة بذاتها، و اليها تنتهي جميع العلل، و لا تنتهي هي الى غيرها، و هي كلمة اللّه، و قوله للشيء كن فيكون.

– ملحوظة– هذا الدليل يقوم على التسليم بنظرية العلية، و هي ان كل أثر يستلزم مؤثرا، و كل معلول لا بد له من علة، تماما كالعلم يستدعي وجود العالم، و الكتابة وجود الكاتب «١».

و لكي تتضح لديك فكرة التسلسل و بطلانها، و وجوب الانتهاء الى علة لا علة لها نضرب اليك مثلا من هذه التصاميم التي يضعها المهندسون للطائرات و السيارات، و غيرها من الآلات و البنايات فإنها جميعا لا بد أن تنتهي الى المخترع الأول الذي وضع التصميم من تلقائه، يأخذ الغير منه، و لم يأخذه هو من أحد، و لو افترض انه لا مخترع أول للتصميم لزم أن لا يوجد اختراع و لا شيء يمت الى التصميم على الإطلاق.

و على هذا فليس لأحد أن يقول و يسأل: ممن أخذ المخترع الأول هذا التصميم، لأن معنى مخترع انه لم يتلق من الغير، و هذه الحقيقة تدل على صحتها بنفسها، تماما كما تدل الشمس على ضوئها .. و هكذا الحال بالنسبة الى الخالق

---

(١) إن الفيلسوف الانكليزي هيوم ينكر مبدأ العلية، و يقول: لا دليل على ان وجود شيء يستلزم وجود شيء آخر، و إنما العادة جرت أن يحدثا معا دون أن يكون بينهما تلازم قهري .. و ليس لدينا شيء نرد به هذا القول سوى ان الغاء مبدأ العلية الغاء لبديهة العقل عند جميع الناس، فما من أحد يتصور وجودا من غير سبب موجب .. هذا، إلى ان تكرار وجود الحادثين معا، و عدم تخلف أحدهما عن الآخر، و لو بحسب العادة يجعل للعادة من القوة ما للتجربة التي هي الطريق الوحيد للمعرفة عند التجربيين.

تفسير الكاشف، ج١، ص ٦١

و الرازق، فان معناه انه يخلق، و لم يخلق، و يرزق، و لم يرزق .. لذا كان ليبنتز يسمي اللّه المهندس، أي المخترع، و أفلاطون يسميه الصانع، اشارة إلى أنه خالق غير مخلوق.

و منهم من استدل على وجود اللّه بنظام العالم و تنسيقه و اطراد هذا النظام و التنسيق، و يسمى هذا الدليل بالدليل الغائي.

– ملحوظة– يرى الكثير من علماء الطبيعة الجدد أن ظواهر الطبيعة لا يجوز تفسيرها بالعلة الغائية، بل يتحتم تفسيرها بالعلة الفاعلية.

و الجواب: انّا نستكشف وجود العلة الفاعلية من وجود العلة الغائية، تماما كما نستكشف من ترتيب السرير ترتيبا هندسيا وجود النجار الخبير. و يتضح الجواب أكثر من تقرير الفرض الضروري فيما يلي:

و منهم من اعتمد الفرض الضروري الذي يعتمده علماء الطبيعة و غيرهم في اكتشاف العديد من الحقائق، و من هذا الفرض نظرة الجاذبية التي اكتشفها نيوتن من سقوط التفاحة على الأرض .. فان جميع الافتراضات غير الجاذبية خاطئة، و افتراض الجاذبية صحيح، و من هنا جزم نيوتن بوجودها.

أما تطبيق هذا الدليل على ما نحن فيه فهو انّا نشاهد نظام العالم و تماسكه و اطراده، و كل ما نفترضه لوجود هذا النظام غير الخالق الحكيم فهو فرض فاسد يرفضه العقل، و لا يتقبل العقل إلا وجود خالق حكيم هو الذي نظّم و رتب، و اليك هذا المثال:

إذا رأيت اسمك مكتوبا في الفضاء بأحرف من نور، ثم بحثت في كل جهة فلم تر أحدا، فلا بد ان تفترض ان إنسانا عاقلا يوجد في مكان ما يملك آلة يستطيع بواسطتها أن يرسم أحرفا في الفضاء من نور متماسكة منسجمة .. و أي فرض غير هذا، كالصدفة، أو اصطدام سيارتين، أو وجود بركان، كل ذلك و ما اليه يجرك الى الخطأ، و على الأقل لا يركن اليه عقلك الا إذا افترضت وجود الشخص الذي يملك الآلة .. و هكذا الحال بالنسبة الى نظام الكون.

و أخطر كلمة و أوضحها كلمة «فولتر»، حيث يقول: «ان فكرة وجود اللّه فرض ضروري، لأن الفكرة المضادة حماقات». و قرأت في كتاب

تفسير الكاشف، ج١، ص ٦٢

الظاهرة القرآنية ص ٩١ طبعة ١٩٥٨: «ان نوعا من النمل في أمريكا يغادر مساكنه قبل اندلاع الحريق فيها بليلة». و مهما فرضت لذلك من الفروض و التفاسير فلا تركن النفس أبدا الا بفرض وجود مدبر حكيم أعطى لكل نفس هداها.

و منهم من يعتمد البرهان الخلقي، و يقول: لو لا الايمان بوجود اللّه لانهارت المقاييس الخلقية، و لم يكن من رادع يردع الناس عن الشر، و لا وازع يبعثهم على عمل الخير.

و هذا الدليل في واقعه أقرب الى انكار الخالق من الاعتراف به، إذ يكون الايمان باللّه، و الحال هذه، وسيلة لا غاية، بحيث لو افترض وجود انسان يفعل من تلقائه ما ينبغي فعله، و يترك ما ينبغي تركه لما وجب عليه الايمان باللّه ..

و ليس من شك ان جعل اللّه أداة أقبح من إنكاره.

و منهم من يعتمد الدليل اللدني، و هو الشعور و الاحساس القلبي مباشرة، و يقول: ان قلب الإنسان يدرك وجود الخالق مباشرة من غير براهين، و مقدمات، تماما كما يحس الحب و البغض، و تقدم الكلام عن ذلك مفصلا عند تفسير الآية ٣ «الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ» فقرة المعرفة، رقم ٤.

و أفضل الطرق كلها هو الطريق الذي استدل به اللّه سبحانه على وجوده، و يتلخص بالنظر و التفكير في خلق السموات و الأرض، و في الإنسان و الموت و الحياة، و النعم الجلّى، و ما إلى ذاك مما جاء في القرآن الكريم، و السنة النبوية، و نهج البلاغة.

و هذا الطريق، و ان رجع في حقيقته الى الدليل الكوني و الغائي الا أن تقريره في هذا الأسلوب يبعده عن التكلف و التعسف، و يقربه الى افهام الخواص و العوام ..

و من لا يقتنع من اللّه سبحانه بما أورده هو جل و علا من الأدلة على وجوده، فهل يقتنع من عبد مثله؟.

و غريبة الغرائب ان الجاحد يؤمن و يعتقد بأن القميص الذي يلبسه- مثلا- قد زرع بذره الفلاح بانتظام، ثم غزله و حاكه العامل بإتقان، ثم باعه التاجر بمعرفة، ثم فصّله و خاطه الخياط على القدر المطلوب، انه يعتقد بهذا كله، ثم لا يعتقد بوجود من اتقن و صنع كل شيء؟.

و بالاضافة الى الأدلة على وجود اللّه التي تدخل تحت ضابط عام، و قاعدة

تفسير الكاشف، ج ١، ص ٦٣

كلية، فانه سبحانه قد أعطى كل انسان دليلا خاصا به وحده على وجوده جل و عز لا يشاركه فيه سواه، فما من انسان أيا كان إذا رجع إلى ما مر به من حوادث و تجارب، و تأملها بإمعان إلا و يجد في حياته أشياء لا تفسير لها إلا ارادة اللّه و مشيئته.

و اني أستبعد كل البعد أن يعيش انسان، أي انسان، و لو كان كافرا، يعيش حينا من الدهر دون أن تمر لحظة واحدة في حياته، و لا يرجع فيها الى اللّه تلقائيا و من غير قصد و شعور، و إلى من يتجه في أحلك لحظات الشدة؟

انه من غير شك يعود الى فطرة اللّه التي فطر الناس عليها، و طبعت كل مولود بطابعها، حيث لا أب يعلمه، و لا أم تلقنه، و لا محيط يكيفه.

قال زنديق للإمام جعفر الصادق (ع): ما الدليل على وجود الصانع؟

قال الإمام: لو ركبت البحر، و هاجت الرياح، و غرقت السفينة و الملاحون، و بقيت أنت حيا، فهل ترجو النجاة لنفسك؟

قال الزنديق: أجل.

قال الإمام: ان الصانع هو الذي ترجوه آنذاك.

و بالتالي، فاني أنصح من يشك في وجود اللّه أن يقرأ أدلة الجاحدين و الماديين، فانه سينتهي حتما الى الإيمان باللّه، إذ لا يجد دليلا على انكارهم إلا انهم يريدون ان يروا اللّه بالعين، و يلمسوه باليد، و يشموه بالأنف.

و قد ذكرت الكثير الكثير من أدلة هذا الباب في كتاب «اللّه و العقل».

و كتاب «فلسفة المبدأ و المعاد» الذي وضعته خاصة للرد على الفلسفة المادية، و كتاب «بين اللّه و الإنسان». و كتاب «معالم الفلسفة». و كتاب «الإسلام مع الحياة» و كتاب «إمامة علي و العقل» «١». و غير هذه المؤلفات من الكتب و المقالات .. و اللّه سبحانه المسئول أن يطهر نفوسنا من الشك و الريب، و أن يشملها بتوفيقه و رضوانه.

---

(١) اسطر هذه الكلمات في اليوم السابع من الشهر الثالث من سنة ١٩٦٧، و فيه قدمت دار العلم للملايين ٥ كتب من مؤلفاتي، إلى المطبعة لتعيد طبعها، و تجمعها في كتاب واحد باسم «الإسلام و العقل» و هذه الكتب الخمسة هي اللّه و العقل. النبوة و العقل. الآخرة و العقل. إمامة علي و العقل. المهدي المنتظر و العقل.

تفسير الكاشف، ج ١، ص ٦٤

و أطلنا الكلام في الأصل الأول، و هو التوحيد، ليكون كالضابط العام الذي يرجع اليه في كل ما يتصل به من الآيات.

[سورة البقرة (٢): الآيات ٢٣ الى ٢٥]

وَ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنا عَلىٰ عَبْدِنا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَ ادْعُوا شُهَداءَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (٢٣) فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَ لَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَ الْحِجارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكافِرِينَ (٢٤) وَ بَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ كُلَّما رُزِقُوا مِنْها مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقاً قالُوا هٰذَا الَّذِي رُزِقْنا مِنْ قَبْلُ وَ أُتُوا بِهِ مُتَشابِهاً وَ لَهُمْ فِيهَا أَزْواجٌ مُطَهَّرَةٌ وَ هُمْ فِيهَا خالِدُونَ (٢٥)

فَأْتُوا بِسُورَةٍ الآية ٢٣- ٢٥:

كما أرشد القرآن الى طريق العلم بوجود اللّه سبحانه فقد أرشد أيضا الى طريق العلم بنبوة محمد (ص) .. من ذلك قوله تعالى: «**وَ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنا عَلىٰ عَبْدِنا**» أي محمد (ص). و المراد بها التحدي بأن يأتوا بحديث مثل القرآن، و هم أهل الحديث و الكلام، بل هو سيد عملهم .. و ليس من الضروري أن يأتوا بما يعادله في الكم و الحجم، فان ذلك متروك لاختيارهم، ان شاءوا كلا، و ان شاءوا بعشر سور، و ان شاءوا بسورة واحدة .. و أيضا ليس من الضروري أن يأتوا بمثل معانيه من قوانين الأخلاق، و أصول التشريع، و الأخبار بالغيب، و ما اليه، بل بما يستطيعون من كل معنى و غرض، على أن يكون لبيانهم نفس الخصائص التي للقرآن.

تفسير الكاشف، ج ١، ص ٦٥

و هذا الطلب، كما ترى، ليس فيه تعجيز- لو كان القرآن من عند غير اللّه- لأنه لم يطلب منهم أن يحملوا الجبال، أو يجففوا البحار- مثلا- و انما طلب الحديث، و لا شيء أيسر منه عليهم، و حيث ثبت عجزهم فقد ثبت ان هناك سرّا، و لا تفسير لهذا السر الا الوحي و النبوة، و هكذا كل ما يستعصي تفسيره على العلم بما هو علم لا بد أن يفسر بما فوق الطبيعة.

و لا شيء أقوى في الدلالة على صدق القرآن من هذا الجزم و الوثوق في قوله تعالى: «**وَ لَنْ تَفْعَلُوا**» .. و حتى اليوم ما فعل واحد من بعدهم، و ما زال الباب مفتوحا الى آخر يوم.

و بعد ان ذكر اللّه الكافرين، و ما لهم من الجحيم و العذاب عقب بذكر المؤمنين، و ما لهم من النعيم و الثواب جريا على عادة القرآن من شفع الترغيب بالترهيب، و اقتران الوعد بالوعيد مبالغة في الإرشاد و الموعظة.

و قال أكثر المفسرين: ان الضمير في مثله يعود الى القرآن، و المعنى فأتوا بسورة على صفة القرآن و خصائصه في الأسلوب.

و قال آخرون: بل هو عائد الى عبدنا، و هو محمد (ص)، و المعنى فأتوا بأميّ لم يقرأ كمحمد يستطيع أن يأتي بمثل هذا القرآن الذي أتى به هذا الرجل الأمي.

و المعنى مستقيم و صحيح على كلا القولين، و لكن القول الأول أشهر و أظهر، حيث قال عز من قائل: «**إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنا**» و لم يقل: ان ارتبتم في محمد (ص) .. و مع ذلك فان للقول الثاني وجها قويا، لأنه لو افترض ان عالما قديرا أتى بمثل أسلوب القرآن لا يكون ذلك نقضا للتحدي، لأن وجه التحدي محصور بالإتيان من أميّ، لا من عالم قدير.

و المراد بالوقود كل ما توقد النار به، و المراد بالناس العصاة، و بالحجارة الأصنام التي كان يعبدها المشركون.

سر الاعجاز في القرآن:

النبوة سفارة بين اللّه، و بين خلقه يخص بها من يشاء من عباده، ليبلغهم

تفسير الكاشف، ج١، ص ٦٦

عنه ما لا غنى لهم عن معرفته .. و قد عزز اللّه كل نبي ببينة جلية واضحة على صدقه في نبوته، لتكون له الحجة على من أرسل اليهم، و الشرط الأساسي لهذه البينة أن تكون من نوع خاص يظهر على يد الأنبياء بالذات دون غيرهم حذرا من الخلط و الاشتباه بين النبي و غيره.

و لمحمد (ص) بيّنات و دلائل على نبوته، منها هذا القرآن الذي عمت نسخه كل مكان، و أذيعت سوره و آياته في المكبرات، و من الاذاعات في الشرق و الغرب، حتى من إسرائيل .. و وجه الدلالة أنه تحدى، و ما زال، و لن يزال يتحدى كل منكر أن يأتي هو بنفسه، أو يأتي بمن يأتي بسورة من مثله. و ما نقل عن واحد قديما و حديثا انه استطاع أن ينقض هذا التحدي، على الرغم من كثرة الجاحدين، و عدائهم للإسلام و المسلمين، و حيث ثبت العجز فقد ثبتت نبوة محمد (ص) بالبداهة.

و بعد أن اتفق العلماء على ان القرآن معجزة اختلفوا في وجه الاعجاز و سره:

هل هو الأسلوب و الشكل من الجمال و الروعة، أو هو المضمون و المحتوى من العلم و قوانين التشريع، و الاخبار بالغيب، و ما إلى ذلك، أو هما معا؟

و قد أطالوا الكلام في بيان وجه الاعجاز، و وضعوا فيه كتبا خاصة، و لا أريد التطويل في ذكر ما قيل، و اقتصر على ما أراه وجها للاعجاز، و يتلخص بأن الإنسان يستطيع أن يقلد و يحاكي إنسانا مثله في قول أو فعل تكلفا و تصنعا بالنظر إلى ان كلا منهما يصدر عن العقل و الخيال، اما ان يقلد و يحاكي خالقه و صانعه في أثر من آثاره فمحال، لأن الإنسان لا يتجاوز حدوده كمخلوق، مهما بلغ من القوة و العظمة .. و من الخير أن ننبه على ما يلي:

التحدي:

أشرنا الى ان محمدا تحدى المعاندين بالقرآن، و ليس من شك ان التحدي يتم و يصح إذا كان الفعل من النوع الذي يقدر عليه الشخص المقصود بالتحدي، كما لو طلبت ممن له يد سليمة أن يضعها على رأسه، أو يرفع بها ريشة من الأرض، أما إذا طلبت من الأمي أن يقرأ، و من غير الطبيب أن يشفي المرضى،

تفسير الكاشف، ج١، ص ٦٧

و من غير الشاعر أن ينظم الأشعار فلا يكون من التحدي في شيء .. و قد تحدى محمد (ص) المعاندين بما من شأنه أن يكون مقدورا لهم، و هو الكلام، فعجزوا عنه، و عجزهم هذا أضفى على القرآن صفة المعجزة.

و تسأل: ينبغي أن يكون معجزة بالنسبة الى البليغ في اللغة العربية، لا بالنسبة الى الجاهل بها، أو الضعيف من أهلها؟.

و الجواب: ان القرآن معجزة بما هو كلام اللّه، بصرف النظر عن العربي البليغ و غيره، و انما نعرف المعجزة، و نكتشفها من عجز العربي البليغ، تماما كما نكتشف من عجز بطل السباحة العالمي في البحر الهائج عجز سواه، مع التقدير بأنه الأول في بطولة السباحة .. و بتعبيرنا نحن الفقهاء ان عجز العربي البليغ سبب للمعرفة بمعجزة القرآن، و ليس جزءا و لا شرطا لها.

هل لمحمد معجزة غير القرآن؟

يرى البعض ان لا معجزة لمحمد (ص) الا القرآن، أما أنا فمع الذين يؤمنون بأن معجزاته لا يبلغها الإحصاء، لأن الحكمة الإلهية تستدعي تنوع المعجزة و اختلافها باختلاف الموارد و الأشخاص، كما استدعت حكمته سبحانه أن يباهل نبيه

نصارى نجران .. هذا إذا كان طالب المعجزة يبتغيها بصدق، أما الكاذب المتعنت الذي لا يجدي معه شيء فيقتصر الأمر معه على القرآن، لأن اعجازه مبدأ عام لا يختص بعصر دون عصر، و لا بفئة دون فئة، أو بفرد دون فرد ..

و قد تستدعي الحكمة ان لا تعرض المعجزة على الشخص إطلاقا، كما لو اكتفى بمجرد شعوره و إحساسه، أو بيمين النبي، فقد جاء في الأخبار ان رجلا قال لمحمد (ص): ما لي و للمعجزات؟ .. احلف باللّه انك رسول اللّه، و أنا أومن بك. فقال الرسول: و اللّه اني رسول اللّه. فقال الرجل: اشهد ان لا إله الا اللّه، و ان محمدا رسول اللّه.

و الذي يدلنا على ان آفاق محمد (ص) و معجزاته أعظم من أن يبلغها الإحصاء ان رجل الدين فيما مضى كان يستدل على نبوة محمد (ص) بما جاءت به الأخبار من تكلم الحصى له، و سعي الشجرة اليه، و نبع الماء من بين أصابعه، و كان

تفسير الكاشف، ج ١، ص ٦٨

الناس يتقبلون هذا يومذاك، أما اليوم حيث يتطلع الناس الى حياة أفضل فانّا نستدل مما نستدل به على نبوته بأنه وقف مع المستضعفين، و حارب المستأثرين و الظالمين، و بفضله و فضل شريعته نزعت التيجان عن رؤوس الجبابرة، و ألقيت تحت أقدام رعاة الإبل، و وزعت كنوز الملوك على الفقراء و المساكين.

و على أية حال، فان جميع معجزات الرسول الأعظم هامة و عظيمة، و لكن أهمها جميعا في تقديري أمران:

الأول: شريعة القرآن التي نظمت حقوق الإنسان، و علاقات الناس بعضهم مع بعض على أساس العدل و التعاون، و سنعرض كل شيء في مورده ان شاء اللّه.

الثاني: مباهلة الرسول مع وفد نجران التي سجلها اللّه سبحانه في سورة آل عمران، ان هذه المباهلة هي الدليل الحاسم، و الحد الفاصل الذي يضع المعاند الجاحد أمام العذاب و الهلاك وجها لوجه، هلاك ينزله محمد من السماء بكلمة واحدة تخرج من فمه الطاهر .. ان هذا التحدي لا مثيل له على الإطلاق في تاريخ البشرية .. و يأتي الشرح و التفصيل في محله ان شاء اللّه تعالى.

و أطلنا الكلام في الأصل الثاني، و هو النبوة، ليكون الضابط العام الذي يرجع اليه في كل ما يتصل به من الآيات. و قد ألفت كتابا خاصا فيه، أسميته «النبوة و العقل» طبع أربع مرات.

[سورة البقرة (٢): الآيات ٢٦ الى ٢٧]

إِنَّ اللهَ لا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلاً ما بَعُوضَةً فَما فَوْقَها فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَ أَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ ما ذا أَرادَ اللهُ بِهذا مَثَلاً يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَ يَهْدِي بِهِ كَثِيراً وَ ما يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفاسِقِينَ (٢٦) الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللهِ مِنْ بَعْدِ مِيثاقِهِ وَ يَقْطَعُونَ ما أَمَرَ اللهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ (٢٧)

إِنَّ اللهَ لا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلاً الآية ٢٦- ٢٧:

تفسير الكاشف، ج ١، ص ٦٩

الحياء:

إذا نسب الحياء الى الإنسان فمعناه تغير حاله الطبيعية الى حال أخرى، لسبب من الأسباب، و حياء الإنسان حسن و قبيح، و الحسن منه أن يستحي المرء من فعل القبائح و الرذائل، و لذا يقال لمن يفعلها دون مبالاة: إذا لم تستح فاصنع ما شئت

.. و قال الإمام الصادق (ع): لا حياء لمن لا إيمان له.

أما القبيح من هذا الحياء فهو أن يترك المرء فعل ما ينبغي فعله تخوفا و تهيبا، كالاستحياء من التعلم و طلب المعرفة، و ما إلى ذاك، قال الإمام أمير المؤمنين (ع):

قرنت الهيبة بالخيبة، و الحياء بالحرمان، و الفرص تمر مر السحاب .. و قديما قيل:

لا حياء في الدين.

هذا إذا نسب الحياء الى الإنسان، أما إذا نسب اليه سبحانه فيراد به ترك الفعل، و من ذلك ما جاء في الأخبار: ان اللّه يستحي من الشيخ الكبير، أي يترك عذابه و عقابه.

و المرد بالمثل الشبيه و النظير، و يضرب المثل بقصد توضيح الفكرة، و ازالة اللبس عنها.

و المراد بعهد اللّه ما قامت به الحجة للّه على عباده، سواء أ كان مصدر هذه الحجة الفطرة و العقل، أو النقل الثابت بكتاب منزل، أو على لسان نبي مرسل ..

و المراد بالميثاق الإبرام و الأحكام .. و أعظم عهود اللّه المبرمة المحكمة توحيده و الإخلاص له بالعبودية التي دل عليه العقل، و أقره الشرع .. و المراد بقطع ما أمر اللّه به ان يوصل أوامره و نواهيه.

الاعراب:

يصح أن تكون «ما» من قوله تعالى: «**مَثَلاً ما**» زائدا جيء بها للتوكيد، و «بعوضة» مفعولا أولا، و «مثلا» مفعولا ثانيا مقدما، و التقدير ان اللّه لا يترك جعل البعوضة مثلا، و قيل: يجوز أن يكون «مثلا» حالا من بعوضة.

و أيضا يجوز أن تكون «ما» اسما مبهما بمعنى شيء من الأشياء، و عليه تكون مفعولا ليضرب، و بعوضة بدلا منها، و مثلا مفعولا ثانيا مقدما، و التقدير

تفسير الكاشف، ج ١، ص ٧٠

ان اللّه لا يترك جعل شيء من الأشياء مثلا، حتى و لو كان هذا الشيء بعوضة.

و المصدر من أن يوصل بدل من الضمير في «به»، أي يقطعون ما أمر اللّه بصلته.

الهدى و الضلال:

يطلق الهدى على معان:

«منها»: البيان و الإرشاد، و أكثر آيات الهدى في القرآن، و الكثير منها تحمل ذلك، مثل قوله تعالى: «وَ ما مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جاءَهُمُ الْهُدى» ..

و قوله: «وَ لَقَدْ جاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدى». أي البيان، و لا بيان للّه الا ما جاءت به الرسل، أو حكم به حكما بديهيا لا يتطرق اليه الشك و الاحتمال.

و «منها»: ان يتقبل الإنسان النصيحة، و ينتفع بها، و منه قوله تعالى:

«قُلْ يا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جاءَكُمُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ، فَمَنِ اهْتَدى فَإِنَّما يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَ مَنْ ضَلَّ فَإِنَّما يَضِلُّ عَلَيْها- يونس ١٠٨».

و «منها»: التوفيق و العناية من اللّه بوجه خاص، كقوله سبحانه:

«وَ لكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ» .. و قوله: «وَ أَنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ- الحج ١٦»، أي يوفقه الى العمل بالهداية، و يمهد له السبيل اليها .. و بديهة ان الهداية بمجرد البيان لا تلازم التوفيق الى العمل، بل قد و قد .. و من ذلك قوله عز من قائل:

«لَيْسَ عَلَيْكَ هُداهُمْ». أي لا عليك ان يعملوا بهداك، أو لا يعملوا، و انما عليك البيان.

و «منها»: الثواب، كقوله: «إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ- يونس ٩»، أي يثيبهم بسبب ايمانهم، و كذلك قوله: «يَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنابَ».

و «منها» ان يراد بالهدى المرشد و المبين بالنظر الى ان الهداية حصلت بسببه، و هذا هو المقصود هنا بقوله تعالى: «**يَهْدِي بِهِ كَثِيراً**»، قال صاحب مجمع البيان: «قوله يهدي به كثيرا يعني الذين آمنوا به، و قالوا هذا في موضعه، فلما حصلت الهداية بسبب اللّه أضيفت اليه».

تفسير الكاشف، ج١، ص ٧١

و «منها»: ان يراد به الحكم و التسمية بالمهتدي تماما كقولهم عدّله القاضي، أي حكم بعدالته، و هذا المعنى تصح نسبته الى اللّه سبحانه.

و كذلك الضلال يطلق على معان:

منها»: التلبيس و التشكيك و الإيقاع في الفساد و المنع عن الدين و الحق، و هذا لا يضاف الى اللّه بحال، بل ينسب الى إبليس و أتباعه و منه قوله تعالى حكاية عن إبليس. «لَأُضِلَّنَّهُمْ وَ لَأُمَنِّيَنَّهُمْ». و قوله: «وَ أَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ».

و قوله: «وَ أَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ».

و «منها»: العقاب، و في القرآن آيات كثيرة بهذا المعنى، منها: «يُضِلُّ اللهُ الْكافِرِينَ» .. «وَ يُضِلُّ اللهُ الظَّالِمِينَ» .. و «كَذلِكَ يُضِلُّ اللهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتابٌ». أي يعاقب الكذاب و الكافرين و الظالمين.

و «منها»: ان يراد به الحكم و التسمية بالضال، كقولك: أضله فلان إذا أردت انه نسبه الى الضلال، و اعتبره من الضالين. و يجوز هذا المعنى عليه سبحانه.

و «منها»: التخلية بين المرء و نفسه .. فمن أهمل ولده من غير عناية و تربية يصح أن يقال: أضلّه أبوه.

و «منها»: الضياع، تقول: أضلّ فلان ناقته، أي ضاعت منه، و هذا أيضا لا يضاف إلى اللّه.

و «منها»: الابتلاء و الامتحان، بحيث يحصل الضلال عند البيان الذي يمتحن اللّه به عباده، قال صاحب مجمع البيان: «المعنى ان اللّه تعالى يمتحن بهذه الأمثال عباده، فيضل بها قوم كثير، و يهتدى بها قوم كثير».

المعنى:

و محصل معنى الآيتين ان اللّه لا يترك ضرب الأمثال بما يراه الجهلة و السفلة حقيرا كالعنكبوت و الذباب و البعوضة، و غيرها، لأن اللّه خالق كل شيء، و رب كل شيء، يستوي لديه جناح البعوضة، و الكون بكامله .. هذا، إلى ان ضرب الأمثال موجود في جميع اللغات، و الغاية منه جلاء الأفكار المجردة

تفسير الكاشف، ج١، ص ٧٢

بمقارنتها بشيء محسوس، فكل ما يحقق هذه الغاية يصح جعله مثلا، صغيرا كان أو كبيرا، و به تتم الحجة على كل من خالف و عاند.

و قد امتحن اللّه الناس بهذه الأمثال كما امتحنهم و ابتلاهم بغيرها من الدلائل و الآيات، فعمل بها كثير، و أعرض عنها كثير، و الذين عملوا بها هم الطيبون المؤمنون، و الذين أعرضوا هم الفاسقون الضالون، و صحت اضافة الهداية و الضلال اليه سبحانه بالنظر الى أنه هو الذي ضرب الأمثال التي كانت رحمة على من اتعظ بها، و نقمة على من لم يتعظ.

و من المفيد ان نقدم مثالا لتوضيح هذه الفكرة: عالم ارتفع به علمه إلى أعلى المناصب، فحسده من حسده، حتى بلغ الحسد منه مبلغا أودى بجسمه و عقله- ملحوظة قال أمير المؤمنين: صحة الجسد من قلة الحسد- فيصح أن نقول تجوزا: العالم هو الذي أدّى بالحاسد الى هذه النتيجة السيئة، تماما كما تقول: أفسدت فلانة الحسناء فلانا، و أذهبت عقله، و ربما لم تكن تعرف عنه شيئا و لكن لما فسد عقله من أجلها أضيف الفساد اليها، و بهذا الاعتبار ساغت نسبة الضلال الى اللّه مجازا، لأنه هو الذي أبان الحجة الدامغة و أعلنها، و ترتب على اعلانها مخالفة المبطل و ضلاله، و لو سكت اللّه عن بيان الحجة لانتفى موضوع الطاعة و العصيان، و لم يكن هناك ضال و مهتد.

و قد وصف اللّه من لا يتعظ بالأمثال، وصفه بالفسق، و نقض العهد، و قطع ما أمر اللّه بصلته من متابعة الأخيار، و ملازمة الجماعة، و غير ذلك مما فيه التعاطف و التعاون على الخير.

التكوين و التشريع:

للّه سبحانه ارادتان: ارادة الخلق و التكوين، و يعبر عنها «بكن فيكون» و بهذه الارادة يوجد الشيء من لا شيء .. و الارادة الثانية ارادة الطلب و التشريع التي يعبر عنها بالأمر و النهي، و الدعوة الى فعل الخير، و ترك الشر، فان فعل العبد الخير فعله بملء ارادته و اختياره بلا جبر و إكراه، و كذلك ان فعل الشر و ترك الخير .. و إذا كان تنفيذ الأحكام الدينية بكاملها منوطا بارادة المكلفين

تفسير الكاشف، ج ۱، ص ۷۳

و اختيارهم، و لا رقيب عليهم الا من أنفسهم فمن الخطأ أن يقال بأن للدين تأثيرا على انحطاط أتباعه و المنتمين اليه، بحيث نكتشف من تأخرهم عدم صلاحية الدين للحياة .. أجل، لو عملوا به، و طبقوه تطبيقا كاملا على أفعالهم لصح ان يتخذ الدين مقياسا لرقيهم و انحطاطهم.

و بهذا يتبين الحقد و الدس على الإسلام في قول من قال: «ان ضعف المسلمين دليل على ضعف الإسلام و تعاليمه».

و على منطق هذا المتجني يجوز لنا أن ننسب الى الديانة المسيحية كل فسق و فجور و تهتك في أمريكا و اوروبا، و ان ننسب اليها أيضا الخراب و الدمار و جميع الحروب التي أثارتها الدول المسيحية في شرق الأرض و غربها، حتى إلقاء القنبلة الذرية على هيروشيما، و قنابل النابالم في فييتنام، و حتى الانحلال الخلقي، و ارتفاع عدد الجرائم يوما بعد يوم في أمريكا و اوروبا، و حتى اباحة اللواط في انكلترا قانونا و كنيسة، كل ذلك و ما اليه كثير و كثير ينبغي أن ينسب الى السيد المسيح (ع) .. حاشا الأبرار من هذه الأقذار.

هذا، و لو أخذنا بفرية ذاك المفتري لكان اليهودي في اليمن تماما كاليهودي في نيويورك تحضرا و رقيا، و المسيحي في مصر كالمسيحي في باريس .. ان لتأخر البلدان أسبابا كثيرة غير الدين، و أهمها الجهل و رواسب التاريخ، و ظروف البيئة و ملابساتها، و عدم اختلاط البلد المتأخر بالبلد المتقدم «۱»، و لو لا اختلاط المسلمين في صدر الإسلام بغيرهم من الشعوب و الأمم المتحضرة لم يكن لحضارة المسلمين عين و لا أثر .. أجل، لقد كان الإسلام هو الحافز على ذاك الاختلاط ..

و بالاختصار ان أسباب التقدم أو التأخر ليست كامنة في طبيعة المسلمين، و لا في طبيعة المسيحيين، و لا في طبيعة اللادينيين، بل للظروف و الأحوال الاجتماعية تأثير بالغ .. و سنعود الى موضوع الجبر و التفويض ببيان أطول واضح حين نصل الى آياته، و قد شرحناه مفصلا في كتاب «معالم الفلسفة الاسلامية»، و كتاب «مع الشيعة الإمامية».

(١) ان الدين تماما كالسلطة التشريعية، أما التنفيذ فعلى غيره، و قد فشلت الأمم المتحدة في الكثير من مهمتها، و أيضا فشلت مؤتمرات السلام في تحقيقه، و فشلت لقاءات الحكام و اجتماعات القمة، و دول عدم الانحياز و غيرها، و ما أكثر الفاشلين، و لم تكن المسئولية عليهم، فكيف يحمل الإسلام مسؤولية المنتمين اليه بالاسم؟

تفسير الكاشف، ج ١، ص ٧٤

[سورة البقرة (٢): الآيات ٢٨ الى ٢٩]

كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللهِ وَ كُنْتُمْ أَمْواٰتاً فَأَحْيٰاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٨) هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مٰا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ اسْتَوىٰ إِلَى السَّمٰاءِ فَسَوّٰاهُنَّ سَبْعَ سَمٰاوٰاتٍ وَ هُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٢٩)

كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللهِ؟ الآية ٢٨- ٢٩:

الاعراب:

كيف اسم استفهام، يسأل بها عن الكيف، و هي الحال، كما يسأل بكم عن الكم، و هو العدد، و بأين عن المكان، و بمتى عن الزمان، و محل كيف النصب على الحال من تكفرون، و هي متضمنة هنا معنى الإنكار و التعجب، و الضمير من (سوّاهن) يعود الى السماء، لأنه اسم جنس يصح إطلاقه على القليل و الكثير و (سبع سماوات) بدل من الضمير، و هو (هنّ). و قيل:

بل تمييز مفسر لهذا الضمير، و قيل: يجوز أن تكون (سبع سماوات) مفعولا ثانيا لسواهن، لأنها بمعنى صيرهن .. و جميعا حال من **(مٰا فِي الْأَرْضِ)**.

الإنسان بذاته برهان:

الظاهر من سياق الكلام ان الخطاب في هاتين الآيتين موجه الى من لا يجدي معه ضرب الأمثال شيئا، و لكنه في واقعه يشمل كل من كفر باللّه، مع وجود هذه الدلائل و البراهين التي لا يبلغها الإحصاء، منها هذا الكافر الجاحد، فانه هو بالذات برهان واضح على وجود خالقه، و إلا فمن الذي أوجده على هذا النظام الدقيق، و وضع كل شيء منه في مكانه الخاص به من خلايا المخ و القلب، الى الأمعاء و الكبد، الى السمع و البصر، الى الاطراف و الشرايين، الى ما لا نهاية .. و كل يؤدي مهمته بدقة بالغة دون تعهد و اشراف من مخلوق .. و أيضا

تفسير الكاشف، ج ١، ص ٧٥

من أين جاء هذا الفهم و العقل الذي به قرّب البعيد، و سهل العسير، و جمع ما في الأرض في بيت واحد، ثم ارتقى و وضع آثاره و معالمه على سطح القمر ..

فهل هذا و غير هذا جاء صدفة و عفوا؟ و هل في خصائص الأشياء ما يؤدي الى هذا التنسيق و التنظيم؟ و هل يستطيع العلم ان يجيب على ذلك؟ و بالأصح هل الاجابة عنه من اختصاص العلم التجريبي؟.

و حاول من حاول أن يجيب .. و لكن تولد من سؤاله ألف سؤال و سؤال ..

نحن لا ننكر أبدا ان علماء الطبيعة قد توصلوا الى حقائق باهرة مذهلة في الطب و الزراعة و الصناعة .. و لكن علماء

الحياة ما زالوا ينظرون في فراغ، و هم يبحثون عن سرها و أصلها، و لا شيء لديهم سوى ظنون لا تغني عن الحق شيئا .. و بديهة ان كل ما تعجز الطبيعة عن تفسيره يتحتم تفسيره بما وراءها.

و إذا كان وجود الإنسان هو البرهان القاطع على وجود اللّه سبحانه فكيف ساغ لهذا البرهان أن يجحد الدلالة الملازمة له؟ كيف ساغ للفصيح البليغ أن يجحد فكرة الفصاحة و البلاغة من الأساس؟. و هنا يكمن سر التعجب في قوله سبحانه: «كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللهِ وَ كُنْتُمْ أَمْواتاً فَأَحْياكُمْ» أي ما أعجب أمركم و كفركم باللّه، و أنتم بالذات الدليل الواضح القاطع على وجوده .. و مهما أنكرتم و كابرتم، فهل تستطيعون أن تنكروا و تكابروا في انكم لم تكونوا شيئا من قبل، فصرتم شيئا يسمع و يرى، و يحس و يدرك، و يقول و يفعل؟. أليس هذا دليلا ناطقا بوجود القوة الخالقة؟ .. حقا ان الإنسان لظلوم كفّار .. و ما كفره بوجود اللّه الا كفر و جهل بوجوده هو «١» .. و من جهل نفسه فأولى به أن ينكر و يجهل غيره .. و بهذا نجد تفسير الحديث الشريف: «أعرفكم بنفسه أعرفكم بربه».

و تقول: و أي عاقل ينكر وجود نفسه؟ و هل يعقل ذلك؟.

و نجيب: ان الدليل يستلزم المدلول، و انكار اللازم يستدعي حتما انكار

---

(١) قال شارلي شبلن السينمائي العالمي الذي فاقت شهرته شهرة غاندي: «ان في مملكة المجهول طاقة خيرة لا حد لها». و قال كيركجارد: «ان اللّه يتجلى للنفس اليائسة في أحلك لحظات اليأس، و في أسفل دركات الخطيئة».

تفسير الكاشف، ج ١، ص ٧٦

الملزوم، فمن أنكر دلالة الألفاظ – مثلا – على ما وضعت له من المعاني فقد أنكر الألفاظ بالذات، من حيث يريد أو لا يريد، و لا يجديه أن يعترف بها في حين انه ينكر دلالتها .. و هذا هو الشأن في الجاحد، فان وجوده دليل وجود الخالق، و وجود الخالق سبحانه مدلول له، فإذا أنكر هذا المدلول فقد أنكر الدليل، و هو الجاحد بالذات من حيث لا يحس و لا يشعر ..

و هكذا يفعل الجهل بصاحبه، يفصله عن نفسه، و عن الطبيعة التي يعيشها و يحياها، و يحمله من حيث لا يشعر على أن يجحد أوضح الواضحات، و يؤمن بالأساطير و السخافات.

موتتان و حياتان:

المراد بالموتة الأولى المشار اليها بـ(كنتم أمواتا) المراد بها العدم السابق، و المراد بالاحياء الأول (فأحياكم) الخلق بعد العدم، و الموت الثاني (ثم يميتكم) هو الموت المعهود، و الأحياء البعث للحساب و الجزاء (ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ).

و تسأل: هل الروح تفارق الجسد بعد نفاد قواه الموجبة للحياة، بحيث لو بقيت هذه القوى مئات السنين لبقي الإنسان معها حيا، أو انه من الممكن أن تفارق الروح الجسم، حتى مع وجود القوى بكاملها، و دون أن يطرأ أي خلل على الجسم؟

ذهب الماديون الى الأول، و قال غيرهم بالثاني، أما قوله تعالى: «فَإِذا جاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ ساعَةً وَ لا يَسْتَقْدِمُونَ–

الاعراف ٣٣»، أما هذه الآية فتحتمل الوجهين، لأنها لم تبين سبب الأجل: هل هو فساد الجسم، أو شيء آخر؟ و أما قوله سبحانه: «الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيارِهِمْ وَ هُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقالَ لَهُمُ اللهُ مُوتُوا- البقرة ٢٤٣». و قوله: «قالَ أَنَّى يُحْيِي هذِهِ اللهُ بَعْدَ مَوْتِها فَأَماتَهُ اللهُ مِائَةَ عامٍ- البقرة ٢٥٩». أما هاتان الآيتان فإنهما قضيتان في واقعتين لا تتعديانهما الى بقية الوقائع، كما هو الشأن في القواعد العامة، و المبادئ الكلية.

و مهما يكن، فلا شيء لدينا يوجب القطع و الجزم، و لكن الذي نشاهده

تفسير الكاشف، ج ١، ص ٧٧

بالوجدان ان كثيرا من الناس يدركهم الموت، و هم في مقتبل العمر، و أوج الصحة و السلامة، و ان كثيرا منهم يسرحون و يمرحون، و هم في سن متقدمة، و فيهم أكثر من داء .. و كم من طبيب ماهر قال لمريضه: ستموت بعد ساعات، فعاش سنوات .. و قد يحدث العكس.

البعث:

البعث هو الأصل الثالث من أصول الإسلام بعد التوحيد و النبوة اللذين سبق الكلام عنهما، و قد أخبر اللّه بالمعاد في قوله: «ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ» ..

و استدل أو قرّب سبحانه إمكان البعث و جوازه في العديد من الآيات، منها:

«أَ وَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللهَ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ وَ لَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقادِرٍ عَلى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتى- الأحقاف ٣٣». و منها: «يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْناكُمْ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ» و ما الى ذلك مما سنتعرض له من الآيات.

و ليس من شك ان من خلق الشيء من لا شيء يهون عليه ان يجمع أجزاءه ثانية بعد انحلالها و تفرقها، بل الجمع أهون و أيسر من الخلق و الإيجاد .. و من بنى قصرا يكون بناء الكوخ عليه أيسر «١».

و لي كتاب خاص في هذا الموضوع، و هو كتاب «الآخرة و العقل» طبع أكثر من مرة، ثم أدرج في كتاب «الإسلام و العقل».

ما في الأرض:

بعد ان ذكّر اللّه سبحانه الإنسان بنعمة الوجود عليه ذكّره بكثرة النعم عليه

---

(١) في سنة ١٩٥٩ ألف مصطفى محمود المصري كتاب اللّه و الإنسان أنكر فيه اللّه و البعث، و ألفت في الرد عليه كتاب اللّه و العقل، و طبع حتى الآن خمس مرات. و بتاريخ ١٠- ٤- ١٩٦٧، قرأت لمصطفى محمود مقالا في مجلة «روز اليوسف» قال فيه ما نصه بالحرف الواحد: «ان ايماني يلح علي بأني كنت موجودا قبل حياتي هذه باسم آخر، و انني بعد موتي لن أفنى، و إنما سأعود إلى الحياة بشكل أو بآخر، و ان الحياة مستمرة». [.....]

تفسير الكاشف، ج ١، ص ٧٨

من المأكل و المشرب و الملبس و المركب و المنظر، و ما الى ذاك من متع الأرض و خيراتها التي لا تدخل في حساب.

و استدل الفقهاء بقوله تعالى: «هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مٰا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً» على ان الأشياء قبل ورود الشرع على الاباحة، و انه ليس لمخلوق أن يحرم شيئا الا بدليل: «قُلْ أَ رَأَيْتُمْ مٰا أَنْزَلَ اللّٰهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرٰاماً وَ حَلاٰلاً قُلْ آللّٰهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللّٰهِ تَفْتَرُونَ- يونس ٥٩».

و ربما يستدل بهذه الآية الكريمة على ان الأرض لا تملك، و ان الذي يجوز تملكه هو ما تنتجه الأرض، لأنه قال عز من قائل: خلق لكم ما في الأرض و لم يقل خلق لكم الأرض ..

سبع سموات:

معنى «اسْتَوىٰ إِلَى السَّمٰاءِ» قصد اليها، «فَسَوّٰاهُنَّ» خلقهن، و ذكر السبع بالخصوص لا يدل على الحصر بها، و لا ينفي أبدا وجود غيرها .. فلقد أثبت العلماء في علم الأصول و اللغة ان العدد لا مفهوم له، فمن قال: إني أملك سبع كتب لا يدل قوله هذا على انه لا يملك غيرها، و يؤيد ذلك ان اللّه تعالى حين خاطب نبيه (ص) بقوله: «إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللّٰهُ لَهُمْ- التوبة ٨٠». قال الرسول الأعظم (ص): لو أعلم ان اللّه يغفر لهم لو زدت على السبعين لفعلت .. و قد يكون السبب لذكر السبع ان لها خصائص لا توجد في سائر السماوات.

[سورة البقرة (٢): الآيات ٣٠ الى ٣٣]

وَ إِذْ قٰالَ رَبُّكَ لِلْمَلاٰئِكَةِ إِنِّي جٰاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قٰالُوا أَ تَجْعَلُ فِيهٰا مَنْ يُفْسِدُ فِيهٰا وَ يَسْفِكُ الدِّمٰاءَ وَ نَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَ نُقَدِّسُ لَكَ قٰالَ إِنِّي أَعْلَمُ مٰا لاٰ تَعْلَمُونَ (٣٠) وَ عَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمٰاءَ كُلَّهٰا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلاٰئِكَةِ فَقٰالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمٰاءِ هٰؤُلاٰءِ إِنْ كُنْتُمْ صٰادِقِينَ (٣١) قٰالُوا سُبْحٰانَكَ لاٰ عِلْمَ لَنٰا إِلاّٰ مٰا عَلَّمْتَنٰا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٣٢) قٰالَ يٰا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمٰائِهِمْ فَلَمّٰا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمٰائِهِمْ قٰالَ أَ لَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ وَ أَعْلَمُ مٰا تُبْدُونَ وَ مٰا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ (٣٣)

وَ إِذْ قٰالَ رَبُّكَ لِلْمَلاٰئِكَةِ الآية ٣٠- ٣٣:

تفسير الكاشف، ج ١، ص ٧٩

المراد من الأسماء في قوله تعالى: «وَ عَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمٰاءَ كُلَّهٰا» المراد بها معاني الأسماء، و هي أشياء الكون و خواصها و صفاتها، قال صاحب مجمع البيان:

ان الأسماء بلا معان لا فائدة فيها، و لا وجه للاشارة الى فضلها» .. و سئل الإمام الصادق (ع) عنها، فقال: الجبال و الأودية .. ثم أشار إلى بساط تحته، و قال:

هذا منها. أي كل شيء، حتى هذا البساط.

الملائكة:

لا وسيلة إلى معرفة الملائكة و حقيقتهم بالحس و التجربة، و لا بالعقل و الأقيسة، و لا بشيء إلا بطريق الوحي من اللّه على لسان أنبيائه و رسله، فمن يؤمن بالوحي يلزمه حتما أن يؤمن بالملائكة بعد أن أخبر الوحي عنهم بوضوح لا يقبل التأويل، و من ينكر الوحي من الأساس فلا يجوز الحديث معه عن الملائكة بحال، لأنهم فرع، و الوحي أصل .. فان كان و لا بد من الكلام و النقاش معه فينبغي أن يكون حول فكرة الوحي و صحتها فقط ..

و لا نريد هنا نقاش من ينكر الوحي، فلقد سبق الكلام مفصلا عن ذلك، و انما نقول للمنكر: لا يحق لك أن تفرض رأيك على من يؤمن بالوحي، و إلا جاز له أيضا أن يفرض رأيه عليك .. و إذا قلت- الحطاب للمنكر- لمن يؤمن

تفسير الكاشف، ج ١، ص ٨٠

بالوحي: إن إيمانك هو باطل، لأنه لا يستند الى التجربة أجابك بأن قطعك و إيمانك بأن الوحي باطل أيضا لا يستند الى التجربة، لأن النفي منك، و الثبوت من المؤمن موضوعه واحد، و هو الوحي، فإذا كانت التجربة لا تثبت الوحي فهي أيضا لا تنفيه، و التفكيك محال .. و بكلمة ان الإيمان بعدم صحة الغيب تماما كالإيمان بصحته كلاهما غيب في غيب، و بديهة ان الغيب لا يصح نقده بغيب مثله .. قال سارتر الأديب و الفيلسوف الفرنسي الشهير، و هو يرد على الماديين: «انكم إذ تنكرون وجود اللّه تسترسلون في الغيب تماما كالمثاليين الذين يسلمون بوجود اللّه .. ان يقين المادي بنفي الغيب يعتمد على نفس الدليل الذي اعتمده المؤمن ليقينه بصحة الغيب .. و بهذا يتبين ان المادي يناقض نفسه بنفسه» «١».

الخليفة:

المراد من الخليفة في قوله تعالى: «**إِنِّي جاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً**» هو آدم أبو البشر، و كل انسان وجد، أو سيوجد من نسله في كل زمان و مكان ..

و وجه تسميته بالخليفة ان اللّه سبحانه أو كل للإنسان زمام هذه الأرض، و الكشف عما فيها من قوى و منافع، و الاستفادة منها.

و يظهر من قول الملائكة: «**أَ تَجْعَلُ فِيها مَنْ يُفْسِدُ فِيها وَ يَسْفِكُ الدِّماءَ**»، يظهر منه ان اللّه سبحانه قد أعلم ملائكته بطريق من الطرق، و قبل أن يخلق آدم، أعلمهم بأن الإنسان لو وجد في هذه الأرض لعصى بالفساد و سفك الدماء «٢» و من هذا عظم الأمر عليهم، و تعجبوا كيف يوجد اللّه من يعصيه، و هم يسبحون بحمده، و يقدسون له .. فأبان لهم سبحانه الحكمة من خلق الإنسان، و ان فيه

---

(١) انظر فصل سارتر و المذهب المادي من كتابنا «فلسفة المبدأ و المعاد» الذي ألفناه للرد على الفلسفة المادية و ابطالها.

(٢) و قيل كان في الأرض العديد من الآدميين قبل آدمنا، و انهم أفسدوا فيها كما أفسدنا، ثم انقرضوا ... و الملائكة على علم من ذلك.

تفسير الكاشف، ج ١، ص ٨١

استعدادا لعلم ما لم يعلموا، و ان فساده في الأرض لا يذهب بالفائدة من وجوده، و عندها اقتنع الملائكة و أذعنوا.

هذا، الى ان اللّه سبحانه لم يخلق الإنسان، ليرتكب المعاصي و الرذائل، بل خلقه للعلم و العمل النافع، و نهاه عن الإفساد و الإضرار، فان خالف و عصى عوقب بما يستحق.

و تدل هذه الآية على ان للعلم و معطياته مكانة عظمى عند اللّه و ملائكته، لأنه سبحانه قد برر خلق الإنسان بقابليته للعلم و المعرفة .. و حين أطلع الملائكة على ذلك اعتذروا قائلين: «**سُبْحانَكَ لا عِلْمَ لَنا إِلَّا ما عَلَّمْتَنا**». و إذا كانت الغاية من خلق الإنسان العلم و العمل فمن ترك و أهمل فقد نقض الحكمة من وجوده، و خالف الفطرة التي فطره اللّه عليها.

و أخشى ان أقول: ان الملائكة لو علموا حينذاك بتأثير القنبلة الذرية و الهيدروجينية، و قنابل النابالم التي تستعملها أمريكا في فييتنام لما أقنعهم شيء ..

و أستغفر اللّه الذي يعلم منا ما لا نعلمه نحن من أنفسنا.

درس بليغ:

و الدرس البليغ الذي يجب أن نستفيده من هذه المحاورة بين اللّه و ملائكته ان الإنسان بالغ ما بلغ من العلم و نزاهة القصد، و القوة و السلطان ليس بفوق ان يجادل و يناقش، و يشار عليه .. فاللّه سبحانه علا جلاله و عظمته قد فسح لملائكته مجال الحوار و المقال الذي هو أشبه بالاعتراض، و هم بدورهم لم يحجموا عن ذلك، بل أقدموا على علم منهم بعظمة اللّه و حكمته، و قد تلطف سبحانه في جوابهم، و أبان لهم برفق الدليل المحسوس الملموس، و أخذ اعترافهم بالرضى، و الاقتناع، لا بالزجر و الغلبة. بل ان اللّه سبحانه قد فتح باب الحوار معه لإبليس اللعين الذي راجعه بقوله: خلقتني من نار، و خلقته من طين ..

كما يأتي.

فعلى الذين يرون أنفسهم فوق الاعتراضات ان يتعظوا و يستفيدوا من هذا

تفسير الكاشف، ج١، ص ٨٢

الدرس البليغ .. انهم إذ ينزهون أنفسهم عن الرد و المراجعة يرتفعون بها فوق مكانة العزيز الجبار، من حيث لا يشعرون .. قال الإمام أمير المؤمنين (ع) في الخطبة ٢١٤:

«لا تخالطوني بالمصانعة، و لا تظنوا بي استثقالا في حق قيل لي، و لا التماس إعظام لنفسي، فانه من استثقل الحق ان يقال له، أو العدل ان يعرض عليه كان العمل بهما أثقل عليه، فلا تكفوا عن مقالة بحق، أو مشورة بعدل».

[سورة البقرة (٢): آية ٣٤]

وَ إِذْ قُلْنا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبى وَ اسْتَكْبَرَ وَ كانَ مِنَ الْكافِرِينَ (٣٤)

وَ إِذْ قُلْنا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا الآية ٣٤ و إبليس اسم ممنوع من الصرف، للعلمية و العجمة.

أمر اللّه سبحانه ملائكته بالسجود لآدم إظهارا لمزيته عليهم، و على جميع مخلوقاته، و لا تفسير ظاهر لهذه الميزة الا فضيلة العلم، و التعظيم من شأن حامله، لأن العلم، كما ثبت بالوجدان، هو المقياس لكل خطوة تخطوها البشرية الى الرقي و الرخاء و الكمال، كما ان الجهل أساس الحاجة و التخلف، و ما تفوق من تفوق على غيره الا بالعلم .. فالعالم دائما متبوع، و الجاهل دائما تابع .. و من أجل هذا فرض الإسلام العلم على كل مسلم و مسلمة.

و قال أكثر المفسرين: كان السجود لمجرد التحية، تماما كالانحناء و رفع اليد، لأن السجود لغير اللّه محرم .. و هذا غير صحيح على حد تعبير صاحب مجمع البيان، لأنه لو كان كذلك لمّا امتنع إبليس عن السجود .. و بديهة ان السجود بأمر اللّه تعالى طاعة للّه، لا لآدم.

و قد كان الأمر بالسجود للملائكة كافة دون استثناء، حتى لجبريل و ميكائيل بدليل قوله تعالى: «فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ- الحجر ٣١».

تفسير الكاشف، ج١، ص ٨٣

و اختلفوا في حقيقة إبليس: هل هو من الملائكة، أو من الجن؟ و الصحيح انه من الجن، و عليه يكون الاستثناء منقطعا،

و الدليل قوله سبحانه: «وَ إِذْ قُلْنا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ كانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ- الكهف ٥١».

و لا طريق إلى معرفة إبليس و الشياطين و الجن إلا الوحي، تماما كما هو الشأن في الطريق الى معرفة الملائكة .. و سبق الكلام عن ذلك في الآية المتقدمة.

و تعرض المفسرون هنا لبحوث لا طائل تحتها .. لذا أعرضنا عنها مقتصرين على ما دل عليه ظاهر اللفظ .. و قد أشرنا في الصفحات السابقة الى بعض ما يعزى الى إبليس من الأساطير، لأنها صورة واضحة لأكثر أهل هذا العصر في مغالطاتهم و تلاعبهم بالألفاظ التي لا تمت بشيء إلى علم أو فن أو أي شيء سوى السفسطة و الشعوذة.

[سورة البقرة (٢): الآيات ٣٥ الى ٣٩]

وَ قُلْنا يا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَ زَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَ كُلا مِنْها رَغَداً حَيْثُ شِئْتُما وَ لا تَقْرَبا هذه الشَّجَرَةَ فَتَكُونا مِنَ الظَّالِمِينَ (٣٥) فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطانُ عَنْها فَأَخْرَجَهُما مِمَّا كانا فِيهِ وَ قُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَ مَتاعٌ إِلى حِينٍ (٣٦) فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِماتٍ فَتابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (٣٧) قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْها جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدىً فَمَنْ تَبِعَ هُدايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لا هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٨) وَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ كَذَّبُوا بِآياتِنا أُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ (٣٩)

وَ قُلْنا يا آدَمُ اسْكُنْ الآية

تفسير الكاشف، ج ١، ص ٨٤

الإعراب:

زوجك معطوف على الفاعل، و رغدا قائم مقام المفعول المطلق، و التقدير أكلا رغدا، أي واسعا، و الشجرة بدل من هذه، و فتكونا منصوبة بأن مضمرة بعد الفاء، و بعضكم مبتدأ، و عدو خبر، و لبعض متعلق بعدو، و إمّا موئلفة من كلمتين ان الشرطية، و ما الزائدة، و انما زيدت للتوكيد، و هي التي سوغت دخول نون التوكيد على يأتينّكم، تماما كقوله تعالى: فَإِمَّا تَرَيِنَّ، و قوله: وَ إِمَّا يَنْزَغَنَّكَ.

المعنى:

أمر اللّه سبحانه آدم و حواء بسكنى الجنة، و أباح لهما كل ما فيها، ما عدا شجرة واحدة فانه جل و عز نهاهما عنها، و لكن الشيطان أغراهما بالأكل منها، و لما استجابا له اقتضت حكمته تعالى إخراجهما من الجنة الى الأرض، و ابتلاءهما بالتكليف و العمل، و الصحة و السقم، و الشدة و الرخاء، ثم الموت حين يأتي الأجل، و شعر آدم بالنكبة فندم، و سأل ربه مخلصا أن يقبل توبته فقبل منه، و غفر له، لأن اللّه تواب رحيم .. و احسب ان حواء تابت أيضا مع آدم، و لكن اللّه سبحانه لم يشر الى توبتها، و لا فرق عند اللّه بين الذكر و الأنثى، فمن أطاع و عمل صالحا أسكنه الجنة و أرضاه، و من تمرد و عصى أدخله النار و أخزاه ذكرا كان أو أنثى.

و قد تعرض كثير من المفسرين الى الجنة التي خرج منها: ما هي حقيقتها؟

و أين كانت؟ و إلى الشجرة: هل هي التين أو القمح؟ و عن الحية التي دخل إبليس في جوفها، و عن المكان الذي هبط عليه آدم: هل هو الهند أو الحجاز؟

إلى غير ذلك مما جاء في الاسرائيليات، و لم يشر اليه القرآن الكريم، و لا ثبت في السنة النبوية بالطريق الصحيح، و لا يملك العقل معرفة شيء منها، و لا تتصل بالحياة من قريب أو بعيد .. أجل لا بد من التنبيه الى الأمور التالية:

تفسير الكاشف، ج ١، ص ٨٥

حواء و ضلع آدم:

من الشائع ان حواء خلقت من ضلع آدم .. و لا مصدر صحيح لهذه الاشاعة ..

و الخبر الذي جاء به غير معتمد، و على تقدير صحته فان المراد منه الاشارة الى المساواة و عدم الفرق بين الرجل و المرأة، و انها منه، و هو منها .. بل عن كتاب «ما لا يحضره الفقيه» ان الإمام الصادق (ع) حين سئل عن صحة هذه الاشاعة استنكرها، و قال: تعالى اللّه عن ذلك علوا كبيرا .. هل عجز اللّه أن يخلق لآدم زوجة من غير ضلعه .. حتى ينكح بعضه بعضا ..

ضعف الارادة وسيلة للحرمان:

اقتضت حكمة اللّه سبحانه أن يمكث آدم و زوجه في الجنة بعض الوقت، ثم يخرجا منها لسبب، هما اللذان أوجداه، و أخذا به بملء ارادتهما و اختيارهما، و لو لا ذلك لبقيا في الجنة الى الأبد ينعمان فيها من غير كد و عناء.

و أيضا اقتضت حكمته تعالى أن يستقر آدم و حواء في هذا الأرض الى حين يتناسلان و يكدحان و كذلك النسل و الذرية، و في الوقت نفسه يسأل الجميع عما يأتون من أقوال و أفعال .. كما اقتضت حكمته تعالى أن يعود آدم و زوجه الى الجنة بعد الموت، و يخلدا فيها إلى ما لا نهاية «١».

و تسأل: ما هي الحكمة من دخول آدم الجنة، ثم الخروج منها الى الأرض، ثم خروجه و عودته ثانية الى الجنة بعد الموت؟

الجواب: ربما كانت الحكمة أن يمر آدم بتجربة ينتفع بها، و يستفيد منها هو و أبناؤه من بعده، و ان يعود الى هذه الأرض مزودا بهذه التجربة المفيدة النافعة، و أعني بها ان الإنسان لا يستطيع أبدا أن يعيش في فوضى، و كما يريد من غير مقاييس و معايير، و ان من راعاها مالكا لإرادته غير مندفع مع ميوله عاش في هناء و سعادة لا تحديد لها و لا نهاية، و ان من استخف بالقيم و ضعف

---

(١) جاء في الاخبار ان آدم يكنى في الجنة بأبي محمد توقيرا و تعظيما، و لا يكنى في الجنة انسان غيره.

تفسير الكاشف، ج ١، ص ٨٦

أمام شهوته أصاب ما أصاب آدم من العناء و الندم، و ابتلي بالمشقة و المصاعب.

عصمة الأنبياء:

اتفق المسلمون على ان آدم من الأنبياء، و الأنبياء كما هو المرتكز في الذهن منزهون عن الزلل .. اذن فما معنى قوله تعالى: «**فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطٰنُ**»؟. من أجل هذا رأى العلماء انهم بحاجة ماسة الى البحث عن عصمة الأنبياء، ثم تفسير هذه

الآية و ما اليها في ضوء ما ينتهون اليه من النتائج .. و نحن نجمل القول عن ذلك فيما يلي، ليكون كالأصل في كل ما يتصل بهذا الموضوع.

و معنى عصمة النبي تنزيهه بحكم العقل عن الخطأ و الخطيئة في كل ما يتصل بالدين و أحكامه، بحيث يبلغ النبي من الطهر و القداسة، و العلم و المعرفة باللّه و ما يريده من عباده- مرتبة تستحيل معها المخالفة عمدا و سهوا، فمن أثبت العصمة للأنبياء بهذا المعنى، و بشتى أقسامها الآتية أوّل الآيات التي تتنافى بظاهرها مع هذا المبدأ تمشيا مع القاعدة الكلية، و هي وجوب تأويل النقل بما يتفق مع صريح العقل. و من نفى العصمة عن الأنبياء أبقى الظاهر على ظاهره .. و لعلماء المذاهب في العصمة أقوال تختلف باختلاف هذه الأقسام:

١- العصمة في العقيدة و أصول الدين، أي تنزيه النبي عن الكفر و الإلحاد، و ما اليه .. و هذه ثابتة لكل نبي بالبديهة و الاتفاق، إذ لا يعقل أن يكفر النبي بالذي اختاره للنبوة.

٢- العصمة في التبليغ عن اللّه تعالى، فإذا قال: ان اللّه يأمر بهذا، و ينهى عن ذاك فالأمر على ما قال.

و اتفق الشيعة الإمامية على ثبوت هذه العصمة لكل نبي، لأن الغرض من التبليغ حمل المكلفين على الحق، فان أخطأ المبلغ انتقض الغرض من تبليغه، و يؤيده قوله تعالى: مٰا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوىٰ إِنْ هُوَ إِلاّٰ وَحْيٌ يُوحىٰ. و قوله: «وَ مٰا آتٰاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَ مٰا نَهٰاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا». و بكلمة ان القول بعصمة الأنبياء لا ينفك أبدا عن القول بأن قولهم و فعلهم و تقريرهم حجة و دليل.

و بعد ان قال الرازي في تفسيره: «اتفقوا- أي المسلمون- على ان الخطأ

تفسير الكاشف، ج ١، ص ٨٧

في التبليغ لا يجوز عمدا و لا سهوا». قال: «و من الناس من جوز ذلك سهوا».

و لا أدري من عنى بهؤلاء الناس؟.

٣- العصمة في الفتيا، و معنى الفتيا ان يفتي النبي بشيء عام، كتحريم الربا، و تحليل البيع، ذكر هذا القسم الرازي في تفسيره، و قال: «اجمعوا على ان خطأ الأنبياء لا يجوز في ذلك على سبيل العمد، أما على سبيل السهو فجوزه بعضهم، و منعه آخرون».

و يلاحظ ان هذا القسم يرجع الى القسم الثاني، أي التبليغ .. و ينبغي أن يجعل القسم الثالث العصمة في الحكم لا في الفتوى «١».

و اتفق الإمامية على ان النبي معصوم عن الخطأ في الحكم، كما هو معصوم في التبليغ، مع انهم نقلوا عن الرسول الأعظم (ص) انه قال: «انما أقضي بينكم بالبينات و الايمان .. أنا بشر و انكم تختصمون إليّ، و لعل بعضكم يكون ألحن بحجته من بعض- أي أفطن من خصمه- فاحكم له على نحو ما أسمع منه، فمن قضيت له بشيء من حق أخيه فلا يأخذ منه شيئا، فإنما أقطع له قطعة من نار» .. اللهم الا أن يكون الخطأ في حكمه- على تقديره- انما هو في البينة، أو في يمين الحالف، أو ما أشبه، أي في مستند الحكم لا في الحاكم.

٤- العصمة في أفعال الأنبياء، و سيرتهم الخاصة .. و قال الايجي في الجزء الثامن من المواقف: «ان الحشوية أجازوا على الأنبياء فعل الذنوب الكبائر، كالكذب عمدا و سهوا، و منعه جمهور الأشاعرة- أي السنة- عمدا لا سهوا، أما الصغائر فتجوز عليهم عمدا فضلا عن السهو».

و قال الإمامية: ان الأنبياء معصومون في كل ما يقولون و يفعلون، تماما كما هم معصومون في العقيدة و التبليغ .. و يستحيل عليهم فعل الصغائر فضلا عن الكبائر، و لن تصدر منهم إطلاقا لا على سبيل القصد، و لا على سبيل السهو، لا قبل النبوة و لا بعدها.

---

(١) الفرق بين الحكم و الفتوى ان موضوع الحكم لا يكون إلا خاصا، كحكم القاضي بأن هذا العقد الذي جرى بين زيد و بكر باطل، أما موضوع الفتوى فعام كأحل اللّه البيع، و حرم الربا.

تفسير الكاشف، ج ١، ص ٨٨

و قد أوّلوا كل آية لا يتفق ظاهرها مع هذا المبدأ، و قالوا في أكل آدم من الشجرة ان النهي عنها لم يكن نهي تحريم و تعبد، كما هو الشأن في «لا تزن .. لا تسرق» بل نهي ارشاد و نصيحة، تماما كقولك لمن تريد له الخير:

لا تشتر هذا الثوب، لأنه ليس بجيد، فإذا لم يسمع منك لم يفعل محرما، و لم يظلم أحدا، و انما ظلم نفسه، و فعل ما كان الأولى به ان لا يفعله .. و بديهة ان الأكل من الشجرة لم يترتب عليه ظلم أي انسان سوى الآكل، و عليه يكون معنى التوبة من آدم التوبة من فعل المرجوح و المفضول، و ترك الأفضل و الأرجح ..

هذا، الى أن أمر التوبة سهل يسير، فان الأنبياء و الأبرياء دائما يرددون قول:

«أستغفر اللّه و أتوب اليه» .. و كفى دليلا على ذلك دعاء الإمام زين العابدين في الصحيفة السجادية المعروف بدعاء التوبة الذي جاء فيه: اللهم اني أعتذر اليك من جهلي، و استوهبك سوء فعلي.

أهل البيت:

و بالمناسبة قال محيي الدين المعروف بابن عربي في كتابه الكبير الفتوح المكية ج ١ ص ١٩٦ الطبعة القديمة: «ان اللّه سبحانه طهر نبيه و أهل بيته بدليل قوله تعالى: إِنَّمٰا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَ يُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً- الأحزاب ٣٣» .. و الرجس في اللغة القذر، و لا شيء أقذر من الذنوب ..

و عليه فلا يضاف لأهل البيت إلا مطهر مقدس، بل هم عين الطهارة» .. ثم قال ابن عربي: ان سلمان الفارسي معصوم أيضا، لأن أهل البيت معصومون بشهادة اللّه، و قد ثبت عن رسول اللّه انه قال: سلمان منا أهل البيت، فيكون سلمان معصوما بشهادة اللّه و رسوله.

و قال في الجزء الثاني من الكتاب المذكور ص ١٢٧: «لا يبقى في النار موحد ممن بعث اليه رسول اللّه لأن النار ترجع على الموحدين بردا و سلاما ببركة أهل البيت في الآخرة، فما أعظم بركة أهل البيت!».

تفسير الكاشف، ج ١، ص ٨٩

[سورة البقرة (٢): الآيات ٤٠ الى ٤٦]

يٰا بَنِي إِسْرٰائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَ أَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَ إِيَّايَ فَارْهَبُونِ (٤٠) وَ آمِنُوا بِمٰا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقاً لِمٰا مَعَكُمْ وَ لاٰ تَكُونُوا أَوَّلَ كٰافِرٍ بِهِ وَ لاٰ تَشْتَرُوا بِآيٰاتِي ثَمَناً قَلِيلاً وَ إِيَّايَ فَاتَّقُونِ (٤١) وَ لاٰ تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبٰاطِلِ وَ

تَكْتُمُوا الْحَقَّ وَ أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٤٢) وَ أَقِيمُوا الصَّلاٰةَ وَ آتُوا الزَّكاٰةَ وَ ارْكَعُوا مَعَ الرّٰاكِعِينَ (٤٣) أَ تَأْمُرُونَ النّٰاسَ بِالْبِرِّ وَ تَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَ أَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتٰابَ أَ فَلاٰ تَعْقِلُونَ (٤٤)

وَ اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَ الصَّلاٰةِ وَ إِنَّهٰا لَكَبِيرَةٌ إِلاّٰ عَلَى الْخٰاشِعِينَ (٤٥) الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاٰقُوا رَبِّهِمْ وَ أَنَّهُمْ إِلَيْهِ رٰاجِعُونَ (٤٦)

يٰا بَنِي إِسْرٰائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الآية ذكر اللّه سبحانه اليهود في العديد من آي الذكر الحكيم، و بينت هذه الآيات نعم اللّه على اليهود، و جحودهم بها و قتلهم الأنبياء بغير الحق، و معاندتهم لموسى و هارون، و عبادتهم العجل، و استعباد الفراعنة لهم، ثم تحريرهم من العبودية و الاضطهاد، و نجاتهم من الغرق، و انزال المنّ و السلوى عليهم، ثم كرههم و مؤامراتهم ضد محمد (ص) و عداءهم الشديد للمسلمين و للحق و أهله الى غير ذلك من المواقف و المشاهد التي يأتي بيانها بالتفصيل .. و قد حوت سورة البقرة التي ذبحوها، و ما كادوا يفعلون، حوت الكثير من صفاتهم و أعمالهم.

الاعراب:

إسرائيل مجرور بالاضافة، و منع من الصرف للعجمة و التعريف، و إياي

تفسير الكاشف، ج ١، ص ٩٠

ضمير منصوب على انه مفعول لفعل محذوف دل عليه الموجود أي ارهبوا إياي، و لا يجوز أن يكون مفعولا لما بعد الفاء، لأن ما بعدها لا يعمل بما قبلها، و ترهبون تقديره ترهبوني، حذفت الياء للتخفيف، و موافقة رؤوس الآيات، و مثله فاتقون، و أنزلت مفعوله محذوف تقديره أنزلته، و مصدقا حال منه.

مظاهر الحياة:

ان أكثر مظاهر الحياة التي يعيشها الإنسان هي نتاج حتمي لتاريخ طويل، فكيفية اللباس الذي نلبسه، و طهي الطعام الذي نأكله، و هندسة البيت الذي نسكنه، كل أولاء، و ما اليها نتيجة لتصميم سابق، حتى مركب البخار إن هو إلا امتداد للمركب الهوائي بعد مروره بمراحل التطور .. ان التقاليد التاريخية تفعل فعلها تماما كسنن الطبيعة، كأمواج البحر تطفو على سطحه نتيجة للمد و الجزر .. فالوقائع الجزئية التي تحدث في حياتنا اليومية، و نوع العلاقات التي نقيمها مع الآخرين حسنة كانت أو سيئة كلها أو جلها امتداد للماضي البعيد أو القريب، و من هنا قال بعض الفلاسفة بحق: ان التاريخ طريق من طرق المعرفة، و صورة من صورها.

و هذه الآيات التي خاطب اللّه بها اليهود ترتبط ارتباطا وثيقا بتاريخهم، كما سنرى.

إسرائيل:

إسرائيل اسم ثان ليعقوب بن اسحق بن ابراهيم خليل الرحمن (ع)، فإسحاق أخ لإسماعيل جد نبينا محمد (ص)، و يلتقي اليهود و العرب جميعا في ابراهيم، قال تعالى: «مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرٰاهِيمَ» .. و جاء في مجمع البيان ان العرب كلهم من ولد إسماعيل، و أكثر العجم، أي غير العرب، من ولد اسحق.

و معنى إسرائيل في اللغة العبرية عبد اللّه، لأن «اسرا» هو العبد، و «ايل» هو اللّه .. و قد تلطف سبحانه في خطابه مع اليهود، حيث أضافهم الى النبي الكريم إسرائيل، ليذكرهم بهذا النسب الشريف، عسى أن يحرك فيهم شعور

تفسير الكاشف، ج ١، ص ٩١

الكرامة، ان كان في نفوسهم شيء منها، تماما كما تقول: يا ابن الأبرار، كن كآبائك و أجدادك .. و قد ذكّر أهل مريم ام

عيسى (ع) بآلها و أرحامها.

أما وجه تسميتهم باليهود فلأن سبطا منهم ينتمي الى يهوذا، و هو الابن الرابع للنبي يعقوب.

و في الفقرة التالية نعرض عرضا موجزا لتاريخ اليهود لصلته بالآيات الكريمة التي نحن بصددها.

تاريخ اليهود:

سيأتي في سورة يوسف ان النبي يعقوب (ع) هاجر بأولاده من فلسطين الى مصر، حيث يقيم ولده يوسف (ع) وزير فرعون في ذاك العهد، فأقطعهم فرعون إكراما ليوسف أرضا خصبة في مصر، و ظلت سلالة يعقوب هناك أمدا غير قصير .. و لكن الفراعنة الذين جاءوا فيما بعد اضطهدوا اليهود، و ساموهم الخسف و العذاب، فذبحوا الأبناء، و استحيوا النساء، و اتخذوا منهم خدما و عبيدا، ثم أرسل اللّه نبيا منهم و لهم، و هو موسى بن عمران (ع)، فحررهم من الظلم و الاستعباد، ثم طلب منهم العودة الى فلسطين، و قتال أهلها، و وعدهم النصر، فتقاعسوا جبنا و خورا، فكتب اللّه عليهم ان يتيهوا في صحراء سيناء أربعين سنة .. و يأتي التفصيل.

و في هذه البرهة توفي هارون، ثم أخوه موسى، فخلفه ابن أخته يوشع ابن نون. و حوالى القرن الثالث عشر قبل الميلاد أغار بهم يوشع على أرض فلسطين، فاحتلوها، و أبادوا معظم أهلها، و شردوا البقية الباقية، تماما كما صنع نسلهم الصهاينة في فلسطين سنة ١٩٤٨ «١». و بعد يوشع أرسل اللّه منهم الكثير من الأنبياء.

و في سنة ٥٩٦ ق. م. أغار على فلسطين ملك بابل، و هو «بختنصر»، فأزال ملكهم من فلسطين، و ذبح منهم كثيرا، و أسر كثيرا.

---

(١) نذكر من ذلك مثلين: الأول جمع الصهاينة في قرية دير ياسين ٢٥ امرأة حاملا، و بقروا بطونهن بالمدى و الحراب .. الثاني جمعوا أهل قرية الزيتونة في المسجد، ثم نسفوه بالديناميت على رؤوسهم.

تفسير الكاشف، ج١، ص ٩٢

و ظلوا في حكم بختنصر الى سنة ٥٣٨ ق. م.، حيث تغلب ملك الفرس على بختنصر، فتنفس اليهود الصعداء، و استمروا تحت سيطرة الفرس زهاء مائتي عام، و بعدها وقعوا تحت حكم خلفاء الإسكندر الكبير، ثم تحت سيطرة الرومان ..

و في سنة ١٣٥ ق. م. ثار اليهود على الرومان، و لكن هؤلاء تغلبوا على اليهود، و أخمدوا ثورتهم، ثم أخرجوهم من فلسطين، فهاموا على وجوههم في مختلف بقاع الأرض شرقا و غربا .. شرذمة في مصر، و أخرى في لبنان و سورية، و ثالثة في العراق، و رابعة في الحجاز، أما اليمن فقد عرفها اليهود، و رحلوا اليها للتجارة في عهد سليمان الذي تزوج ملكة اليمن بلقيس.

أما نعم اللّه عليهم التي أشار اليها بقوله: «**اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ**» فكثيرة، منها اختيار الأنبياء منهم كموسى و هارون و يوشع و داود و سليمان و أيوب و عزير و زكريا و يحيى و غيرهم، و مريم ام عيسى اسرائيلية ينتهي نسبها الى داود، و لكن اليهود لا يعترفون بالسيد المسيح ابن مريم (ع)، و يزعمون ان المسيح المذكور بالتوراة لم يأت بعد.

محمد و يهود المدينة:

حين هاجر الرسول (ص) من مكة الى المدينة كان فيها من اليهود ثلاث عشائر: بني قينقاع، و بني قريظة، و بني النضير، و قد أنشأوا فيها معاصر للخمور، و بيوتا للدعارة، و مراعي للخنازير، و كانوا يحتكرون صياغة الذهب و الفضة، و صناعة الأسلحة، و يتاجرون بالربا .. و بالإجمال كانوا هم السادة للحياة الاقتصادية بالمدينة .. شأنهم في ذلك اليوم شأنهم اليوم، حيث حلوا ..

و بعد مكوث النبي (ص) بالمدينة شعروا بالخطر المباشر على أرباحهم و امتيازاتهم، لأن شباب المدينة لن يترددوا بعد اليوم على حوانيتهم و مواخيرهم، و أهلها لن يأكلوا لحوم الخنازير .. و معنى هذا ان اليهود يفقدون جميع مصادر الثراء و الأرباح .. و من أجل هذا أخذوا يكيدون للرسول الأعظم (ص)، و يتآمرون مع المشركين ضد المسلمين، تماما كما تتآمر اليوم القوى الرجعية حرصا على مصالحها الشخصية.

تفسير الكاشف، ج١، ص ٩٣

و كأنّ النبي يوم دخل المدينة، و عرف أوضاعها قد تنبأ بذلك، و حسب له فأراد أن يلقي الحجة عليهم، و يأخذهم بأقوالهم .. فترفق بهم، و تلطف معهم، فأجرى عهدا بينه و بينهم، موقعا منه و منهم، على ان لهم الحرية التامة في دينهم، و أموالهم و معابدهم آمنين عليها، و على أنفسهم، على شريطة أن لا يعينوا عليه عدوا، و إذا اختاروا القتال معه فلهم نصيب من المغنم .. و عليهم أن يشتركوا مع المسلمين في الدفاع عن المدينة تحقيقا للوحدة الوطنية، لأن البلد للجميع، لا لفئة دون فئة .. و لكن سرعان ما نكثوا العهود ..

و متى صمدت العهود و المواثيق أمام تهديد المصالح؟ و هل من المعقول أن يقوم تعايش سلمي بين الغش و التغرير، و بين لا ضرر و لا ضرار، و كيف يعيش الذئب و الحمل تعايشا سلميا؟ و أي جدوى من التذكير بالنعم، و من التحذيرات و النصائح إذا اصطدمت مع المصالح الشخصية، و الصفقات التجارية؟.

جاء في كتاب محمد رسول الحرية: «أشار النبي (ص) على التجار المسلمين أن ينشئوا سوقا جديدة في المدينة .. فأنشأوها، و نشطت المعاملات فيها، و أقبل التجار الغرباء عليها، و آثروها على سوق اليهود، لأن قواعد التعامل فيها كانت أكثر عدلا، و أوفر ضمانا للبائع و المشتري».

و هذا وحده كاف لأن يملأ قلوب اليهود حقدا و غيظا على محمد، و يحملهم على نقض العهد، و الانتقام منه و من الإسلام بكل سبيل.

المعنى:

ابتدأ اللّه سبحانه خطابه مع اليهود بالتذكير بنعمه عليهم .. و من هذه النعم كثرة الأنبياء فيهم، و تشريفهم بالتوراة و الزبور، و تحريرهم من فرعون، و نجاتهم من الغرق، و انزال المن و السلوى عليهم، و اعطاؤهم الملك و السلطان في عهد سليمان، و غير ذلك مما يستوجب الإيمان و الشكر، لا الجحود و الكفر.

و تسأل: ان الخطاب موجه بظاهره الى يهود المدينة، مع العلم بأن النعم المشار اليها منحها اللّه لآبائهم، لا لهم؟.

تفسير الكاشف، ج١، ص ٩٤

الجواب: ان النعمة على الآباء نعمة أيضا على الأبناء، حيث يكتسب الابن شرفا من أبيه .. هذا، إلى أن الجميع أمة واحدة. و بعد أن ذكّرهم اللّه بنعمه خاطبهم بقوله سبحانه: «**أَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ**» و عهد اللّه هو الأخذ و العمل بما

دلت عليه الفطرة، و نزلت به الكتب من الإيمان باللّه و رسله و العمل بأحكامه، و قال صاحب مجمع البيان: «ان اللّه تعالى عهد اليهم في التوراة انه باعث نبيا، يقال له محمد .. و على هذا أكثر المفسرين، و به يشهد القرآن».

أما عهد اليهود فهو عهد اللّه لهم، و لكل من آمن و عمل صالحا فانه يجزيه بالأجر و الثواب يوم القيامة، و قيل: انه تعالى أعطاهم ان اتقوا أن يرفع من شأنهم في هذه الحياة، و سنتعرض لفكرة الجزاء في الدنيا في المكان المناسب ان شاء اللّه.

ثم أمرهم سبحانه أن يؤمنوا بالقرآن، و لا يسارعوا الى الكفر به و بمحمد، و يموهوا على البسطاء ابتغاء المصالح الخاصة .. و ان عليهم اقامة الصلاة، و إيتاء الزكاة، لتطهر نفوسهم و أموالهم. أما قوله تعالى: «أَ تَأْمُرُونَ النّاسَ بِالْبِرِّ وَ تَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَ أَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتابَ» فهو موجه إلى الأحبار و الكبار، لا إلى السواد، لأن هؤلاء تابعون، و العلماء متبعون، و هم الذين يكتمون الحق على معرفة منه، و يعظون و لا يتعظون.

و مرة ثانية نقول و نكرر ان المواعظ و النصائح لا تصمد أبدا أمام تهديد المصالح، و محال أن تترك أثرا إلا في نفس من لا مصلحة له، و لا هدف إلا الحق. أما قوله تعالى: «وَ اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَ الصَّلاةِ فقد تكررت في الآية ١٥٣ من هذه السورة، و هناك التفصيل.

[سورة البقرة (٢): الآيات ٤٧ الى ٤٨]

يا بَنِي إِسْرائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَ أَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعالَمِينَ (٤٧) وَ اتَّقُوا يَوْماً لا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً وَ لا يُقْبَلُ مِنْها شَفاعَةٌ وَ لا يُؤْخَذُ مِنْها عَدْلٌ وَ لا هُمْ يُنْصَرُونَ (٤٨)

أيضا **يا بَنِي إِسْرائِيلَ** الآية ٤٧- ٤٨:

تفسير الكاشف، ج ١، ص ٩٥

اللغة:

لا يكون التفاضل الا بين طرفين، و ترجيح أحدهما على الآخر في الخير.

و معنى الوقاية الصيانة و الحذر، و المراد بها في كلام اللّه الخوف منه. و معنى الجزاء المكافأة، و المراد بها في الآية الكفاية و الاستغناء. و الشفاعة مأخوذة من الشفع ضد الوتر، و قد أريد بها هنا الوسيلة الى اللّه، و نتكلم عنها قريبا في فقرة مستقلة، بالنظر لأهميتها. و العدل بالفتح ضد الجور، و المراد به هنا الفدية، أما العدل بكسر العين فمعناه المساوي.

الاعراب:

(يوما) قائم مقام المفعول به بعد حذفه، أي اتقوا عذاب يوم، أو شر يوم. و (شيئا) أيضا مفعول به، و قيل يجوز جعله مفعولا مطلقا، لأن معنى الشيء هنا الجزاء.

المعنى:

(يا بَنِي إِسْرائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ) هذه الآية تأكيد للآية السابقة، و تمهيد لما يأتي بعدها من الآيات، و نشير في فقرة تأتي الى الحكمة من التكرار، و المراد بالذكر هنا الشكر، أي اشكروا نعمتي عليكم بالسمع و الطاعة.

(وَ أَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعالَمِينَ) .. فضلهم اللّه على شعوب ذاك العصر. و اللام في العالمين للعموم العرفي، لا للعموم الحقيقي، و يكفي في صحة التفضيل أن تكون لهم الأفضلية من جهة واحدة، لا من جميع الجهات، و هذه الجهة التي امتاز بها بنو إسرائيل ان اللّه أرسل منهم العديد من الأنبياء و الرسل: فموسى و هارون و يوشع و عزير و زكريا و يحيى،

و غيرهم كثير، و كلهم من بني إسرائيل «١».

و مهما يكن، فان تفضيلهم على أهل زمانهم من وجه لا يدل على فضلهم

---

(١) انظر فقرة: «لا قياس على اليهود» في تفسير قوله تعالى: **وَ إِذْ أَخَذْنا مِيثاقَكُمْ.**

تفسير الكاشف، ج ١، ص ٩٦

و تفضيلهم على أهل ذاك الزمان من كل وجه، و لا على ان كل فرد منهم أفضل من كل فرد من غيرهم، بل ان تضخم عدد الأنبياء فيهم و منهم حجة عليهم، لا لهم، لأنه يدل على انهم كانوا لشدة ضلالهم في أمسّ الحاجة الى كثرة التحذير و الانذار.

(وَ اتَّقُوا يَوْماً لا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ) أي ان كل انسان و ما عمل، فلا ظاهر و لا باطن، و لا تعاون و لا تعاطف: «يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ، وَ أُمِّهِ وَ أَبِيهِ، وَ صاحِبَتِهِ وَ بَنِيهِ، لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ- عبس».

(وَ لا يُقْبَلُ مِنْها شَفاعَةٌ وَ لا يُؤْخَذُ مِنْها عَدْلٌ وَ لا هُمْ يُنْصَرُونَ) أي ان الشأن في يوم القيامة تماما كالموت لا تجدي معه واسطة من أي كان، و لا تنفع فدية و ان غلت، و لا تمنع قوة مهما عظمت .. لا شيء على الإطلاق الا رحمة اللّه:

«لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنا رَبُّنا وَ يَغْفِرْ لَنا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخاسِرِينَ».

التكرار في القرآن:

مرة ثانية يذكّر اللّه بني إسرائيل بنعمته، و قد أعاد الآية بلفظها بعد خمس آيات، و ليست هي الآية الوحيدة التي أعادها القرآن فلقد كرر العديد من آياته في أكثر من سورة بخاصة ما يتصل منها ببني إسرائيل، و سيرتهم مع كليم اللّه موسى (ع) .. و قد تساءل الكثيرون عن الحكمة من التكرار؟ و اتفق المفسرون على ان الغرض من التكرار هو التأكيد.

و بمضي الأيام تكتشف الأحزاب، و أرباب الأهداف من الساسة و التجار و أصحاب الشركات ان التكرار من اجدى الوسائل للترغيب و الاقناع، و ترويج السلع و الآراء و من أجل هذا تفننوا في الاعلانات، و تخصصوا بها، و رصدوا لها المبالغ.

قال غوستاف لوبون في كتاب الآراء و المعتقدات: «من يكرر لفظا أو صيغة تكرارا متتابعا يحوله الى معتقد» .. و قال الدكتور جبسون في كتاب كيف تفكر: «للعبارات حين تكرر أمام أعيننا، و على مسامعنا مرة و مرة فعل مغناطيسي

تفسير الكاشف، ج ١، ص ٩٧

ينوم عقولنا تنويما». و لبلوغ هذه الغاية يكرر القرآن المعنى بأسلوب آخر، مع زيادة الوعد أو الوعيد، و ما اليهما، حسبما تستدعيه الحكمة.

الشفاعة:

لا بد للشفاعة من أطراف ثلاثة: مشفوع لديه، و مشفوع له، و شفيع هو واسطة بين الاثنين يتوسل لدى الأول أن يعين الثاني، سواء أ أذن المشفوع لديه بالشفاعة، أو لم يأذن بها .. هذا في الشفاعة لدى المخلوق، أما الشفاعة لدى الخالق

تعالى فان معناها العفو و الغفران للمذنب، و لن تكون الشفاعة عند اللّه إلا بإذن من اللّه.

و قال صاحب مجمع البيان: «الشفاعة عندنا مختصة بدفع الضار، و إسقاط العقاب عن مذنبي المؤمنين».

و أنكر المعتزلة و الخوارج شفاعة محمد (ص) في أهل الكبائر من أمته بهذا المعنى الذي نقلناه عن صاحب مجمع البيان .. و أثبتها الإمامية و الأشاعرة.

و العقل لا يحكم بالشفاعة من حيث الوقوع، لا سلبا، و لا إيجابا، أما من حيث الإمكان فان العقل لا يرى أي محذور من وجود الشفاعة، و عليه يتوقف وقوعها و ثبوتها على صحة النقل عن اللّه و رسوله، فمن ثبت لديه هذا النقل وجب عليه أن يؤمن بالشفاعة، و إلا فهو معذور .. و بهذا يتبين معنا ان الشفاعة ليست أصلا من أصول الدين، و ان من أنكرها مؤمنا باللّه و رسوله و اليوم الآخر فهو مسلم بلا ريب.

و إذا رجعنا الى الآيات القرآنية وجدنا ان منها ما ينفي الشفاعة بوجه عام، كقوله تعالى: في الآية ٢٥٤ من سورة البقرة: «أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا بَيْعٌ فِيهِ وَ لا خُلَّةٌ وَ لا شَفاعَةٌ» .. و النكرة في سياق النفي تفيد العموم، و منها ما أثبتت الشفاعة بشرط، كقوله تعالى: «لا تُغْنِي شَفاعَتُهُمْ شَيْئاً إِلاَّ مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللهُ لِمَنْ يَشاءُ وَ يَرْضى- النجم ٢٦».

و إذا عطفنا هذه الآية على الآية السابقة، و جمعناهما في كلام واحد تكون النتيجة هكذا: ان اللّه يقبل الشفاعة من الشفيع بعد أن يأذن هو بها .. و ليس

تفسير الكاشف، ج ١، ص ٩٨

من الضروري أن يصدر اذنا خاصا من اللّه الى نبيه باسم كل واحد واحد لمن يرتضي الشفاعة له، بل يكفي ان يعلم النبي بأن الشفاعة تحل و لا تحرم إذا لم يكن المشفوع له من أهل الإلحاد و الكفر باللّه، و لا من مثيري الحروب و سفاكي الدماء، و لا من مضطهدي العباد السالبين الناهبين للأقوات و المقدرات، و انما هو- أي المشفوع له- فرد من الأكثرية الغالبة الذين يرتكبون الذنوب العادية المتفشية .. و بكلمة ان المراد بإذن اللّه بالشفاعة أن يوحي الى نبيه باني قد أبحت لك أن تشفع لمن شئت من أفراد أمتك الذين اقترفوا نوعا خاصا من الذنوب ..

و عندها يكون أمر هؤلاء بيد الرسول الأعظم (ص) .. و هذا أقل ما يمنحه اللّه لمحمد (ص) غدا .. و هو بدوره يشفع لمن هو أهل للشفاعة، فقد ثبت انه قال:

«ادخرت شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي».

و نحن على يقين من ثبوت الشفاعة في الإسلام من حيث هي، و لكنا نجهل التفاصيل و لا نقطع فيها برأي، و في الوقت نفسه نؤمن ايمانا جازما بأن أفضل شفيع للإنسان هو عمله، و ان أنجح ما يستشفع به المذنبون هو التوبة .. ان اللّه سبحانه لا يعطي حجرا لمن استجار مخلصا برحمته، و لاذ منكسرا بجوده و كرمه.

[سورة البقرة (٢): الآيات ٤٩ الى ٥٠]

وَ إِذْ نَجَّيْناكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذابِ يُذَبِّحُونَ أَبْناءَكُمْ وَ يَسْتَحْيُونَ نِساءَكُمْ وَ فِي ذلِكُمْ بَلاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (٤٩) وَ إِذْ فَرَقْنا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْناكُمْ وَ أَغْرَقْنا آلَ فِرْعَوْنَ وَ أَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (٥٠)

وَ إِذْ نَجَّيْناكُمْ الآية

اللغة:

الآل مأخوذ من آل يؤول بمعنى رجع، فكل من رجع الى غيره بنسب، أو رأي، أو عقيدة فهو من آل من يرجع اليه، ثم

كثر استعمال الآل في أهل

تفسير الكاشف، ج١، ص ٩٩

بيت الرجل الذي هم منه، حتى اختص عرفا بهذا المعنى .. بل لا يقال آل فلان الا إذا كان لهذا الفلان مكانة و شأن، بعكس الأهل، فإنها أعم من ذلك ..

و المراد بآل فرعون هنا أتباعه الذين كانوا يباشرون التنكيل بالاسرائيليين بأمر منه. و قال أبو حيان الأندلسي في تفسيره الكبير البحر المحيط: «لم يكن لفرعون ابن و لا بنت و لا عم و لا خال و لا عصبة» .. و لا أعرف الدليل الذي اعتمده لقوله هذا.

و فرعون لقب لملك مصر في ذاك العهد، ككسرى الفرس، و قيصر الروم، و نجاشي الحبشة، و تبع اليمن، و خاقان الترك .. و قد أصبحت هذه الألقاب المالكة في خبر كان، و للّه الحمد، و معنى البلاء الاختيار و الامتحان بما ينفع أو يضر، قال تعالى: «وَ بَلَوْناهُمْ بِالْحَسَناتِ وَ السَّيِّئاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ- الاعراف ١٦٧».

الاعراب:

فرعون ممنوع من الصرف للعلمية و العجمة، و سوء العذاب مفعول مطلق، لأن معنى يسومونكم يعذبونكم.

المعنى:

بعد أن ذكّر اللّه سبحانه بني إسرائيل بنعمه عليهم بنحو الإجمال ذكّرهم بها على سبيل التفصيل، و أولى هذه النعم التي أشار اليها هي نجاتهم من فرعون و أتباعه الذين أذاقوا اليهود أشد العذاب، و فسر اللّه سبحانه هذا العذاب بقوله: **(يُذَبِّحُونَ أَبْناءَكُمْ وَ يَسْتَحْيُونَ نِساءَكُمْ)** أي يقتلون الذكور من نسلكم، و يستبقون الإناث أحياء ليتخذوهن خدما «١» ..

---

(١) قال صاحب مجمع البيان: ان فرعون رأى في منامه ما أخافه و أزعجه، و ان السحرة فسروا له المنام بغلام من بني إسرائيل يقتله، و من أجل هذا فعل فرعون بالاسرائيليين ما فعل .. و هذا جائز في نفسه، و لكن لا دليل يعتمد عليه.

تفسير الكاشف، ج١، ص ١٠٠

هذا، الى ان المصريين كانوا يسخّرون اليهود في قطع الأحجار و نقلها، و حفر الأقنية، و ما الى ذلك من الأعمال الشاقة.

و جاء الخطاب لليهود المعاصرين لمحمد (ص) لأنهم على دين أسلافهم، و راضون بعملهم، و من أحب عمل قوم شاركهم فيه.

(وَ فِي ذلِكُمْ بَلاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ) أي ان اللّه سبحانه قد اختبركم- يا بني إسرائيل- في السراء و الضراء معا، لتعرفوا: هل تجاهدون و تصبرون في الجهاد صبر الكرام في الأولى، و تشكرون على الثانية، أو انكم تخضعون و تستسلمون في الشدة، و تكفرون و تطغون في الرخاء شأن كل جبان لئيم.

و تجدر الاشارة الى ان اللّه سبحانه لا يختبر عبده ليعلم ما هو عليه .. كلا، فانه يعلم بكل كائن قبل أن يكون .. و لكنّه يختبر العبد، لاقامة الحجة عليه، إذ لا دعوى لمن لا حجة له، حتى و لو كان المدعى به ثابتا في علم اللّه تعالى.

و أشار سبحانه الى النعمة الثانية على بني إسرائيل بقوله: (وَ إِذْ فَرَقْنا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْناكُمْ وَ أَغْرَقْنا آلَ فِرْعَوْنَ) أي فصلنا البحر و جعلناه اثني عشر طريقا على عدد الأسباط، و الباء من (بكم) للسببية أي بسببكم، و السبط هو ولد الولد، و الأسباط من بني إسرائيل عشائر من نسل يعقوب.

و الخلاصة لقد كان اليهود في غاية الضعف و المذلة، و كان خصمهم في غاية القوة و العزة، فعكس اللّه الآية على يد نبيه موسى (ع) فصاروا هم الأعزاء، و خصمهم الذليل، و عاينوا (وَ أَنْتُمْ تَنْظُرُونَ) ذل من بالغ في إذلالهم، و هلاك من حاول إهلاكهم، و بهذا لزمتهم الحجة، و وجب عليهم أن يتعظوا و يعتبروا و لا يعاملوا غيرهم بما كان يعاملهم الغير.

و ما أشبه معاملة اليهود اليوم لعرب فلسطين بمعاملة الفراعنة لليهود من قبل ..

و ستنعكس الآية، و تدور الدائرة على اليهود كما دارت على فرعون لا محالة، و عليهم في يد بخت‌نصر و الرومان .. ان للباطل جولة، ثم يضمحل .. و أعجب ما في الإنسان انه يقع في الشدائد، فإذا أنجاه اللّه منها طغى و بغى، و نسي كل شيء.

و قال كثير من أهل التفسير: ان البحر المذكور هو بحر القلزم أي البحر الأحمر.

تفسير الكاشف، ج١، ص ١٠١

[سورة البقرة (٢): الآيات ٥١ الى ٥٣]

وَ إِذْ واٰعَدْنا مُوسىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَ أَنْتُمْ ظالِمُونَ (٥١) ثُمَّ عَفَوْنا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٥٢) وَ إِذْ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ وَ الْفُرْقانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (٥٣)

وَ إِذْ واٰعَدْنا مُوسىٰ الآية ٥١- ٥٣:

اللغة:

مصدر واعدنا المواعدة، أي المفاعلة بين اثنين، كما لو تواعدا اللقاء في مكان معين، و وجه المفاعلة- هنا- ان اللّه سبحانه وعد موسى الوحي، و موسى (ع) وعد اللّه المجيء .. أما الوعد فهو مصدر وعد، و يكون من طرف واحد، و يصح استعمال واعدنا بمعنى وعدنا.

و لفظة موسى تطلق على آلة الفولاذ التي يحلق بها الشعر، و تذكّر و تؤنث، و الجمع مواس و مواسيات، و هي بهذا المعنى عربية لا أعجمية .. أما لفظة موسى التي يراد بها ابن عمران (ع) فهي أعجمية لا عربية، مركبة من كلمتين في اللغة القبطية، و هما (مو) اسم للماء و (سى) اسم للشجر .. و في اللغة العبرية (شى) .. و يكون معنى موسى ماء الشجر .. أما وجه تسمية موسى بماء الشجر فهو- على ما جاء في مجمع البيان- ان جواري آسية امرأة فرعون خرجن للاغتسال بماء الشجر فوجدن التابوت الذي فيه موسى عند ماء الشجر، فصحبنه معهن .. و الفرقان ما يفصل بين شيئين، و المراد به هنا الذي يفصل بين الحق و الباطل.

الاعراب:

الذي يتبادر الى الفهم للوهلة الأولى ان (أربعين) ظرف مفعول فيه .. و ليس كذلك .. لأن الاعراب يتبع صحة المعنى، و لو كان (أربعين) مفعولا به

تفسير الكاشف، ج١، ص ١٠٢

للزم تعدد الوعد من اللّه لموسى بتعدد الليالي، لأن الوعد هو العامل بالليالي ..

و معلوم ان اللّه سبحانه لم يصدر منه لموسى الا وعد واحد موقت بانقضاء أربعين ليلة، و عليه تكون كلمة انقضاء المحذوفة مفعولا به ثانيا لواعدنا، و بعد حذفها أقيمت (أربعين) مقامها، و أعربت اعرابها، تماما كما تقول: اليوم ثلاثة من الشهر، أي تمام الثلاثة، لأن الواحد غير الثلاثة. و ليلة تمييز.

المعنى:

بعد ان أهلك اللّه فرعون و من معه تنفس الاسرائيليون الصعداء، و عادوا الى مصر آمنين، كما في المجمع، و لم تكن التوراة قد نزلت بعد على موسى، فسألوه ان يأتيهم بكتاب من ربهم، فوعده اللّه أن ينزل عليه التوراة، و ضرب له ميقاتا، فقال لهم موسى: ان ربي وعدني بكتاب، فيه بيان ما يجب عليكم أن تفعلوه، و تذروه، و ضرب لهم ميقاتا أربعين ليلة، و هذه الليالي- على ما قيل- هي ذو القعدة، و عشر ذي الحجة.

و ذهب موسى الى ربه ليأتي قومه بالكتاب، و استخلف عليهم أخاه هارون، و قبل أن يمضي الميقات الموعود على غيابه عبدوا العجل من دون اللّه، و ظلموا بذلك أنفسهم، و هذا هو المعنى الظاهر من قوله سبحانه: «وَ إِذْ واٰعَدْنٰا مُوسىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَ أَنْتُمْ ظالِمُونَ».

و بعد ان رجع موسى الى قومه تابوا من شركهم، و رجعوا الى ربهم، فقبل اللّه توبتهم .. و هذه نعمة ثالثة من اللّه عليهم، و اليها أشارت الآية: «ثُمَّ عَفَوْنٰا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذٰلِكَ».

أما النعمة الرابعة فهو كتاب اللّه: «وَ إِذْ آتَيْنٰا مُوسَى الْكِتابَ وَ الْفُرْقٰانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ». و هذا الكتاب هو التوراة الجامعة لبيان الحق و الباطل، و الحلال و الحرام، أما عطف الفرقان على الكتاب فهو من باب عطف الصفة على الموصوف، كقوله سبحانه في الآية ٤٨ من الأنبياء: «وَ لَقَدْ آتَيْنٰا مُوسىٰ وَ هٰارُونَ الْفُرْقٰانَ وَ ضِيٰاءً وَ ذِكْراً لِلْمُتَّقِينَ».

و اختصارا ان اللّه جل و عز ذكّر الاسرائيليين في الآيات المتقدمة بأربع نعم:

تفسير الكاشف، ج ١، ص ١٠٣

انجائهم من ذبح الأبناء و استحياء النساء، ثم هلاك فرعون، ثم العفو عنهم، ثم إيتاء موسى التوراة. و من أحسن ما قرأته في هذا الباب- و أنا أتتبع الـ ١٧ تفسيرا التي لدي- هو قول أبي حيان الأندلسي في تفسيره البحر المحيط:

«انظر الى حسن هذه الفصول التي انتظمت انتظام الدر في أسلاكها، و الزهر في أفلاكها، كل فصل منها- أي من النعم- قد ختم بمناسبة، و ارتقى في ذروة فصاحته أعلى مناصبه، واردا من اللّه على لسان محمد أمينه دون أن يتلو من قبل كتابا، و لا خطه بيمينه».

يشير أبو حيان بهذا الى ان تلك الصور المتلاحقة المنتظمة هي من معجزات محمد، لأنه أخبر بها من غير تعلّم .. رحم اللّه السلف و غفر لهم، و أجزل عليهم النعم و العطية، فإنهم ما رأوا ظاهرة يستشم منها تأييد هذا الدين و نبيه الأكرم الا مدوا اليها الأعناق بلهفة و اشتياق، و بادروا اليها شرحا و تفصيلا، و استخراجا و تدليلا، فأين أين نحن علماء هذا الزمان الذين نتكالب على الدنيا، و لا نرى هما الا همّ أنفسنا، و لا مشكلة الا مشكلة أولادنا .. أين نحن من أولئك الأعاظم الذين ضحوا بكل شيء من أجل إعزاز الإسلام و نبي الإسلام؟.

عفا اللّه عنهم و رفعهم و كل من خدم الدين الى أعلى الدرجات.

[سورة البقرة (٢): الآيات ٥٤ الى ٥٧]

وَ إِذْ قالَ مُوسىٰ لِقَوْمِهِ يا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلىٰ بارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بارِئِكُمْ فَتابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (٥٤) وَ إِذْ قُلْتُمْ يا مُوسىٰ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَ أَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (٥٥) ثُمَّ بَعَثْناكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٥٦) وَ ظَلَّلْنا عَلَيْكُمُ الْغَمامَ وَ أَنْزَلْنا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَ السَّلْوىٰ كُلُوا مِنْ طَيِّباتِ ما رَزَقْناكُمْ وَ ما ظَلَمُونا وَ لٰكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٥٧)

وَ إِذْ قالَ مُوسىٰ الآية ٥٤- ٥٧:

تفسير الكاشف، ج١، ص ١٠٤

اللغة:

البارئ هو الخالق، و المنّ مادة لزجة تشبه العسل، و السلوى السّمان طائر معروف، و الغمام اسم جنس مفرده غمامة، فالتاء للإفراد، لا للتأنيث، تماما كحمام و حمامة.

الاعراب:

يا قومي منادى مضاف الى ياء المتكلم، ثم حذفت الياء، و اجتزئ عنها بالكسرة، و جهرة قائم مقام المفعول المطلق، و كلوا فعل أمر، و الجملة محل نصب مفعول لفعل محذوف، تقديره قلنا كلوا.

المعنى:

(وَ إِذْ قالَ مُوسىٰ لِقَوْمِهِ يا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلىٰ بارِئِكُمْ) .. كل معنى يسبق الى الفهم بمجرد سماع اللفظ لا يحتاج الى تفسير، بل تفسيره و شرحه ضرب من الفضول .. و هذه الآية من هذا الباب.

(فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ) .. القتل ظاهر في إزهاق الروح، و لا سبب موجب لصرفه و تأويله بمخالفة الهوى، و تذليل النفس بالاعتراف بالذنب و الخطيئة، أو التشديد و المبالغة في طاعة اللّه- كما قيل- و المراد بالأنفس هنا بعضها، أي ليقتل بعضكم بعضا، فيتولى البريء منكم الذي لم يرتد عن دينه بعبادة العجل قتل من ارتد عن دينه، تماما كقوله تعالى: «فَإِذا دَخَلْتُمْ بُيُوتاً فَسَلِّمُوا عَلىٰ أَنْفُسِكُمْ».

أي فليسلّم بعضكم على بعض، و كقوله: «وَ لا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ». أي لا يغتب بعضكم بعضا.

تفسير الكاشف، ج١، ص ١٠٥

و قال الطبرسي في مجمعه- من الامامية- و الرازي في تفسيره الكبير- من السنة قالا: ان اللّه سبحانه جعل توبتهم بنفس القتل، بحيث لا تتم التوبة، و لا تحصل إلا بقتل النفس، لا انهم يتوبون أولا، ثم يقتلون أنفسهم بعد التوبة.

و لهذا الحكم نظائره في الشريعة الاسلامية، حيث اعتبرت القتل حدا و عقوبة على جريمة الارتداد ..

و تمضي الآيات في تعداد مساوئ الاسرائيليين: **(وَ إِذْ قُلْتُمْ يا مُوسىٰ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللهَ جَهْرَةً)**. حين جاءهم موسى بالتوراة قال له جماعة منهم: لا نصدقك في ان هذا الكتاب من عند اللّه، حتى نرى اللّه عيانا لا حجاب بيننا و بينه، و يخبرنا وجها لوجه انه أرسلك بهذا الكتاب.

و لست أدري ان كان الذين ينكرون وجود اللّه في هذا العصر، لا لشيء إلا لأنهم لم يشاهدوه جهرة، لست أدري: هل استند هؤلاء في انكارهم الى كفر أولئك الاسرائيليين و عنادهم؟.

قال اليهود لموسى: لن نؤمن حتى نرى اللّه جهرة .. و قال من قال في هذا العصر: لا وجود إلا لما نراه بالعين، و نلمسه

باليد، و نشمه بالأنف، و نأكله بالفم .. و هكذا يكرر التاريخ صورة المكابرة و معاندة الحق في كل جيل.

(فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَ أَنْتُمْ تَنْظُرُونَ). أي ان عذابا من السماء أحاط بالذين قالوا لموسى: لن نؤمن حتى نرى اللّه، و أهلكهم على مرأى من أصحابهم الذين لم يعاندوا، و يسألوا مثل ذلك.

(ثُمَّ بَعَثْناكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ). قال بعض المفسرين، و منهم الشيخ محمد عبده، كما في تفسير المنار، قالوا: ان اللّه سبحانه لم يرجعهم الى هذه الحياة ثانية بعد أن أخذتهم الصاعقة، و ان المراد ببعثهم كثرة النسل منهم.

و قال آخرون: كلا، ان الآية على ظاهر دلالتها، و ان الذين أعيدوا هم الذين أخذتهم الصاعقة بالذات .. و هذا هو الحق، حيث يجب الوقوف عند الظاهر إلا مع السبب الموجب للتأويل، و لا سبب ما دامت الاعادة ممكنة في نظر العقل، و قد وقع نظير ذلك لعزير، كما دلت الآية ٢٥٩ من سورة البقرة:

«فَأَماتَهُ اللهُ مِائَةَ عامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ». و بديهة ان الذي وقع لا يكون مستحيلا.

تفسير الكاشف، ج ١، ص ١٠٦

و تجدر الاشارة إلى أن المراد من قوله تعالى: **فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ**، و قوله بعثناكم، المراد من كان في عصر موسى (ع) الذين قالوا له: «**حَتَّى نَرَى اللهَ جَهْرَةً**» فلا يشمل الخطاب موسى، و لا من لم يقل له ذلك .. و بالأولى أن لا يشمل حقيقة اليهود الذين كانوا في عهد محمد (ص) و انما وجه الخطاب اليهم تجوزا و توسعا في الاستعمال بالنظر الى أنهم من نسل الذين قالوا: حتى نرى اللّه جهرة.

(وَ ظَلَّلْنا عَلَيْكُمُ الْغَمامَ وَ أَنْزَلْنا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَ السَّلْوى). جرى ذلك حين خرج الاسرائيليون من مصر، و تاهوا في صحراء سيناء، حيث لا بنيان و لا عمران، فشكوا الى موسى حر الشمس، فأنعم اللّه عليهم بالغمام يظللهم، و يقيهم حر الهاجرة، و أنعم عليهم أيضا بالمنّ و السلوى، يأكلون منهما بالاضافة الى ما تيسر لهم من الأطعمة، و يأتي في تفسير الآية ٦٠ ان الماء تفجّر لهم من الحجر الذي ضربه موسى بعصاه.

و غريب أمر بعض المفسرين، حيث يفسر من تلقائه ما سكت اللّه عن بيانه و تفسيره، و يحصي عدد الذين قتلوا أنفسهم للتوبة من عبادة العجل، يحصيهم بسبعين ألف نسمة، كما أحصى عدد الذين أخذتهم الصاعقة بسبعين رجلا، أما المنّ فلكل فرد صاع، و أما السلوى فكانت تنزل من السماء حارّة يتصاعد منها البخار، و ما إلى ذلك مما لا نص قطعي و لا ظني يدل عليه، و يبعّد و لا يقرب .. و قد ثبت عن الرسول الأعظم (ص): ان اللّه سكت عن أشياء لم يسكت عنها نسيانا، فلا تتكلفوها رحمة من اللّه لكم.

و في نهج البلاغة:

ان اللّه افترض عليكم الفرائض فلا تضيعوها، و حدّ لكم حدودا فلا تعتدوها، و نهاكم عن أشياء فلا تنتهكوها، و سكت عن أشياء، و لم يدعها نسيانا فلا تتكلفوها.

(وَ ما ظَلَمُونا وَ لكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ). و نفي المظلومية عن اللّه سبحانه، تماما كنفي الولد و الشريك عنه من باب السالبة بانتفاء الموضوع على حد تعبير أهل المنطق، لأن الثبوت محال عقلا .. فهو أشبه بقولك عن الأعزب: انه لا ولد له، و عمن يجهل اللغة العربية لم يؤلف فيها قاموسا .. أما ظلم اليهود لأنفسهم فلسفههم، و جحودهم بأنعم اللّه الذي لا تنفعه طاعة من أطاع، و لا

تفسير الكاشف، ج١، ص ١٠٧

تضره معصية من عصى، و انما منفعة الطاعة تعود الى الطائع، و مضرة المعصية الى العاصي .. قال أمير المؤمنين علي (ع): يا ابن آدم إذا رأيت ربك يتابع نعمه عليك، و أنت تعصيه فاحذره.

و اختصارا ان هذه الآيات تضمنت الاشارة الى عبادة الاسرائيليين للعجل، و توبتهم بقتل أنفسهم، و طلبهم رؤية اللّه، و هلاكهم و بعثهم، و تظليل الغمام لهم، و إطعامهم المنّ و السلوى .. و سنعرض قصة موسى مع الاسرائيليين في سورة المائدة ان شاء اللّه، حيث حكى اللّه قولهم لكليمه و نجيّه: «فَاذْهَبْ أَنْتَ وَ رَبُّكَ فَقاتِلا إِنَّا هاهُنا قاعِدُونَ» و انها لكلمة تعبر عن خبث اليهود و لؤمهم أدق تعبير، و أول من اكتشف هذا اللؤم و الخبث آل فرعون الذين ذبحوا الأبناء، و استحيوا النساء.

رؤية اللّه:

و حيث جاء في الآية الكريمة: «**حَتَّى نَرَى اللهَ جَهْرَةً**» نشير الى النزاع القائم بين أهل المذاهب الاسلامية و فرقها من ان العقل: هل يجيز رؤية اللّه بالبصر أو يمنعها؟.

قال الأشاعرة- السنة-: ان رؤية اللّه بالبصر جائزة عقلا، لأنه موجود، و كل موجود يمكن رؤيته.

و قال الامامية و المعتزلة: لا تجوز الرؤية البصرية على اللّه بحال، لا دينا و لا دنيا، لأنه ليس بجسم، و لا حالا في جسم، و لا في جهة.

و بعد أن منعوا الرؤية عقلا حملوا الآيات الدالة بظاهرها على جواز الرؤية، حملوها على الرؤية بالعقل و البصيرة، لا بالعين و البصر، و بحقائق الإيمان، لا بجوارح الأبدان على حد تعبير الفيلسوف الشهير الكبير محمد بن ابراهيم الشيرازي المعروف بالملا صدرا، و بصدر المتألهين.

و مما استدل به الملا صدرا على امتناع الرؤية قوله: «ان الاحساس بالشيء حالة وضعية للجوهر الحاس، بالقياس الى المحسوس الوضعي، ففرض ما لا وضع له انه محسوس، كفرض ما لا جهة له انه في جهة».

تفسير الكاشف، ج١، ص ١٠٨

يريد بقوله هذا- على ما أرى- ان العين لا ترى الشيء إلا بشرطين:

الأول أن تكون أهلا للنظر، الثاني أن يكون الشيء أهلا لأن ينظر بالعين ..

و هذا شيء بديهي، فإذا فقدت العين أهلية النظر، أو لم يكن الشيء مؤهلا للنظر بالعين انتفت الرؤية قهرا .. و العين أصغر و أحقر من ان ترى الذات القديسة الاحدية، كما انه جل و علا أعظم من أن يرى بالعين.

و انتقل ذهني، و أنا أقرأ عبارة هذا العظيم، الى الفيلسوف الانكليزي جون لوك القائل بالواقعية النقدية، و ملخصها ان للشيء صفات أولية ثابتة له واقعا، و لا تنفصل عنه إطلاقا، سواء أوجد من يدركها، أم لم يوجد، كالعناصر المقومة المكونة للشيء .. و أيضا له صفات ثانوية نسبية لا توجد مستقلة عن ذات تحسها و تدركها، كاللون و الصوت و الطعم، فاللون ليس صفة للشيء كما يتراءى و انما هو موجات ضوئية خاصة بين الشيء و العين عند العلماء، و أيضا الصوت موجات هوائية، و الطعم لا وجود له لو لا الفم، و من هنا يختلف باختلاف الذائق صحة و مرضا .. و اختصارا انه لا لون بلا عين، و لا صوت بلا اذن، و لا طعم بلا فم. و ليس من شك ان نور اللّه سبحانه يطغى على الموجات الضوئية و غيرها، و إذا انتفت هذه الموجات انتفت الرؤية.

[سورة البقرة (٢): الآيات ٥٨ الى ٥٩]

وَ إِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هٰذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهٰا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَداً وَ ادْخُلُوا الْبٰابَ سُجَّداً وَ قُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطٰايٰاكُمْ وَ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ (٥٨) فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنٰا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزاً مِنَ السَّمٰاءِ بِمٰا كٰانُوا يَفْسُقُونَ (٥٩)

وَ إِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا الآية ٥٨- ٥٩:

تفسير الكاشف، ج١، ص ١٠٩

اللغة:

للقرية في اللغة معنيان: المكان الذي يجتمع فيه الناس، أي مكان لا يختص في بر و لا بحر، و المعنى الثاني مسكن النمل، و على هذا تكون المدينة من معاني القرية حقيقة، و لكن كثر استعمالها في البلد الصغير، فتغلب هذا المعنى على غيره من المعاني، بحيث إذا اطلق لفظ القرية فلا يفهم منه عرفا الا البلد الصغير ..

و قيل: ان المراد بالقرية هنا بيت المقدس. و معنى الحط النزول و الهبوط، و معنى السجود وضع الجبهة على الأرض، و المراد به هنا معناه المجازي، و هو الخضوع و التواضع، لأن دخولهم الباب، و جبهتهم على الأرض، متعذر، فتعين الحمل على الخشوع، و الرجز بكسر الراء الشيء القذر، و المراد به هنا العذاب.

الاعراب:

القرية عطف بيان من هذا، و رغدا نائب عن المفعول المطلق، أي أكلا رغدا، و سجدا حال من واو الجماعة في ادخلوا، و هو مصدر بمعنى اسم الفاعل، كعدل بمعنى عادل، و حطة خبر لمبتدأ محذوف، و التقدير مسألتنا أو أمرنا حطة، تماما مثل «صبر جميل» أي حالنا صبر جميل، مع العلم بأن النصب جائز أيضا.

المعنى:

(وَ إِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هٰذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهٰا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَداً). قال صاحب مجمع البيان: «أجمع المفسرون على ان المراد بالقرية هنا بيت المقدس، و يؤيده قوله تعالى في موضع آخر: ادخلوا الأرض المقدسة».

(وَ ادْخُلُوا الْبٰابَ سُجَّداً) أي ادخلوا ناكسي الرؤوس خاضعين خاشعين للّه، و في البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي: «الباب هو أحد أبواب بيت المقدس، و يدعى باب حطة. (توفي هذا العالم الأندلسي سنة ٧٥٤ ه).

تفسير الكاشف، ج١، ص ١١٠

(وَ قُولُوا حِطَّةٌ). بعد أن أمرهم اللّه سبحانه أن يدخلوا بخضوع و خشوع أيضا أمرهم أن يقرنوا الخشوع بقول التضرع و التذلل مثل نستغفر اللّه، و نسأله التوبة، ليحصل التوافق و التلاؤم بين القول و الفعل، تماما كما تقول في ركوعك: «سبحان ربي العظيم». و في سجودك: «سبحان ربي الأعلى».

و ليس من الضروري أن يتلفظوا بلفظ (حطة) بالذات و على سبيل التعبد، كما قال كثير من المفسرين، و لا أن يكون المراد من حطة العمل الذي يحط الذنوب كما في تفسير المنار نقلا عن محمد عبده، حيث قال: ان اللّه لم يكلّفهم بالتلفظ، إذ لا شيء أيسر على الإنسان منه.

و يلاحظ بأن اللّه قد كلف عباده بالكلام و التلفظ في الصلاة، و أعمال الحج، و في الأمر بالمعروف، ورد التحية، و أداء

الشهادة، بل و بإخراج الحروف من مخارجها في بعض الموارد.

(فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ). أي انهم أمروا أن يقولوا ما يستحقون به العفو و الصفح و الثواب، و لكنهم خالفوا و قالوا ما يستوجبون عليه المؤاخذة و العقاب.

و قد استلفت انتباهي ان بعض المفسرين الكبار، و منهم الفيلسوفان: الرازي و الملا صدرا، قد تعرضوا هنا الى مسألة الوقوف على لفظ الادعية و الاذكار المأثورة، و انه هل يجب الجمود عليها حرفيا، أو يجوز ابدال لفظ بلفظ مع المحافظة على المعنى، و لم يتعرضوا، و هم يفسرون قوله: «**فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا**» الى من اتخذ الدين سلعة للكسب و الربح، مع العلم بأن هؤلاء أمناء على دين اللّه، و انهم قد خانوا الأمانة، و حرّفوا الآيات و الروايات، تماما كما فعل الاسرائيليون.

(فَأَنْزَلْنا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزاً مِنَ السَّماءِ). تقدم ان المراد بالرجز العذاب ..

و قد سكت اللّه سبحانه عن نوع العذاب و حقيقته، و لم يبين لنا: هل هو الطاعون، كما قال البعض، أو الثلج كما ذهب آخرون .. و أيضا سكت عن عدد الذين هلكوا بهذا العذاب: هل هم سبعون ألفا، أو أكثر، أو أقل؟ و عن أمد العذاب و مدته: هل هي ساعة أو يوم؟ لذلك نسكت نحن عما سكت اللّه عنه، و لا نتكلف بيانه كما تكلفه غيرنا اعتمادا عن قول ضعيف، أو رواية متروكة.

تفسير الكاشف، ج ١، ص ١١١

[سورة البقرة (٢): آية ٦٠]

وَ إِذِ اسْتَسْقى مُوسى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتا عَشْرَةَ عَيْناً قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُناسٍ مَشْرَبَهُمْ كُلُوا وَ اشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللهِ وَ لا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٦٠)

وَ إِذِ اسْتَسْقى مُوسى الآية ٦٠:

اللغة:

الاستسقاء طلب الماء، و الانفجار و الانبجاس بمعنى واحد، لأن اللّه استعملهما في قصة واحدة، و المشرب مكان الشرب كالمأكل مكان الأكل، و المسكن مكان السكن. و العثي قيل معناه مجاوزة الحد في كل شيء، ثم كثر استعماله في الفساد، فتغلب على غيره من سائر الأفراد.

الاعراب:

اثنتا عشرة كلمتان نزلتا منزلة الكلمة الواحدة، أعرب الصدر لمكان الألف رفعا، و الياء جرا و نصبا، و بني العجز لأنه بمنزلة نون الاثنين، هكذا قال النحاة، و عينا تمييز.

المعنى:

(وَ إِذِ اسْتَسْقى مُوسى لِقَوْمِهِ). لا تأويل في هذه الآية، فان المراد منها هو نفس المعنى المتبادر الى الفهم من ظاهرها، و قال الرازي: «أجمع جمهور المفسرين على ان ذلك كان في التيه» أي صحراء سيناء .. و مهما يكن، فان اللّه سبحانه بعد أن ظللهم بالغمام، و أطعمهم من المنّ و السلوى سقاهم الماء أيضا، فأجرى لهم اثنتي عشرة عينا بقدر عشائرهم، فاختصت كل عشيرة بعينها حتى لا يقع بينهم التشاجر و التنازع على الماء.

تفسير الكاشف، ج١، ص ١١٢

حول الرأسمالية و الاشتراكية:

لقد تم لبني إسرائيل الظل و الطعام و الشراب بلا كلفة و مشقة، فلا غني و فقير، و لا جائع و متخم، و لا كادح و مترف، لا ملكية لوسائل الانتاج، و لا إجحاف في التوزيع، و لا من كل حسب طاقته، و لكل حسب عمله، لا شيء إطلاقا سوى المساواة في العيش، دون مقابل من مال أو عمل أو أي شيء آخر «١».

و هذا أول و آخر شعب يسعد بهذا النوع من العيش، بالاضافة الى الوحدة لغة و ثقافة و تاريخا .. و سنثبت ان اللّه عامل هذا الشعب معاملة خاصة دون الناس أجمعين.

و إذا لم يكن من سبب اقتصادي أو قومي للتشاحن و التطاحن، و لا للجريمة و الفساد فلما ذا أفسدوا و تمردوا على الناصح الأمين موسى بن عمران (ع)؟ و كيف ملّوا حياة التساوي في الغنى، و قالوا: لن نصبر عليها أبدا، و نريد أن يستعين بعضنا ببعض، و قابلوا النعم المتتالية بالكفران و العصيان؟.

و قال الاشتراكيون كلهم، أو جلهم: ان الرأسمالية امّ الرذائل و الشقاء، و الاشتراكية مصدر الفضائل و الهناء .. و قال الرأسماليون: المهم التجانس في العقلية، و الصفات الروحية ..

و قال هتلر: لا شيء على الإطلاق الا الجنس الآري.

و لكن أكثر أعداء هتلر كانوا مثله آريين، و بالتالي أودت نظريته بحياته، و أذلت شعب ألمانيا، و أهلكت الملايين من سائر الشعوب، و دمرت المدن و العواصم، و منشآت المدنية و الحضارة ..

أما الدول الرأسمالية فقد بلغ التنافس بينها غايته، و نزاع موسكو و بكين قطع كل أمل في الوفاق و الوئام، و من قبله النزاع الستاليني التيتوي.

ان في الإنسان قوى غريبة و غامضة قد تجاوزت العد و الإحصاء، أما الظروف

---

(١) من الطريف ما جاء في بعض التفاسير ان الطفل الصغير منهم كان يلبس الثوب على مقدار جسمه، و كلما ازداد الطفل نموا ازداد الثوب تلقائيا طولا و عرضا قدرا بقدر دون زيادة أو نقصان .. و قد يكون هذا ممكنا في ذاته، و لكن لا دليل عليه.

تفسير الكاشف، ج١، ص ١١٣

التي تحيط به من الخارج فأكثر و أوفر، و من حاول احصاء هذه أو تلك فقد طلب المحال، و لكل منها أثره و عمله، و الإنسان معها جميعا بين مد و جزر، فحصر المؤثرات بالمادة و حدها، تماما كحصرها بالقوى الروحية، أو بالعرق .. الكل باطل و غير صحيح. أجل، ان الفقر باعث قوي على الرذيلة و الإثم، و ربما كان أقوى البواعث على الإطلاق، لذا قال علي أمير المؤمنين (ع): كاد الفقر أن يكون كفرا.

و لكن إذا تم للإنسان ما يحتاج اليه في حياته فلن تتم له السكينة و الاستقرار الا إذا آمن بمبادئ انسانية، يلائم بينها و بين سلوكه، و ركن الى دين قويم يعصمه عن الخطايا و الذنوب «١».

شيء من لا شيء:

و تسأل: كيف تدفقت العيون من حجر يحمله الإنسان في يده؟ و هل يكون المحال ممكنا؟ هل يوجد شيء من لا شيء، أو الكثير من القليل؟ يحفر الإنسان آلاف الأمتار في الأرض، و مع ذلك لا يخرج الماء إذا لم يكن موجودا في مكان الحفر، فكيف نبع الماء من حجر لا عين و لا أثر فيه للماء؟.

الجواب: لا تفسير من العلم و الطبيعة لهذا إطلاقا، لا تفسير الا بالمعجز و خوارق العادات، و الا بقوله جلت قدرته: كن فيكون، تماما كانفلاق البحر، و وقوف مائه كالجبال، و نزول المنّ و السلوى من السماء، و جعل النار بردا و سلاما على ابراهيم، و ولادة عيسى بلا دنس، و احيائه الموتى، و خلقه الطير من الطين، الى غير ذلك .. فمن آمن باللّه و قدره حق قدره اقتنع مكتفيا بهذا، و من جحد و عاند فلا كلام في الفرع بعد أن أنكر الأصل .. و اني على يقين ان الذين يطلبون تفسيرا علميا و دقيقا لكل شيء، ان هؤلاء قد مر في حياتهم

---

(١) في سنة ١٩٣٦ تنازل أدوار الثامن عن عرش الامبراطورية البريطانية التي لم تغب الشمس عن سلطانها آنذاك تنازل عن العرش من أجل امرأة، اسمها واليس، تزوجت قبله مرتين و طلقت، و فضل أن يعيش معها مشردا، ينتقل من بلد إلى بلد بحثا عن عمل، و لا حجة أقوى من هذه الحادثة على خطأ من حصر البواعث كلها بالمادة.

تفسير الكاشف، ج ١، ص ١١٤

العديد من الحوادث التي لا يجدون لها تفسيرا في شيء الا في الغيب و ارادة اللّه ..

و لكنهم لا يشعرون.

و تجدر الاشارة هنا الى الملا صدرا الفيلسوف العظيم الذي سبق زمانه بمئات السنين، حيث لا أدوات و مختبرات، فانه قال فيما قال عند تفسير هذه الآية ما نصه بالحرف الواحد: «ان مادة العناصر قابلة لأن تكون منها صورة غير متناهية على التعاقب، فيجوز أن يستحيل بعض أجزاء الحجر ماء».

و محل الشاهد الذي يجب الوقوف عنده هو قوله جازما: «يجوز أن يستحيل بعض أجزاء الحجر ماء». يشير بهذا الى التأكيد على نظرية التطور التي اكتشفها هو و اهتدى اليها قبل دارون بثلاثة قرون «١»، على ان دارون خصص النظرية بالأعضاء العضوية فقط .. أما صدر المتألهين فقد عممها لجميع الكائنات، حتى الجماد، كما رأيت من جواز استحالة الحجر الى ماء .. و كم لهذا العظيم من اكتشافات! و لو كان غربيا لما كان انشتين أشهر و أعرف، و لكن انشتين غربي، بل يهودي أيضا .. و الملا صدرا شرقي، بل شيعي أيضا.

لقد سبق هذا العظيم الى نظرية التطور بأوسع معانيها، و زادته هذه النظرية ايمانا على إيمانه باللّه و اليوم الآخر، و أضاف بسبب اكتشافها أدلة جديدة على وجود اللّه لم يسبقه اليها أحد من أرباب الفلسفة الإلهية، حتى سمي بحق صدر المتألهين، و جاء برهانا قاطعا على جهل جلادستون و الملايين من اتباعه في زعمه:

«ان كيان اللّه كخالق هذا الكون قد انتهى بنظرية التطور». بل العكس هو الصحيح.

[سورة البقرة (٢): آية ٦١]

وَ إِذْ قُلْتُمْ يا مُوسى لَنْ نَصْبِرَ عَلى طَعامٍ واحِدٍ فَادْعُ لَنا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِها وَ قِثَّائِها وَ فُومِها وَ عَدَسِها وَ بَصَلِها قالَ أَ تَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْراً فَإِنَّ لَكُمْ ما سَأَلْتُمْ وَ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَ الْمَسْكَنَةُ وَ باؤُ بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ ذلِكَ بِأَنَّهُمْ كانُوا يَكْفُرُونَ بِآياتِ اللهِ وَ يَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذلِكَ بِما عَصَوْا وَ كانُوا يَعْتَدُونَ (٦١)

وَ إِذْ قُلْتُمْ يا مُوسى الآية

---

(١) الملا صدرا من عظماء القرن السادس عشر الميلادي، و كان دارون في أواخر القرن التاسع عشر.

تفسير الكاشف، ج١، ص ١١٥

اللغة:

البقل نبت لا ساق له، كالنعناع و الكراث، و القثاء بالكسر نوع من الخيار معروف، و الفوم الحنطة، و الأدنى الأقرب، و المراد به هنا الخسيس من الدناءة، و المصر البلد الكبير، و ضربت، أي فرضت.

الاعراب:

يخرج مضارع مجزوم جوابا لفعل الأمر، و هو ادع، و ذلك مبتدأ و خبره بأنهم كانوا، و مثله ذلك بما عصوا.

المعنى:

(وَ إِذْ قُلْتُمْ يا مُوسى لَنْ نَصْبِرَ عَلى طَعامٍ واحِدٍ). أي قاله أسلافكم لموسى، و هم في التيه، حيث سئموا من المواظبة على أكل المنّ و السلوى، و تشوّفوا إلى عيشهم الأول في مصر.

و ليس في هذا الطلب معصية، فان كل انسان يطلب التنوع في الطعام، لأنه يفتح الشهوة، و الرغبة في الاستكثار، و اللّه سبحانه قد أحلّ الطيبات من الرزق لعباده .. و على هذا فان الآية لم تسق للذم، بل للتعجب من تركهم العيش الحاصل عفوا صفوا، و طلبهم العيش الذي لا يحصل إلا بالكد و الجد.

تفسير الكاشف، ج١، ص ١١٦

(قالَ أَ تَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ). الباء في هذا المورد تدخل على الأفضل، تقول: لا تبدل النحاس بالذهب، و لا يجوز أن تقول:

لا تبدل الذهب بالنحاس، و الدليل هذه الآية الكريمة .. و لكن الناس يعكسون.

و على أية حال فان المهم معرفة المراد، و وضوح القصد.

(اهْبِطُوا مِصْراً فَإِنَّ لَكُمْ ما سَأَلْتُمْ). أي قال موسى لهم ذلك .. و الظاهر ان المراد مصر من الأمصار يحقق لهم هذه الأمنية، لأن سبحانه لم يبين و يعين مصرا خاصا:. و تفسير القرآن الكريم غير التعليلات النحوية التي يصحح بها كلام سيبويه و نفطويه.

(وَ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَ الْمَسْكَنَةُ). كانوا أعزاء مستقلين يأتيهم رزقهم رغدا، فأبوا إلا الزراعة و الصناعة و التجارة، و كل ذلك يستدعي التنافس و الحروب، و هي تستدعي الفشل و ذهاب الريح.

(وَ يَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ). و بديهة ان قتل الأنبياء لا يكون إلا بغير الحق، و كأنّ اللّه سبحانه أراد بذكر القيد التشنيع بهم، و ان القتل منهم لم يكن عن خطأ و اشتباه، بل عن إصرار و تعمد للباطل و الضلال. فلا بدع إذا أساء يهود المدينة الى محمد (ص) .. لأنهم امتداد لذاك الأصل و العرق.

[سورة البقرة (٢): آية ٦٢]

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ الَّذِينَ هادُوا وَ النَّصارىٰ وَ الصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ وَ عَمِلَ صالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢)

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ الَّذِينَ هادُوا الآية

اللغة:

المراد بـ(هادُوا) اليهود نسبة الى يهوذا أكبر أبناء يعقوب، و إسرائيل اسم يعقوب بالذات، و قد تقدم، و النصارى جمع، و مفرده المذكر نصران،

تفسير الكاشف، ج ١، ص ١١٧

و المؤنث نصرانة، كسكارى جمع لسكران، و سكرانة، و عن سيبويه ان المفرد من نصارى لا يستعمل الا مع ياء النسبة، فيقال: نصراني و نصرانية، أما المنسوب اليه فهو بلدة الناصرة في أرض فلسطين، فعن الإمام الرضا (ع): انما سمي النصارى بهذا الاسم لأن عيسى و امه مريم (ع) من قرية اسمها الناصرة في بلاد الشام .. و كثيرا ما يطلق لفظ الناصري على السيد المسيح (ع) .. و قال صاحب الكشاف: الياء في النصراني و النصرانية للمبالغة، و الأول أقرب.

و الصابئون قوم يقرون باللّه و بالمعاد و ببعض الأنبياء، و لكنهم يعتقدون بتأثير بعض النجوم في الخير و الشر، و الصحة و المرض، و منهم طائفة تقيم في العراق الآن، و الصابئة مأخوذ من صبأت النجوم، أي طلعت، و أول من عبد الكواكب قوم النمرود الذين أرسل اليهم ابراهيم الخليل (ع) .. فهم أقدم الأديان في التاريخ.

الاعراب:

من من قوله تعالى: (مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ) بدل بعض من كل من الأصناف الثلاثة، و هم اليهود و الصابئة و النصارى، و قوله (فلهم أجرهم) مبتدأ و خبر، و الجملة خبر انّ، و دخلت الفاء على الخبر لمكان الموصول المتضمن لمعنى الشرط، و خوف مبتدأ و خبره عليهم، و أهملت (لا) عن العمل لمكان التكرار.

المعنى:

في معنى هذه الآية أقوال أنهاها بعض المفسرين الى ثمانية، و أصحها قولان:

الأول: ان الغرض من الآية أن يبين سبحانه انه لا يهتم بالأسماء إطلاقا، سواء أ كانت من نوع مسلم، أو مؤمن، أو يهودي، أو صابئي، أو نصراني، لأن الألفاظ بما هي لا تضر و لا تنفع، و لا تضع و لا ترفع، و انما المهم عند

تفسير الكاشف، ج ١، ص ١١٨

اللّه العقيدة الصحيحة، و العمل الصالح، فمفاد الآية ما جاء في الأخبار من ان اللّه لا ينظر الى الصور، و انما ينظر الى الأعمال.

و ليس من شك ان هذا المعنى صحيح في نفسه، و لكن اللفظ لا يعطيه صراحة .. و قد دأب البعض أن يتملق الى أهل الأديان الأخرى مستدلا بهذه الآية على انه لا فرق بين المسلمين و غيرهم عند اللّه، و هو يعلم علم اليقين بأنهم ينكرون

نبوة محمد (ص). بل و يفترون عليه الأكاذيب، و ينسبون اليه ما يهتز منه العرش.

المعنى الثاني: ان أفرادا لم يدركوا محمدا (ص)، و مع ذلك قد اهتدوا بصفاء فطرتهم الى الايمان باللّه، و تركوا المحرمات، كالكذب و شرب الخمر و الزنا، و من هؤلاء قس بن ساعدة، و زيد بن عمرو، و ورقة بن نوفل، و غيرهم، و يسمون الحنيفيين، و كأنّ سائلا يسأل عن حكم هؤلاء عند اللّه.

فأجابت الآية بأن هؤلاء لا بأس عليهم، و كذلك اليهود و الصابئة و النصارى الذين لم يدركوا محمدا (ص)، كي يأخذوا عنه التفاصيل، انهم جميعا لا خوف عليهم، ما داموا على الإيمان باللّه و اليوم الآخر، و العمل الصالح .. و نحن نميل الى هذا المعنى.

و تسأل: ان المعنى الظاهر من هذه الآية أشبه بتحصيل الحاصل، لأن قوله تعالى: **مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ** بعد قوله: ان الذين آمنوا، يجعل الكلام هكذا:

ان الذين آمنوا من آمن منهم، و هذا تماما كقول القائل: ان المسلمين من أسلم منهم، و القائمين من قام منهم .. فما هو الجواب؟

و جوابه: ان هذا التساؤل انما يتجه إذا أعربنا من من قوله تعالى: **مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ** .. إذا أعربناها مبتدأ. أما إذا جعلناها بدلا من الأصناف الثلاثة فقط، أعني اليهود و الصابئة و النصارى فيسقط التساؤل من أساسه، حيث يكون المعنى على هذا: ان الذين آمنوا باللّه من غير اليهود و الصابئة و النصارى لا خوف عليهم، و كذلك من آمن من هذه الأصناف الثلاثة لا خوف عليهم، فحكم الجميع واحد.

تفسير الكاشف، ج١، ص ١١٩

[سورة البقرة (٢): الآيات ٦٣ الى ٦٦]

وَ إِذْ أَخَذْنا مِيثاقَكُمْ وَ رَفَعْنا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا ما آتَيْناكُمْ بِقُوَّةٍ وَ اذْكُرُوا ما فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٦٣) ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذلِكَ فَلَوْ لا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَ رَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخاسِرِينَ (٦٤) وَ لَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خاسِئِينَ (٦٥) فَجَعَلْناها نَكالاً لِما بَيْنَ يَدَيْها وَ ما خَلْفَها وَ مَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ (٦٦)

وَ إِذْ أَخَذْنا مِيثاقَكُمْ الآية

اللغة:

المراد بالميثاق هنا العهد بأن يلتزموا و يعملوا بأحكام التوراة، و بالقوة العزم و الجد، و الطور الجبل الذي ناجى اللّه عليه موسى (ع)، و الخاسئ المطرود، و النكال الإرهاب و العقاب.

الإعراب:

خاسئين صفة للقردة، و قيل خبر بعد خبر لكونوا، و قيل حال، و اللام في لقد هي لام التوكيد، و تسمى أيضا لام الابتداء و الضمير، و هو الهاء من جعلناها عائد إلى الأمة الممسوخة، لأن التقدير كونوا أمة، و نكالا مفعول ثان لجعل.

المعنى:

(وَ إِذْ أَخَذْنا مِيثاقَكُمْ). أي أخذنا الميثاق من أسلافكم أن يعملوا بالتوراة، و لما نقضوه رفع اللّه الجبل فوقهم، و قال: اعملوا بما فيها، و إلا أسقطت هذا

تفسير الكاشف، ج١، ص ١٢٠

الجبل عليكم، فأذعنوا و تابوا، فاستقر الجبل في مكانه، و لكنهم عادوا الى التمرد و العصيان.

و إذا كان هذا شأن اليهود في عهد الكليم (ع)، و قد شاهدوا عيانا ما شاهدوا من الخوارق، و لا حجة أقوى و أبلغ من العيان، فلا عجب- اذن- من يهود المدينة إذا أنكروا نبوة محمد (ص)، و نقضوا العهد و الميثاق المبرم بينه و بينهم، انظر فقرة «محمد و يهود المدينة» عند تفسير آية: يٰا بَنِي إِسْرٰائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ.

(فَلَوْ لاٰ فَضْلُ اللّٰهِ عَلَيْكُمْ وَ رَحْمَتُهُ). أي لو لا لطف اللّه و تفضله بامهاله لكم لحل بكم العذاب في الدنيا قبل الآخرة، قال الملا صدرا:

«ان هذه الآية من أرجا الآيات، و أقواها دلالة على رحمته و تجاوزه عن سيئات عباده العاصين، لأن قوله: فلو لا فضل اللّه عليكم بعد ان عدد قبائحهم من عبادة العجل، و كفران النعيم، و جحود الأنبياء و قتلهم، و نقض الميثاق المؤكد، و غير ذلك يدل على كمال رأفته و عفوه».

ثم نقل الملا صدرا عن القفال ما يتلخص بأن اللّه سبحانه بعد أن رفع عنهم عذاب الجبل حرفوا التوراة، و جاهروا بالمعاصي، و خالفوا موسى، و لقي منهم كل أذى، و كان اللّه سبحانه يجازيهم في الدنيا، ليعتبروا، حتى انه خسف الأرض ببعضهم، و أحرق بالنار آخرين، و عوقبوا بالطاعون .. كل هذا، و غير هذا منصوص عليه في توراتهم التي يقرون بها، و التي هي الآن في متناول كل طالب و راغب .. ثم فعل الخلف ما فعل السلف من الجرائم، فكفروا السيد المسيح (ع)، و صمموا على قتله .. فغير عجيب انكارهم ما جاء به محمد (ص)، و جحودهم لحقه.

(وَ لَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ). لقد أمرهم اللّه سبحانه بترك العمل يوم السبت، و حرم عليهم صيد الأسماك فيه، فكانت الحيتان تتجمع في هذا اليوم آمنة مطمئنة، و لكن ثلثة من اليهود احتالوا و تأوّلوا .. حيث حبسوا الحيتان يوم السبت و حصروها في مكان لا تستطيع تجاوزه، و أخذوها يوم الأحد، و قالوا: ان اللّه نهى عن صيد الحيتان في هذا اليوم، و لم ينه عن حبسها، و فرق بعيد بين الحبس و بين الصيد.

تفسير الكاشف، ج١، ص ١٢١

و يذكرني هذا الدجل و الاحتيال بنفاق محترفي الدين و الوطنية الذين يتلاعبون بالألفاظ، و يشوهون الحقائق، ليوقعوا بعض السذج في شباكهم .. و من الطريف ان بعض الشيوخ ألّف كتابا خاصا في الحيل الشرعية، حتى كأنّ اللّه طفل صغير تخفى عليه التمويهات، و لا يعلم الصادقين من الكاذبين .. و إذا لم يمسخ اللّه هؤلاء قردة خاسئين في هذه الحياة، كما فعل باليهود من قبل فسيحشرهم غدا على هيئة الكلاب و القردة و الخنازير .. و إذا لم يمسخ الكاذبون الآن في الظاهر فإنهم ممسوخون في الباطن .. و لا حجة أقوى من الأفعال التي تنبئ بمسخ نفوسهم.

(فَقُلْنٰا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خٰاسِئِينَ). اختلف المفسرون: هل كان المسخ لمن اعتدى في السبت من اليهود مسخا حقيقيا، بحيث صارت أجسامهم و صورهم على هيئة القرود، أو ان المسخ كان في الطبع، لا في الجسم، تماما مثل: ختم اللّه على قلوبهم، و نظير كمثل الحمار يحمل أسفارا؟.

ذهب أكثر المفسرين الى الأول، و ان المسخ كان حقيقة، عملا بالظاهر الذي لا داعي الى تأويله، و صرفه عن دلالته، لأن تحول الصورة الى صورة أخرى جائز عقلا، فإذا جاءت آية أو رواية صحيحة على وقوعه أجريناها على ظاهرها، حيث لا حاجة الى التأويل.

و ذهب قليل منهم مجاهد في القديم، و الشيخ محمد عبده في الحديث الى الثاني، و ان المسخ كان في النفس، لا في الجسم، قال الشيخ عبده، كما في تفسير المراغي: «ان اللّه لا يمسخ كل عاص، فيخرجه عن نوع الإنسان، إذ ليس من سنته في خلقه .. و سنة اللّه واحدة، فهو يعامل القرون الحالية بمثل ما عامل به القرون الخالية».

و نحن نميل الى ما عليه جمهور العلماء و المفسرين، و ان المسخ كان حقيقة، لا مجازا، أما قول عبده فصحيح في نفسه، كمبدأ عام، و قاعدة كلية، و لكن لهذه القاعدة مستثنيات، تستدعيها الحكمة الإلهية، كالمعجزات، و ما اليها من الكرامات .. و معاملة اللّه مع بني إسرائيل في ذاك العهد من هذه المستثنيات، كما يتضح من الفقرة التالية:

تفسير الكاشف، ج ١، ص ١٢٢

لا قياس على اليهود:

من يدقق النظر في آي الذكر الحكيم التي نزلت في الاسرائيليين خاصة، و في الذين كانوا منهم على عهد موسى الكليم (ع) بوجه أخص، ان من يستقرئ هذه الآيات يخرج بنتيجة واضحة كالشمس، و هي انه سبحانه قد عاملهم معاملة لا تشبه شيئا، و لا يشبهها شيء مما هو معروف و مألوف .. و غير بعيد أن يكون قوله تعالى: «وَ أَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعالَمِينَ» اشارة الى هذه المعاملة الخاصة.

فلقد حررهم اللّه من نير فرعون و طغيانه بانفلاق البحر، لا بالجهاد و التضحية، و أطعمهم المنّ و السلوى، و سقاهم الماء بمعجزة، لا بالكد و العمل، و رفع فوقهم الجبل ليطيعوا، و يسمعوا، و أحيا قتيلهم، ليبين لهم ما خفي من أمر القاتل .. كل ذلك، و ما اليه يدل دلالة صريحة واضحة على ان مشاكل اليهود في ذلك العصر لم تحل بطريقة طبيعية مألوفة، بل لم يفكروا هم أنفسهم في العمل من أجل حلها .. فكلما اصطدموا بمشكلة قالوا: يا موسى ادع لنا ربك يفعل و يترك .. و كان موسى يدعو، و اللّه يستجيب.

و بهذا يتبين معنا ان قياس سائر الأجيال على الجيل الاسرائيلي آنذاك في غير محله، و ان قول الشيخ محمد عبده: «ان اللّه يعامل القرون الحاضرة بمثل القرون الخالية» يصح في جميع الناس الا في أولئك الناس «١».

و أيضا يتبين ان اللّه قد أراد برفع الجبل أن يكرههم و يلجئهم الى الأخذ بما في التوراة، و ان قول السيد الطباطبائي في كتاب الميزان: «ان رفع الجبل لا يدل على الإلجاء و الإكراه، لأنه لا إكراه في الدين» ان هذا القول بعيد عن الواقع بالنسبة الى قوم موسى الذين عاملهم اللّه معاملة أبعد ما تكون عن الضوابط و القواعد.

أما الحكمة الإلهية لذلك فلا مصدر لديّ أعتمده لمعرفتها. و قد يكمن السر

---

(١) لقد و صم القرآن و الإنجيل اليهود بأنهم أعداء الإنسانية، و تاريخهم يشهد بهذه الحقيقة، و من أجل هذا يحرصون كل الحرص على التأكيد بأنه لا فرق بين القوميات، و لا بين الأديان، و ألفوا لهذه الغاية الكتب، و أسسوا المعاهد، و بثوا الدعايات، و أنشأوا الجمعيات، و منها الجمعية الماسونية العالمية التي أضفوا عليها ثوب الانسانية.

تفسير الكاشف، ج ١، ص ١٢٣

في ان اللّه جل و علا أراد أن يضرب من أولئك اليهود مثلا على ان الحياة لا تطيب و تحلو الا بالكد و الكفاح ضد الطبيعة، و به وحده تكتشف الحقائق، و تعرف الأسرار، و ترتقي الانسانية في مدارج الرقي و الحضارة، و لو عاش الإنسان اتكاليا، و على مائدة تنزل من السماء لما تميز في شيء عن الحيوان المربوط على المعلف، و لم يكن بحاجة الى العقل و الإدراك .. ان الاتكالية جمود و موت، و الجهاد حيوية و نشاط، و مهما يكن، فان تاريخ اليهود بوجه العموم يتصل اتصالا وثيقا بتاريخ هؤلاء الاسرائيليين الذين كانوا على عهد موسى، فهم أقدم العناصر، و الأصل المباشر لسلالة من وجد بعدهم من اليهود.

و بمناسبة الحديث عن اليهود نشير الى جماعة من الصهاينة تقيم في أمريكا، و بالتحديد في الحي المعروف بـ (بروكلين) بنيويورك، و اسم هذه الجماعة:

«جماعة شهود يهوه» .. و هدفها الأول و الأخير اشاعة الفوضى، و اثارة الفتن الدينية في جميع أقطار العالم، بخاصة العالم العربي، و التنبؤ بفناء العالم .. و تصدر هذه الجماعة العديد من النشرات و الكتب بجميع اللغات، و بأغلفة ملونة، تسرب الكثير منها الى بلادنا، كما تصدر مجلة باسم برج المراقبة، و من الكتب التي نشرتها كتاب في الطعن بمحمد (ص) و القرآن، و اسم هذا الكتاب «هل خدم الدين الانسانية» و كتاب ليكن اللّه صادقا، و كتاب نظام الدهور الالهي، و الحق يحرركم، و المصالحة، و ملايين من الذين هم أحياء لن يموتوا أبدا، و قد طبع هذا الكتاب ببيروت.

و اكتشفت حكومة القاهرة بعض أعضاء جماعة شهود يهوه، و كانوا يعقدون اجتماعات سرية، فقبضت عليهم و شرعت بمحاكمتهم في الشهر الرابع من سنة ١٩٦٧.

و من تعاليم هذه الجماعة انه جرى صراع طويل و مرير بين اللّه و الشيطان دام ستين قرنا، ثم اعتزل اللّه، و سلم دفة الحكم و الادارة للشيطان يتصرف كيف شاء، لأن الشيطان أبقى اللّه وحيدا فريدا لا أحد معه إلا أمة إسرائيل، و من أجل هذا قال اللّه للشيطان: خذ الناس، كل الناس، و اترك لي هذه الأمة ..

و هكذا تم الاتفاق بين اللّه و الشيطان .. و لكن الآية ستنعكس في النهاية، لأن أمة إسرائيل ستملك من النيل الى الفرات، و سيخرج الأنبياء من قبورهم،

تفسير الكاشف، ج ١، ص ١٢٤

و يتولون أعلى المناصب في دولة إسرائيل، و بالتالي يخضع العالم كله لهذه الدولة، و يخذل الشيطان، و ينتصر الرحمن .. و لهذه الجماعة أنصار و عملاء في بيروت و عمان و بغداد و دمشق و القاهرة و السعودية و المغرب «١».

و الغرض من هذه الاشارة التنبيه الى رأس الحية، و إلى الأصابع التي تحرك في الخفاء بعض المؤلفين و محرري الصحف، و تضع لهم الخطط لاشاعة للفوضى و الفساد، و إثارة النعرات الطائفية، و الفتن الدينية في بلادنا.

[سورة البقرة (٢): الآيات ٦٧ الى ٧٣]

وَ إِذْ قالَ مُوسى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قالُوا أَ تَتَّخِذُنا هُزُواً قالَ أَعُوذُ بِاللهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجاهِلِينَ (٦٧) قالُوا ادْعُ لَنا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنا ما هِيَ قالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّها بَقَرَةٌ لا فارِضٌ وَ لا بِكْرٌ عَوانٌ بَيْنَ ذلِكَ فَافْعَلُوا ما تُؤْمَرُونَ (٦٨) قالُوا ادْعُ لَنا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنا ما لَوْنُها قالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّها بَقَرَةٌ صَفْراءُ فاقِعٌ لَوْنُها تَسُرُّ النَّاظِرِينَ (٦٩) قالُوا ادْعُ لَنا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنا ما هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشابَهَ عَلَيْنا وَ إِنَّا إِنْ شاءَ اللهُ لَمُهْتَدُونَ (٧٠) قالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّها بَقَرَةٌ لا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَ لا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لا شِيَةَ فِيها قالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوها وَ ما كادُوا يَفْعَلُونَ (٧١)

وَ إِذْ قَتَلْتُمْ نَفْساً فَادّارَأْتُمْ فِيها وَ اللهُ مُخْرِجٌ ما كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ (٧٢) فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِها كَذٰلِكَ يُحْيِ اللهُ الْمَوْتىٰ وَ يُرِيكُمْ آيٰاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٧٣)

إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً الآية

---

(١) هذا بعض من كل، و قد استقيت معلوماتي عن جماعة يهوه من صحف كثيرة، آخرها «صباح الخير» المصرية، تاريخ ١٣- ٤- ١٩٦٧، و «المصور» المصرية، تاريخ ١٤ منه.

تفسير الكاشف، ج ١، ص ١٢٥

اللغة:

الفارض المسنة التي انقطعت ولادتها، و البكر الصغيرة التي لم تحمل، و العوان وسط بينهما، لا كبيرة و لا صغيرة، و الفاقع شديد الصفرة، يقال: أصفر فاقع، و أخضر ناضر، و أحمر قان، و أبيض ناصع و يقق، و اسود حالك، و كلها صفات مبالغة في الألوان، كما في مجمع البيان، و الذلول الريّض الذي زالت صعوبته، و المراد بالذلول هنا البقرة التي لم تعتد العمل في الأرض، و المسلّمة بتشديد اللام السالمة من العيوب، و الشية بكسر الشين العلامة، و المراد بها هنا أن يكون لون البقرة واحدا لا لون يخالف الصفرة، و هو مأخوذ من وشي الثوب إذا زيّن بخطوط مختلفة. و اصل ادارأتم تدارأتم على وزن تفاعلتم، و معنى التدارؤ التدافع، أي كان البعض يدفع خصمه بيده، و خصمه يفعل به مثل فعله، أو ان كلا يتهم الآخر بدم القتيل.

الإعراب:

ما هي مبتدأ و خبر، و الجملة مفعول يبين، لا فارض صفة للبقرة، و الصفة إذا كانت منفية بلا وجب تكرارها، فلا يجوز أن تقول: مررت برجل لا كريم و تسكت، بل لا بد أن تعطف عليه و لا شجاع، و ما أشبه، و عوان خبر لمبتدأ محذوف، أي هي عوان، و فاقع صفة للبقرة، و لونها فاعل لفاقع.

ملخص القصة:

ان هذه الآيات الكريمة يتوقف فهمها على معرفة الحادثة التي نزلت الآيات من أجلها، و خلاصة هذه الحادثة:

تفسير الكاشف، ج ١، ص ١٢٦

ان شيخا غنيا من بني إسرائيل قتله بنو عمه طمعا في ميراثه، ثم ادعى القتلة على أناس أبرياء أنهم قتلوه، و طالبوهم بديته، ليدفعوا عنهم تهمة القتل، فوقع الاختلاف بينهم و الشجار، فترافعوا الى موسى (ع)، و حيث لا بينة تكشف عن الواقع سألوا موسى- كالمعتاد- ان يدعو الله ليبين لهم ما خفي من أمر القاتل، فأوحى الله اليه أن يذبحوا بقرة، و يضربوا القتيل ببعضها، فيحيا، و يخبر بقاتله، و بعد أخذ ورد، و ان الأمر: هل هو هزل أو جد، و بعد السؤال عن أوصاف البقرة أولا و ثانيا و ثالثا فعلوا، و عاد القتيل الى الحياة و أخبر بما كان.

المعنى:

(قالُوا أَ تَتَّخِذُنا هُزُواً). أي نسألك عن أمر القتيل، فتأمرنا بذبح البقرة؟

ان هذا هزؤ، و ليس بجد.

(قٰالَ أَعُوذُ بِاللهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجٰاهِلِينَ). أي اني لا استعمل الهزؤ و السخرية في غير التبليغ عن اللّه، فكيف في التبليغ عنه جلت كلمته؟

و كان يجزيهم أن يذبحوا بقرة أية بقرة، لأن المأمور به بقرة مطلقة و الإطلاق يفيد الشمول، و لكنهم (قٰالُوا ادْعُ لَنٰا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنٰا مٰا هِيَ). قال: هي من حيث السن وسط، لا بالكبيرة، و لا بالصغيرة، فاذهبوا، و امتثلوا و لا تتوانوا في ذبحها.

و لكنهم عادوا ثانية الى التنطح و السؤال (قٰالُوا ادْعُ لَنٰا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنٰا مٰا لَوْنُهٰا).

قال: هي صفراء .. و لكنهم زادوا في الالحاف، و اعادة السؤال ثالثا، لأن البقر في هذا اللون و السن كثير .. قال: هي سائمة لا عاملة، و سالمة لا معيبة .. فطلبوها حتى وجدوها، و ذبحوها، و ضربوا الميت ببعضها، فعاد الى الحياة، و انكشف السر بعد أن أخبر عن قاتله.

(كَذٰلِكَ يُحْيِ اللهُ الْمَوْتىٰ وَ يُرِيكُمْ آيٰاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ). أي ان احياءنا لهذا القتيل شاهد عيان، و برهان حسي على البعث بعد الموت، لأن من قدر على

تفسير الكاشف، ج ١، ص ١٢٧

احياء نفس واحدة قدر على احياء الأنفس كلها، لعدم الاختصاص، فهل بعد هذا الشاهد الحسي العياني تنكرون و تشككون و تعصون؟ .. أجل برغم ذلك و غير ذلك قست قلوبهم، بل كانت أشد قساوة و صلابة من الحجارة، كما نطقت الآية التالية.

و بعد الذي بيناه في تفسير قوله تعالى و إذ أخذنا ميثاقكم، في فقرة: «لا قياس على اليهود» لا يبقى أي مجال للتساؤل: لما ذا لم يحي اللّه القتيل ابتداء، و هو القادر على كل شيء؟ و كيف يحيا الميت إذا ضرب بجزء البقرة؟ و لما ذا كانت هذه البقرة دون غيرها؟ ثم ما هي الفائدة من ضرب المقتول ببعضها؟.

كل هذه التساؤلات، و ما اليها لا تتجه بحال بعد أن أثبتنا ان اللّه عامل أولئك الاسرائيليين معاملة خاصة دون الناس أجمعين، و انه من هذه الجهة فضلهم على الناس أجمعين.

[سورة البقرة (٢): آية ٧٤]

ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجٰارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَ إِنَّ مِنَ الْحِجٰارَةِ لَمٰا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهٰارُ وَ إِنَّ مِنْهٰا لَمٰا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمٰاءُ وَ إِنَّ مِنْهٰا لَمٰا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ وَ مَا اللهُ بِغٰافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٧٤)

ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ الآية ٧٤:

الإعراب:

أو هنا للتقسيم، أي ان بعض قلوبهم كالحجارة، و بعضها أشد قسوة منها، و أشد خبر مبتدأ محذوف، و قسوة تمييز، و الضمير في (منه) يعود الى (ما)، و في (منها) يعود الى الحجارة.

تفسير الكاشف، ج ١، ص ١٢٨

المعنى:

(ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذٰلِكَ). أي كان الواجب على أسلافكم- يا يهود المدينة- أن يعتبروا، و تلين قلوبهم بعد أن شاهدوا ما شاهدوا من الخوارق و المعجزات، و منها احياء القتيل .. و لكنهم لخبثهم فعلوا عكس ما تستدعيه هذه الخوارق، فأفسدوا و قست قلوبهم، حتى كأنها قدّت من صخر، بل ان بعضها أشد قساوة و صلابة، ذلك: «وَ إِنَّ مِنَ الْحِجارَةِ لَمٰا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهٰارُ وَ إِنَّ مِنْهٰا لَمٰا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمٰاءُ».

و تسأل: ان الأنهار ماء ما في ذلك ريب، فكيف صح تقسيم الماء إلى أنهار و ماء؟ و هل هذا الا كتقسيم البناء الى بيت و بناء؟.

الجواب: ان الآية الكريمة قسمت الماء الى قسمين: كثير، و هو الأنهار، و قليل و هو العيون و الآبار، و قد عبرت عن هذا القسم القليل بلفظ الماء ..

و لذا أسندت التفجير الى الكثير، لأنه يشعر بالكثرة، و التشقق الى الماء، لأنه يشعر بالقلة.

و مهما يكن، فان الغرض ان اللّه سبحانه قد فضل الصخور و الحجارة بشتى أقسامها و أنواعها على قلوب اليهود، لأن الصخر قد يتصدع، فيخرج منه الماء، و ان الحجر قد يتخلخل و يتحرك عن موضعه، أما قلوب اليهود فإنها لا تندى بخير، و لا يحركها جمال، و لا تتجه الى هداية.

و تسأل: ان الحجارة لا حياة فيها و لا ادراك، حتى تخشى اللّه، فما الوجه في قوله تعالى: (وَ إِنَّ مِنْهٰا لَمٰا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ)؟

و قد أجيب على ذلك بأجوبة كثيرة، أقربها جوابان: الأول، ان هذا مبني على الافتراض، أي لو كان في الحجارة فهم و عقل كاليهود لهبطت من خشية اللّه. و مثل هذا كثير في كلام العرب.

الجواب الثاني: ان الحجارة من شأنها أن تخشع و تخضع للّه الذي تنتهي اليه جميع الأسباب الطبيعية و غيرها، قال تعالى: «تُسَبِّحُ لَهُ السَّمٰاوٰاتُ السَّبْعُ وَ الْأَرْضُ وَ مَنْ فِيهِنَّ وَ إِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاّٰ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ- الاسراء ٤٥». و يأتي التوضيح حين نصل الى هذه الآية ان شاء اللّه.

تفسير الكاشف، ج ١، ص ١٢٩

اختلاف الأمزجة:

قد يسأل سائل: هل في داخل الإنسان قوة تحركه، و تتدخل في شئونه، أو ان المحرك الأول له هي الأحداث الخارجية و أشياؤها، و ان كان من باعث داخلي فان هذا الباعث ينبع و يتولد من الخارج، بحيث يكون الداخل فرعا، و الخارج أصلا، أو ان كلا منهما أصل في نفسه، و مستقل عن غيره، و ان الإنسان يتحرك تارة بدافع من هذا، و أخرى بدافع من ذاك، و حينا بدافع منهما معا .. و على افتراض ان في داخل الإنسان قوة تحركه و تبعثه مستقلة عن غيرها، فهل يشترك جميع أفراد الإنسان في هذه القوى الروحية، بحيث لا يتباين فيها فرد عن فرد، أو ان لكل فرد مزاجا خاصا، و قوى لا يشاركه فيها أحد سواه؟.

و الجواب عن السؤال الأول ان الإنسان انما يكون إنسانا بغرائزه و قواه الروحية، و لو جردناه منها، أو سلبنا عنها العمل و التأثير لكان الإنسان مجرد هيكل من ورق، أو ريشة في مهب الريح .. أجل، ان القوى الداخلية تتفاعل مع التيارات و الأحداث الخارجية، فتؤثر فيها، و تتأثر بها، و لكن التفاعل شيء، و الاستقلال في التأثير شيء آخر- مثلا- ان غريزة

التطلع و التشوف تخلق مع الإنسان، و من هنا كان الطفل سئولا بفطرته، بل ان هذه الغريزة من خصائص الإنسان ..

ثم تنضج و تنمو هذه الغريزة برؤية الأحداث الخارجية، و بالبحث و الاكتشاف، و بنموها و نضوجها يستطيع الإنسان أن يؤثر في الأشياء الخارجية، و يطورها حسب حاجاته و أغراضه، مع العلم بأنها مستقلة في وجودها عن الوعي و الإدراك ..

فحركات الإنسان- اذن- تنبع من الداخل و الخارج، أي من نفسه، و من الأحداث.

و هناك قسم ثالث اكتشفته من تجاربي الخاصة، و اطلق عليه اسم «التوفيق الى الخير و الفلاح» .. و هذا القسم لا ينبع من النفس و لا من الأحداث، بل من قوة خفية، و طاقة خيرة لا حد لها تكمن في عالم المجهول، و لكنها تمهد سبيل الخير الى بعض الأفراد، و تتدخل مباشرة في توجيههم الى ما يرضي اللّه سبحانه، من حيث لا يشعرون ..

تفسير الكاشف، ج١، ص ١٣٠

و طبيعي ان لا يوافقني على هذا الا من يؤمن باللّه و حكمته، و يقدّره حق قدره، و أعترف بأنه ليس لدي ضابط عام لهذا القسم، لأني اهتديت اليه- كما قدمت- من تجاربي الخاصة «١».

أما الجواب عن السؤال الثاني، و ان الناس هل يشتركون في الغرائز و الصفات النفسية .. أما الجواب عن هذا السؤال فانه يستدعي التفصيل، فان من الصفات النفسية ما يتحقق فيه المشاركة، كالوجدان و الإدراك الذي نميز به بين الحق و الباطل، و بين الخير و الشر، و بين القبح و الجمال .. و لو لا هذه المشاركة لما أمكن بحال اثبات الفضيلة و الرذيلة، و لا جاز لنا أن نذم أو نمدح أحدا على فعل أو ترك، أو نلزم جاحدا بحجة على الإطلاق .. و كذلك غريزة حب الذات، و عاطفة الأبوة و البنوة، و ما اليها فإنها مشاع بين الجميع، و ان تفاوتت شدة و ضعفا.

و من الصفات النفسية ما يختلف أفراد الإنسان باختلافها، كالشجاعة و الجبن، و الكرم و الشح، و القساوة و اللين، و ضعف الارادة و قوتها، و الميل الى الخير، أو الشر، فان الناس في هذه الصفات و ما اليها متفاوتون متباينون، فما كل انسان بكريم، أو بخيل، أو جبان، أو شرير ..

و تسأل: ان قولك يخالف الشائع الذائع «ما من شخص إلا و فيه جانبان حسن و غير حسن» و قد ركزت قولك على جانب واحد، و أغمضت الطرف عن الجانب الآخر؟.

الجواب: ان نفحة الخير التي نراها بعض الحين من الشرير انما جاءت فلتة، و من غير تصميم سابق .. على ان هذه القضية، و هي «ما من شخص إلا و فيه جانبان» انما تصح في حق غير اليهود، أما في حق اليهود فلا .. لأن كل ما فيهم سيء و قبيح، و لا جانب فيهم للحسن إطلاقا .. و الدليل على ذلك توراتهم

---

(١) من غرائب الصدف اني بعد أن كتبت هذه الكلمات قرأت ان القائد العسكري الانكليزي الشهير منتجمري، وصف نفسه بقوله «انه جندي صغير تحت قيادة قوة جبارة، و انه لم ينتصر في المعركة، و انما شاءت الاقدار أن ينتصر، و انه بغير الايمان بهذه القوة العاقلة الكبرى لا يمكن ان ينتصر في أي ميدان» يشير إلى انتصاره في معركة العلمين الشهيرة الفاصلة في الحرب العالمية الثانية .. فهو يؤمن بأن القوة الخفية، مهدت له سبيل النصر على روميل الذي كان يسمى ثعلب الصحراء، و هو أعظم القادة العسكريين إطلاقا آنذاك.

تفسير الكاشف، ج ١، ص ١٣١

و القرآن الكريم، و التاريخ الصحيح، و عملهم في فلسطين، و غير فلسطين الذي دل دلالة واضحة على ان الدين و الأخلاق، و جميع العلاقات البشرية عندهم ان هي إلا عملية تجارية، و منافع شخصية .. و سنعود الى هذا الموضوع كلما دعت المناسبة.

[سورة البقرة (٢): آية ٧٥]

أَ فَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَ قَدْ كانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلامَ اللهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ ما عَقَلُوهُ وَ هُمْ يَعْلَمُونَ (٧٥)

أَ فَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا الآية ٧٥:

المعنى:

كل صاحب رسالة يحرص كل الحرص على أن يؤمن الناس بها، فيبث الدعوة لها في الأوساط أملا أن يكثر أتباعها و أنصارها، و يتحمل في سبيل ذلك المتاعب و المصاعب، و هكذا فعل رسول اللّه (ص) و أصحابه .. بثوا الدعوة الى الإسلام في كل وسط رجوا أن يكون لها فيه أتباع و أنصار، و كان بين الأنصار و يهود المدينة علاقة جوار و رضاعة و تجارة، فدعوهم الى الإسلام بأمر النبي، و ناظروهم بالحجة الدامغة، و المنطق السليم، و طمعوا أن تتحرك فيهم العاطفة الانسانية، بخاصة و انهم أهل كتاب، و بوجه أخص ان أوصاف محمد (ص) قد وردت في توراتهم تصريحا أو تلميحا.

و لما أصر اليهود على رفض الدعوة، و الاستمرار في الكفر و معاندة الحق خاطب اللّه نبيه الكريم و أصحابه بقوله: «**أَ فَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ**» و قد كان أسلاف هؤلاء اليهود يسمعون كلام اللّه من موسى مقترنا بالآيات و المعجزات فيحرفونه و يتأولونه حسب أهوائهم، على علم منهم بالحق، و تصميم على مخالفته، و ما حال يهود المدينة إلا كحال أسلافهم .. حرّف السلف، و جعل الحلال حراما، و الحرام حلالا تبعا لهواه، و حرف الخلف أوصاف محمد (ص) الواردة في التوراة، كي لا تقوم عليهم الحجة.

تفسير الكاشف، ج ١، ص ١٣٢

و قال صاحب مجمع البيان: «في هذه الآية دلالة على عظم الذنب في تحريف الشرع، و هو عام في اظهار البدع في الفتيا و القضايا، و جميع أمور الدين».

و نزيد على قول صاحب المجمع أن في هذه الآية دلالة أيضا على ان من اتّبع الضلال لا يسيء الى نفسه فقط، بل يمتد أثر إساءته الى الأجيال، و يتحمل وزر عمله، و عمل من اتبعه على الغواية و الضلالة، كما جاء في الحديث الشريف.

[سورة البقرة (٢): الآيات ٧٦ الى ٧٧]

وَ إِذا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قالُوا آمَنَّا وَ إِذا خَلا بَعْضُهُمْ إِلى بَعْضٍ قالُوا أَ تُحَدِّثُونَهُمْ بِما فَتَحَ اللهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَ فَلا تَعْقِلُونَ (٧٦) أَ وَ لا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ ما يُسِرُّونَ وَ ما يُعْلِنُونَ (٧٧)

وَ إِذا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا الآية ٧٦- ٧٧:

اللغة:

الفتح في الأصل يستعمل للشيء المغلق، و المراد به هنا الحكم، يقال: اللهم افتح بيني و بين فلان، أي احكم بيني و بينه.

الإعراب:

ليحاجوكم مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللام.

المعنى:

كان بعض يهود المدينة ينافقون و يكذبون على المسلمين، و يقولون لهم: نحن مؤمنون بالذي آمنتم به، و نشهد ان محمدا صادق في قوله، فلقد وجدناه في التوراة بنعته و صفته، و إذا خلا هؤلاء المنافقون برؤسائهم أخذ الرؤساء في لومهم و توبيخهم، و قالوا لهم فيما قالوا: كيف تحدثون المسلمين بما حكم اللّه به عليكم

تفسير الكاشف، ج ١، ص ١٣٣

من أتباع محمد؟ .. ألا تفقهون بأن هذا اقرار منكم على أنفسكم بأنكم المبطلون، و هم المحقون؟.

(أَ وَ لا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ ما يُسِرُّونَ وَ ما يُعْلِنُونَ). أي مهما حرص المنافقون على إخفاء نفاقهم، و الرؤساء الضالون على توجيه أتباعهم فان اللّه سبحانه لا تخفى عليه خافية .. فأنتم أيها اليهود تكتمون في دسائسكم و مؤامراتكم، و اللّه سبحانه يعلم بها رسوله الأعظم (ص)، و يذهب كيدكم هباء.

[سورة البقرة (٢): الآيات ٧٨ الى ٧٩]

وَ مِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لا يَعْلَمُونَ الْكِتابَ إِلاَّ أَمانِيَّ وَ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ (٧٨) فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هذا مِنْ عِنْدِ اللهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَ وَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ (٧٩)

وَ مِنْهُمْ أُمِّيُّونَ الآية ٧٨- ٧٩:

اللغة:

الأميّون واحده أمي، و معناه معروف، و هو الذي لا يقرأ و لا يكتب، أما وجه النسبة الى الأم فلأنه في الجهل كما ولدته امه، و الأماني واحدها امنية، و من معانيها تمني القلب، و هو أظهرها و أكثرها استعمالا، و تستعمل في التلاوة أيضا، و المراد بها هنا التخرص بلا دليل، و الذي يؤيد هذا المعنى و يقويه قوله تعالى: «**إِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ**» و الويل معناه الفضيحة و الحسرة، و الخزي و الهوان، و مثله ويح و ويس و ويب. و الأيدي جمع، واحدها يد، و الأيادي جمع الجمع، و يكثر استعمالها في النعم.

تفسير الكاشف، ج ١، ص ١٣٤

الإعراب:

ويل مبتدأ، و خبره للذين، و يجوز نصبه على تقدير جعل اللّه الويل للذين، لأن ويلا لا فعل له، قال هذا صاحب تفسير البحر المحيط، و قال أيضا:

إذا أضفت ويلا مثل ويل زيد فالنصب أرجح من الرفع، و إذا أفردته مثل ويل لزيد فالرفع أرجح.

المعنى:

(وَ مِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لا يَعْلَمُونَ الْكِتابَ). أي ان من اليهود جماعة أميين لا يعرفون شيئا من دين اللّه، و ان قصارى أمرهم التخرص و الظن دون أن يعتمدوا على علم.

و بديهة ان هذا الوصف و ان ورد في حق أولئك اليهود، و لكن الذم عام يشمل كل جاهل يتسم بسمة أهل العلم، و يتصدى الى ما ليس له بأهل، لأن المورد لا يخصص الوارد، كما قيل.

للتفسير اصول و قواعد:

و في هذه الآية دلالة واضحة على أن تفسير الكتاب و السنة لا يجوز بالتخرص و الظن، بل لا بد قبل كل شيء من العلم بقواعد التفسير و أصوله، و مراعاة هذه القواعد في بيان مراد اللّه و رسوله حذرا من الكذب عليهما، و النسبة اليهما دون مبرر شرعي.

و أول الشروط لصحة التفسير القراءة و الكتابة، ثم العلوم العربية بشتى أقسامها من معرفة مفردات اللغة، و الصرف و النحو، و علم البيان، و الفقه و أصوله، و علم الكلام، و الإلمام ببعض العلوم الأخرى التي يتصل بها تفسير بعض الآيات، على ان هذه يمكن للمفسر أن يرجع في معرفتها لأهل الاختصاص.

(فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هذا مِنْ عِنْدِ اللهِ). هدد اللّه سبحانه بهذه الآية كل من ينسب اليه ما ليس من عنده، لا لشيء إلا ليقبض

تفسير الكاشف، ج ١، ص ١٣٥

الثمن من الشيطان، و ليس من الضروري أن يكون الثمن مالا فقط، فقد يكون جاها، أو غيره من الشهوات و الملذات الدنيوية «١».

و كرر اللّه سبحانه الويل للمزوّرين ثلاث مرات في آية واحدة، للتأكيد على ان الافتراء عليه، و على نبيه من أعظم المعاصي و أشدها عقابا و عذابا: «وَيْلَكُمْ لا تَفْتَرُوا عَلَى اللهِ كَذِباً، فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذابٍ، وَ قَدْ خابَ مَنِ افْتَرىٰ- طه ٦١».

العالم لا يحكم بالواقع:

و نشير بهذه المناسبة الى ان العالم مهما بلغت مكانته من العلم فعليه أن لا ينسب أي شيء الى اللّه و رسوله على انه هو الواقع المسطور في اللوح المحفوظ، فإذا أفتى بالتحليل أو التحريم، أو حكم بشيء على انه حق، أو فسر آية أو رواية، فعليه إذا فعل شيئا من ذلك أن يفعله بتحفظ ملتفتا الى أن حكمه، أو فتواه، أو تفسيره ما هو إلا مجرد رأي و نظر يخطئ و يصيب، لا صورة طبق الأصل عن الواقع، و بهذا وحده يعذر عند اللّه إذا اجتهد و أفرغ الوسع، أما إذا قصر في الاجتهاد و البحث، أو بحث و نقب و لم يقصر و لكنه جزم بأن قوله هو قول اللّه و رسوله بالذات دون سواه، أما هذا فشأنه شأن الذين يفترون على اللّه الكذب، حتى و لو كان أعلم العلماء، لأن العالم لا يفتي و لا يحكم بالحق واقعا، بل بما يعتقد انه الحق، و هذا يحتمه مبدأ عدم العصمة.

[سورة البقرة (٢): الآيات ٨٠ الى ٨٢]

وَ قالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّاماً مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللهِ عَهْداً فَلَنْ يُخْلِفَ اللهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللهِ ما لا تَعْلَمُونَ (٨٠) بَلىٰ مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَ أَحاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ (٨١) وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ أُولئِكَ أَصْحابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيها خالِدُونَ (٨٢)

وَ قالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ الآية ٨٠- ٨٢:

---

(١) أثبت أهل الاختصاص بتاريخ اللغات و العادات ان التوراة الحالية التي يعتقد اليهود انها نزلت من اللّه على موسى، أثبتوا انها الفت في عصور لاحقة لعصر موسى بأمد غير قصير، و استخرج الباحثون هذه الحقيقة من ملاحظة اللغات و الأساليب و من الأحكام و الموضوعات، و البيئات الاجتماعية و السياسية التي تنعكس في التوراة، و لا تمت إلى عصر موسى بسبب، و سنحاول العودة ثانية إلى هذا الموضوع

بصورة أوسع ان شاء اللّه. [.....]

تفسير الكاشف، ج ١، ص ١٣٦

اللغة:

المس و اللمس و الجس اللفظ متعدد، و المعنى واحد، و يستعمل اللمس كثيرا فيما يكون معه احساس بالحرارة و البرودة و ما اليها.

الإعراب:

بلى حرف جواب لاثبات ما بعد النفي، يقال: ما فعلت كذا؟ فتجيب:

بلى، أي فعلت. و نعم جواب الإيجاب، يقال: فعلت كذا؟ فتجيب: نعم، أي فعلت.

المعنى:

(وَ قالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّاماً مَعْدُودَةً). يزعم اليهود انهم أبناء اللّه، و شعبه المختار، و ان الناس، كل الناس- غيرهم- أبناء الشيطان، و شعبه المنبوذ، فاللّه لا يخلد اليهود في النار، و لا يقسو عليهم، بل يعذبهم عذابا خفيفا، و وقتا قصيرا، ثم يرضى عنهم، اي انه سبحانه يدللهم، تماما كما يدلل اليوم الاستعمار عصابة الصهاينة التي احتلت أرض فلسطين.

(قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللهِ عَهْداً). أي قل لهم يا محمد: ان زعمكم هذا جرأة و افتئات على اللّه بغير علم .. و الا فأين العهد و الوعد الذي أخذتموه من اللّه سبحانه على ذلك؟ و ان دل زعمهم هذا على شيء فإنما يدل على استهتارهم و استخفافهم

تفسير الكاشف، ج ١، ص ١٣٧

بالذنوب و ارتكاب القبائح، قال الرسول الأعظم (ص): ان المؤمن ليرى ذنبه كأنه صخرة يخاف أن تقع عليه، و ان الكافر ليرى ذنبه كأنه ذباب مرّ على أنفه .. و قال علي أمير المؤمنين (ع): أشد الذنوب ما استهان به صاحبه، و قول الرسول الأعظم (ص): «كأن الذنب ذبابة تمر على أنف المذنب» ينطبق كل الانطباق على اليهود الذين يزعمون انهم أبناء اللّه المدللون .. و عسى ان يتعظ بهذا من يستهين بذنوبه اتكالا على شرف الأنساب.

و من يثق بنفسه، و لا يتحسس خطاياها، و لا يقبل النصح من غيره محال أن يهتدي الى خير. ان العاقل لا ينظر الى نفسه من خلال غرورها و أوهامها، بل يقف منها دائما موقف الناقد لعيوبها و انحرافها، و يميز بين ما هي عليه، و بين ما ينبغي أن تكون عليه، و يحررها من الأفكار الصبيانية، و النزوات الشيطانية، و بهذا وحده ينطبق عليه اسم الإنسان بمعناه الواقعي الصحيح .. و في الحديث الشريف من رأى انه مسيء فهو محسن.

(بَلى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَ أَحاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ).

السيئة تعم الشرك و غيره من الذنوب، و لكن المراد منها هنا خصوص الشرك، بقرينة قوله تعالى: «**فَأُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ**». قال صاحب مجمع البيان: ان ارادة الشرك من السيئة يوافق مذهبنا- أي مذهب الامامية- لأن غيره لا يوجب الخلود في النار، و التوضيح في فقرة «مرتكب الكبيرة».

(وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ أُولئِكَ أَصْحابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيها خالِدُونَ).

و تدل هذه الآية الكريمة على ان النجاء من عذاب اللّه غدا منوط بالايمان الصحيح، و العمل الصالح معا، و قد جاء في الحديث الشريف: ان سفيان الثقفي قال:

يا رسول اللّه قل لي في الإسلام قولا لا أسأل عنه أحدا بعدك. فقال: قل:

آمنت باللّه، ثم استقم.

يشير الرسول الأعظم (ص) بقوله هذا الى الآية ٣٠ حم السجدة: «إِنَّ الَّذِينَ قالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلاَّ تَخافُوا وَ لا تَحْزَنُوا وَ أَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ». و المراد بالاستقامة في الحديث الشريف و الآية الكريمة، العمل بكتاب اللّه، و سنة رسول اللّه (ص).

تفسير الكاشف، ج ١، ص ١٣٨

المسلم و المؤمن:

ينقسم المسلم بالنظر الى معاملته، و ترتب الآثار على إسلامه الى قسمين:

الأول: أن يقر للّه بالوحدانية، و لمحمد بالرسالة بغضّ النظر عن اعتقاده و أعماله .. أجل، يشترط فيه أن لا ينكر ما ثبت بضرورة الدين، كوجوب الصلاة، و تحريم الزنا و الخمر، و هذا المقر المعترف له عند المسلمين ما لهم، و عليه ما عليهم، من حيث الإرث و الزواج و الطهارة و واجبات الميت، كتغسيله، و تحنيطه، و تكفينه و الصلاة عليه، و دفنه في مقابر المسلمين، لأن هذه الآثار تلحق نفس الإقرار بالشهادتين، و تترتب على مجرد اظهار الإسلام، سواء أوافق الواقع، أو لم يوافقه.

الثاني: أن يؤمن و يلتزم بالإسلام أصولا و فروعا، فلا يجحد أصلا من أصول العقيدة الاسلامية، و لا يعصي حكما من أحكام شريعتها، و هذا هو المسلم حقا و واقعا عند اللّه و الناس، بل هو المسلم العادل الذي تترتب عليه جميع آثار العدالة الاسلامية في الدنيا و الآخرة، و من الآثار الدنيوية قبول شهادته، و جواز الائتمام به في الصلاة، و نفوذ حكمه، و تقليد الجاهل له في الأحكام الشرعية، ان كان مجتهدا، أما الآثار الاخروية فعلو المنزلة و الثواب.

أما المؤمن فهو من أقر بلسانه و صدق بجنانه الشهادتين، و لا يكفي مجرد الإقرار باللسان، و لا مجرد التصديق بالجنان، بل لا بد منهما معا، و عليه يكون كل مؤمن مسلما، و لا عكس.

و بهذا يتبين معنا ان العمل الصالح خارج عن مسمى الايمان و مفهومه بدليل ان اللّه سبحانه عطف الذين عملوا الصالحات على الذين آمنوا، و العطف يستدعي التعدد و التغاير .. أجل، ان العمل الصالح يدخل في مفهوم العدالة كما أشرنا، و يأتي الكلام عنها حين تستدعي المناسبة.

و تجمل الاشارة الى ان فقهاء الإمامية يطلقون في كتب الفقه لفظ المؤمن على خصوص الاثني عشري، فإذا قالوا: تعطى الزكاة للمؤمن، و يقتدى في الصلاة بالمؤمن، و ما الى هذا فإنهم يريدون بالمؤمن الاثني عشري فقط، و هذا اصطلاح خاص بالفقهاء وحدهم، حتى الفقيه الإمامي نفسه إذا تكلم عن المؤمن

تفسير الكاشف، ج ١، ص ١٣٩

في غير المسائل الفقهية فإنما يريد كل من أقر و صدق بالشهادتين، حتى و لو لم يكن اثني عشريا.

و على أية حال، فان كلا من الإسلام و الايمان بالمعنى الذي بيناه لا يستلزم حتما النجاة من عذاب اللّه غدا، بل لا بد معه

من الاستقامة التي هي العمل بكتاب اللّه، و سنة نبيه (ص).

مرتكب الكبيرة:

قسّم الفقهاء الذنوب الى كبائر، كشرب الخمر، و صغائر كالجلوس على مائدة الخمر دون الشرب، و يأتي تحديد الكبيرة و الصغيرة مفصلا ان شاء اللّه عند تفسير الآية ٣٢ من سورة النجم: «الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبٰائِرَ الْإِثْمِ وَ الْفَوٰاحِشَ إِلاَّ اللَّمَمَ» «١».

و اختلف أهل القبلة فيمن أقر بالشهادتين، و أتى بالكبيرة: هل هو كافر يخلد في النار، أو انه مؤمن فاسق يعاقب على الذنب بما يستحق، ثم يدخل الجنة؟.

ذهب الخوارج الى الأول، و قال الإمامية و الأشاعرة و أكثر الأصحاب و التابعين بالثاني، و أحدث المعتزلة قولا ثالثا، و أثبتوا المنزلة بين المنزلتين، أي لا هو بالكافر، و لا بالمؤمن.

و استدل العلامة الحلي في شرح التجريد على صحة القول بأن مرتكب الكبيرة مؤمن فاسق لا يخلد في النار، استدل «بأنه لو خلد هذا في النار للزم أن يكون من عبد اللّه مدة عمره ثم عصى آخر عمره معصية واحدة، مع بقائه على إيمانه، لزم أن يكون هذا مخلدا في النار، تماما كمن أشرك باللّه مدة عمره، و ذلك محال لقبحه عند العقلاء».

و ليس من شك ان سيئة واحدة لا تحبط جميع الحسنات، بل العكس هو الصحيح، لقوله تعالى: «إِنَّ الْحَسَنٰاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئٰاتِ ذٰلِكَ ذِكْرىٰ لِلذّٰاكِرِينَ- هود ١١٥» .. و على الأقل أن يكون كل شيء بحسابه.

---

(١) هذه الآية الكريمة تصلح ردا على من قال: ليس في الذنوب كبائر و صغائر، بل كلها كبائر، و وجه الرد ان لفظ اللمم معناه القلة، يقال: ألم بالطعام إذا أكل منه قليلا.

تفسير الكاشف، ج ١، ص ١٤٠

و من أجل هذا يجب حمل السيئة على الشرك في قوله سبحانه: «**بَلىٰ مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَ أَحٰاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولٰئِكَ أَصْحٰابُ النّٰارِ هُمْ فِيهٰا خٰالِدُونَ**». كما ان هذه الآية التي جاءت بعدها، و هي **(وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصّٰالِحٰاتِ أُولٰئِكَ أَصْحٰابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهٰا خٰالِدُونَ)**. ان هذه الآية تدل على ان مرتكب الكبيرة يدخل الجنة، و لا يخلد في النار، لأنها تعم من آمن و عمل صالحا، ثم أتى بعد ذلك بالكبيرة و لم يتب.

أيضا اليهود:

ان زعم اليهود بأنهم أبناء اللّه، و شعبه المختار مبعثه ان الدين و الأخلاق في عقيدتهم عملية تجارية، و منافع شخصية، و كل ما عداها هراء و هباء.

و تقول: ان هذا لا يختص باليهود، بل أكثر الناس على ذلك؟.

الجواب: أجل، و لكن الفرق ان اليهود يحقدون على البشرية جمعاء، و ان هدفهم النهائي هو ابادة الناس، كل الناس غيرهم.

[سورة البقرة (٢): آية ٨٣]

وَ إِذْ أَخَذْنا مِيثاقَ بَنِي إِسْرائِيلَ لا تَعْبُدُونَ إِلاَّ اللهَ وَ بِالْوالِدَيْنِ إِحْساناً وَ ذِي الْقُرْبى وَ الْيَتامى وَ الْمَساكِينِ وَ قُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً وَ أَقِيمُوا الصَّلاةَ وَ آتُوا الزَّكاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِنْكُمْ وَ أَنْتُمْ مُعْرِضُونَ (٨٣)

وَ إِذْ أَخَذْنا مِيثاقَ بَنِي إِسْرائِيلَ الآية ٨٣:

اللغة:

اليتيم من الناس من مات أبوه الى أن يبلغ الحلم، و عن الأصمعي ان اليتيم من الحيوان من لا ام له، و من الإنسان من لا أب له.

تفسير الكاشف، ج١، ص ١٤١

الإعراب:

لا تعبدون إنشاء في صيغة الخبر، أي لا تعبدوا، و قد يأتي الأمر بصيغة الخبر أيضا، مثل: تؤمنون باللّه، أي آمنوا باللّه، قال صاحب المجمع:

و يؤكد ذلك انه عطف عليه بالأمر، و هو قوله: و بالوالدين إحسانا، أي أحسنوا بالوالدين إحسانا، و قوله: و أقيموا الصلاة. و تتضمن هذه الآية أمورا:

١- البر بالوالدين:

ان اللّه سبحانه قرن شكر الوالدين بشكره، و أوجب البر بهما، و الإحسان اليهما، تماما كما أوجب التعبد له، و من هنا أجمع الفقهاء قولا واحدا على ان عقوق الوالدين من أعظم الكبائر، و ان العاق بهما فاسق لا تقبل له شهادة، و في الحديث الشريف: «ان العاق بوالديه لا يجد ريح الجنة»، و المراد بالإحسان للوالدين طاعتهما، و الرفق بهما قولا و عملا.

حكي ان امرأة حملت أباها من اليمن الى مكة على ظهرها، و طافت في البيت العتيق، فقال لها قائل: جزاك اللّه خيرا، فلقد وفيت بحقه. فقالت: كلا، ما أنصفته، لقد كان يحملني، و هو يود حياتي، و أنا أحمله الآن، و أود موته.

٢- القربى و اليتامى و المساكين:

لقد أوجبت الآية صلة الرحم، لصلته بالوالدين، كما أوجبت الحرص و المحافظة على اليتيم و أمواله على من كان وليا أو وصيا عليه، و أيضا أوجبت للفقير نصيبا في أموال الأغنياء.

٣- أصل الصحة:

إذا صدر من الإنسان عمل من الأعمال، أو قول من الأقوال يمكن حمله على

تفسير الكاشف، ج١، ص ١٤٢

وجه صحيح، و على وجه فاسد، فهل يحمل على الصحة، أو على الفساد، أو يجب التوقف و عدم الحكم بشيء إلا بدليل قاطع، و مثال ذلك أن ترى رجلا مع امرأة لا تدري: هل هي زوجته أو أجنبية عنه، أو تسمع كلاما، و أنت لا تدري: هل أراد به المتكلم النيل منك، أو لم يرد ذلك؟ و قد اتفق الفقهاء على وجوب الحمل على الصحة في ذلك و أمثاله، و استدلوا فيما استدلوا بقوله تعالى: «**وَ قُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً**» و بقول علي أمير المؤمنين: ضع أمر أخيك على أحسنه .. و بقول الإمام جعفر الصادق: كذّب سمعك و بصرك عن أخيك، فان شهد عندك خمسون قامة انه قال، و قال

هو لك: اني لم أقل، فصدقه و كذبهم.

و هذا مبدأ انساني بحت، لأنه يكرس كرامة الإنسان، و يؤكد علاقة التعاون و التعاطف بين الناس، و يبتعد بهم عما يثير الكراهية و النفور .. و بهذا يتبين ان الإسلام لا يقتصر على العقيدة و العبادة، و انه يهتم بالانسانية و خيرها، و يرسم لها الطرق التي تؤدي بها الى الحياة المثمرة الناجحة.

و لكن الذين باعوا دينهم للشيطان استغلوا هذا المبدأ الانساني، و انحرفوا به عن هدفه النبيل، و برروا به أعمال القراصنة و المرابين .. و بديهة- كما أشرنا- ان مبدأ الحمل على الصحة لا ينطبق على أعمال السلب و النهب، و الاحتيال و التضليل، و ما الى ذلك مما نعلم علم اليقين انه من المحرمات و الموبقات .. و انما ينطبق على ما نحتمل فيه الصدق و الكذب، و الصحة و الفساد.

[سورة البقرة (٢): الآيات ٨٤ الى ٨٦]

وَ إِذْ أَخَذْنا مِيثاقَكُمْ لا تَسْفِكُونَ دِماءَكُمْ وَ لا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَ أَنْتُمْ تَشْهَدُونَ (٨٤) ثُمَّ أَنْتُمْ هؤُلاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَ تُخْرِجُونَ فَرِيقاً مِنْكُمْ مِنْ دِيارِهِمْ تَظاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَ الْعُدْوانِ وَ إِنْ يَأْتُوكُمْ أُسارى تُفادُوهُمْ وَ هُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْراجُهُمْ أَ فَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتابِ وَ تَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَما جَزاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذلِكَ مِنْكُمْ إِلاَّ خِزْيٌ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ يَوْمَ الْقِيامَةِ يُرَدُّونَ إِلى أَشَدِّ الْعَذابِ وَ مَا اللهُ بِغافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٨٥) أُولئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَياةَ الدُّنْيا بِالْآخِرَةِ فَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذابُ وَ لا هُمْ يُنْصَرُونَ (٨٦)

لا تَسْفِكُونَ دِماءَكُمْ الآية ٨٤- ٨٦:

تفسير الكاشف، ج ١، ص ١٤٣

اللغة:

التظاهر التعاون، و فداء الأسير دفع العوض بدلا عن إطلاقه.

الاعراب:

لا تسفكون إنشاء بصيغة الخبر، مثل لا تعبدون في الآية السابقة، و أنتم مبتدأ، و جملة تقتلون خبر، و هؤلاء منادى، و يجوز أن تكون تأكيدا لأنتم، كأنه قال: أنتم أنتم، كما تقول: أنت أنت مؤكدا بأنه لا أحد سواه.

تمهيد:

لم ينته الحديث عن اليهود و مشاكلهم، و الآتي كثير .. و الصورة التي نستخلصها لليهود من آيات القرآن انهم يضاعفون النشاط لنشر الفساد في الأرض، و يتمادون في الغي كلما دعاهم داع الى الهداية و الاستقامة، حتى كأنهم فطروا على معصية اللّه، و مخالفة الحق .. تأمرهم توراتهم بعبادة اللّه، فيعبدون العجل، و يقول لهم موسى: هذه التوراة من عند اللّه، فيقولون له: أرنا اللّه جهرة .. و يقول لهم: اذكروا نعمة اللّه عليكم، و اسألوه العفو و الصفح، فيسخرون و يهزءون ..

و إذا كان هذا شأنهم مع موسى الكليم (ع)، و هو من بني إسرائيل فكيف يكون حالهم مع غيره؟ لقد طردهم الملك أدوار الأول من انكلترا، و نكل بهم هتلر في المانيا بعد الاختبار و العلم بحقيقتهم، و انهم مستحقون لأكثر من ذلك،

تفسير الكاشف، ج ١، ص ١٤٤

و أشرنا فيما سبق إلى ما فعل بهم فرعون و بختنصر و الرومان.

و على أية حال، فان من جملة المواثيق التي أخذها اللّه على اليهود في التوراة أن لا يقتلوا أنفسهم، أي لا يقتل بعضهم بعضا، و لا يخرجوا أحدا من دياره، و اليهود لا ينكرون هذه المواثيق، بل ليس في وسعهم أن ينكروها، لأنها موجودة في التوراة التي يؤمنون بصدقها، و بأنها وحي من اللّه .. و مع ذلك خالفوها عن عمد و تصميم، فقامت الحجة عليهم و ناقضوا أنفسهم .. و بهذا التمهيد يتضح المراد من الآيات:

المعنى:

(وَ إِذْ أَخَذْنا مِيثاقَكُمْ لا تَسْفِكُونَ دِماءَكُمْ وَ لا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيارِكُمْ). عاد سبحانه الى بني إسرائيل، يذكرهم بالعهود و المواثيق التي قطعت على لسان موسى و الأنبياء من بعده، و من هذه المواثيق ان لا يريق بعضهم دم بعض، و لا يخرج بعضهم بعضا من ديارهم .. و قوله تعالى دماءكم و دياركم تماما كقوله: فَإِذا دَخَلْتُمْ بُيُوتاً فَسَلِّمُوا عَلى أَنْفُسِكُمْ، أي ليسلم بعضكم على بعض.

(ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَ أَنْتُمْ تَشْهَدُونَ). أي أقررتم بالميثاق، و شهدتم بأنفسكم على أنفسكم.

و تسأل: ان الإقرار و الشهادة على النفس شيء واحد، فكيف صح عطف الشيء على نفسه؟

الجواب: يجوز من باب التأكيد، و أيضا يجوز أن يكون المراد بالإقرار اقرار السلف من اليهود، و بالشهادة شهادة الخلف بأن السلف قد أقر، و اعترف بالميثاق.

(ثُمَّ أَنْتُمْ هؤُلاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَ تُخْرِجُونَ فَرِيقاً مِنْكُمْ مِنْ دِيارِهِمْ) أي انكم بعد أن أقررتم بالميثاق نقضتموه، و قتل القوي منكم الضعيف، و أخرجه من دياره.

(تَظاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَ الْعُدْوانِ). أي تتظاهرون، و التظاهر هو التعاون، و تشير الآية الى انقسام اليهود، و تعاون كل فريق منهم مع العرب ضد الفريق الآخر من اليهود .. و ملخص الحكاية:

تفسير الكاشف، ج ١، ص ١٤٥

ان الأوس و الخزرج عشيرتان عربيتان تنتميان الى أصل واحد، لأن الأوس و الخزرج اخوان، و كان بين هاتين العشيرتين عداء و قتال قبل الإسلام، و كانوا من أهل الشرك لا يعرفون جنة و لا نارا و لا قيامة و لا كتابا.

و أيضا كان اليهود ينقسمون الى ثلاث عشائر: بني قينقاع، و بني قريظة، و بني النضير، و كان بينهم عداء و قتال، كما كان بين الأوس و الخزرج رغم ان هؤلاء اليهود ينتمون الى أصل واحد، و دينهم واحد .. و كانوا جميعا، أي العشائر الثلاث اليهودية و الأوس و الخزرج، من سكان المدينة .. و كان فريق من اليهود، و هم بنو قينقاع، يتعاونون مع الأوس ضد بني النضير و قريظة مع انهم إخوانهم في الدين، كما ان بني النضير و بني قريظة تعاونوا مع الخزرج ضد بني قينقاع .. فكان كل فريق من اليهود يتعاون مع كل فريق من العرب ضد بعضهم البعض، و كان اليهودي إذا دارت رحى الحرب يقتل أخاه اليهودي، و يخرجه من دياره إذا تمكن من ذلك .. و لكن إذا أسر العرب بعض اليهود فدى الأسرى اليهود الآخرون من العرب، مع العلم بأن الذين دفعوا فدية اليهود الأسرى كانوا يحاربون هؤلاء الأسرى مع العرب .. و هذا عين التناقض ..

و اختصارا ان اليهودي لا يرى مانعا أن يقتل يهوديا مثله، بل و يتعاون مع العرب على قتله، و لكن إذا أسر العرب يهوديا تحركت عاطفة اليهودي الآخر، و دفع فدية للآسر، و فك الأسير، و هو من ألد أعدائه .. فاليهودي يحل قتل أخيه اليهودي، و تشريده، و لكنه يحرم أسره .. و كان اليهود يعتذرون عن هذا التهافت بأن التوراة أمرتهم بفداء أسرى اليهود

إذا أسروا، فرد اللّه عليهم بأن التوراة أيضا أمرتهم بأن لا يقتل بعضكم بعضا، و لا يخرجه من دياره، فكيف عصيتم التوراة في القتل، و اطعتموها بالفداء من الأسر؟.

و بهذا تجد تفسير قوله تعالى: «وَ إِنْ يَأْتُوكُمْ أُسارىٰ تُفادُوهُمْ وَ هُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْراجُهُمْ أَ فَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتابِ وَ تَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ». و الذي كفروا به هو النهي عن القتل، و التظاهر بالإثم و العدوان، و الإخراج من الديار، و الذي آمنوا به هو الفداء من الأسر .. و هذا عين اللعب و الاستهزاء بالدين.

و تسأل: ان المحرم عليهم هو القتل و التظاهر و الإخراج، فلما ذا ذكر اللّه سبحانه خصوص الإخراج في هذه الآية؟.

تفسير الكاشف، ج ١، ص ١٤٦

الجواب: أجل، انها جميعا محرمة، و لكن اللّه خص الإخراج بالذكر ثانية لتأكيد التحريم لأن شر الإخراج من الديار يطول و يمتد بخلاف القتل على حد تعبير بعض المفسرين.

(فَما جَزاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذٰلِكَ مِنْكُمْ إِلاَّ خِزْيٌ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا). يطلق الجزاء على الخير و الشر، و من الأول قوله تعالى: «وَ جَزاهُمْ بِما صَبَرُوا جَنَّةً وَ حَرِيراً».

و من الثاني: «فَجَزاؤُهُ جَهَنَّمُ خالِداً فِيها» .. و الخزي الفضيحة و العقوبة.

(أُولئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَياةَ الدُّنْيا بِالْآخِرَةِ فَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذابُ وَ لا هُمْ يُنْصَرُونَ). ان اللّه سبحانه لم يحرم بهذه الآية و لا بغيرها الطعام الطيب، و اللباس الفاخر، و انما هدد من باع دينه بدنياه، و عاش على البغي و الاستغلال ..

ان اللّه ينهى عن الفساد في الأرض، و لا ينهى عن زينة الحياة و نعيمها .. بل انه جل و عز أنكر أشد الإنكار على من حرم التنعم و التلذذ في هذه الحياة:

«قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبادِهِ وَ الطَّيِّباتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا». أي انها حلال لمن اكتسبها من حل، و حرام لمن ابتغاها عوجا من السلب و النهب، و الغش و الاحتيال.

و اختصارا ان المبدأ الاسلامي القرآني هو ان يعيش الناس، كل الناس، متعاونين على ما فيه سعادة الجميع، أما المبدأ الصهيوني الاستعماري فهو «ما دمت أعيش أنا فليهلك العالم» .. و كل من سار على هذا المبدأ فهو صهيوني لعين، شعر بذلك أو لم يشعر، و لا بد أن تلاحقه عدالة السماء و الأرض، و تنزل به النكال و الوبال.

اليهود و الشيوعية و الرأسمالية:

يظهر من آيات الذكر الحكيم ان انقسام اليهود الى فريقين، و انضمام كل فريق الى حلف خطة قديمة و موروثة عن الآباء و الأجداد، ليزيدوا النار تأججا من جهة، و يضمنوا مصالحهم من جهة ثانية، كما ان تقلبهم بين الخصمين من خططهم التاريخية، و عاداتهم التقليدية .. فقبل نصف قرن كانوا من دعاة الشيوعية، و هم اليوم يمالئون الرأسمالية، و لا هدف لهم إلا تقسيم العالم، و اثارة الحروب

تفسير الكاشف، ج ١، ص ١٤٧

و الفتن، لتنفيذ سياستهم الجهنمية، و نجاحهم في امتصاص دماء الشعوب.

[سورة البقرة (٢): الآيات ٨٧ الى ٨٨]

وَ لَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ وَ قَفَّيْنا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَ آتَيْنا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّناتِ وَ أَيَّدْناهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَ فَكُلَّما جاءَكُمْ

رَسُولٌ بِما لا تَهْوى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ وَ فَرِيقاً تَقْتُلُونَ (٨٧) وَ قالُوا قُلُوبُنا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلاً ما يُؤْمِنُونَ (٨٨)

وَ لَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ الآية ٨٧- ٨٨:

اللغة:

قفينا أصله من القفا، يقال: قفوت فلانا إذا صرت خلف قفاه، و المراد به هنا ان اللّه أرسل الأنبياء الواحد تلو الآخر، و مريم بالعبرية معناها الخادم، لأن أمها نذرتها لخدمة بيت المقدس، و المراد بالروح القدس جبرائيل، و يطلق عليه أيضا الروح الأمين، و غلف جمع أغلف، أي عليها غشاوة، و المراد انهم لا يفقهون.

الإعراب:

قليلا قائم مقام المفعول المطلق، أي ايمانا قليلا يؤمنون، وجيء بما لمجرد التوكيد.

المعنى:

(وَ لَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ وَ قَفَّيْنا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ). أي أعطينا موسى التوراة، ثم أرسلنا من بعده رسولا بعد رسول .. و قيل: لم يمر زمن بين موسى و عيسى آخر أنبياء بني إسرائيل الا و كان فيه نبي مرسل، أو أنبياء متعددون

تفسير الكاشف، ج ١، ص ١٤٨

يأمرون بالمعروف، و ينهون عن المنكر. و في تفسير الرازي، و أبي حيان الأندلسي ان من هؤلاء الرسل: يوشع و اشمويل و شمعون و داود و سليمان و شعياء و ارمياء و عزير و حزقيل و اليسع و يونس و زكريا و يحيى.

(وَ آتَيْنا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّناتِ وَ أَيَّدْناهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ). عيسى (ع) هو آخر أنبياء بني إسرائيل، و بينه و بين موسى حوالى أربعة عشر قرنا .. و المراد بالبينات الدلائل و المعجزات التي دلت على صدقه و نبوته، أما روح القدس فقد ذهب جمهور المفسرين الى انه جبرائيل، و نميل نحن إذا لم يوجد نص على التعين، نميل الى ان المراد به الروح المقدسة، و ان اللّه سبحانه قد وهب عيسى روحا نقية قوية أهلته للرسالة الإلهية، و التوسط بين اللّه و عباده، و قيادتهم في طريق الخير و الهداية.

(أَ فَكُلَّما جاءَكُمْ رَسُولٌ بِما لا تَهْوى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ). الخطاب عام لجميع اليهود، لأنهم أمة واحدة، و على طبع واحد، و لأن من رضي عن الظالم فقد شاركه في ظلمه.

(فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ) كعيسى و محمد (ص). **(وَ فَرِيقاً تَقْتُلُونَ)** كزكريا و يحيى .. **(وَ قالُوا قُلُوبُنا غُلْفٌ)**. أي قال اليهود للنبي: ان على قلوبنا غلافا يمنعها من تفهم دعوتك و الاستماع اليها، فهو تماما كهذه الآية: «وَ قالُوا قُلُوبُنا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونا إِلَيْهِ وَ فِي آذانِنا وَقْرٌ» ..

جاء في بعض الروايات: «الحكمة ضالة المؤمن». و المراد بالمؤمن هنا من يؤمن بالحق، و يطلبه لوجه الحق .. و بديهة ان من كان كذلك يقتنع بمجرد قيام الحجة و الدليل، و على العكس من لا يؤمن بالحق، و لا بالقيم، و لا بشيء إلا بذاته و اهوائه و شهواته .. و لا شيء لدى هذا إلا المكابرة و العناد إذا دمغته الحجة، و أفحمه البرهان. و قد يحاول إخفاء عجزه بإظهار الاستخفاف و عدم الاكتراث .. و يقول للمحق: لا أفهم ما تقول، فأنا في شغل شاغل عنك و عن أدلتك، و هو في قوله هذا كاذب عند اللّه، و عند نفسه، و مستحق للعن و العذاب.

(فَقَلِيلاً ما يُؤْمِنُونَ). أي لم يؤمن من اليهود بمحمد (ص) إلا القليل، مثل عبد اللّه بن سلام و أصحابه، و اختار

صاحب مجمع البيان ان معنى «قليلا

تفسير الكاشف، ج ١، ص ١٤٩

ما يؤمنون» انه ما آمن احد منهم إطلاقا لا قليلا و لا كثيرا، يقال: قلما يفعل، بمعنى لا يفعل البتة .. و الأول أصح، لقوله تعالى: «وَ قَوْلِهِمْ قُلُوبُنا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللهُ عَلَيْها بِكُفْرِهِمْ فَلا يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً- النساء ١٥٦».

المصلح الصادق و المزيف الكاذب:

و ينبغي الوقوف قليلا عند قوله تعالى: أ فكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم الخ ..

ان هذه الآية الكريمة كما تضمنت التوبيخ لمن يعصي الرسل، و يرفض الحق إذا لم يوافق هواه فإنها أيضا تتضمن التوبيخ لمن يتساهل مع الناس، و لا يجابههم بكلمة الحق تزلفا اليهم، و طمعا في المكانة عندهم .. ان المصلح الصادق يقول الحق، و لا يخشى في اللّه لومة لائم، لأن هدفه الأول و الأخير هو مرضاة اللّه وحده، و من أجلها يستشهد و يضحي بالنفس، و يقدم للأجيال مثلا أعلى في اتباع الحق و الجهر به، أما المزيف الكاذب فيستهدف مرضاة الناس لتروج بضاعته عندهم، قال أمير المؤمنين (ع): لا تسخط اللّه برضا أحد من خلقه، فان في اللّه خلفا عن غيره، و ليس من اللّه خلف في غيره.

[سورة البقرة (٢): الآيات ٨٩ الى ٩١]

وَ لَمَّا جاءَهُمْ كِتابٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ مُصَدِّقٌ لِما مَعَهُمْ وَ كانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جاءَهُمْ ما عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللهِ عَلَى الْكافِرِينَ (٨٩) بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِما أَنْزَلَ اللهُ بَغْياً أَنْ يُنَزِّلَ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلى مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ فَباؤُ بِغَضَبٍ عَلى غَضَبٍ وَ لِلْكافِرِينَ عَذابٌ مُهِينٌ (٩٠) وَ إِذا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِما أَنْزَلَ اللهُ قالُوا نُؤْمِنُ بِما أُنْزِلَ عَلَيْنا وَ يَكْفُرُونَ بِما وَراءَهُ وَ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقاً لِما مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِياءَ اللهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٩١)

وَ لَمَّا جاءَهُمْ كِتابٌ الآية ٨٩- ٩١:

تفسير الكاشف، ج ١، ص ١٥٠

اللغة:

يستفتحون أي يستنصرون، و معنى اشتروا واضح، و هو قبول المبيع، و لكن المراد به هنا الإيجاب، أي باعوا به أنفسهم.

الاعراب:

مصدق صفة كتاب، و جواب لما الأولى محذوف دل عليه جواب لما الثانية، و هو كفروا به. بئس للذم، و نعم للمدح، و إذا كان الاسم بعدهما محلى بالألف و اللام فهو فاعل أبدا، نحو نعم الرجل زيد، و بئس الرجل زيد، و زيد مبتدأ، خبره جملة بئس الرجل، أو نعم الرجل. و إذا كان ما بعدها نكرة، مثل نعم رجلا، و بئس رجلا فهو منصوب أبدا على التمييز، و فاعل نعم و بئس ضمير مستتر يفسره التمييز. و ان اتصلت بهما (ما) مثل نعما و بئسما فان كانت (ما) بمعنى الشيء فهي فاعل، و ان كانت بمعنى (شيئا) فهي تمييز.

و عليه يجوز أن تكون (ما) في بئسما في الآية اسما موصولا مرفوعا على انها فاعل بئس، و جملة اشتروا صلة، و يجوز أن تكون (ما) نكرة بمعنى (شيئا) و جملة اشتروا صفة، و على التقديرين فان المصدر المنسبك من **(أَنْ يَكْفُرُوا)** محله الرفع بالابتداء، و جملة بئسما خبر .. و بغيا مفعول من أجله، و المصدر من **(أَنْ يُنَزِّلَ)** منصوب بنزع الخافض، أي لأن

ينزل.

المعنى:

كان يهود المدينة يستنصرون على الأوس و الخزرج بمحمد (ص) قبل مبعثه،

تفسير الكاشف، ج ١، ص ١٥١

و يقولون لهم: غدا يأتي النبي الذي وجدنا صفاته في التوراة، و يتغلب على جميع العرب و المشركين، و كانوا يعتقدون انه اسرائيلي، لا عربي، فلما بعث اللّه محمدا من العرب، لا من شعب اليهود استنكفوا و أخذتهم العنصرية و العصبية، و جحدوا نبوته، و أنكروا ما كانوا يقولونه فيه .. فقال لهم بعض الأوس و الخزرج: يا معشر اليهود كنتم بالأمس تهددوننا بمحمد (ص)، و نحن أهل الشرك و تصفونه، و تذكرون انه المبعوث، فها نحن آمنا به، و نكصتم أنتم و تراجعتم، فما عدا مما بدا؟. فأجاب اليهود: ما جاءنا بشيء نعرفه، و ما هو بالذي كنا نذكره لكم، فأنزل اللّه سبحانه:

(وَ لَمَّا جاءَهُمْ كِتابٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ مُصَدِّقٌ لِما مَعَهُمْ). أي لما جاءهم القرآن كفروا به، فحذف جواب لما هذه، و هو كفروا به لدلالة جواب لما الثانية عليه، و القرآن الذي كفروا به فيه تصديق لما تضمنته توراتهم من التبشير بمحمد (ص) .. فهم في النتيجة يكذبون بذلك من يصدقهم بل يكذبون أنفسهم بأنفسهم، و ليس هذا بغريب و لا عجيب على من يتخذ من عاطفته و ذاته مقياسا للتحليل و التحريم، و التصديق و التكذيب .. و كل من يحلل لنفسه ما يحرمه على الغير فهو من هذا النوع، اللهم اكفنا شر الجهل بأنفسنا.

(وَ كانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جاءَهُمْ ما عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ). كان اليهود قبل البعثة يستنصرون و ينذرون الأوس و الخزرج بمحمد (ص)، فلما جاء انعكست الآية، فآمن به الأوس و الخزرج، و ناصروه على أعدائه، حتى سموا الأنصار، و كفر به اليهود، فكان هلاكهم و تشريدهم على يد الأنصار بواسطة محمد، و هو نفس المصير الذي كانوا يرقبونه و ينذرون به الأنصار على يدهم بواسطة محمد (ص) .. و هكذا يحيق المكر السيء بأهله، و تنزل الويلات على رأس من تمناها لغيره.

و تسأل: و لما ذا انقلب اليهود، و تحولوا من الايمان بمحمد (ص) قبل البعثة الى الكفر به بعدها؟

الجواب: كانوا يعتقدون أنه يأتي اسرائيليا من نسل اسحق قياسا على كثرة ما جاء من الأنبياء الاسرائيليين، فلما رأوه عربيا من نسل إسماعيل أنكروه حسدا و تعصبا للعنصرية اليهودية .. و كل من أنكر الحق تعصبا للعرق أو لغيره فهو تماما

تفسير الكاشف، ج ١، ص ١٥٢

كهؤلاء اليهود الذين رفضوا الاعتراف بمحمد لا لشيء إلا لأنه عربي «١».

(بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِما أَنْزَلَ اللهُ). يستعمل القرآن الكريم كثيرا لفظ البيع و الشراء و التجارة في العمل الصالح و الطالح .. ذلك ان الإنسان إذا آمن و عمل صالحا فكأنه قد دفع الثمن لخلاص نفسه و نجاتها و إذا كفر و انحرف لمنفعة عاجلة فكأنه قد باع نفسه للشيطان بأنجس الأثمان .. و اشتروا هنا بمعنى باعوا، أي ان اليهود باعوا أنفسهم للشيطان، و ألقوا بها الى التهلكة، و لا ثمن لنفوسهم الهالكة إلا الحسد و التعصب للجنسية اليهودية .. و لذا قال سبحانه:

(بَغْياً أَنْ يُنَزِّلَ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلى مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ). أي كفروا بمحمد (ص) لا لشيء إلا لأنهم يريدون أن يحصروا الوحي و الفضل فيهم وحدهم، و لا يقبلون من اللّه، و لا من غيره إلا ما يوافق أهواءهم و منافعهم .. فهم- اذن-

يستحقون عقابين و غضبين: عقابا على كفرهم، و آخر على أنانيتهم و تعصبهم.

(وَ إِذا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِما أَنْزَلَ اللهُ). أي آمنوا بالوحي من حيث هو وحي بصرف النظر عن شخصية المبلّغ و نسبه، لأن الرسول ما هو إلا وسيلة للتبليغ، أما شرطكم للايمان بالوحي أن ينزل على شعب إسرائيل فقط، و إذا أنزل على غيره فلا تؤمنون به- أما هذا الشرط فيكشف عن عدم ايمانكم بالوحي كمبدأ، بالاضافة الى أنه تحكم على اللّه و تقييد لإرادته بأهوائكم، و معنى هذا انكم تريدون من اللّه أن يخضع لكم، و تأبون الخضوع له.

(قالُوا نُؤْمِنُ بِما أُنْزِلَ عَلَيْنا). و هذا اعتراف صريح بأنهم لا يؤمنون، و لن يؤمنوا إلا بالوحي على شريطة أن ينزل عليهم، و لا يؤمنون بما ينزل على غيرهم، و لو قام عليه ألف دليل و دليل.

(قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِياءَ اللهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ). و لا إلزام أقوى و أبلغ من الإلزام بهذه الحجة .. أي قل يا محمد لليهود: أنتم كاذبون في زعمكم و دعواكم الايمان بخصوص الوحي المنزل على شعب إسرائيل، بل أنتم لا تؤمنون

---

(١) هذا ما ذكره المفسرون تمشيا مع ظاهر الآية، و يأتي قريبا عند تفسير الآية ٩٦ بيان السبب الحقيقي لكفرهم بمحمد (ص) و انه المنفعة الخاصة، و الكسب عن طريق الدعارة و الغش و الربا، و ما إلى هذا مما حرمه الإسلام.

تفسير الكاشف، ج ١، ص ١٥٣

بالوحي إطلاقا، حتى بما أنزل عليكم بالخصوص، و الدليل ان اللّه أرسل منكم و لكم و فيكم أنبياء، و فرض عليكم تصديقهم و طاعتهم، و مع ذلك فريقا كذبتم كعيسى، و فريقا تقتلون كزكريا، و يحيى، و ان دل هذا على شيء فإنما يدل على كذبكم، و مناقضة أفعالكم لأقوالكم، و تكذيب أنفسكم لأنفسكم .. و صح توجيه الخطاب بالقتل الى يهود المدينة، و مشافهتهم به، مع ان القاتل أسلافهم لمكان وحدة الأمة، و مشاركة الراضي بالقتل لفاعله، كما تقدم.

لليهود أشباه و نظائر:

أنكر اليهود محمدا (ص) لأنه غير اسرائيلي، و أيضا أنكره أبو سفيان، و قاد الجيوش لحربه، لأنه يأبى أن تفوز هاشم بشرف النبوة دون أمية، و أنكرت قريش خلافة علي أمير المؤمنين (ع) لأنها كرهت ان تجتمع النبوة و الخلافة في بيت هاشم، و يثقل على بعض الأعاجم ان المرجع الديني الأول من العرب، كما يثقل على بعض العرب أن يكون من الأعاجم .. بل اني أعرف أفرادا لو خيّروا بين أن تهتدي الألوف الى دين الحق عن طريق غيرهم، و بين أن تبقى على ضلالها لاختاروا الضلالة على الهدى، و الكفر على الايمان .. و أيضا لو خيّروا بين أن يسمعوا الثناء على يزيد بن معاوية، و بين أن يسمعوا الثناء عن واحد من صنفهم لفضّلوا ألف مرة الأول على الثاني .. و من أجل هذا يبحث الواحد منهم جاهدا ليجد عيبا لأخيه، فان وجد خردلة أذاعها جبلا، و ان لم يجد اخترع و افترى.

ان من يكبر الفضيلة كمبدأ يكبرها أينما كانت و تكون، و عن أي طريق تحققت، و يراها في غيره، تماما كما يراها في نفسه، بل يعمل و يكافح من أجل بثها و انتشارها، أما من يدعيها لنفسه، و ينكرها في غيره فانه يستعمل نفس الأسلوب الذي استعمله اليهود عنادا للّه و أنبيائه و رسله.

[سورة البقرة (٢): الآيات ٩٣ الى ٩٦]

وَ لَقَدْ جاءَكُمْ مُوسىٰ بِالْبَيِّناتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَ أَنْتُمْ ظالِمُونَ (٩٢) وَ إِذْ أَخَذْنا مِيثاقَكُمْ وَ رَفَعْنا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا ما آتَيْناكُمْ بِقُوَّةٍ وَ اسْمَعُوا قالُوا سَمِعْنا وَ عَصَيْنا وَ أُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَما يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٩٣) قُلْ إِنْ كانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللهِ خالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (٩٤) وَ لَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَداً بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَ اللهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٩٥) وَ لَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلىٰ حَياةٍ وَ مِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَ ما هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَ اللهُ بَصِيرٌ بِما يَعْمَلُونَ (٩٦)

تفسير الكاشف، ج ١، ص ١٥٤

المعنى:

هذه الآيات واضحة الدلالة، ظاهرة المعنى، و أيضا فيها تكرار لما سبق، و لذا نكتفي بذكر المعنى العام لها.

أمر اللّه نبيه أن يجادل المخالفين بالحسنى: و معنى الجدال بالحسنى مخاطبة القلب و العقل، و كل حجاج القرآن من هذا النوع .. فلقد دعا الجاحدين الى التفكر في أنفسهم، و في خلق السموات و الأرض، و قال لمن نسب السيد المسيح الى الألوهية: انه و امه كانا يأكلان الطعام، و خاطب قلوب اليهود بهذه الآيات، حيث ذكرتهم بنعمة اللّه عليهم بالتوراة، فيها الهدى و النور، كما ذكرتهم آيات سابقة بخلاصهم و تحررهم من فرعون، و ما الى ذاك، ثم وبخهم اللّه بعبادة العجل كفرا و جحودا لنعمته، و كرر ذكر رفع الجبل فوقهم لتمردهم و عصيانهم، و كذّب بمنطق العقل دعواهم انهم أبناء اللّه و أحباؤه، و ان الجنة خالصة لهم لا

تفسير الكاشف، ج ١، ص ١٥٥

يدخلها أحد غيرهم، و أمرهم- ان كانوا صادقين- بتمني الموت، لأن من اعتقد انه للجنة قطعا آثر الموت المريح على حياة البلاء و الشقاء.

ثم أخبر القرآن ان اليهود أشد الناس حرصا على حياة الدنيا، بل هم أحرص عليها من الذين لا يؤمنون بجنة و لا نار، بل ان الواحد منهم يتمنى لو عاش ألف سنة، و لكن تعميره لا يجديه شيئا، و لا ينجيه من العذاب .. و الغرض من الجدال بهذا المنطق العقلي السليم هو الزام اليهود الحجة بأنهم كاذبون في دعواهم الايمان بالتوراة، و في زعمهم بأنهم شعب اللّه المختار.

قال الشيخ المراغي في تفسيره: «جاء في الأخبار ان عبد اللّه بن رواحة كان ينشد و هو يقاتل الروم:

يا حبذا الجنة و اقترابها طيبة باردة شرابها

و ان عمار بن ياسر في حرب صفين قال:

غدا نلقى الأحبه محمدا و صحبه

فان لم يتمن اليهود الموت فما هم بصادقي الايمان، و هذه حجة تنطبق على الناس عامة، فيجب على المسلمين أن

يجعلوها ميزانا يزنون بها دعواهم اليقين بالايمان، و القيام بحقوق اللّه، فان ارتاحت نفوسهم لبذل أرواحهم في سبيل اللّه كانوا مؤمنين حقا، و ان ضنوا بها إذا جد الجد و دعا الداعي كانوا بعكس ما يدعون».

المصلحة هي السبب لا الجنسية:

و نحن لا نشك أبدا بأن مسألة تكذيب اليهود لمحمد (ص) ليست مسألة ايمانهم بخصوص ما ينزل عليهم من الوحي تعصبا لجنسيتهم، كلا، و الف كلا .. ان الدافع الوحيد للتكذيب هو مصالحهم الشخصية، و منافعهم المادية، انهم يعيشون على الغش و الربا و الدعارة، و محمد (ص) يحرم ذلك، فكيف يؤمنون به؟.

و الدليل انهم كفروا بتوراتهم، و قتلوا أنبياءهم، و لا سبب الا حرصهم على المنفعة الذاتية، و كل من حرص على منفعته لا يجدي معه جدال بالحسنى، و في

تفسير الكاشف، ج ١، ص ١٥٦

قوله تعالى: «وَ لَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلى‌ حَياةٍ» اشعار بهذه الحقيقة. و ما عدا هذه الآية الكريمة من المحاجة انما جرت معهم مجرى النقاش، و الإلزام بالحجة، تماما كما تقول: لو سلمنا جدلا.

[سورة البقرة (٢): الآيات ٩٧ الى ١٠٠]

قُلْ مَنْ كانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلى‌ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللهِ مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ وَ هُدىً وَ بُشْرى‌ لِلْمُؤْمِنِينَ (٩٧) مَنْ كانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَ مَلائِكَتِهِ وَ رُسُلِهِ وَ جِبْرِيلَ وَ مِيكالَ فَإِنَّ اللهَ عَدُوٌّ لِلْكافِرِينَ (٩٨) وَ لَقَدْ أَنْزَلْنا إِلَيْكَ آياتٍ بَيِّناتٍ وَ ما يَكْفُرُ بِها إِلاَّ الْفاسِقُونَ (٩٩) أَ وَ كُلَّما عاهَدُوا عَهْداً نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (١٠٠)

اللغة:

قيل: معنى جبريل عبد اللّه، و معنى ميكال عبيد اللّه .. و معنى النبذ الطرح.

الإعراب:

جبريل و ميكال ممنوعان من الصرف للعلمية و العجمة .. و قال صاحب مجمع البيان، و صاحب البحر المحيط: ان جواب **مَنْ كانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ** محذوف تقديره فهو كافر، أو ما أشبه و قد دل عليه الموجود، و علله صاحب البحر بأن الجواب لا بد أن يكون فيه ضمير يعود على (من) التي هي اسم الشرط، و قوله تعالى: **(فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلى‌ قَلْبِكَ)** ليس فيه ضمير يعود على من، لأن ضمير **(فَإِنَّهُ)** عائد على جبريل، و ضمير **(نَزَّلَهُ)** عائد على القرآن .. و مصدقا حال

تفسير الكاشف، ج ١، ص ١٥٧

من الضمير في نزله، و هدى و بشرى معطوفان عليه .. و الهمزة في (او كلما) للتوبيخ، و الواو للعطف، و المعطوف عليه محذوف تقديره أكفرتم بالبينات ..

و قيل: بل الواو زائدة، لأن المعنى مستقيم بدونها، و كلما منصوب على الظرفية، و اكتسبت هذه الظرفية من (ما) التي هي اسم بمعنى وقت، كما في مغني اللبيب، و التقدير كل وقت عاهدوا فيه، و الظرف متعلق بنبذه.

المعنى:

(قُلْ مَنْ كانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ) .. أي فهو كافر عليه لعنة اللّه .. و أجمع أهل التفسير على ان سبب نزول هذه الآية ان اليهود سألوا النبي (ص) عن الملك الذي ينزل عليه بالوحي؟. فقال: هو جبريل. قالوا: ذاك عدونا، لأنه ينزل بالشدة و الحروب، و ميكال بالسلام و الرخاء، و لو كان ميكال هو الذي يأتيك بالوحي لآمنا بك.

لقد جعلوا النزاع في ظاهره أولا حول شخصية محمد (ص)، و انهم يريدون نزول الوحي على واحد من شعب إسرائيل، لا من شعب العرب- كما زعموا- و لما ألزمهم اللّه و نبيه بالحجة حوّلوا النزاع الى شخص جبريل، لا محمد ..

و الحقيقة- كما قدمنا- انه لا نزاع على محمد و جبريل، و لا عرب و عروبة، و لا يهود و يهودية، لا شيء أبدا الا مصالحهم الذاتية .. الا الدعارة و الخمر و الربا و الاحتكار .. و لكنهم ينافقون، و يتسترون بالأكاذيب و الأباطيل.

و من باب النقاش و الإلزام بالحجة قال سبحانه: (فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللهِ مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ). أي ان عداوتكم لجبريل لا وجه لها، لأنه مجرد أداة و واسطة لتبليغ الوحي من اللّه الى محمد .. و هذا الوحي يشتمل على تصديق ما تضمنته توراتكم من صفات محمد و علامات نبوته، و في الوقت نفسه هو هدى و بشرى للمؤمنين، و عليه يكون معنى عدائكم لجبريل عداء للّه و للوحي و للتوراة، و لهدى اللّه لخلقه، و بشراه للمؤمنين.

(وَ لَقَدْ أَنْزَلْنا إِلَيْكَ آياتٍ بَيِّناتٍ وَ ما يَكْفُرُ بِها إِلَّا الْفاسِقُونَ). أي ان ما أتى به محمد (ص) لا يقبل الشك بعد ان اقترن بالحجج و البراهين، و لا ينكره

تفسير الكاشف، ج ١، ص ١٥٨

الا كافر باللّه، معاند للحق. و المراد بالفسق هنا فسق العقائد، أي الكفر، لا فسق الأفعال الذي يجتمع مع الايمان.

(أَ وَ كُلَّما عاهَدُوا عَهْداً نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ). و العهود التي نبذها و نقضها اليهود كثيرة: منها الايمان بمحمد، و منها عدم اعانة المشركين عليه، و منها تصديق الأنبياء و عدم قتلهم، و منها ان لا يعبدوا الا اللّه، و غير ذلك ..

فكذّبوا محمدا، و أعانوا عليه أهل الشرك أعداءه و أعداءهم، و كذّبوا الأنبياء، و صلبوا السيد المسيح، و عبدوا العجل، و فعلوا الأفاعيل.

(بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يُؤْمِنُونَ). أي ان فريقا منهم عبدوا العجل، و قتلوا الأنبياء، و غير ذلك، و الأكثر لم يفعلوا شيئا من هذا النوع، و لكنهم مع ذلك هم الكفرة الفجرة.

و اختصارا ان المبطل يستطيع أن يدعي الحق لنفسه، و المجرم البراءة لها، و أيضا يستطيعان أن يبررا الباطل و الجريمة بالأقاويل و الأباطيل، و لكن سرعان ما يفتضحان إذا دمغتهما البراهين التي لا مفر منها، و لا ملجأ، كما افتضح اليهود في كذبهم و دعواهم العمل بما أنزل اللّه عليهم من الوحي و العداء لجبريل.

التعايش السلمي، و الايمان باللّه:

يهدف الداعون الى التعايش السلمي- فيما يهدفون اليه- ان تحل الخلافات بين المتخاصمين بالمؤتمرات و المفاوضات .. و لكن قد علمتنا التجارب ان المنطق السليم، و المحاجة بالحسنى لا تجدي شيئا مع أرباب الامتيازات و المنافع الشخصية ..

فمحال أن يتنازل أهل الأطماع عن أطماعهم الا بوسائل الضغط و التخويف .. ان التعايش السلمي يحتاج الى عقل متفتح، و خلق كريم .. و أي خلق كريم عند من لا يؤمن الا بالمادة، و الا بالاحتكار و الاستثمار .. و أية حجة تقنع أهل الطمع و الجشع! يقال: ان كلا من الكتلتين: الشرقية و الغربية، تدعو الى التعايش السلمي فيما بينهما، و في الوقت نفسه تتسلح

كل منهما، و تتحصن خوفا من الأخرى ..

ان أقل ما يفرضه هذا التعايش ان تتفقا معا على التسليم فعلا لا قولا بما قامت

تفسير الكاشف، ج١، ص ١٥٩

عليه الأدلة و البراهين، تماما كما يتفق المتناظران المنصفان و يسلمان بما توافرت الأدلة على ثبوته .. و قد ثبت بالفطرة و بديهة العقل ان لكل شعب الحقّ الكامل في تقرير مصيره، لا يسوغ لأحد أن يتدخل في شأن من شئونه، فأين العمل بهذا المبدأ؟.

ان التفاوض بالطرق السلمية، و الرضوخ للحق لا يتحقق على وجهه الأكمل الا إذا كانت جميع الأطراف المعنية مؤمنة بالحق لوجه الحق .. و محال أن يهتدي الى خير، و يرجى منه الخير من لا يؤمن الا بذاته، و لا يهتم الا بمنافعه.

[سورة البقرة (٢): آية ١٠١]

وَ لَمَّا جاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ مُصَدِّقٌ لِما مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ كِتابَ اللهِ وَراءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لا يَعْلَمُونَ (١٠١)

الإعراب:

لمّا على ثلاثة أوجه: الأول أن تختص بالمضارع، فتجزمه. الثاني ان تكون حرف وجود لوجود، مثل لما جئتني أكرمتك، و قيل: بل هي في مثل ذلك اسم بمعنى حين. الثالث أن تكون حرف استثناء، مثل كل نفس لما عليها حافظ، أي الا عليها. و هي في الآية حرف وجود لوجود، و قيل: بل اسم بمعنى حين. و الواو في أوتوا نائب فاعل، و الكتاب مفعول لاوتوا، و كتاب اللّه مفعول نبذ.

المعنى:

(وَ لَمَّا جاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ). و هو محمد (ص) الذي أرسله اللّه سبحانه للناس كافة، و منهم اليهود الذين كانوا في عصره. (مُصَدِّقٌ لِما مَعَهُمْ).

تفسير الكاشف، ج١، ص ١٦٠

أي مصدق لما في التوراة من أصول التوحيد، و البشارة بمحمد. **(نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ)**، و هم علماء اليهود، **(كِتابَ اللهِ وَراءَ ظُهُورِهِمْ)**.

المراد بكتاب اللّه القرآن، و قيل: بل التوراة، لأن كفرهم بمحمد كفر بالتوراة التي بشرت بمحمد (ص) .. و لا فرق في هذا الحكم بين اليهود و النصارى، لأن كلا منهما قد حرّف كتابه فيما يتعلق بالبشارة بمحمد (ص) بل لا فرق بين اليهود، و بين معمم يحرّف كلام اللّه تبعا لأهوائه.

[سورة البقرة (٢): آية ١٠٢]

وَ اتَّبَعُوا ما تَتْلُوا الشَّياطِينُ عَلى مُلْكِ سُلَيْمانَ وَ ما كَفَرَ سُلَيْمانُ وَ لكِنَّ الشَّياطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَ ما أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبابِلَ هارُوتَ وَ مارُوتَ وَ ما يُعَلِّمانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولا إِنَّما نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُما ما يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَ زَوْجِهِ وَ ما هُمْ بِضارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ وَ يَتَعَلَّمُونَ ما يَضُرُّهُمْ وَ لا يَنْفَعُهُمْ وَ لَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَراهُ ما لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ وَ لَبِئْسَ ما شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ (١٠٢)

اللغة:

بابل بلد بالعراق، له شهرة تاريخية قديمة، و الخلاق النصيب من الخير، و شروا هنا بمعنى باعوا، و للاذن ثلاثة معان: العلم، مثل فأذنوا بحرب من اللّه، أي فاعلموا، و الرخصة، و الأمر، و المراد به هنا في قوله تعالى:

(إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ) علم اللّه الذي لا تخفى عليه خافية.

تفسير الكاشف، ج١، ص ١٦١

الإعراب:

هاروت و ماروت بدل مفصل من مجمل من الملكين، و هما ممنوعان من الصرف للعلمية و العجمة. و من زائدة، أي ما يعلمان أحدا، و ما هما بضارين به أحدا.

المعنى:

تكلم المفسرون هنا و أطالوا، و لا مستند لأكثرهم سوى الاسرائيليات التي لا يقرها عقل و لا نقل، و سوّد الرازي حوالى عشرين صفحة في تفسير هذه الآية، فزادها غموضا و تعقيدا، و نفس الشيء فعل صاحب مجمع البيان، أما السيد قطب فأخذ يشرح التنويم المغناطيسي، و الأحلام، و التأثير و الانفعالات بالايحاء و ما اليه، و هذا هو الهروب بعينه. و بقيت أمدا غير قصير أبحث و أنقب في الكتب و التفاسير، فما شفى غليلي شيء منها، حتى تفسير الشيخ محمد عبده و تلميذيه المراغي و صاحب المنار، و خير ما قرأته في هذا الباب ما جاء في كتاب «النواة في حقل الحياة» للسيد العبيدي مفتي الموصل، لأنه قد اعتمد على قول جماعة من علماء الآثار، و هذا ما قاله بالحرف:

«ما زلت أجهل معنى الآية الكريمة، لا يشفي غليلي فيها مفسر، حتى وقفت على تاريخ جمعية البنائين، فتبينت معناها. و حيث اضطربت كلمة المفسرين، حتى عرضوا الآية للجمع بين النقيضين، و حتى دخلها شيء من الأساطير التي تنبو عنها مغازي الشريعة الغراء رأيت من واجب الخدمة لكتاب اللّه أن أثبت هنا كلمة في ذلك:

«لما عظم ملك سليمان (ع) استراب ملك بابل الطامع في سورية و فلسطين، و حل منه الجزع محل الطمع، فأوقد الى بيت المقدس رجلين من دهاة بطانته، يبثان من التعاليم ما عسى أن يفسد على سليمان ملكه، فاعتنقا اليهودية، و أظهرا الزهد باسم الدين، فالتف من حولهما الناس، كما هو شأن العامة، و استهويا الرأي العام، فشرعا يفسدان الأفكار، و يوغران الصدور على سليمان، حتى رمياه بالكفر، فكان هذا الرجلان بظاهر حالهما من الزهد و التقشف كملكين- بفتح اللام-، و لكنهما في الواقع شيطانان، و كانت تعاليمهما كالسحر بما

تفسير الكاشف، ج١، ص ١٦٢

يعضدها من حسن البيان، و طالما استعمل لفظ الملك في الرجل الصالح، و لفظ الشيطان في الرجل الطالح، و لفظ السحر في العبارة الفاتنة .. من ذلك قوله تعالى عن يوسف حكاية عن صويحباته: «إِنْ هٰذٰا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ ..» و قوله سبحانه:

«شَيٰاطِينَ الإِنْسِ وَ الْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً» .. و قوله حكاية عن الوليد: «إِنْ هٰذٰا إِلاَّ سِحْرٌ يُؤْثَرُ إِنْ هٰذٰا إِلاَّ قَوْلُ الْبَشَرِ» .. و في الحديث: «ان من البيان لسحرا».

«و قد أنبأنا التاريخ بما كان من شأن بخت‌نصر ملك بابل من غزوه فلسطين بعد سليمان، و تخريبه بيت المقدس، و نرى القرآن يؤيد حوادث التاريخ بقوله في سورة الاسراء: «وَ قَضَيْنٰا إِلىٰ بَنِي إِسْرٰائِيلَ فِي الْكِتٰابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ

مَرَّتَيْنِ وَ لَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيراً فَإِذا جاءَ وَعْدُ أُولاهُما بَعَثْنا عَلَيْكُمْ عِباداً لَنا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجاسُوا خِلالَ الدِّيارِ وَ كانَ وَعْداً مَفْعُولاً».

«إذا عرفت هذا فنقول: ان الضمير في قوله تعالى: (و اتبعوا) عائد الى يهود المدينة الذين تقدمت هذه الآية اثنتان و ستون آية متتابعة في حقهم .. و متى عرفت هذا، ثم تدبرت الآيات المتصلة بآية سليمان، و وقفت وقفة تدقيق و إمعان عند قوله: (على ملك سليمان) و ما اكتنفها من مضامين و دلالات علمت ان معنى الآية الكريمة ان يهود الحجاز كانوا يكيدون للنبي العربي بالمكايد و الدسائس المقنّعة، و الدعاية المزوقة اقتداء بالمارقين من أسلافهم الذين أعانوا رسل بابل في تقويض ملك سليمان».

الإيضاح:

و نفسر الآية على أساس فهم العبيدي لها: (و اتبعوا). أي اتبع يهود المدينة الذين كانوا على عهد محمد (ص). **(مٰا تَتْلُوا الشَّيٰاطِينُ)**. المراد بالشياطين المشعوذون، و منهم الرجلان البابليان اللذان ظهرا بمظهر القداسة، و هما في الواقع من الأبالسة. **(عَلىٰ مُلْكِ سُلَيْمٰانَ)**. أي ان يهود المدينة استعملوا الدسائس و المكائد، ضد محمد، تماما كما استعمل ذلك أسلافهم اليهود ضد ملك سليمان.

(وَ مٰا كَفَرَ سُلَيْمٰانُ وَ لٰكِنَّ الشَّيٰاطِينَ كَفَرُوا). أي كل ما كانوا ينسبونه الى

تفسير الكاشف، ج ١، ص ١٦٣

سليمان فهو بريء منه، و انما هو من عند الدساسين و اختراعاتهم. **(يُعَلِّمُونَ النّٰاسَ السِّحْرَ)**. أي يلقنون الناس الأشياء الباطلة الكاذبة. **(وَ مٰا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ)**. أي الرجلين اللذين هما من بابل و تظاهرا بالقداسة و التقوى .. و ليس المراد من الانزال الوحي من اللّه، كالوحي للأنبياء، بل مجرد الإلهام أو التعلم، و ما اليه. **(وَ مٰا يُعَلِّمٰانِ مِنْ أَحَدٍ، حَتّٰى يَقُولاٰ إِنَّمٰا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلاٰ تَكْفُرْ)**. كانوا يقولون ذلك دجلا و نفاقا، ليوهموا الناس ان علومهم إلهية، و ان صناعتهم روحانية، و انهم صحيحو النية، تماما كما يقول الدجال لمن يعلمه كتابة البغض و المحبة: إياك أن تكتب هذا لتفريق الزوجين الشرعيين، أو لمحبة امرأة متزوجة بغير زوجها.

(فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمٰا مٰا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَ زَوْجِهِ). أي ما يحسبون انه يفرق بين المرء و زوجه على نحو ما يأخذ الإنسان من الدجال كتابة الحب و البغض معتقدا الصدق و التأثير .. و تجمل الاشارة الى ان الآية لا تدل على ثبوت التأثير و لا نفيه، لأن قوله: **(فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمٰا مٰا يُفَرِّقُونَ بِهِ)** ليس حكما جازما بتحقق التفريق بين الزوجين على كل حال، بل معناه يتعلمون ما وضع لأجل التفريق بين الزوجين، تماما كقولك شرب الشفاء، أي ما وضع لأجل الشفاء .. و اختصارا ان الآية من حيث ترتّب الأثر مجملة سلبا و إيجابا. و كثيرا ما تقتضي الحكمة الإلهية البيان من جهة، و الإجمال من جهة، بخاصة في غير العقائد.

(وَ مٰا هُمْ بِضٰارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاّٰ بِإِذْنِ اللّٰهِ). أي لا يستطيعون إضرار واحد من الناس أيا كان بسبب القراءة و الكتابة، فإذا تضرر فإنما ذلك من باب الصدفة و الاتفاق مع سبب من الأسباب الخارجية، فالمراد بإذن اللّه السبب الخارجي الذي يترتب عليه الضرر.

(وَ يَتَعَلَّمُونَ مٰا يَضُرُّهُمْ وَ لاٰ يَنْفَعُهُمْ). لأنه مجرد شعوذة، و الشعوذة تضر و لا تنفع. **(وَ لَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرٰاهُ مٰا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلاٰقٍ)**. أي انهم عالمون بأن من اختار الشعوذة على الحق لا نصيب له عند اللّه. **(وَ لَبِئْسَ مٰا شَرَوْا**

بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ). أي انهم قد استبدلوا الذي هو أدنى بالذي هو خير، و مر تفسيره في الآية ٦١.

تفسير الكاشف، ج ١، ص ١٦٤

[سورة البقرة (٢): آية ١٠٣]

وَ لَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَ اتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ خَيْرٌ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ (١٠٣)

اللغة:

المثوبة معناها الثواب المرادف للأجر.

الإعراب:

تسبك ان و ما بعدها بمصدر فاعل لفعل محذوف، تقديره لو ثبت ايمانهم، و يجوز ان يكون المصدر مبتدأ محذوفا خبره، أي ايمانهم ثابت، و اللام في مثوبة للابتداء و مثوبة مبتدأ، و من عند اللّه متعلق بمحذوف صفة لمثوبة، و التقدير كائنة من عند اللّه، و خير خبر، و جواب لو محذوف تقديره لأثيبوا.

المعنى:

بعد ان عدّد اللّه مساوئ اليهود، و دسائسهم ضد محمد (ص) قال: ما كان أغناهم عن هذا الكفر و الجحود، و لو آمنوا بمحمد كما أمرتهم التوراة لاراحوا و استراحوا، و نالوا عند اللّه الدرجات العلى، قال أمير المؤمنين (ع):

ان التقوى دار حصن عزيز، و الفجور دار حصن ذليل، لا يمنع أهله، و لا يحرز من لجأ اليه، ألا و بالتقوى تقطع حمة الخطايا، و باليقين تدرك الغاية القصوى.

السحر و حكمه:

تكلم فقهاء الامامية في السحر، و أطالوا الكلام عن معناه و أقسامه، و الممكن منها، و الممتنع، و عن جواز تعليمه و تعلمه، و العمل به. و السحر الذي ذكره

تفسير الكاشف، ج ١، ص ١٦٥

القرآن هو نوع من الخديعة و الشعوذة، و تصوير الباطل بصورة الحق، قال تعالى:

«فَإِذا حِبالُهُمْ وَ عِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّها تَسْعى- ٦٦ طه» .. «وَ ما هُمْ بِضارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ- ١٠٢ البقرة». و عن الإمام الصادق ان السحر على أنواع، منها خفة و سرعة، و منها احتيال، لأن المحتالين قد جعلوا لكل صحة آفة، و لكل عافية سقما، و لكل معنى حيلة.

أما الكتابات و الرقى و العزائم، و النفث في العقد، و ما اليه مما قيل انها تحدث أثرا ملموسا، كعقد الزوج عن زوجته، أو غيرها، بحيث يعجز عن وطئها، و إلقاء المحبة و البغضاء بين اثنين، و استخدام الملائكة و الشياطين في كشف المغيبات، و علاج المصابين بالصرع، أما هذه فقال الشهيد الثاني في المسالك باب التجارة:

ان أكثر علماء الامامية يعتقدون انها و هم و خيال لا أساس له من الصحة، و ان البعض منهم يراها حقيقة واقعة، و هو من القائلين بحقيقتها.

و روى البخاري في الجزء الرابع من صحيحه «باب قصة إبليس و جنوده» ان النبي سحر، حتى كان يخيل اليه انه يفعل الشيء، و ما يفعله .. و أنكر ذلك الجصاص أحد أئمة الحنفية في الجزء الأول من أحكام القرآن ص ٥٥ طبعة سنة ١٣٤٧

هـ و أيضا أنكره الشيخ محمد عبده في تفسير سورة الفلق.

و نحن مع الذين لا يرون للسحر واقعا. قال الإمام الصادق: «السحر أعجز و أضعف من أن يغير خلق اللّه .. و لو قدر الساحر لدفع عن نفسه الهرم و الآفة و الأمراض، و لنفى البياض عن رأسه، و الفقر من ساحته، و ان من أكبر السحر النميمة يفرق بها بين المتحابين، و يجلب العداوة بين المتصافين».

و مهما يكن، فقد اتفقت كلمة الامامية على ان عقاب الساحر القتل و الاعدام ان كان مسلما، و التأديب بما يراه الحاكم من الجلد و السجن ان كان غير مسلم «١».

---

(١) من أحب التفصيل في حكم السحر فليرجع إلى الجواهر باب التجارة و باب القصاص، و إلى مكاسب الشيخ الانصاري. و مما قاله صاحب الجواهر: «و ليس مطلق الأمر الغريب سحرا، فان كثيرا من العلوم لها آثار عجيبة غريبة، و يكفيك ما يصنعه الافرنج في هذه الازمنة من الغرائب». نحن الآن في سنة ١٩٦٧ م.

و قد مضى على وفاة هذا المؤلف العظيم ١٢١ سنة، و لو كان في هذا العصر لم ير شيئا عجبا، لأن كل ما فيه عجيب، و سيأتي عصر يكون حاضرنا بالقياس اليه، كعصر الشيخ بالقياس إلى يومنا.

تفسير الكاشف، ج ١، ص ١٦٦

[سورة البقرة (٢): الآيات ١٠٤ الى ١٠٥]

يٰا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاٰ تَقُولُوا رٰاعِنٰا وَ قُولُوا انْظُرْنٰا وَ اسْمَعُوا وَ لِلْكٰافِرِينَ عَذٰابٌ أَلِيمٌ (١٠٤) مٰا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتٰابِ وَ لاَ الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَ اللّٰهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشٰاءُ وَ اللّٰهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (١٠٥)

اللغة:

المراعاة التفقد، و نقيضها الاغفال.

الإعراب:

المصدر من ان ينزل في محل نصب، لأنه مفعول ما يود، و من خير من زائدة، و خير مرفوع، لأنه نائب فاعل لينزّل.

المعنى:

(يٰا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاٰ تَقُولُوا رٰاعِنٰا). قال صاحب المجمع: «كان المسلمون يقولون: يا رسول اللّه راعنا، أي استمع منا، فحرف اليهود هذه اللفظة، و قالوا: يا محمد راعنا، و هم يلحدون الى الرعونة، و يريدون به النقيصة و الوقيعة، فلما عوتبوا قالوا: نقول كما يقول المسلمون، فنهى اللّه عن ذلك بقوله: لا تقولوا راعنا، و قولوا انظرنا».

و المراد بانظرنا في الآية الكريمة ان ينظر الرسول الى حالهم حين يتكلم، فيتمهل كي يفهموا و يستوعبوا جميع كلامه.

تفسير الكاشف، ج ١، ص ١٦٧

تنبيه:

أول نداء جاء في سورة البقرة للناس أجمعين، و أريد به الدعوة الى الإسلام و عبادة اللّه، هو قوله تعالى في الآية ٢١: «يا

أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ». و النداء الثاني كان لبني إسرائيل الطائفة الكبيرة التي تفرعت عنها الطائفة النصرانية، و جاء النداء الثاني تذكيرا برفع النقم عن بني إسرائيل، و اغداق النعم عليهم، و هو قوله تعالى في الآية ٣٩: «يا بَنِي إِسْرائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ». و النداء الثالث جاء لأمة محمد (ع) في هذه الآية:

«يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقُولُوا راعِنا». و هي تعلّم المسلمين آداب الشريعة بعد ان أسلموا و آمنوا باللّه، و هذا الترتيب بين النداءات الثلاثة ترتيب طبيعي يستدعيه الواقع و الاتساق من دعوة الناس أولا كل الناس الى الايمان باللّه، ثم تذكير من آمن قبل البعثة بفضل اللّه، ثم تعليم من آمن بعدها آداب اللّه، و هذا ضرب من بلاغة القرآن في الابتداء بالمرحلة الأولى، ثم الانتقال الى ما بعدها من غير فاصل ..

(ما يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ وَ لَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ). ليس غريبا و لا عجيبا ان يكره المشركون و اليهود و النصارى، و معهم المنافقون- أن يكرهوا جميعا نزول القرآن على محمد، و أن يخصه اللّه و الذين معه بالفضل و الهداية، و الصلاح و الإصلاح، و انما العجيب ان لا يكرهوا ذلك.

(وَ اللهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشاءُ). قال أمير المؤمنين (ع): المراد بالرحمة هنا النبوة.

الحسد و الحاسد:

الحسد بما هو من لواحق طبيعة الإنسان الا من عصم اللّه، لا يختص بالمشركين، و لا باليهود و النصارى، بل يشمل كثيرا من المسلمين، بل و من علماء الدين، بل و بعض من يتصدى لمنصب المرجعية الدينية الأعلى، مع العلم بأن هذا المنصب أقرب المناصب كلها الى منصب المعصوم .. و قد قال اللّه و الأنبياء و الأئمة و الحكماء

تفسير الكاشف، ج ١، ص ١٦٨

كثيرا عن الحسد، من ذلك قول الإمام الصادق (ع): الحسد أصله عمى القلب، و الجحود بفضل اللّه، و هما جناحان للكفر. و أبلغ ما رأيت في وصف الحساد قول سيد البلغاء، و إمام الحكماء علي أمير المؤمنين (ع) حيث عبر عنهم: «بحسدة الرخاء، و مؤكدي البلاء». و قال: «بكفيك من الحاسد أن يغتم وقت سرورك».

و لعل من المفيد أن ننقل هذه الصورة الرائعة للحاسد بقلم بعض الحكماء، قال:

ان مثل الحاسد مثل من يصوب حجرا الى مقتل عدوه، فيعود الحجر الى عين الرامي اليمنى فيقتلعها، فيغتاظ، و يرميه ثانية بأشد من الرمية الأولى، فيعود الحجر الى اليسرى و يعميها، فيمتلئ حقدا و حنقا، و يرمي بالحجر الثالث بقوة و حماس، فيرجع الى رأسه فيشجه، و عدوّه في حصن حصين.

و محال أن يتوب الحاسد من حسده، لأن الحسد تماما كالجبن و البخل، فكيف يتوب البخيل. و الجبان؟. و من أجل هذا أمر اللّه نبيه الكريم أن يقول للحساد: «قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ».

[سورة البقرة (٢): الآيات ١٠٦ الى ١٠٧]

ما نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِها نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْها أَوْ مِثْلِها أَ لَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٠٦) أَ لَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ ما لَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَ لا نَصِيرٍ (١٠٧)

اللغة:

النسخ في اللغة الازالة، يقال نسخت الشمس الظل، أي أزالته، و يأتي الكلام عن معناه الشرعي في الفقرة الآتية، و ننسها من غير همزة من النسيان و المراد به إرجاء الانزال أو النسخ، و سنذكر المعنى المختار.

تفسير الكاشف، ج١، ص ١٦٩

الإعراب:

(ما) اسم شرط بمعنى إن تجزم فعلين، و محلها النصب بننسخ، و ننسخ مجزومة فعل الشرط، و ننسها مجزومة أيضا لمكان العطف على ننسخ، و من آية بيان و تفسير لما المبهمة، و نأت فعل مضارع مجزوم لوقوعه جوابا للشرط.

النسخ:

نشير أولا الى معنى النسخ في الأحكام الشرعية بوجه عام، ثم الى النسخ في القرآن بوجه خاص .. و معنى النسخ في الأحكام الشرعية ان يرد دليل يدل بظاهره على ثبوت حكم شرعي ثبوتا دائما و مستمرا «١» في كل وقت، و بعد العمل بهذا الحكم بعض الحين يأتي دليل آخر يثبت ان ذاك الحكم الذي كنا نقطع بدوامه و استمراره هو في واقعه حكم خاص بأمد معين، و ان مصلحة اقتضت العمل به في آن محدود، لا في كل آن، و لكن الحكمة الإلهية استدعت إظهاره بمظهر الدوام و الاستمرار، تماما كما لو رأى الطبيب ان من مصلحة المريض الامتناع عن أكل اللحم أسبوعا واحدا فقط .. و أيضا رأى من مصلحته أن لا يعلمه بتحديد الوقت، فنهاه عن اللحم على هذا الأساس من غير قيد، و بعد مضي الأسبوع اذن له بأكل اللحم، و على هذا ينحصر معنى النسخ في محو ما ظهر من ارادة الدوام، لا محو الارادة الواقعية الذي يستلزم البداء و الجهل.

و ليس من شك ان النسخ بهذا المعنى ثابت في الشريعة الاسلامية، فإنها قد نسخت بعض أحكام الشرائع السابقة، كالشريعة الموسوية و العيسوية، بل ان أحكام القرآن قد نسخ بعضها بعضا كتحويل الاتجاه بالصلاة الى الكعبة بعد الاتجاه الى بيت المقدس.

أما النسخ في القرآن فيمكن تقسيمه الى أوجه ثلاثة:

---

(١) إذا كان الأمر الأول مطلقا غير مقيد بالدوام، ثم ورد أمر آخر على عكسه فلا يكون الثاني ناسخا للأول، لأن الأمر لا يقتضي الفعل أكثر من مرة، لأن اطلاق الأمر يدل على مجرد وجود الطبيعة، و كفى بغض النظر عن الكثرة و القلة، و الطبيعة تتحقق بالمرة.

تفسير الكاشف، ج١، ص ١٧٠

الأول: ان تنسخ الآية تلاوة و حكما بحيث يرتفع لفظها و حكمها.

الثاني: ان تنسخ تلاوة لا حكما، أي يرتفع لفظها، و يبقى حكمها.

الثالث: ان تنسخ حكما لا تلاوة، أي تتلى، و لكن لا يؤخذ بظاهرها بعد النسخ، و العمل بعض الوقت.

و القسم الأول و الثاني لا وجود لهما، لأنهما يستلزمان النقصان و تحريف القرآن الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه و لا من خلفه .. و القسم الثالث هو الجائز و الثابت أيضا، و عليه أكثر المسلمين، و جمهور المفسرين، و فيه كتب خاصة، و في أيامنا صدر كتاب ضخم باسم «الناسخ و المنسوخ» للدكتور مصطفى زيد المصري.

و تجمل الاشارة إلى ان الحكم الشرعي إذا ثبت بالطريق الصحيح فلا يجوز نسخه إلا بآية قرآنية، أو بسنة متواترة .. ذلك

ان النسخ من الأمور العظيمة الهامة، و كل ما كان كذلك لا يثبت بأخبار الآحاد، لأن كل مهم لا بد ان ينتشر و يشتهر على الألسن بحكم العادة، فإذا نقل الحادث العظيم فرد واحد، او أكثر دون أن يبلغ النقل حد التواتر كان ذلك دليلا على كذب الناقل ..

ا لا ترى ان موت الرجل الشهير ينقله أكثر الناس، و كذلك الثورات و الانقلابات أما موت الرجل العادي فلا يعرفه إلا بعض الجيران و الأرحام. و التفصيل في علم الأصول.

المعنى:

(ما نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِها نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْها أَوْ مِثْلِها). قال كثير من المفسرين: ان اليهود قالوا: ان محمدا يأمر أصحابه بأمر، ثم ينهاهم عنه، و يقول اليوم قولا، و غدا يرجع عنه، و لو كان ما يقوله وحيا لما كان فيه هذا التناقض، فنزلت هذه الآية ردا عليهم.

و المراد آية من آي الذكر الحكيم، لأن هذا المعنى هو المتبادر الى الافهام هنا، و نقل الشيخ المراغي في تفسيره عن استاذه الشيخ محمد عبده ان المراد بالآية المعجزة الدالة على نبوة النبي، و ان المعنى ان اللّه يعطي معجزة لنبي من الأنبياء، ثم يتركها كلية، و يعطي غيرها لنبي آخر .. و هذا المعنى صحيح في

تفسير الكاشف، ج ١، ص ١٧١

ذاته، و لكن سياق الآية ينفيه و يعين ما ذهب اليه العلماء و جمهور المفسرين من ان المراد آية من القرآن.

و معنى نسخ الآية القرآنية بقاؤها لفظا و تلاوة، مع الغاء حكمها التي دلت عليه، و عمل به آنا ما.

أما (ننسها) فان قرئت من غير همزة فهي من النسيان، و يتعين أن يكون المعنى الترك لا الذهول، أي نتركها على ما هي بلا تغيير و تبديل، حيث يصح أن تقول: نسيت الشيء، و أنت تريد تركه على حاله .. و ان قرئت بالهمزة (ننسأها) فهو من الارجاء و التأخير، أي نترك انزالها الى وقت ثان، و مهما يكن فان الآية بدليل وجود (ما) الشرطية لا تدل على وقوع النسخ بالفعل، بل تدل على انه لو افترض وقوعه لأتى اللّه بخير من المنسوخ.

(أَ لَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، أَ لَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ). قيل: ان الخطاب في (تعلم) للنبي، و المراد به المسلمون الذين تضايقوا من اعتراض اليهود و غيرهم على النسخ. و الحق انه خطاب لكل من يستبعد النسخ، أو يؤلمه الاعتراض عليه، و المعنى ان النسخ ليس بالغريب المستبعد، لأنه لا يخرج عن كونه تكليفا للعباد، و محو حكم، و اثبات حكم مماثل أو أصلح مكانه. و بديهة ان اللّه يملك كل شيء، و يدبره و يجريه على ما يشاء من نسخ أو بقاء بلا نسخ. أما ذكر السموات و الأرض بالخصوص فهو اشعار بالعموم و الشمول، لأنهما يشتملان على جميع المخلوقات العلوية و السفلية.

(وَ ما لَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَ لا نَصِيرٍ). أي لا تبالوا أيها المؤمنون بمن اعترض أو يعترض على النسخ، أو على أي شيء في دينكم، فليس باستطاعة مخلوق أن يضركم، ما دام اللّه هو المؤيد و المناصر .. و اختصارا ان النسخ حق، و لا مانع عنه من العقل و لا من الشرع خلافا للمنكرين و المعترضين.

[سورة البقرة (٢): الآيات ١٠٨ الى ١٠٩]

أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْئَلُوا رَسُولَكُمْ كَما سُئِلَ مُوسى مِنْ قَبْلُ وَ مَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمانِ فَقَدْ ضَلَّ سَواءَ السَّبِيلِ (١٠٨) وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَ اصْفَحُوا

حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللهَ عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٠٩)

تفسير الكاشف، ج١، ص ١٧٢

اللغة:

الحسد مذموم، لأنه عبارة عن كراهية النعمة للغير، و حب زوالها عنه، أما الغبطة فغير مذمومة، لأنها الرغبة في أن يكون للإنسان من النعمة مثل ما لأخيه، دون أن يتمنى زوالها عنه.

الاعراب:

أم هنا منقطعة بمعنى بل مع الاستفهام، أي بل أ تريدون الخ، و دخلت الباء على الإيمان، لأنها تدخل دائما في البدلية على الأكمل، و من أهل الكتاب متعلق بمحذوف صفة لكثير، و حسدا مفعول من أجله، و من عند أنفسهم متعلق بحسد و جواب لو محذوف تقديره لسروا بذلك.

المعنى:

(أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْئَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسىٰ). بعد ان قال اللّه سبحانه للمؤمنين: لا تبالوا باعتراض من اعترض على النسخ و غيره من أحكام دينكم، لأن الأمور كلها بيده، و يختار منها الأصلح لكم و لغيركم، بعد هذا قال لهم:

ما ذا تبتغون من رسولكم محمد (ص)، و قد جاءكم بالبراهين الكافية الوافية؟

أ تريدون أن تتعنتوا كما فعل اليهود مع موسى، و سألوه ما لا يجوز سؤاله؟ ..

ان الإنسان قد يشك، و يطلب الدليل المقنع الذي يزيل الشك، اما ان يطلب

تفسير الكاشف، ج١، ص ١٧٣

جعل الجبل ذهبا، و الصحراء الجرداء رياضا فهذا مجرد معاندة و مكابرة، فلا تكونوا أيها المسلمون من المكابرين المعاندين.

(وَ مَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالإِيمٰانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوٰاءَ السَّبِيلِ). ان كل من يقف من الحق موقفا مجردا، و يطلب الدليل المعقول على إثباته فهو مؤمن بالحق، كمبدأ، و كل من يقف من الحق موقف المكابر المتعنت، و يطلب فوق المعقول، و أكثر مما يستدعيه الاستدلال و الإثبات فهو كافر بالحق .. و من لم يثق بما جاء به محمد (ص)، و طلب الزيادة فقد اختار العناد على الانصاف، و الكفر على الايمان.

(وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتٰابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمٰانِكُمْ كُفّٰاراً حَسَداً مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ). كل انسان يود أن يكون الناس، كل الناس على دينه، قال أحد الفلاسفة: ان أسعد يوم عندي أن أرى من يوافقني على رأيي .. و لكن جماعة من اليهود كانوا يبذلون جهودا كبيرة لفتنة المسلمين، و ارتدادهم عن دينهم الى الجاهلية الأولى، لا لشيء إلا بغيا و حسدا، مع العلم انهم يستطيعون الإسلام كما فعل غيرهم، و لكنهم خافوا على أسواقهم و أرباحهم من الخمر و الميسر و الدعارة.

و قد استغل اليهود انكسار المسلمين يوم أحد للدس على النبي، فقد جاء في الأخبار انهم بعد وقعة أحد كانوا يدعون شباب المسلمين الى بيوتهم، و يقدمون لهم الخمر، و يغرونهم ببناتهم، كما يفعلون اليوم، و في كل يوم، ثم يشككون

المسلمين بالقرآن و نبوة الرسول الأعظم (ص). و أحس النبي بهذا التدبير الرهيب، فنهى عن مجالس اللهو، و شدد النكير على من يتعاطى الزنا و الخمر و الميسر و لحم الخنزير، فامتنع المسلمون عن الذهاب الى بيوت اليهود التي فتحوها لهذه الغاية ..

و هي المسماة اليوم بالبار و الكازينو.

(مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ). أي ان اليهود قد حاولوا إرجاع المسلمين الى الكفر و الضلال على علم منهم ان الإسلام هو الحق، و ان الشرك و انكار نبوة محمد هو الباطل، و لا يختص هذا باليهود، فان أكثر الناس تجحد الحق و تعانده، لا لشيء الا لأنه لا يتفق مع مطامعهم، فان الإنسان مسير بوحي من عاطفته و منافعه، لا بوحي من دينه و عقله، قال أمير المؤمنين (ع): أكثر مصارع العقول تحت بروق المطامع.

تفسير الكاشف، ج ١، ص ١٧٤

(فَاعْفُوا وَ اصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ). أي أعرضوا الآن، و لا تتعرضوا لعقابهم و تأديبهم، حتى يأمركم اللّه بذلك، فان الأمور رهن بأوقاتها، و في كثير من التفاسير ان اللّه سبحانه أمر المسلمين بالاعراض عنهم الى ان نزل قوله تعالى:

«قاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَ لا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ». و غير هذه الآية من آيات القتال، و قال الرازي: ان الإمام محمد الباقر (ع) قال: ان اللّه لم يأمر نبيه بالقتال، حتى نزل جبريل بقوله تعالى: «أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَ إِنَّ اللهَ عَلى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ» و قلده سيفا.

مخالفة الحق:

كل ما في الحياة من كفر و إلحاد، و فسق و فجور، و تهتك و فساد، و ظلم و طغيان، و حروب و مشاحنات، و فقر و بؤس، كل ذلك، و ما اليه من أوباء و أدواء يرجع في النهاية الى سبب واحد، هو مخالفة الحق .. و لو أنصف الناس لسعد و استراح كل الناس، لا القاضي فقط .. و ان في قوله تعالى: «فَما ذا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلالُ» اشارة الى هذه الحقيقة .. أجل، ان الحق لا يعدم نصيرا في كل زمان، و لكنه قليل، و لو وجد الحق أنصارا كما يجد الباطل لكان العالم في هناء و أمان .. بل لو طالب كل ذي حق به، و قام بواجبه لما رأينا للظلم و الباطل عينا و لا أثرا.

و قد أقام اللّه للحق دليلا يهدي اليه، و يدل عليه من الفطرة و كتاب اللّه، و من نبيه الأكرم، و أهل بيته الأطهار الذين ساوى صاحب البيت بينهم و بين القرآن بأمر من اللّه، كما جاء في حديث الثقلين الذي رواه مسلم في صحيحه، فمن عاند هذا الدليل على علم به فقد عاند اللّه و رسوله، تماما كما فعل اليهود و المشركون.

[سورة البقرة (٢): آية ١١٠]

وَ أَقِيمُوا الصَّلاةَ وَ آتُوا الزَّكاةَ وَ ما تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللهِ إِنَّ اللهَ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١١٠)

تفسير الكاشف، ج ١، ص ١٧٥

الاعراب:

(ما) من قوله تعالى (ما تقدموا) اسم شرط تجزم فعلين، و محلها الرفع بالابتداء، و خبرها جملة تجدوه، و تقدموا مجزوم بما، فعل الشرط، و تجدوه مجزوم أيضا لأنه جواب الشرط، و بصير خبر، و (بما) متعلق ببصير.

المعنى:

تضمنت هذه الآية أمورا ثلاثة:

١- الأمر باقامة الصلاة «١».

٢- الأمر بإيتاء الزكاة.

٣- الترغيب في الخير بوجه العموم، و في تفسير المنار ان الآية تضمنت أولا حكما خاصا، و هو الأمر بالصلاة و الزكاة، ثم حكما عاما مستقلا بنفسه، و لكنه شامل بعمومه للحكم الخاص المتقدم، و هذا من أساليب القرآن التي لا تجد لها نظيرا في غيره. و قوله تعالى: «تَجِدُوهُ عِنْدَ اللهِ» المراد به وجدان جزائه و ثوابه لا وجدان العمل بالذات، كما قيل، لأن الأعمال لا تبقى.

و تسأل: لقد رأينا القرآن يقرن دائما الأمر بالصلاة بالأمر بالزكاة، فما هو السر؟.

و أجيب عن هذا السؤال بأن الصلاة عبادة روحية، و الزكاة عبادة مالية، فمن جاد بها ابتغاء مرضاة اللّه سهل عليه بذل نفسه في سبيل اللّه.

الصلاة و شباب الجيل:

ان أكثر شباب هذا الجيل يستخفون بالدين و أهله، فمنهم من يقول صراحة و علانية: لا شيء وراء الطبيعة .. و منهم من يقول: ان وراءها مدبرا حكيما،

---

(١) انظر فقرة يقيمون الصلاة الآية ٣ من هذه السورة.

تفسير الكاشف، ج١، ص ١٧٦

و لكنه لم يوجب صوما و لا صلاة .. و الاثنان عند اللّه سواء في الكفر و الجحود ..

لأن من ترك الصلاة جازما بعدم وجوبها فهو تماما كمن كفر باللّه دون خلاف بين علماء المسلمين.

و نعينا نحن علماء الدين على شباب الجيل كفرهم و استخفافهم، و حكمنا عليهم بالتمرد على دين الحق، دون أن نقوم بأي عمل، أو نقدم لهم الأسلوب المقنع.

و أعني بالعمل، العمل الجماعي المثمر الذي ينبغي التمهيد له بالاجتماعات و عقد المؤتمرات للتداول و التدارس، ثم إنشاء المدارس و الكليات لعلوم القرآن و السنة، و فلسفة العقيدة الاسلامية، و التاريخ الاسلامي، و علم النفس، و التدريب على الوعظ و الدعوة الى الدين بالحسنى و السبل الحديثة المجدية .. أجل، لقد قام البعض مجهود أدت الى نتائج مشكورة، و لكن المطلوب توحيد الجهود، و الإخلاص في النية و التضحية من الجميع .. و لكن كيف توحّد الجهود، و المتكسبون باسم الدين كثيرون، و لا يهمهم من أمره إلا بمقدار ما يعود عليهم بالجاه و المال.

و بالتالي، فنحن علماء الدين مسؤولون أمام اللّه عن شباب الجيل، تماما كما هم مسؤولون عن التهاون و ترك التصدي لمعرفة دين الحق، و العمل بأحكامه.

[سورة البقرة (٢): الآيات ١١١ الى ١١٣]

وَ قالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَنْ كانَ هُوداً أَوْ نَصارىٰ تِلْكَ أَمانِيُّهُمْ قُلْ هاتُوا بُرْهانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (١١١) بَلىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَ هُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لا هُمْ يَحْزَنُونَ (١١٢) وَ قالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصارىٰ عَلىٰ شَيْءٍ وَ قالَتِ النَّصارىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلىٰ شَيْءٍ وَ هُمْ يَتْلُونَ الْكِتابَ كَذٰلِكَ قالَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ فِيما كانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (١١٣)

تفسير الكاشف، ج١، ص ١٧٧

اللغة:

هود جمع، و مفرده المذكر هائد، و المؤنث هائدة، و معنى الهائد التائب الراجع إلى الحق، و نصارى جمع، و مفرده نصران، و لكنه لا يستعمل إلا مع ياء النسبة، و تكلمنا عن ذلك مفصلا عند تفسير الآية ٦٢، و الأماني جمع، واحدها أمنية من التمني، و اسلام الوجه للّه الإخلاص له في العمل، و القيامة مصدر مثل القيام، و لكن هذه الكلمة كثر استعمالها في يوم البعث، حتى صارت علما عليه.

الاعراب:

(و قالوا) عطف على (وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ) و الضمير في قالوا عائد على كثير، و كل من الجنة و جهنم ظرف مكان، و (من) اسم موصول، و هي هنا بمعنى الذين، و أفرد ضمير كان بالنظر الى اللفظ، لا الى المعنى، و جمع عليهم بالنظر الى المعنى لا الى اللفظ، و تلك اسم اشارة يشار بها الى المفردة المؤنثة، و الى جمع التكسير، و هي مبتدأ، و أمانيهم خبر، و الجملة لا محل لها من الاعراب، لأنها معترضة بين (قالوا) و بين هاتوا.

و هو محسن جملة حالية، و كذلك جملة و هم يتلون الكتاب، و (مثل) قائم مقام المفعول المطلق، أي قالوا قولا مثل قولهم.

المعنى:

(وَ قالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَنْ كانَ هُوداً أَوْ نَصارىٰ). قال صاحب مجمع البيان: «هذا إيجاز، و تقدير الكلام قالت اليهود: لن يدخل الجنة الا من كان يهوديا، و قالت النصارى: لن يدخل الجنة الا من كان نصرانيا ..

و انما قلنا: ان الكلام مقدر هذا التقدير، لأن من المعلوم ان اليهود لا يشهدون للنصارى بالجنة، و لا النصارى يشهدون بذلك لليهود، فعلمنا انه أدرج الخبر

تفسير الكاشف، ج١، ص ١٧٨

عنهما للإيجاز من غير إخلال شيء من المعنى، فان شهرة الحال تغني عن البيان المفصل».

احتكار الجنة:

يظهر من هذه الآية الكريمة ان اليهود و النصارى يؤمنون بنظرية الاحتكار منذ القديم، و انها عندهم تشمل نعيم الدنيا و الآخرة .. و أيضا يظهر ان احتكار الجنة مختص برجال الدين، و على هذا الأساس كانت الكنيسة تبيع صكوك الغفران للعصاة و الآثمين بعد أن تقبض الثمن، و قد كسبت بذلك أموالا طائلة، و لكن على حساب تشجيع الجرائم، و انتشار الفساد .. و مما كانت تكتبه الكنيسة للعاصي في صك الغفران انه: «يغلق أمامك- الخطاب للعاصي- الباب الذي يدخل منه الخطاة الى العذاب و العقاب، و يفتح الباب الذي يؤدي الى فردوس الفرح، و ان عمّرت سنين طويلة فهذه النعمة

تبقى غير متغيرة، حتى تأتي ساعتك الأخيرة باسم الأب و الابن و روح القدس».

(تلك أمانيهم) جمع الأماني، لأنها كثيرة، منها أمنيتهم أن يرجع المسلمون كفارا، و منها ان يعاقب أعداؤهم، و منها ان الجنة لهم وحدهم.

(قُلْ هاتُوا بُرْهانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِين). كل دعوى تحتاج الى دليل، و أيضا كل دليل نظري يحتاج الى دليل، حتى ينتهي الى أصل عام ثبت بالبديهة و الوجدان، و معنى ثبوته كذلك أن يتفق على صحته جميع العقلاء، و لا يختلف فيه اثنان، تماما كهذا الأصل: «كل دعوى تحتاج الى دليل» .. اللهمّ الا إذا كانت الدعوى بديهية، على ان الدعوى البديهية لا يسمى القائل بها مدعيا، لأن الدعوى مأخوذ في مفهومها الافتقار الى الدليل، أما القضية الواضحة بذاتها فدليلها معها، و ملازم لها لا ينفك عنها بحال، و الا لم تكن بديهية .. و اختصارا لا يسوغ أن تقول: أين الدليل لمن قال: العشرة أكثر من الواحد- مثلا-.

و جاء في تفسير المنار عند ذكر هذه الآية ما يتلخص بأن السلف الصالح من المسلمين كانوا يسيرون على هذا الأصل، فيقيمون الدليل على ما يقولون، و يطلبونه من الناس على ما يدعون، و لكن الخلف الطالح- على حد تعبير

تفسير الكاشف، ج١، ص ١٧٩

صاحب التفسير، عكسوا الآية، فأوجبوا التقليد، و حرّموا الاستدلال إلا على صحة التقليد فقط، و منعوا العمل بقول اللّه و رسوله، و أوجبوا العمل بقال فلان، و قال علان». كما عبر صاحب تفسير المنار.

(بَلى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَ هُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّه). هذا تكذيب لدعواهم بأن الجنة لهم وحدهم دون الناس أجمعين، و المراد بالوجه في الآية النفس و الذات، قال تعالى: «كُلُّ شَيْءٍ هالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ». و المعنى ان كل من آمن باللّه مخلصا له في أعماله إخلاصا لا يشوبه شرك و لا رياء فهو من المكرمين عند اللّه، لأنه لا يضيع أجر من أحسن عملا، أما قوله سبحانه: «و هو محسن» فاشارة الى أن التقرب الى اللّه انما يكون بالعمل الصالح، لا بالأعمال القبيحة الضارة، لأن اللّه سبحانه لا يطاع من حيث يعصى.

(وَ قالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصارى عَلى شَيْءٍ وَ قالَتِ النَّصارى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلى شَيْءٍ). قال صاحب مجمع البيان نقلا عن ابن عباس ان نصارى نجران تنازعوا مع اليهود عند رسول اللّه (ص)، فقال رجل من اليهود للنصارى: ما أنتم على شيء، فأجابه رجل من النصارى: ليست اليهود على شيء، فنزلت هذه الآية، تسجّل قول كل من الفريقين في حق الآخر.

الدين المصلحة عند اليهود و النصارى:

و بالمناسبة، فان المعروف عن الدين المسيحي انه ينص صراحة على ان اليهود و أولادهم من بعدهم يتحملون مسؤولية صلب «الإله» .. و مع ذلك فان بابا روما بذل جهد المستميت عام ١٩٦٥ لتبرئة يهود الجيل الحالي و الأجيال السابقة من تبعة صلب المسيح، و عقد من أجل ذلك أربعة مؤتمرات، و اصطدم مع الكنيسة الشرقية، و بلغت تكاليف المؤتمرات ٢٠ مليون دولار، و الهدف الأول و الأخير سياسي بحت، و هو تقوية «دولة إسرائيل»، و تدعيم مركزها في فلسطين، و سياستها في العالم .. و على الأصح تقوية الاستعمار، و تدعيم قواعده في الشرق بعامة، و البلاد العربية بخاصة .. و ان دل هذا على شيء فإنما يدل على أن الدين عند بعضهم، منافع مادية، و كفى «١».

(١) انظر فقرة: «المصلحة هي السبب لا الجنسية» عند تفسير الآية ٩٦ من هذه السورة.

تفسير الكاشف، ج١، ص ١٨٠

(وَ هُمْ يَتْلُونَ الْكِتابَ). أي ان اليهود عندهم التوراة، و هي تبشر بعيسى، و تعترف بنبوته .. و أيضا النصارى عندهم الإنجيل يعترف بموسى و توراته .. و على هذا يكون اليهود و النصارى في حكم الطائفة الواحدة، لأن دينهم واحد، و كل من التوراة و الإنجيل جزء متمم للآخر، و مع ذلك فقد كفّر بعضهم بعضا.

أيضا المسلمون يكفر بعضهم بعضا:

و إذا كان اليهود بحكم الطائفة الواحدة، لأن التوراة تعترف بعيسى، و الإنجيل يعترف بموسى، فبالأولى أن تكون السنة و الشيعة طائفة واحدة حقيقة و واقعا، لأن كتابهم واحد، و هو القرآن، لا قرءانان، و نبيهم واحد، و هو محمد، لا محمدان، فكيف- اذن كفّر بعض من الفريقين إخوانهم في الدين؟ ..

و لو نظرنا الى هذه الآية «قالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصارىٰ عَلىٰ شَيْءٍ، وَ قالَتِ النَّصارىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلىٰ شَيْءٍ وَ هُمْ يَتْلُونَ الْكِتابَ» لو نظرنا اليها بالمعنى الذي بيناه، و اتفق عليه جميع المفسرين، ثم قسنا من يرمي بالكفر أخاه المسلم- لو نظرنا الى الآية، و قسنا هذا بمقياسها لكان أسوأ حالا ألف مرة من اليهود و النصارى ..

لقد كفّر اليهود النصارى، و كفّر النصارى اليهود، (وَ هُمْ يَتْلُونَ الْكِتابَ) أي التوراة و الإنجيل .. فكيف بالمسلم يكفّر أخاه المسلم، و هو يتلو القرآن؟!.

فليتق اللّه الذين يلوون ألسنتهم بالكتاب، و قلوبهم عمي عن معانيه و مراميه.

(كَذٰلِكَ قالَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ). المراد بالذين لا يعلمون في هذه الآية مشركو العرب، حيث قالوا تماما كما قال اليهود و النصارى: انهم وحدهم يدخلون الجنة دون المسلمين و الناس أجمعين.

و أجاب القرآن أولا: ما أجاب به اليهود و النصارى من ان الحق لا يتقيد بالأشخاص، و لا بالأسماء و الألقاب، و ان دخول الجنة منوط بالايمان و العمل الصالح. ثانيا: ان اللّه سبحانه يعلم المحق من المبطل، و انه سيجزي كلا بأعماله.

(فَاللّٰهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ فِيما كانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ).

تفسير الكاشف، ج١، ص ١٨١

كل يعزز دينه:

و تسأل: ان كلا من أهل الأديان و الأحزاب يدعي انه هو المحق، و غيره المبطل، تماما كما ادعت اليهود و النصارى و مشركو العرب، فكيف يتهيأ لنا ان نعرف الكاذب من الصادق؟.

و قبل الجواب نمهد بالاشارة الى هذه الحقيقة، و هي: كل من يدعي الحق لا بد أن يكون واحدا من اثنين، اما ان يجزم مسبقا منذ البداية برأيه، و يصر عليه، و لا يحتمل فيه الخطأ، و لا يصغي الى بينة العكس أيا كان نوعها، و اما أن يكون مجردا للحق يبحث عنه و يمحص و ينقب جهده، حتى إذا رأى ما اعتقد انه الدليل اعتمده عازما على ان الحق إذا تبين في الجانب الآخر تبعه و عدل عن رأيه، لأنه ينشد الحكمة أينما كانت و تكون .. و لا بد أن نفصل بين هذين لأن الأول

لا سبيل الى اقناعه بالحجة و منطق العقل، بل لا دواء له الا الاعراض عنه، و الثاني يسهل معه التفاهم، و كلنا يعلم ان هناك قضايا واضحة بذاتها لا يختلف فيها اثنان، مثل الرخاء سعادة و هناء، و الفقر بلاء و شقاء، و الحب خير من البغض، و التعاون أفضل من التنازع، و السلم أعود من الحرب، و العلم نور، و الجهل ظلام، و العدل حق، و الجور باطل، و ان الشيء الواحد لا يتصف بصفة و نقيضها، و ما الى ذلك من الحقائق الانسانية البديهية.

إذا تمهد هذا، و كنا على علم منه، ثم ادعى مدع انه هو المحق دون سواه قسنا قوله بتلك الحقائق المتسالم عليها، و تحاكمنا اليها، فان اتفق معها فهو حق، و ان ناقضها، و استدعى قوله الضرر و الشر فهو باطل .. و بهذا يتبين معنا ان قول من قال: «كل يعزز دينه يا ليت شعري ما الصحيح؟.»

ان هذا القول لئيم و خطير، يهدف الى اشاعة الفوضى و الجهل، و لو صدق لوجب أقفال المعاهد و المعابد و المحاكم، حيث لا قيم عقلية، و لا قانونية، و لا أخلاقية.

و الذي يهون الخطب ان قول: «يا ليت شعري ما الصحيح» كلام شعري جاء من وحي العاطفة التي تستمد منطقها من اللامنطق .. و صدق اللّه العظيم حيث يقول: «و الشعراء يتبعهم الغاوون، ألم تر انهم في كل واد يهيمون، و انهم يقولون ما لا يفعلون».

تفسير الكاشف، ج ١، ص ١٨٢

[سورة البقرة (٢): آية ١١٤]

وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَساجِدَ اللهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَ سَعىٰ فِي خَرابِهٰا أُول�ٰئِكَ مٰا كٰانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهٰا إِلاّٰ خٰائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيٰا خِزْيٌ وَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذٰابٌ عَظِيمٌ (١١٤)

الاعراب:

اتفقوا على ان المصدر المنسبك من أن و الفعل الذي دخلت عليه محله النصب، ثم اختلفوا في اعرابه على أربعة أقوال ذكرها الرازي و أبو حيان الأندلسي، و أظهرها- كما نرى- ان المصدر منصوب بنزع الخافض، و التقدير منع من ذكر اللّه فيها، كما تقول منعه من كذا، و خائفين حال من الواو في يدخلوها.

المعنى:

هذه الآية من الآيات التي تعددت الأقوال في تفسيرها، و ظاهرها يدل على التهديد و الوعيد لمن لا يحترم المساجد، أو مطلق المعابد، و يمنع من عمارتها، أو من التعبد فيها للّه، أو يعمل على هدمها، أو إهمالها، أو تعطيل الشعائر الدينية فيها .. و ان الواجب الإلهي و الانساني يفرض على كل انسان أن يقدس المعابد، و يدخلها معظما لها، و خاشعا لجلالها، و خائفا من عقاب اللّه راجيا لثوابه، لا مستهترا و مستخفا، لأنها انشئت لهذه الغاية، ثم بيّن سبحانه ان من تعرّض بسوء للمعابد فان اللّه سبحانه يهينه و يذله في هذه الحياة، و يعذبه غدا بعذابه الأكبر.

و بالاختصار ان الآية بحسب ظاهرها مجرد بيان ان من يفعل كذا يفعل اللّه به كذا و عليه فهي قضية كلية لا تستدعي وجود واقعة خاصة قد حدثت في

تفسير الكاشف، ج ١، ص ١٨٣

الماضي، أو في زمن الخطاب، أو منتظرة الحدوث .. و لكن المفسرين قالوا:

انها اشارة الى حادثة خاصة، ثم اختلفوا فيما بينهم: هل الحادثة المشار اليها قد وقعت قبل بعثة محمد (ص)، أو بعد البعثة؟ ثم ان الفريق الذين قالوا:

انها إخبار عن شيء وقع قبل البعثة اختلفوا فيما بينهم أيضا في تعيين ذاك الشيء الذي وقع، فمنهم من قال: ان الآية تخبر عما وقع من تيطس الروماني، إذ دخل بيت المقدس بعد موت المسيح بنحو سبعين سنة، و خربها، حتى لم يبق حجرا على حجر، و هدم هيكل سليمان، و أحرق بعض نسخ التوراة، و كان المسيح قد أنذر اليهود بذلك، و قيل: ان تيطس خرب بيت المقدس بتحريض المسيحيين انتقاما من اليهود.

و من القائلين بأنها إخبار عما وقع قال: انها تخبر عما صنعه بختنصر البابلي من تخريب بيت المقدس، و جاء في تفسير صاحب المنار ما نصه بالحرف:

«و من الغريب ان ابن جرير الطبري قال في تفسيره: ان الآية تشير الى اتحاد المسيحيين مع بختنصر البابلي على تخريب بيت المقدس، مع ان حادثة بختنصر كانت قبل وجود المسيح و المسيحية بستمائة و ثلاث و ثلاثين سنة» «١».

و أيضا من القائلين بأن الآية اخبار عما وقع من يرى: انها نزلت في مشركي قريش، حيث منعوا النبي و أصحابه من دخول مكة في قصة عمرة الحديبية.

أما الذين قالوا: ان الآية إخبار عن أمر منتظر الوقوع فأيضا اختلفوا فيما بينهم، فمنهم من قال: انها اشارة الى اغارة الصليبيين على بيت المقدس و غيره من بلاد المسلمين .. و منهم من قال: انها اخبار عما حدث من القرامطة من هدم الكعبة، و منع الناس من الحج، ثم قال هذا الفريق بكلا قسميه: ان هذه الآية من معجزات القرآن، لأنها أخبرت عن الغيب.

هذا ملخص ما قاله المفسرون .. و نحن لا نعتمد شيئا منها، حيث لا دليل

---

(١) و تشاء الصدف ان اقرأ هذه السقطة للطبري في نفس اليوم الذي قرأت عنه مقالا مطولا في ملحق جريدة الجمهورية المصرية تاريخ ٥ مايو، أيار، سنة ١٩٦٧، و قد جاء فيه: «و الطبري بلا شك عميد مؤرخي الإسلام .. و كتابه رئيسي في التفسير». توفي الطبري سنة ٣١٠ هـ أي منذ أكثر من الف و خمسين سنة، و إذا كان هذا حال اسبق المؤرخين و المفسرين و أوثقهم، فكيف يثق الإنسان بغيره؟ و على من يعتمد؟ ..

تفسير الكاشف، ج ١، ص ١٨٤

من العقل أو النقل تطمئن اليه النفس، و نعتمد الظاهر من الآية التي لا يتنافى مع العقل، و لا دليل يصرفه الى غيره من النقل، و هو وجوب احترام المعابد، و تحريم التعرض لها، و مجازاة من يقصدها بسوء.

من أحكام المساجد:

يستحب بناء المساجد، و أعمارها بذكر اللّه، و تنظيفها، و اضاءتها، و يحرم هتكها، و دخول الجنب و الحائض اليها، و يستحب عند دخولها صلاة ركعتي التحية، و يكره بناؤها في مكان مشرف، لأن عليا أمير المؤمنين (ع) رأى مسجدا في مكان مشرف فقال كأنه بيعة، أي معبد اليهود، و في الحديث:

«تبنى المدائن شرفا- أي في مكان مرتفع- و المساجد جما» أي غير مشرفة من جمت الشاة، و أيضا يكره اتخاذ المحاريب فيها، لأن أمير المؤمنين (ع) كان إذا رآها قال: كأنها مذابح اليهود «١» .. و المراد بهذه المحاريب المكروهة المحاريب البارزة بروزا يضايق المصلين، بل قال جماعة بتحريمها، أما المحاريب في جوف فلا بأس بها، و السيرة عليها.

[سورة البقرة (٢): الآيات ١١٥ الى ١١٧]

وَ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَ الْمَغْرِبُ فَأَيْنَما تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ إِنَّ اللهَ واسِعٌ عَلِيمٌ (١١٥) وَ قالُوا اتَّخَذَ اللهُ وَلَداً سُبْحانَهُ بَلْ لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قانِتُونَ (١١٦) بَدِيعُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ إِذا قَضى أَمْراً فَإِنَّما يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (١١٧)

---

(١) نقل صاحب مفتاح الكرامة عن جماعة من العلماء كراهية تعلية المساجد، و قالوا: بل تبنى وسطا، كما نقل عن سبعة كتب فقهية كراهية المحاريب البارزة في المساجد، و الذي أحسبه ان المسلمين لم يهتموا بضخامة المساجد، و فخامتها إلا تنافسا مع الكنائس و البيع، و في قول أمير المؤمنين (ع): (كأنه بيعة) اشارة إلى ذلك.

تفسير الكاشف، ج ١، ص ١٨٥

اللغة:

الشرق و المشرق معناهما واحد، و هو مطلع الشمس و القمر، و الغرب و المغرب و المغيب بمعنى واحد أيضا، و هو موضع الغروب، و خص اللّه الشرق و الغرب بالذكر دون الجنوب و الشمال، لأن الشرق و الغرب يشملان الجميع، إذ ما من مكان إلا و تشرق الشمس و القمر عليه، أو يغيبان عنه، و من هنا كان تقسيم الكرة الأرضية الى الشرق و الغرب فقط، لا إليهما و إلى الجنوب و الشمال. و ثم في الآية بمعنى هناك. و القنوت معناه الدوام، ثم استعمل بمعنى الطاعة و الانقياد، و هذا المعنى هو المراد هنا.

المعنى:

(وَ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَ الْمَغْرِبُ فَأَيْنَما تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ). أي ان الأرض و الجهات و الأشياء كلها للّه، فأينما تعبدتم، و انّى انجهتم قاصدين بالعبادة وجه اللّه فاللّه يتقبل منكم، فمن منع من العبادة في المساجد، فليتعبد حيث شاء، و يتجه الى أية جهة أراد، فان الأرض كلها مسجد، و الجهات كلها قبلة، و قال بعض المفسرين: ان التعميم في الآية للجهة فقط دون المكان، لقوله سبحانه «وَ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَ الْمَغْرِبُ» .. و قد ذهل هذا المفسر عن قوله تعالى: **(إِنَّ اللهَ واسِعٌ عَلِيمٌ)** معللا به تعميم الجهة .. و من المعلوم ان تعميم علة الحكم تستدعي تعميم الحكم بداهة تبعية المعلول لعلته، و المسبب لسببه، و بكلمة ما دامت الجهات و الأماكن كلها للّه فيصح التعبد له في كل مكان، و الاتجاه بالعبادة الى جميع الجهات.

و تسأل: ان ظاهر الآية يدل على ان المكلف مخير في أن يتجه بصلاته الى جميع الجهات، و لا يتعين عليه التوجه الى خصوص الكعبة، مع العلم بأن هذا خلاف ما أجمع عليه المسلمون؟.

الجواب: أجل، ان ظاهر الآية يدل على ذلك، و يشمل الصلاة المفروضة و المستحبة في جميع الحالات، و لكن ثبت عن

النبي و أهل بيته (ص)، و بالإجماع

تفسير الكاشف، ج١، ص ١٨٦

أيضا ان المفروضة لا تصح مع الإمكان إلا الى الكعبة، و ان المستحبة تصح حال المشي و الركوب على الراحلة الى أية جهة تكون، و كذلك المتحير الذي يجهل جهة الكعبة تصح منه المكتوبة حيث يتجه بها مع عجزه عن الاحتياط، و بهذه الأحاديث و الإجماع نخصص قوله تعالى: «**فَأَيْنَما تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ**» نخصصها بالصلاة المستحبة حال المشي و الركوب، و بصلاة المتحير. و أيضا بالأحاديث و الإجماع نخصص الآية ١٤٩ من سورة البقرة: «وَ مِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ» نخصصها بالصلاة المكتوبة مع الاختيار، و النافلة مع الاستقرار «١».

و بهذا يتبين الخطأ و الاشتباه في قول من قال: ان قوله تعالى: فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ ناسخ لقوله سبحانه: **فَأَيْنَما تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ**، لأن من شروط النسخ التنافي و التعارض بين الناسخ و المنسوخ، بحيث يرد الإثبات و النفي على موضوع واحد، و قد عرفت ان موضوع فول وجهك شطر المسجد خصوص صلاة الفريضة و النافلة مع الاستقرار، و ان موضوع أينما تولوا فثم وجه اللّه- ما عدا ذلك.

(وَ قالُوا اتَّخَذَ اللهُ وَلَداً). قدمنا في تفسير الآية ١١٣ ان كلا من اليهود و النصارى و مشركي العرب قالوا: انهم وحدهم على حق، و غيرهم ليس بشيء، أو ليس على شيء، و عليه يكون الضمير في قوله تعالى: «و قالوا» راجعا الى هذه الطوائف الثلاث، و قد جاء في القرآن الكريم ان اليهود قالوا: عزير ابن اللّه، و ان النصارى قالوا: المسيح ابن اللّه، و ان مشركي العرب قالوا:

الملائكة بنات اللّه، فلا جرم صحت هذه الحكاية عنهم جميعا.

(سبحانه) كلمة تنزيه، و في آية ثانية: «سُبْحانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ».

لأن وجود الولد للّه تعالى يستلزم العديد من المحاذير:

«منها»: ان التي تلد منه لا بد أن تكون من جنسه، ليمكن الاستيلاد، و اللّه لا جنس له و لا ند.

و «منها»: ان الولادة تستدعي المقاربة، و المقاربة تستدعي الجسمية، و اللّه ليس بجسم.

---

(١) انظر تفسير الآية الآتية ١٤٢، فقرة «لما ذا الصلاة إلى جهة معينة» فإنها متممة لهذا التفسير.

تفسير الكاشف، ج١، ص ١٨٧

و «منها»: ان السبب الموجب للولد هو الاحتياج له، و المفروض ان اللّه غني عن العالمين.

و «منها»: ان الذي يلد لا بد أن يكون مولودا، و المفروض ان اللّه غير مولود. قال أمير المؤمنين (ع): «لم يولد سبحانه فيكون في العز مشاركا أي يكون أبوه مشاركا له في العز- و لم يلد فيكون موروثا هالكا» أي يموت الأب فيرثه الابن. تعالى اللّه عن ذلك علوا كبيرا.

و «منها»: ان كل ما في السموات و الأرض مخلوق و مملوك للّه، و المخلوق المملوك لا يكون ابنا للخالق المالك، و لا الخالق المالك أبا للمخلوق المملوك ..

و بهذا يتضح وجه الاستدلال على نفي الولد عنه تعالى في قوله: «بَلْ لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ».

(كُلٌّ لَهُ قانِتُونَ). أي مطيعون منقادون.

و تسأل: ان (ما) تستعمل فيما لا يعقل، و (قانِتُونَ) تستعمل فيمن يعقل، لأنه جمع بالواو و النون، و المراد بـ(ما) هو عين المراد بـ(قانِتُونَ) فكيف صح التعبير عن الشيء الواحد بما لا يعقل تارة، و بمن يعقل أخرى؟.

الجواب: ان الأرض و السموات تشتمل على من يعقل، و ما لا يعقل، و قد تضمنت الآية جملتين: إحداهما أثبتت ملك اللّه لما حوته الأرض و السموات، و الثانية أثبتت طاعته للّه .. و حين أراد اللّه سبحانه التعبير عن الملك غلب ما لا يعقل، لأن الملك يتعلق به، و حين أراد الطاعة غلب من يعقل، لأنها لا تصدر إلا عن عقل و اختيار.

(بَدِيعُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ). المبدع هو المخترع و المبتكر الذي لم يأخذ من غيره، و منه قوله تعالى: «وَ رَهْبانِيَّةً ابْتَدَعُوها»، و عليه يكون المعنى: إذا كان اللّه هو منشئ السموات و الأرض و مبدعها فكيف ينسب اليه شيء مما فيهما على انه ولد له؟.

(وَ إِذا قَضى أَمْراً فَإِنَّما يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ). هذا كناية عن عظمة اللّه و قدرته، و انه بمجرد أن يريد يتحقق المراد، سواء لم يكن شيء فيوجده بإرادته من لا شيء، أو كان شيئا، و أراد تحويله الى شيء آخر، فيتحول ..

و ذكرنا في تفسير الآية ٢٦- ٢٧ فقرة «التكوين و التشريع» ان للّه إرادتين:

تفسير الكاشف، ج ١، ص ١٨٨

ارادة التكوين، و ارادة التشريع، فراجع ان شئت .. و من ارادة التكوين قوله تعالى في الآية ٥٩ سورة آل عمران: «إِنَّ مَثَلَ عِيسى عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ قالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ».

[سورة البقرة (٢): الآيات ١١٨ الى ١٢٠]

وَ قالَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ لَوْ لا يُكَلِّمُنَا اللهُ أَوْ تَأْتِينا آيَةٌ كَذلِكَ قالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآياتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (١١٨) إِنَّا أَرْسَلْناكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً وَ نَذِيراً وَ لا تُسْئَلُ عَنْ أَصْحابِ الْجَحِيمِ (١١٩) وَ لَنْ تَرْضى عَنْكَ الْيَهُودُ وَ لا النَّصارى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللهِ هُوَ الْهُدى وَ لَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْواءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ما لَكَ مِنَ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَ لا نَصِيرٍ (١٢٠)

اللغة:

الملة الديانة، و مثلها النحلة، و في الحديث: «الكفر ملة واحدة». و جاء في تفسير روح البيان: «ان الطريقة المشروعة تسمى ملة باعتبار أن الأنبياء الذين أظهروها قد أملوها لأمتهم، و تسمى دينا باعتبار تدين العباد بها، و تسمى شريعة باعتبار كونها موردا للمتعطشين الى ثوابها».

الاعراب:

تأتي لو لا للامتناع، و تدخل على جملتين: اسمية، و أخرى فعلية، نحو لو لا زيد لأكرمتك، أي لو لا زيد موجود، فخبر المبتدأ يكون في الغالب مقدرا،

تفسير الكاشف، ج ١، ص ١٨٩

قال ابن مالك: «و بعد لو لا غالبا حذف الخبر». و أيضا تأتي للتحضيض، أي للحض على الفعل، و تختص بالدخول على المضارع أو ما في معناه- كما قال ابن هشام في المغني- مثل لو لا تستغفرون، أي هلا تستغفرون.

المعنى:

(وَ قالَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ لَوْ لا يُكَلِّمُنَا اللهُ أَوْ تَأْتِينا آيَةٌ كَذلِكَ قالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآياتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ). ان الذين تمادوا في العتو و العناد، قالوا لرسول اللّه (ص): لن نؤمن لك، حتى يقول اللّه لنا مشافهة: انك نبي، أو يرسل إلينا ملكا يخبرنا بذلك، أو تأتي بما نقترحه عليك من الآيات، مثل ما حكاه اللّه عنهم في الآية ٩٠ و ما بعدها من الاسراء:

«وَ قالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعاً- الى قوله- أَوْ تَرْقى فِي السَّماءِ وَ لَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنا كِتاباً نَقْرَؤُهُ».

و قد أجاب اللّه عن ذلك بقوله: **(كَذلِكَ قالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآياتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ)**. أي ان هذا التمادي في اقتراح الأباطيل لا يختص بمن اقترحها على رسول اللّه (ص). فان قوم موسى قالوا له:

(أَرِنَا اللهَ جَهْرَةً). و قالوا أيضا: (اجْعَلْ لَنا إِلهاً كَما لَهُمْ آلِهَةٌ). و قالت النصارى لعيسى: (هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنا مائِدَةً مِنَ السَّماءِ) .. و هذا هو وجه الشبه بين من اقترح على محمد (ص)، و بين من اقترح على موسى و عيسى (ع)، الشبه الذي أشار اليه سبحانه بقوله: **(تَشابَهَتْ قُلُوبُهُمْ)**.

و المعقول الذي تجب اجابته إذا طلب هو ان يؤيد اللّه رسوله بالبينات و الدلائل التي لا تدع مجالا للشك في نفس من خلصت نفسه من الشوائب و الكدورات، و تجرد للحقّ لوجه الحق، و قد فعل اللّه ذلك، و بين الدليل الكافي الوافي على نبوة محمد، أما طلب الزيادة فتعنت و مكابرة .. و بديهة ان المعاند اللجوج لا تجب اجابته .. بل يهمل و يعرض عنه .. و القوم الموقنون هم الذين يطلبون اليقين من وجهه و الطريق الذي من شأنه أن يؤدي اليه.

تفسير الكاشف، ج١، ص ١٩٠

المدلول و نوع الدليل:

قدمنا عند تفسير الآية ١١١: (قُلْ هاتُوا بُرْهانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ) ان كل دعوى تحتاج الى دليل، و ان الدليل يحتاج الى دليل، حتى ينتهي الى أصل عام واضح بذاته، لا يختلف فيه اثنان، و نتكلم في هذه الفقرة عن نوع الدليل:

و هو يختلف باختلاف طبيعة الشيء المتنازع عليه، فإذا أردنا- مثلا- أن نعرف المواد التي يحتوي عليها جرم من الأجرام الطبيعية اعتمدنا التجربة و المختبر، و إذا أردنا أن نثبت وجود مدبر حكيم وراء الكون رجعنا الى العقل، أو معرفة حكم من أحكام الشريعة الاسلامية استندنا الى الكتاب و السنة، أو معرفة اللغة و مداليل الألفاظ تحتم الرجوع الى العرف و اصطلاح العرب الأوائل، و إذا كان هناك مسألة قانونية رجعنا الى القانون، أو تاريخية رجعنا الى علماء الآثار و الرواة الثقات .. و هكذا تختلف نوعية الدليل باختلاف طبيعة الحادثة التي يراد إثباتها، و ليس لأحد كائنا من كان أن يقترح من عنده اياته نوع الدليل، أو يطلب المزيد من الإثبات بعد أن استكمل الاستدلال جميع العناصر الموجبة لليقين و الاقناع.

و على هذا، فإذا قام الدليل الكافي الوافي الذي استدعته طبيعة المدلول، ثم اقترح مقترح دليلا سواه، أو المزيد من الاستدلال فهو مكابر لجوج يضرب بطلبه و اقتراحه عرض الحائط .. و قد تحدى محمد (ص) بالقرآن المشككين و المعاندين و ثبت عجزهم و خذلانهم، و تمت الحجة عليهم، فإذا طلبوا الزوائد بعد العجز الفاضح كان طلبهم هذا من

باب العناد و اللجاج، إذ لو كان غرضهم الحق بما هو حق لاقتنعوا به، و أذعنوا له بعد أن ظهر بأكمل صوره و أجلاها.

(إِنَّا أَرْسَلْناكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً وَ نَذِيراً وَ لا تُسْئَلُ عَنْ أَصْحابِ الْجَحِيمِ). هذا تحديد لوظيفة النبي و مهمته، و انه معلم، لا مسيطر، و مبين للحق، لا مكره عليه، فالآية تجري مجرى قوله تعالى: «وَ قُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَ مَنْ شاءَ فَلْيَكْفُرْ- الكهف ٢٩». و في الآية تسلية للنبي (ص) لئلا يضيق صدره بكفر من كفر، و عناد من عاند.

تفسير الكاشف، ج١، ص ١٩١

(وَ لَنْ تَرْضى عَنْكَ الْيَهُودُ وَ لَا النَّصارى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ). قال صاحب مجمع البيان:

«سأل اليهود و النصارى محمدا (ص) ان يهادنهم، و أظهروا له انه إذا هادنهم و أمهلهم اتبعوه و آمنوا به فآيسه اللّه منهم و من موافقتهم. و هذا يدل على انه لا يصح إرضاء اليهود و النصارى بحال من الأحوال، لأنه تعالى علق رضاهم بأن يصير يهوديا أو نصرانيا، و إذا استحال ذلك استحال ارضاؤهم».

و الحقيقة ان أكثر أهل الأديان و الأحزاب على هذه النزعة، و لا خصوصية لليهود و النصارى في ذلك، بل ان بعض الناس لا يرضى عنك الا إذا جعلت من نفسك عبدا له، و قد استنكر القرآن الكريم هذه النزعة البغيضة، و دعا الى التعايش الديني مع جميع أهل الأديان، و قدس جميع الرسل و الأنبياء، و ذكرهم بكل خير، و أوجب على أتباعه الاعتراف بهم و الايمان بنبوتهم، و هذا من أقوى البواعث للتآخي بين أهل الملل و النحل، و تعاون بعضهم مع بعض.

و على أية حال، فان اللّه خص اليهود و النصارى بالذكر، كي ييأس النبي و يقنط من متابعتهم له، كما قال صاحب المجمع.

(قُلْ إِنَّ هُدَى اللهِ هُوَ الْهُدى). قدمنا عند تفسير الآية ٢٦: «يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَ يَهْدِي بِهِ كَثِيراً» فقرة «الهدى و الضلال» ان الهدى يطلق على معان:

منها بيان الحق، و منها التوفيق الى الهداية و عمل الخير، و منها الثواب الخ ..

و المراد بالهدى هنا الإسلام الذي أوحاه اللّه الى نبيه محمد (ص)، و ما عداه هوى، لا هدى .. و المعنى قل يا محمد لليهود و النصارى: ان ما أنا عليه هو الحق، و ما أنتم عليه باطل و ضلالة، فكيف أترك الحق، و اتبع الضلال؟.

أعداء الدين و المبدأ:

أخبر اللّه جل و عز نبيه الكريم بأن اليهود و النصارى لن يرضوا عنه، حتى يتبع ملّتهم، و مع علمه سبحانه بعصمة نبيه محمد (ص)، و انه لن يتبع أهواءهم بحال فقد وجه اليه هذا التحذير: (وَ لَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْواءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ما لَكَ مِنَ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَ لا نَصِيرٍ).

تفسير الكاشف، ج١، ص ١٩٢

و ذكر المفسرون لصحة هذا النهي و التحذير وجهين: الأول ان المعصية ممكنة الصدور من النبي ذاتا، ممتنعة عرضا، أي انه يترك المعصية مع قدرته على فعلها، و الا لم يكن له فضل في تركها، و جاء النهي و التحذير بالنظر الى ما هو ممكن بالذات، بغض النظر عما هو ممتنع بالعرض، أي بلحاظ العصمة.

الوجه الثاني: ان الخطاب هنا من باب «إياك أعني و اسمعي يا جارة».

أي هو موجه للنبي في الظاهر، و للناس في الواقع.

و قد تصورت وجها ثالثا: و هو ان النبي ربما دار في خلده أن يتقرب من اليهود إلى حد ما .. عسى أن يهتدوا، أو يستعين

بهم على ما يبتغيه من الخير، أو يخفف من غلوائهم، و يكفّ بعض شرورهم .. فبين اللّه له ان اعداء الدين و المبدأ لا يرضيهم منك شيئا إلا أن تترك ما أنت عليه من الحق، و تتبع ما هم عليه من ضلال .. ثم نهاه عن مهادنتهم و التقرب منهم، لأن ذلك يساعدهم، و يشد من عضدهم من حيث لا يريد، و هذه التقوية و المساندة محرمة عليك يا محمد، و على غيرك، تماما كما يحرم اتّباع دينهم .. هذا، الى أن اليهود قد جبلوا على الشر و الفساد، و معاندة الحق و أهله، و الاساءة إلى من أحسن اليهم، و لا تجدي معهم أية محاولة للسلم، و كيف الأذى .. و خير الأجوبة ان للّه أن يأمر و ينهى المعصوم كما يأمر و ينهى غير المعصوم، بالنظر لجلاله سبحانه، و إذا كان من فرق بين المعصوم و غيره فهو بالنسبة الى غيره تعالى لا بالنسبة اليه.

ثم ان هذا النهي و التحذير يدمغ من يتملق لأعداء الدين و الوطن متذرعا انه يريد استغلالهم لمصلحة المؤمنين .. و لكن العكس هو الصحيح فان عدو الدين و المبدأ و الوطن لا يسالم إلا على أساس التجارة و المساومة، و ان يكون هو الرابح دائما و شعاره الوحيد خذ و لا تعط، فان لم تستطع فخذ أكثر مما تعطي .. و لقد بين اللّه جل و عز حقيقة هؤلاء التجار بأوضح بيان و أبلغه، حيث قال: «وَ لَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلىٰ حَيٰاةٍ- ٩٦ البقرة».

[سورة البقرة (٢): الآيات ١٢١ الى ١٢٣]

الَّذِينَ آتَيْنٰاهُمُ الْكِتٰابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاٰوَتِهِ أُولٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَ مَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولٰئِكَ هُمُ الْخٰاسِرُونَ (١٢١) يٰا بَنِي إِسْرٰائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَ أَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعٰالَمِينَ (١٢٢) وَ اتَّقُوا يَوْماً لاٰ تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً وَ لاٰ يُقْبَلُ مِنْهٰا عَدْلٌ وَ لاٰ تَنْفَعُهٰا شَفٰاعَةٌ وَ لاٰ هُمْ يُنْصَرُونَ (١٢٣)

تفسير الكاشف، ج١، ص ١٩٣

الاعراب:

جملة يتلونه حال من الضمير في آتيناهم، و حق قائم مقام المفعول المطلق، أي يتلونه تلاوة حقا، و هم في **(فَأُولٰئِكَ هُمُ الْخٰاسِرُونَ)** ضمير فصل لا محل له من الاعراب عند النحاة، مثل كان زيد هو القائم.

المعنى:

(الَّذِينَ آتَيْنٰاهُمُ الْكِتٰابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاٰوَتِهِ أُولٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ). بعد أن بين اللّه لنبيه محمد (ص) ان النصارى و اليهود لن يؤمنوا به، بل لن يرضوا عنه، حتى يتبع ملتهم استثنى الطيبين المنصفين منهم، و هم الذين أسلموا و آمنوا بمحمد (ص)، و عبر عنهم بالذين يتلون الكتاب حق تلاوته، و المراد بالكتاب كل كتاب أنزله اللّه، سواء في ذلك القرآن، و التوراة و الإنجيل- كما أنزلهما اللّه- لأنه سبحانه لم يعين كتابا خاصا، و عدم التخصيص و التعيين دليل العموم، و معنى يتلونه حق تلاوته يتدبرون معانيه، و يعملون بأوامره و نواهيه، لا مجرد تجويد القراءة، و ضبط الكلمات، و إخراج الحروف من مخارجها، فان هذه ليست بشيء إذا لم يكن معها تدبر و اتعاظ، و في الحديث الشريف: ما آمن بالقرآن من استحل محارمه.

و جملة القول ان كلا من التوراة و الإنجيل قد بشر بنبوة محمد (ص)، كما ان القرآن قد دل على صدقه، و بالفعل قد أسلم كثير من اليهود و النصارى و المشركين الذين تدبروا الآيات، و تجردوا للحق بما هو حق.

تفسير الكاشف، ج١، ص ١٩٤

(وَ مَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ). أي من كفر بما أنزل اللّه الذي يستلزم الكفر به الكفر بمحمد (ص) فهو من الخاسرين لا محالة، لأنه تماما كمن كفر باللّه .. و بديهة انه لا خسران أعظم من خسران الآخرة و نعيمها الباقي ببقاء اللّه سبحانه.

(يا بَنِي إِسْرائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ). مضى تفسيرها في الآية ٤٠، و قد كرر اللّه سبحانه تذكير اليهود بنعمته في العديد من الآيات، و الغرض تقريعهم و توبيخهم بأبلغ أسلوب و أحكمه .. و من ذلك قوله تعالى:

(وَ اتَّقُوا يَوْماً لا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً). مرّ تفسيرها في الآية ٤٨.

بين مجتهد و مقلد:

دعا الشيخ محمد عبده الى الاجتهاد، و نعى على أهل التقليد، و كان له حلقة في الأزهر يفسر فيها القرآن، و عند ما وصل الى قوله تعالى: «يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِهِ» قال:

«ان الذي يتلو القرآن لمجرد التلاوة مثله كمثل الحمار يحمل أسفارا، لاحظ له من الايمان بالكتاب، لأنه لا يفهم أسراره، و لا يعرف هداية اللّه فيه، و قراءة الألفاظ لا تفيد الهداية، حتى و لو فهم القارئ مدلولاتها، لأن هذا الفهم من قبيل التصور، و التصور خيال يلوح و يتراءى، ثم يغيب، و انما الفهم الصحيح فهم الايمان و التصديق ممن يتدبر الكتاب مستهديا مسترشدا ملاحظا انه مخاطب بآياته ليهتدي بها، و يسترشد بمعانيها».

فاعترض عليه بعض الشيوخ المقلدين قائلا: ان العلماء قالوا: القرآن يتعبد بتلاوته.

فأجابه الشيخ عبده: و لكن اللّه قال: «كِتابٌ أَنْزَلْناهُ إِلَيْكَ مُبارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آياتِهِ وَ لِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبابِ- ص ٢٩». و من رأي الشيخ عبده، كما في تفسير المنار: ان على كل مسلم أن يقرأ القرآن، أو يسمعه كله، و لو مرة واحدة في عمره.

تفسير الكاشف، ج ١، ص ١٩٥

[سورة البقرة (٢): آية ١٢٤]

وَ إِذِ ابْتَلى إِبْراهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِماتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قالَ إِنِّي جاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِماماً قالَ وَ مِنْ ذُرِّيَّتِي قالَ لا يَنالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ (١٢٤)

اللغة:

الابتلاء الاختبار، و المراد به هنا التكليف، و الكلمات مفردها كلمة، و المراد بها الأوامر و النواهي، و منها تكليفه بذبح ولده، و المراد باتمهن هنا الطاعة و الاستجابة، فقد روي عن الإمام الصادق (ع) ان اللّه ابتلى ابراهيم بذبح ولده إسماعيل، فعزم على ذلك.

الاعراب:

ابراهيم مفعول مقدّم، و ربه فاعل مؤخر، و الضمير عائد على ابراهيم، و هو مؤخر لفظا متقدم رتبة، لأن رتبة الفاعل متقدمة على رتبة المفعول، و قال النحاة: لا يجوز تقديم الضمير لفظا و رتبة، لأن من شأنه أن يعود على سابق اما لفظا و اما رتبة، و لا يجوز أن يعود على متأخر لفظا و رتبة.

المعنى:

(وَ إِذِ ابْتَلى إِبْراهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِماتٍ فَأَتَمَّهُنَّ). ابراهيم الخليل (ع) أبو الأنبياء تقرّ و تعترف بنبوته الديانات السماوية الثلاث: الإسلام و المسيحية و اليهودية، و يعظمه مشركو العرب، لانتسابهم الى ولده إسماعيل (ع)، و لأنهم خدمة

الكعبة و حماتها التي بناها ابراهيم و ولده إسماعيل «١».

---

(١) قال صاحب البحر المحيط: ان ابراهيم هو الجد الحادي و الثلاثون لمحمد، و هو ابراهيم بن تارح بن ناجور ابن ساروغ بن ارغو بن فالغ بن عابر، و هو هود النبي، و مولده بأرض الأهواز.

تفسير الكاشف، ج ١، ص ١٩٦

بيّن اللّه سبحانه انه أمر ابراهيم ببعض التكاليف كذبحه ولده- مثلا- فوجده أمينا وفيا، فمعنى أتمهن امتثل و أطاع، و قد وصف اللّه ابراهيم بالوفاء في الآية ٣٧ من النجم: «وَ إِبْراهِيمَ الَّذِي وَفَّى».

(قال- أي اللّه- اني جاعلك للناس إماما). هذه بشارة من اللّه لإبراهيم بالتفضل عليه بالإمامة ابتداء، و من غير طلب منه، جزاء لاخلاصه و وفائه و تضحيته.

(قال- أي ابراهيم- و من ذريتي). هذا رجاء و دعاء من ابراهيم (ع) ان يمن اللّه سبحانه على بعض ذريته- لأن من هنا للتبعيض- بالامامة، كما منّ عليه .. و هنا تتجلى عاطفة الوالد للولد، حيث طلب ابراهيم السعادة العظمى لبعض ذريته، و لم يطلبها من اللّه لنفسه، بل تفضل اللّه عليه بها ابتداء.

(قال- أي اللّه- لا ينال عهدي الظالمين). و هذا القول استجابة من اللّه لإبراهيم ان يتخذ أئمة من ذريته، على شريطة أن يكونوا مثله أوفياء أتقياء لأن الهدف من الامام أن يمنع المعصية، فكيف يكون عاصيا .. و لست أرى كلمة أدل على عدل الإمام و رحمته بالمحكومين من قول علي (ع)، و هو خليفة المسلمين: «لقد أصبحت الأمم تخاف ظلم رعاتها، و أصبحت أخاف ظلم رعيتي» ..

حاكم يخاف ظلم المحكومين له، و قوي يخشى استبداد الضعفاء به .. علي الذي لا يبالي أسقط على الموت، أم سقط الموت عليه .. علي، و قد أصبح مصدر القوة و السلطة يخاف من رعيته .. و كان ينبغي العكس .. كما هو المألوف المعروف ..

ان هذا خارق للمعتاد، و كل خلاله من الخوارق و المعجزات.

الإمامة و فكرة العصمة:

يطلق لفظ الإمام في اللغة على معان: منها الطريق: لأنه يقود السائر الى مقصده، و منها ما يقتدي الناس به في هداية، أو ضلالة، قال تعالى: «وَ جَعَلْناهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنا» .. و قال في آية أخرى: «وَ جَعَلْناهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ».

و قد يكون الإنسان إماما إذا كان متبوعا في شيء، و مأموما تابعا في شيء آخر ..

هذا بحسب اللغة، أما بحسب الدين و الشرع فان الإمام يطلق على من يؤم الناس

تفسير الكاشف، ج ١، ص ١٩٧

في الصلاة إلا أنه لا يستعمل في ذلك إلا مقيدا، فيقال إمام الجمعة و الجماعة ..

و إذا كان مطلقا غير مقيد فانه يستعمل في معنيين: الأول في النبي، و مرتبته أعلى مراتب الإمامة. الثاني يستعمل في وصي النبي .. و الإمام بمعنى إمامة النبوة و الرسالة، و امام الوصاية و الخلافة متبوع في كل شيء غير تابع لغيره في شيء

في زمن إمامته.

و الإمام بمعنى النبي يفتقر الى النص من اللّه بواسطة الروح الأمين، و بمعنى الوصي لا بد فيه من النص من اللّه سبحانه على لسان نبيه الكريم، و شرط هذا النص أن يكون بالاسم و الشخص، لا بالصفات و صيغة العموم فقط، كما هي الحال في المجتهد و الحاكم الشرعي، بل بالنص الخاص الذي لا يقبل التأويل، و لا التخصيص، و لا مجال فيه إطلاقا للبس، أو احتمال العكس، و من هنا يتبين ان اطلاق لفظ الإمام من غير قيد على غير النبي، أو غير الوصي محل توقف و تأمل، و غير بعيد أن يكون محرما، تماما كاطلاق لفظ وصي النبي على غير الإمام المعصوم.

و مهما يكن، فان قول هذا الإمام نبيا كان، أو وصيا هو قول اللّه، و هداه هدى اللّه، و حكمه حكم اللّه الذي لا يحتمل العكس .. و من ادعى شيئا من ذلك لنفسه دون أن يثبت النص القطعي عليه بالخصوص فهو مفتر كذاب ..

و خير ما قرأته في صفة الإمام قول الإمام الأعظم زين العابدين (ع) في الصحيفة السجادية: «اللهم انك أيدت دينك في كل أوان بإمام أقمته علما لعبادك، و منارا في بلادك بعد أن وصلت حبله بحبلك، و جعلته الذريعة الى رضوانك، و افترضت طاعته، و حذرت معصيته، و أمرت بامتثال أوامره، و الانتهاء عند نهيه، و ان لا يتقدمه متقدم، و لا يتأخر عنه متأخر- أي يبقى متابعا له- فهو عصمة اللائذين، و كهف المسلمين، و عروة المؤمنين، و بهاء رب العالمين».

هذه هي أوصاف من يختاره اللّه إماما لعباده .. و بديهة ان الإمامة بمعنى النبوة و الوصاية تستدعي العصمة، و لا تنفك عنها بحال، بل هي هي، لأن الأعمى لا يقود أعمى مثله، و الأقذار لا تطهر أقذارا مثلها، و من كان عليه الحد لا يقيم على غيره الحد.

و استدل الشيعة الإمامية بقوله تعالى: **(جٰاعِلُكَ لِلنّٰاسِ إِمٰاماً)** على ان الإمامة

تفسير الكاشف، ج ١، ص ١٩٨

لا تكون الا بجعل من اللّه سبحانه، و يؤيده طلب ابراهيم منه جل و عز ان يجعل أئمة من ذريته، و إذا كانت الإمامة بالجعل منه تعالى احتاجت بحكم الطبيعة الى النص منه.

و أيضا استدل الشيعة الإمامية بقوله تعالى: «**لاٰ يَنٰالُ عَهْدِي الظّٰالِمِينَ**» على وجوب العصمة للنبي و الوصي، و وجه الدلالة ان اللّه قد بيّن صراحة انه لا يعهد بالإمامة الى ظالم، و الظالم من ارتكب معصية في حياته مهما كان نوعها، حتى و لو تاب بعدها، حيث يصدق عليه هذا الاسم، و لو آنا ما، و من صدق عليه كذلك فلن يكون إماما.

و تشاء الصدف و الظروف أن ينشأ غير علي في حجر الشرك و الرجس، و عبادة الأصنام، و ان ينغمس في أرجاس الجاهلية الى الآذان، و ان لا ينطق بالشهادة الا بعد أن عصي عوده، و بعد أن شبعت الأصنام منه، و من سجوده لها، و شاء اللّه لعلي بن أبي طالب أن ينشأ في حجر النبوة و الطهر، و ان يكيّفه محمد (ص) وفقا لارادة اللّه، و هو طري ندي، و ان ينزل الأصنام من على عروشها، و يلقي بها تحت أقدام محمد.

و هنا سؤال نلقيه على كل عاقل منصف، ليجيب عنه بوحي من عقله و وجدانه، و هو:

مال لقاصر ورثه عن أبيه، و لا بد له من ولي يحرص و يحافظ عليه، و دار الأمر بين ان نولي عليه رجلا لم يعص اللّه طرفة عين مدى حياته، لا صغيرا، و لا كبيرا، و بين أن نولي عليه رجلا عصاه أمدا طويلا، و هو بالغ عاقل، ثم تاب و أناب، فأيهما نختار: الأول أو الثاني؟.

و يكفي دليلا على عصمة أهل البيت (ع) شهادة اللّه لهم بالعصمة في الآية ٣٣ من الأحزاب: «إِنَّمٰا يُرِيدُ اللّٰهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ

الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ، وَ يُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً» ..

و تكلمنا عن العصمة مفصلا عند تفسير الآية ٣٩ فقرة «عصمة الأنبياء».

و فقرة «أهل البيت» فراجع، و هذه الفقرة تتمة للفقرتين السابقتين.

و فكرة العصمة لا تختص بالشيعة وحدهم، فان السنة قالوا بها، و لكنهم جعلوها للامة، مستندين الى حديث لم يثبت عند الشيعة، و هو: «لا تجتمع أمتي على ضلالة» .. و المسيحيون قالوا بعصمة البابا، و الشيوعيون بعصمة ماركس

تفسير الكاشف، ج١، ص ١٩٩

و لينين، و قال القوميون السوريون بعصمة انطون سعادة، و الاخوان المسلمون بعصمة حسن البنا، و كل من استدل بقول انسان، و اتخذ منه حجة و دليلا فقد قال بعصمته من حيث يريد أو لا يريد.

و في الصين مئات الملايين اليوم تؤمن بعصمة ماوتسي تونغ- نحن الآن في سنة ١٩٦٧- و يشيدون بتعاليمه، و إذا اختلف الشيوعيون فيما بينهم و كذلك غيرهم ممن ذكرنا فإنهم يختلفون في تفسير أقوال الرؤساء و المراد منها، لا في وجوب العمل بها، و الولاء لها، تماما كما يختلف المسلمون في تفسير نصوص القرآن، و المسيحيون في تفسير الإنجيل .. و من خص العصمة بالشيعة فهو واحد من اثنين: اما جاهل مغفل، و اما مفتر متآمر.

[سورة البقرة (٢): الآيات ١٢٥ الى ١٢٦]

وَ إِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثابَةً لِلنَّاسِ وَ أَمْناً وَ اتَّخِذُوا مِنْ مَقامِ إِبْراهِيمَ مُصَلًّى وَ عَهِدْنا إِلى إِبْراهِيمَ وَ إِسْماعِيلَ أَنْ طَهِّرا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَ الْعاكِفِينَ وَ الرُّكَّعِ السُّجُودِ (١٢٥) وَ إِذْ قالَ إِبْراهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هذا بَلَداً آمِناً وَ ارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَراتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ قالَ وَ مَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلى عَذابِ النَّارِ وَ بِئْسَ الْمَصِيرُ (١٢٦)

اللغة:

البيت بوضعه و إطلاقه يشمل كل بيت، و لكنه أصبح علما على الكعبة المشرفة، لكثرة استعماله فيها من غير قيد، و ثاب معناه رجع، و مثابة اسم لمكان الرجوع، و التاء في مثابة للمبالغة، لا للتأنيث، و الطواف الدوران و العكوف و الاعتكاف الاقامة على الشيء و الملازمة له.

تفسير الكاشف، ج١، ص ٢٠٠

الإعراب:

رب منادى مضاف الى ياء المتكلم، أي يا ربي، و حذف حرف النداء، و الياء للتخفيف و وضوح المعنى، و كسرت الباء للدلالة على ياء المتكلم المحذوفة، و من في قوله تعالى: «مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ» بدل بعض من كل و هو أهله .. و من في قوله:

«وَ مَنْ كَفَرَ» يجوز أن يكون محلها النصب على أن تكون مفعولا لفعل محذوف تقديره قال اللّه: و ارزق أيضا من كفر، و فأمتعه معطوف على الفعل المحذوف، و يجوز أن تكون من هذه مرفوعة بالابتداء، و جملة فامتعه خبر، و جاز دخول الفاء على الخبر لشبه اسم الموصول باسم الشرط.

المعنى:

(وَ إِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثابَةً لِلنَّاسِ وَ أَمْناً). و إذ جعلنا عطف على قوله: و إذ ابتلى، و المعنى ان اللّه سبحانه قد جعل

بيته مقصدا للناس توٴمه أفواج منهم لأداء المناسك، و بعدها يتفرقون الى بلادهم، ثم يرجع اليه أفواج أخرى، و هكذا دواليك .. و أيضا جعله آمنا في الآخرة، لأن الإنسان متى بلغه و أدى المناسك رجع الى نفسه و انقطع الى ربه و تاب اليه من ذنوبه، و بهذا يكون البيت وسيلة للخلاص من العذاب و العقاب، كما جعل اللّه بيته أمنا في الدنيا، لأن ساكنه يأمن على نفسه، و لا يتعرض له أحد بسوء، و قد كان الرجل يرى في الحرم قاتل أبيه، فيتجاهله، و هذه عادة موروثة منذ عهد إسماعيل (ع) الى يومنا هذا.

التجاء الجاني الى الحرم:

جاء في كتاب الجواهر، و هو أعظم مصدر لفقه الجعفرية، ما نصه بالحرف:

«لا يقام الحد إطلاقا في الحرم على من التجأ اليه، لقوله تعالى: «مَنْ دَخَلَهُ كانَ آمِناً» بل يضيق عليه في المطعم و المشرب، و يقتصر على ما يسد الرمق، ليخرج و يقام عليه الحد، فقد جاءت الرواية الصحيحة عن الإمام جعفر الصادق (ع)

تفسير الكاشف، ج١، ص ٢٠١

في رجل يجني في غير الحرم، ثم يلجأ الى الحرم قال: لا يقام عليه الحد، و لا يطعم، و لا يسقى، و لا يكلم، فإنه إذا فعل به ذلك يوشك أن يخرج، فيقام عليه الحد، و ان جنى في الحرم جناية أقيم عليه الحد في الحرم، لأنه لم ير للحرم حرمة».

و قال أبو حنيفة: لا يجوز قتل من التجأ الى الحرم، و استدل بقوله تعالى:

«وَ إِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثابَةً لِلنَّاسِ وَ أَمْناً».

(وَ اتَّخِذُوا مِنْ مَقامِ إِبْراهِيمَ مُصَلًّى). و اتخذوا بكسر الخاء، و هو أمر بالصلاة في مقام ابراهيم، لأن معنى مصلى مكان الصلاة .. و قد أجمع الفقهاء على أنه يستحب الإتيان بركعتي الطواف فيه مع الإمكان، و المفهوم من مقام ابراهيم المقام المعروف الموجود الآن في المسجد، أما قول من قال: ان المراد به المسجد بكامله فيحتاج الى دليل.

(وَ عَهِدْنا إِلى إِبْراهِيمَ وَ إِسْماعِيلَ أَنْ طَهِّرا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَ الْعاكِفِينَ وَ الرُّكَّعِ السُّجُودِ).

أن في قوله تعالى: **(أَنْ طَهِّرا)** مفسرة لعهدنا، فهي بمعنى أي، و لا محل لها من الاعراب، و المعنى وصينا ابراهيم و إسماعيل بأن يحترما البيت، و يبعدا عنه كل ما لا يليق به من الأصنام و النجاسات و الأوساخ و اللغو و الرفث و الفسوق و الجدال، و نحو هذه، و أن يأمرا الناس بذلك، و **(لِلطَّائِفِينَ)** الذين يدورون حول البيت، و **(الْعاكِفِينَ)** أو المعتكفين من أقاموا في المسجد و لازموه، أو جاوروه للعبادة، و **(الرُّكَّعِ السُّجُودِ)** هم المصلون، جمع راكع و ساجد.

(وَ إِذْ قالَ إِبْراهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هذا بَلَداً آمِناً). هذا دعاء و رجاء من ابراهيم الى اللّه أن يجعل مكة المكرمة من الأمكنة الآمنة، أي يأمن أهلها من الغزاة و الجبابرة، و من الزلازل و العواصف، و نحو ذلك .. و قال جماعة من المفسرين: ان اللّه قد استجاب دعاء ابراهيم، حيث لم يقصد أحد مكة بسوء إلا قصم اللّه ظهره، و من تعدى عليها لم يطل زمن تعديه.

(وَ ارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَراتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ). لما بنى ابراهيم البيت في أرض مقفرة لا ماء فيها و لا كلأ دعا اللّه سبحانه لهذه الأرض بالأمن و الأمان، و بأن تجبى اليها الأرزاق، و لم يعين نوعها، و لا أرضها، إذ المهم وصول الرزق كيف كان، و من أين كان .. و قد استجاب اللّه دعوة ابراهيم،

تفسير الكاشف، ج ١، ص ٢٠٢

فجبي الرزق الى مكة من شتى الأنواع و الأقطار، و كانت ممرا للقوافل، و مقرا للتجارة .. و إلى هذا أشارت الآية ٥٧ من القصص: «أَ وَ لَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَماً آمِناً يُجْبىٰ إِلَيْهِ ثَمَرٰاتُ كُلِّ شَيْءٍ». و انما خص ابراهيم طلب الرزق للمؤمنين فقط، لأن اللّه كان قد أعلمه ان في ذريته قوما ظالمين، و انه سبحانه لا يعهد بالإمامة الى من ظلم.

(قٰالَ وَ مَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً). أي قال اللّه لإبراهيم: اني أرزق أيضا الكافرين، و بالأولى الفاسقين، لأن الرزق شيء، و الامامة شيء آخر، فان الإمامة سلطة دينية و زمنية، و هذه تستدعي الإيمان و العدالة، بل العصمة: أما الرزق فيكون للبر و الفاجر، تماما كالماء و الهواء .. و الذنوب و المعاصي لا تأثير لها في الأعمار و الأرزاق في هذه الحياة، و انما يظهر تأثيرها غدا يوم القيامة، حيث يلاقي العصاة جزاء أعمالهم.

[سورة البقرة (٢): الآيات ١٢٧ الى ١٢٩]

وَ إِذْ يَرْفَعُ إِبْرٰاهِيمُ الْقَوٰاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَ إِسْمٰاعِيلُ رَبَّنٰا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٢٧) رَبَّنٰا وَ اجْعَلْنٰا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَ مِنْ ذُرِّيَّتِنٰا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَ أَرِنٰا مَنٰاسِكَنٰا وَ تُبْ عَلَيْنٰا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوّٰابُ الرَّحِيمُ (١٢٨) رَبَّنٰا وَ ابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيٰاتِكَ وَ يُعَلِّمُهُمُ الْكِتٰابَ وَ الْحِكْمَةَ وَ يُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١٢٩)

تاريخ الكعبة:

اختلف المفسرون و المؤرخون في تاريخ الكعبة: هل كانت قبل ابراهيم (ع) ثم عرض لها الخراب، فجددها هو و ولده إسماعيل بأمر اللّه تعالى، أو ان

تفسير الكاشف، ج ١، ص ٢٠٣

تاريخ بنائها و انشائها يبتدئ بإبراهيم؟.

ذهب أكثر أهل التفسير و التاريخ من المسلمين الى انها أسبق بكثير من ابراهيم، و قال البعض: بل ولدت الكعبة على يد ابراهيم (ع)، و توقف آخرون، و لم يحكموا بشيء، و قالوا: اللّه أعلم. و نحن مع هؤلاء .. ذلك ان العقل لا مجال له في هذا الباب سلبا و لا إيجابا، و الطريق الى معرفته ينحصر بالآثار و الحفريات، أو بآية قرآنية، أو سنة قطعية.

و لم أطلع على أقوال الباحثين في الآثار و الحفريات، و القرآن لم يحدد صراحة تاريخ البناء، و كل ما جاء فيه ان ابراهيم و ولده إسماعيل قد باشرا بناء البيت، و تعاونا معا على إقامته، و هذا أعم من عدم وجوده إطلاقا من قبل، أو كان موجودا، و لكن عرض له الخراب و الدمار، ثم جدده ابراهيم و ولده إسماعيل.

و السنة القطعية منتفية، و الأخبار الواردة في هذا الباب كلها آحاد، و الخبر الواحد حجة في الأحكام الشرعية فقط «١»، أو فيها و في موضوعاتها على قول، أما في العقائد، و المسائل التاريخية، و الموضوعات الخارجية البحتة فليس بحجة الا مع قرينة توجب ركون النفس و اطمئنانها، و عندها يكون الخبر بحكم السنة القطعية.

و مهما يكن، فنحن غير مسؤولين أمام اللّه سبحانه، و لا مكلفين بمعرفة تاريخ بناء الكعبة، و زمن انشائها و ولادتها، و انها: هل هي جزء من الجنة، أو قطعة من الأرض؟. و ان آدم و الأنبياء من بعده قد حجوا اليها، أو لا؟.

و انها عند الطوفان: هل ارتفعت الى السماء، ثم نزلت بعده الى الأرض؟.

و ان الحجر الأسود: هل جاء به جبريل من السماء، أو صحبه آدم معه من الجنة، أو تمخض عنه جبل أبي قبيس؟. و انه: هل اسودّ من ملامسة المذنبين؟.

الى غير ذلك مما لا سند له الا خبر واحد، أو قصّاص مخرف.

---

(١) أغرب ما قرأت في هذا الباب قول السيد الطباطبائي في تفسير الميزان ج ١ ص ١٩٦: «ان عدم صحة أسانيد الأخبار لا يوجب طرحها ما لم تخالف العقل أو النقل الصحيح» .. و من المعلومات البديهية ان عدم مخالفة العقل و النقل الثابت شرط لما ثبت صحته من الاخبار سندا، لا لما لم يثبت منها، فان عدم ثبوت صحة السند كاف لطرح الخبر، من غير اضافة شرط آخر .. و الا لزم العمل بكل خبر غير صحيح إلا إذا خالف العقل أو النقل الثابت .. و فساده ظاهر بالبديهة.

تفسير الكاشف، ج١، ص ٢٠٤

نحن غير مسؤولين عن شيء من هذه الأشياء، و لا مكلفين بمعرفتها وجوبا و لا استحبابا، و لا عقلا و لا شرعا .. و لا فائدة في بحثها دينية و لا دنيوية، و قد عاشت هذه الأبحاث و ما اليها حينا من الدهر، ثم ذهبت مع الريح .. و من أراد إحياءها فانه تماما كمن يحاول إرجاع عقارب الساعة الى الوراء.

ان الشيء الذي نسأل عنه، و نطالب به- فيما يعود الى الكعبة- هو قصدها للحج و العمرة من استطاع الى ذلك سبيلا، و احترامها و تقديسها، و المحافظة عليها، و الذب عنها بالنفس و النفيس اقتداء بالرسول الأعظم و أهل بيته (ص)، و أصحابه و التابعين و العلماء و جميع المسلمين .. فإنهم يؤمنون ايمانا لا تشوبه شائبة بأن تعظيم بيت اللّه تعظيم للّه، و الحرص عليه حرص على حرمات اللّه، و الذب عنه ذب عن دين اللّه .. قال أمير المؤمنين (ع):

«فرض اللّه عليكم حج بيته الحرام الذي جعله قبلة للأنام يردونه ورود الانعام، و يألهون- أي يفزعون- اليه ولوه الحمام، جعله سبحانه علامة لتواضعهم لعظمته، و إذعانهم لعزته .. جعله سبحانه للإسلام علما، و للعائذين حرما».

(رَبَّنٰا تَقَبَّلْ مِنَّا). هذا دعاء من ابراهيم و إسماعيل أن يثيبهما اللّه على هذا العمل، لأن معنى القبول عند اللّه هو الثواب على العمل الذي يقبله، كما ان عدم الثواب على العمل معناه رده و رفضه، و لا تفكيك بموجب كرم اللّه وجوده، و ليس من شك ان اللّه قد قبل دعاءهما، و أجزل لهما الثواب على هذه الطاعة، لأنه هو الذي فتح باب الدعاء، و ما كان ليفتح على عبد باب الدعاء، بخاصة المتقي، و يغلق عنه باب الاجابة، كما قال أمير المؤمنين (ع).

(رَبَّنٰا وَ اجْعَلْنٰا مُسْلِمَيْنِ لَكَ). المسلم، و المسلّم، و المستسلم بمعنى واحد، و هو الذي يذعن و ينقاد، و المراد به هنا من أخلص للّه في عقيدته و أعماله، و ليس من شك ان السعيد الحميد هو الذي يسلم للّه جل و عز جميع أموره و شئونه.

(وَ مِنْ ذُرِّيَّتِنٰا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ) و قد استجاب اللّه دعاءهما، و جعل في ذريتهما ملايين الملايين من المسلمين.

تفسير الكاشف، ج١، ص ٢٠٥

الشيعة و أجداد النبي:

اختص الشيعة من دون جميع الطوائف الاسلامية، اختصوا بالقول: ان آباء محمد و أجداده، و أمهاته و جداته كانوا جميعا موحدين، ما أشرك أحدهم باللّه شيئا، و ان محمدا منذ الخليقة كان ينتقل من الأصلاب الطاهرة الى الأرحام

المطهرة حتى ساعة ولادته (ص).

قال شيخ الشيعة الشهير بالمفيد في شرح عقائد الصدوق طبعة ١٣٧١ هـ ص ٦٧:

«ان آباء النبي (ص) من أبيه الى آدم كانوا موحدين على الإيمان باللّه، و عليه إجماعنا. قال اللّه تعالى مخاطبا نبيه محمدا: «وَ تَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ- الشعراء ٢١٩».

و قال الرسول الأعظم (ص): ما زلت أتنقل من أصلاب الطاهرين إلى أرحام المطهرات، حتى أخرجني اللّه تعالى في عالمكم هذا .. فدل قول النبي على ان آباءه كلهم كانوا مؤمنين، إذ لو كان بعضهم كافرا لما استحق الوصف بالطهارة، لقوله تعالى: إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ، فحكم على الكفار بالنجاسة، فلما قضى رسول اللّه (ص) بطهارة آبائه كلهم و وصفهم بذلك دل على انهم كانوا مؤمنين».

(وَ أَرِنا مَناسِكَنا). أي علمنا مناسك الحج، و غيرها من العبادات.

(وَ تُبْ عَلَيْنا). و ليس من الضروري أن يلازم طلب المغفرة وجود الذنب، بخاصة إذا كان الطلب من الأنبياء و الأوصياء، لأن هؤلاء الكرام يرون أنفسهم مقصرين في حق اللّه مهما اجتهدوا في العبادة للّه، و أخلصوا لجلاله، لأنهم أدرى الناس بعظمته، و بأن عبادة الإنسان بالغة ما بلغت فلن تفي ببعض الحق لتلك العظمة التي لا بداية لها، و لا نهاية.

(رَبَّنا وَ ابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ). و استجاب اللّه هذه الدعوة بخاتم النبيين و سيد المرسلين، فلقد جاء في أحاديث السنة و الشيعة ان النبي قال: «انا دعوة إبراهيم، و بشارة عيسى» .. و في سورة الجمعة: «هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آياتِهِ وَ يُزَكِّيهِمْ وَ يُعَلِّمُهُمُ الْكِتابَ وَ الْحِكْمَةَ وَ إِنْ كانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ» .. و قال أمير المؤمنين (ع): «بعث اللّه محمدا (ص) و ليس أحد من العرب يقرأ كتابا، و لا يدعي نبوة و لا وحيا».

تفسير الكاشف، ج ١، ص ٢٠٦

البشارة بالمهدي المنتظر:

و كما بشر الأنبياء بمحمد (ص) فقد بشر هو بالمهدي المنتظر من ولده، و وضعت أنا كتابا في ذلك، أسميته «المهدي المنتظر و العقل» نقلت فيه أحاديث كثيرة من طرق السنة و الشيعة، و نفدت نسخ الكتاب، فأعادت «دار العلم للملايين» طبعه مع كتاب اللّه و العقل. الآخرة و العقل. و النبوة و العقل، و جمعت الأربعة في كتاب واحد باسم «الإسلام و العقل»، و اجمع ما قرأته في هذا الباب كتاب: «منتخب الأثر في الإمام الثاني عشر» للسيد لطف اللّه الصافي، بلغ أكثر من خمسمائة صفحة بالقطع الكبير، و هو أفضل المصادر إطلاقا ..

و بعد أن طبع كتاب «المهدي المنتظر و العقل» اطلعت على كلام طويل لمحيي الدين الشهير بابن عربي حول المهدي أنقل طرفا منه فيما يلي:

قال في الجزء الثالث من الفتوحات المكية طبعة دار الكتب العربية ص ٣٢٧ و ما بعدها:

«ان للّه خليفة يخرج، و قد امتلأت الأرض جورا و ظلما، فيملأها قسطا و عدلا .. و هذا الخليفة من عترة رسول اللّه (ص) من ولد فاطمة (ع) يواطئ اسمه اسم جده رسول اللّه .. يبايع بين الركن و المقام، يشبه رسول اللّه في خلقه .. و هو أجلى الجبهة، أقنى الأنف .. يؤم الناس بسنة رسول اللّه (ص) .. و قال عنه جده النبي يقفو أثري لا يخطئ، و هذه هي العصمة».

[سورة البقرة (٢): الآيات ١٣٠ الى ١٣٤]

وَ مَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْراهِيمَ إِلاَّ مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَ لَقَدِ اصْطَفَيْناهُ فِي الدُّنْيا وَ إِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (١٣٠) إِذْ قالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعالَمِينَ (١٣١) وَ وَصَّى بِها إِبْراهِيمُ بَنِيهِ وَ يَعْقُوبُ يا بَنِيَّ إِنَّ اللهَ اصْطَفى لَكُمُ الدِّينَ فَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (١٣٢) أَمْ كُنْتُمْ شُهَداءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قالَ لِبَنِيهِ ما تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قالُوا نَعْبُدُ إِلهَكَ وَ إِلهَ آبائِكَ إِبْراهِيمَ وَ إِسْماعِيلَ وَ إِسْحاقَ إِلهاً واحِداً وَ نَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (١٣٣) تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَها ما كَسَبَتْ وَ لَكُمْ ما كَسَبْتُمْ وَ لا تُسْئَلُونَ عَمَّا كانُوا يَعْمَلُونَ (١٣٤)

تفسير الكاشف، ج١، ص ٢٠٧

اللغة:

أصل السفه الاستخفاف و الاستهتار، و كل من تصرف في نفسه أو ماله تصرفا مضرا به، و خارجا عما هو مألوف عند العقلاء فهو سفيه مستهتر، و لكن ضرر السفيه يختص به وحده. و الاصطفاء الاختيار و الانتقاء، و المراد بحضور الموت حضور دلائله و شواهده.

الاعراب:

من يرغب استفهام، يتضمن النفي و الاستنكار، أي لا أحد يرغب، و الذي يدل على ان من معناها النفي وجود الا بعدها، و من سفه من اسم موصول في محل رفع بدل كل من كل من الضمير المستتر في يرغب، و يجوز نصب من على الاستثناء، و لفظ نفسه منصوب على التمييز، مثل فان طبن لكم عن شيء نفسا، و يجوز أن يكون مفعولا لسفه المخففة على أن يراد بها سفّه المشددة، أي صيّر نفسه سفيها، (و إذ حضر) إذ ظرف متعلق بشهداء، و (إذ قال) إذ متعلق بحضر، و ما تعبدون (ما) استفهام مفعول لتعبدون، و ابراهيم و إسماعيل و اسحق بدل من آبائك، و يقال له بدل مفصل من مجمل.

المعنى:

(وَ مَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْراهِيمَ إِلاَّ مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ). هذا توبيخ من اللّه

تفسير الكاشف، ج١، ص ٢٠٨

لليهود و النصارى و مشركي العرب الذين لم يؤمنوا بمحمد، و سر التوبيخ و التقريع ان اليهود يفتخرون بنسبتهم الى إسرائيل، و إسرائيل هو يعقوب بن اسحق بن ابراهيم، و النصارى يفتخرون بعيسى، و عيسى يتصل نسبه من جانب الأم باسرائيل أيضا، أما مشركو العرب فسائرهم عدنانيون يرجعون بنسبهم الى إسماعيل بن ابراهيم، بالاضافة الى انهم نالوا الخير في الجاهلية ببركة البيت الذي بناه ابراهيم .. فالكل- اذن- يفتخرون بإبراهيم، و ملة ابراهيم، و المعلوم ان محمدا (ص) من نسل ابراهيم، و على ملة ابراهيم، و عليه فمن كفر بمحمد و ملته فقد كفر بإبراهيم و ملته .. و ليس من شك ان من يكفر بمصدر عزه و افتخاره فهو سفيه، تماما كمن تصرف في نفسه تصرفا يودي به الى الهلاك.

(وَ لَقَدِ اصْطَفَيْناهُ فِي الدُّنْيا). أي جعلناه صافيا خالصا من الأرجاس، على حد قوله تعالى: (يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَ يُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً).

(وَ إِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ). بديهة، لأنه في الدنيا كذلك، فان الإسلام يربط الآخرة بأعمال الدنيا، و لا يفصل

بينهما أبدا، فمن كان في هذه مبصرا صالحا، فهو في تلك كذلك، و من كان في الدنيا أعمى شقيا فهو في الآخرة أعمى و أشقى.

(إِذْ قالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعالَمِين). و تسأل: متى طلب اللّه الإسلام من ابراهيم؟ هل طلبه منه قبل النبوة، أو بعدها؟ و الأول غير ممكن، لأن اللّه لا يطلب بطريق الوحي ممن ليس بنبي، و الثاني تحصيل حاصل، لأن اللّه لا ينزل الوحي على انسان إلا بعد أن يسلم.

و الجواب: ان قوله تعالى: (أسلم قال أسلمت) كناية عن ان ابراهيم هو من صفوة الصفوة، و انه أهل للنبوة و الرسالة .. ذلك انه استجاب لجميع أوامر اللّه و نواهيه، و قام بأعباء النبوة و الرسالة على أتم الوجوه و أكملها، فالمقصود بالآية مجرد الثناء على ابراهيم، لإخلاصه و طاعته و انقياده، و في الوقت نفسه توبيخ لليهود و النصارى و المشركين الذين يفتخرون بإبراهيم، ثم يعصون و يتمردون على من جاء لإحياء ملة ابراهيم، و نشر سنته و عقيدته.

(وَ وَصَّى بِها إِبْراهِيمُ بَنِيهِ وَ يَعْقُوبُ). الضمير في (بها) يعود الى ملة ابراهيم.

تفسير الكاشف، ج١، ص ٢٠٩

(فَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَ أَنْتُمْ مُسْلِمُون). أي أثبتوا على الإسلام، حتى الموت، كي تبعثوا عليه، و تقابلوا اللّه به.

حق الولد على الوالد:

و تشعر هذه الآية بأن الوالد مسؤول عن تربية ولده و إرشاده الى دين الحق، قال الإمام زين العابدين (ع): «أما حق ولدك فان تعلم انه منك، و مضاف اليك في عاجل الدنيا بخيره و شره، و انك مسؤول عنه من حسن الأدب، و الدلالة على ربه عز و جل، و المعونة له على طاعته، فاعمل في أمره عمل من يعلم انه مثاب على الإحسان اليه، معاقب على الاساءة اليه».

(أَمْ كُنْتُمْ شُهَداءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ). حضره الموت معناه احتضر، و نزلت به أمارات الموت. قال صاحب مجمع البيان: ان اليهود زعموا ان يعقوب يوم مات أوصى بنيه باليهودية .. فأبطل اللّه هذا الزعم بقوله لهم: انكم لم تشهدوا يعقوب عند موته، فكيف تدعون عليه الأباطيل؟. و الحقيقة أن يعقوب قال لبنيه في تلك اللحظة: (ما تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي)؟.

و تسأل: ان (ما) تستعمل لغير العاقل، فكيف استعملت هنا في المعبود الحق؟.

الجواب: ان الناس آنذاك كانوا يعبدون الأصنام فنزّل السؤال على معبود الناس، لا على معبود الحق، و عليه تكون (ما) بمعنى أي شيء تعبدون؟.

(قالُوا نَعْبُدُ إِلهَكَ وَ إِلهَ آبائِكَ إِبْراهِيمَ وَ إِسْماعِيلَ وَ إِسْحاق) .. و تسأل: ان يعقوب هو ابن اسحق، و إسماعيل عمه أخو أبيه، فكيف صح إدخال إسماعيل مع الآباء؟.

الجواب: ان العم بمنزلة الأب، لأنه أخوه، و يعظم كما يعظم، و في الحديث الشريف ان رسول اللّه (ص) قال: «ردوا عليّ أبي» يعني عمه العباس.

(تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَها ما كَسَبَتْ وَ لَكُمْ ما كَسَبْتُمْ). هذه الآية تشير الى مبدأ عام، و هو ان نتائج الأعمال و آثارها تعود غدا على العامل وحده، لا ينتفع بها من ينتسب اليه، ان تكن خيرا، كما لا يتضرر بها غيره ان تكن شرا، و قرر الإسلام هذا المبدأ بأساليب شتى، منها الآية ١٦٤ من سورة الانعام:

تفسير الكاشف، ج١، ص ٢١٠

«وَ لا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرىٰ» و منها الآية ٣٩ من سورة النجم: «وَ أَنْ لَيْسَ لِلإِنْسانِ إِلاَّ ما سَعىٰ» .. و منها قول الرسول الأعظم (ص) لوحيدته فاطمة:

يا فاطمة اعملي، و لا تقولي: اني ابنة محمد، فاني لا أغني عنك من اللّه شيئا ..

و أمثال ذلك .. و التبسط في هذا الموضوع ان دل على شيء فإنما يدل على اننا حتى اليوم نجهل أوضح الواضحات، و أظهر البديهيات.

[سورة البقرة (٢): الآيات ١٣٥ الى ١٣٨]

وَ قالُوا كُونُوا هُوداً أَوْ نَصارىٰ تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْراهِيمَ حَنِيفاً وَ ما كانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٣٥) قُولُوا آمَنَّا بِاللهِ وَ ما أُنْزِلَ إِلَيْنا وَ ما أُنْزِلَ إِلىٰ إِبْراهِيمَ وَ إِسْماعِيلَ وَ إِسْحاقَ وَ يَعْقُوبَ وَ الْأَسْباطِ وَ ما أُوتِيَ مُوسىٰ وَ عِيسىٰ وَ ما أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَ نَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (١٣٦) فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ ما آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَ إِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّما هُمْ فِي شِقاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللهُ وَ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٣٧) صِبْغَةَ اللهِ وَ مَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ صِبْغَةً وَ نَحْنُ لَهُ عابِدُونَ (١٣٨)

اللغة:

الحنيف هو المائل عن الأديان الباطلة الى دين الحق، و معنى هذا في النتيجة ان الحنيف هو المستقيم، و قيل للأعرج: أحنف، تفاؤلا بالسلامة، كما قيل للديغ: سليم، و للبادية المهلكة مفازة. و الأسباط واحدها سبط، و سبط الرجل حفيده ولد ولده، و الأسباط من بني إسرائيل اثنا عشر سبطا من اثني عشر ابنا ليعقوب، و هم بمنزلة القبائل العربية من ولد إسماعيل. و الشقاق المنازعة

تفسير الكاشف، ج١، ص ٢١١

مأخوذ من الشق، و هو الجانب، أي ان كل واحد أصبح في شق غير شق صاحبه، و صبغة مأخوذة من الصبغ، قال صاحب مجمع البحرين: ان النصارى كانوا إذا ولد لهم مولود غمسوه في ماء أصفر، يسمونه المعمودية، و يعتبرون ذلك تطهيرا له، و هو بمنزلة الختان عند المسلمين، فقال اللّه سبحانه: التطهير هو صبغة اللّه، أي ان المطهر الحقيقي للعقول و القلوب هو الدين الحق.

الإعراب:

تهتدوا مجزوم بجواب الأمر، و هو كونوا، لان فيه معنى الشرط، أي إن تكونوا على اليهودية و النصرانية تهتدوا، و لفظ ملة منصوب بفعل محذوف، أي نتبع ملة ابراهيم، و حنيفا حال من ابراهيم، و لفظ صبغة اللّه منصوب على المصدر، أي صبغنا صبغة اللّه، و صبغة من قوله تعالى **(وَ مَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ صِبْغَةً)** تمييز محول عن المبتدأ، أي و من صبغته أحسن من صبغة اللّه.

المعنى:

(وَ قالُوا كُونُوا هُوداً أَوْ نَصارىٰ تَهْتَدُوا). الضمير في قالوا يعود الى أهل الكتاب، و المعنى قال اليهود، كونوا يهودا تهتدوا، لأن الهداية بزعمهم تنحصر بهم وحدهم، و قال النصارى مثل قول اليهود .. و قال اللّه لنبيه الأكرم محمد (ص): **(قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْراهِيمَ)**، أي لا نتبع اليهودية، و لا النصرانية، بل نتبع ملة ابراهيم. و قد ذكرنا في تفسير الآية ١١١- ١١٣ ما يلقي ضوءا على هذه الادعاءات و ما اليها.

المنطق الجدلي:

و ربّ قائل يقول: اليهود قالوا: نحن المحقون فقط، و النصارى قالوا:

بل نحن فقط .. و محمد (ص) قال: بل ابراهيم هو المحق لا اليهود و لا النصارى. و كل هذه الأقوال مصادرات و ادعاءات بظاهرها، و إذا صح لليهود

تفسير الكاشف، ج١، ص ٢١٢

و النصارى أن يستعملوا هذا النحو من المنطق الباطل، فانه لا يصح نسبة مثله الى اللّه و رسوله، فما هو الوجه؟.

الجواب: ان الغرض من قوله: **(بَلْ مِلَّةَ إِبْراهِيمَ)** هو النقض على اليهود و افحامهم، لا اثبات الحقيقة بالذات، و يجوز للإنسان أن ينقض على خصمه بشيء لم يكن حجة في نفسه، بل حجة عند الخصم فقط، أو ينقض عليه بمثل ما هو حجة عنده، كالنقض على النصارى بآدم الذي لا أب له، حيث قالوا:

المسيح رب، لأنه من غير أب، فينقض عليهم بأن آدم من غير أب، فينبغي أن يكون ربا أيضا، مع انكم تنفون عنه الربوبية .. و يسمى هذا النوع من المنطق بالمنطق الجدلي، و وجه النقض على اليهود و النصارى، و افحامهم فيما نحن فيه:

ان اليهود و النصارى مختلفون دينا و عقيدة، و كل طائفة تكفّر الأخرى، و هم في الوقت نفسه متفقون على صحة دين ابراهيم، و بديهة ان ابراهيم لم يكن يهوديا و لا نصرانيا، بل كان (حنيفا- أي موحدا- و ما كان من المشركين). أي لم يكن ابراهيم يهوديا، لأنه لم يقل: عزير ابن اللّه، و لا جعل للّه شبيها كما زعم اليهود بأن اللّه شيخ أبيض الرأس و اللحية، و لم يكن نصرانيا، لأنه لم يقل المسيح ابن اللّه، لأن ذلك هو الشرك واقعا .. و ما دام كل من اليهود و النصارى يعترفون بدين ابراهيم فيلزمهم أن يكونوا موحدين، بل و يحجوا أيضا الى بيت اللّه الحرام، تماما كما كان يعتقد و يفعل ابراهيم، و كما اعتقد و فعل محمد، مع العلم بأنهم لم يوحدوا و لم يحجوا، فاذن هم كاذبون بنسبتهم الى دين ابراهيم، و محمد (ص) هو الصادق الأمين على دين اللّه، و ملة ابراهيم.

و بتعبير ثان ان الأخذ بالمتفق عليه، و هو دين التوحيد الذي كان عليه ابراهيم، و عليه الآن محمد أولى من الأخذ بالمختلف فيه، و هو اليهودية المشبهة، و النصرانية المثلثة.

(قُولُوا آمَنَّا بِاللهِ). الخطاب للمسلمين. **(وَ ما أُنْزِلَ إِلَيْنا)**. و هو القرآن.

(وَ ما أُنْزِلَ إِلى إِبْراهِيمَ). و هي صحف إبراهيم، و قيل: انها عشر. (و إسماعيل و إسحاق). هما ولدا ابراهيم، و إسماعيل أكبر من اسحق، و أمه هاجر، و أم اسحق سارة. و يعقوب، ابن اسحق، و الصحف لم تنزل اليهم جميعا، و انما

تفسير الكاشف، ج١، ص ٢١٣

أنزلت الى ابراهيم فقط، و لكن صحّت نسبة الانزال الى الجميع بالنظر الى أنهم متعبدون بها، و داعون اليها، تماما كما يصح لنا نحن المسلمين أن نقول: انزل القرآن إلينا، لأننا نؤمن و نعمل به، و ندعو اليه.

(و الأسباط). هم حفدة يعقوب من أبنائه الاثني عشر، و هم بمنزلة القبائل العربية من ذرية إسماعيل، و في الأسباط أنبياء كثيرون كداود، و سليمان، و يحيى، و زكريا، و أيضا فيهم المؤمنون الذين تعبدوا بصحف ابراهيم (ع).

(وَ ما أُوتِيَ مُوسى وَ عِيسى). التوراة و الإنجيل، **(وَ ما أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ)**.

كالزبور المنزلة على داود، **(لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ)**. أي نؤمن بالجميع، سواء من كان له كتاب يؤثر، أو لم يكن، و لسنا كاليهود و النصارى الذين آمنوا ببعض، و كفروا ببعض، بل الجميع عندنا سواء، من حيث الاعتراف بنبوتهم .. و بديهة

ان الايمان بجميع الأنبياء انما يجب بنحو الإجمال، و لسنا مكلفين بالتفاصيل إلا بعد البيان من كتاب أو سنة.

(وَ نَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ). أي معترفون له بالوحدانية، و مخلصون في العبودية.

(فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ ما آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا). أي فان آمنوا ايمانا صحيحا، و هو التوحيد الخالص من شوائب الشرك، و اعترفوا بجميع الأنبياء بما فيهم محمد، تماما كما آمن المسلمون بجميع الأنبياء دون استثناء فعندها يكونون مهتدين .. و ليس المراد أن يؤمنوا بدين مثل دين الإسلام، إذ لا مثيل للإسلام إطلاقا.

(وَ إِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّما هُمْ فِي شِقاقٍ). كل من عاند الحق فقد شق العصا، و بدد الشمل. **(فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللهُ)** إذ لا يحيق المكر السيء إلا بأهله.

و الكلمة الجامعة باختصار لكل ما قدمناه هي ان الإسلام يرفض التعصب، و يدعو للتعاون على أساس الخير و العدل، و يعترف بالحق أينما كان و يكون، و يدعو أتباعه أن يفتحوا قلوبهم للناس، كل الناس في مودة و اخلاص.

(صبغة اللّه) و هي دين الحق الذي يطهّر القلوب و العقول من الأقذار و الأكدار، لا الغمس بالماء الأصفر، كما تفعل النصارى، و لا غير ذلك. قال محيي الدين ابن عربي في تفسيره:

«ان كل ذي اعتقاد و مذهب باطنه مصبوغ بصبغ اعتقاده، و دينه و مذهبه، فالمتعبدون بالملل المتفرقة مصبوغون بصبغ نيتهم، و المتمذهبون بصبغ إمامهم و قائدهم،

تفسير الكاشف، ج ١، ص ٢١٤

و الحكماء بصبغ عقولهم، و أهل البدع و الأهواء المتفرقة بصبغ أهوائهم، و الموحدون بصبغة اللّه خاصة التي لا صبغ أحسن منها، و لا صبغ بعدها».

[سورة البقرة (٢): الآيات ١٣٩ الى ١٤١]

قُلْ أَ تُحاجُّونَنا فِي اللهِ وَ هُوَ رَبُّنا وَ رَبُّكُمْ وَ لَنا أَعْمالُنا وَ لَكُمْ أَعْمالُكُمْ وَ نَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ (١٣٩) أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْراهِيمَ وَ إِسْماعِيلَ وَ إِسْحاقَ وَ يَعْقُوبَ وَ الْأَسْباطَ كانُوا هُوداً أَوْ نَصارىٰ قُلْ أَ أَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللهُ وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللهِ وَ مَا اللهُ بِغافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (١٤٠) تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَها ما كَسَبَتْ وَ لَكُمْ ما كَسَبْتُمْ وَ لا تُسْئَلُونَ عَمَّا كانُوا يَعْمَلُونَ (١٤١)

المعنى:

(قُلْ أَ تُحاجُّونَنا فِي اللهِ). سبق في تفسير الآية ٩٢- ٩٦ فقرة «المصلحة هي السبب، لا الجنسية» ان اليهود عارضوا النبي حرصا على مصالحهم، و على المال الذي كانوا يجمعونه من بذل العرض و إباحته، و من الربا و الغش، و الخمر و الميسر، و ما اليه مما حرمه الإسلام، و قد برروا المعارضة بأسباب لا تمت الى الواقع بشبه. من تلك الأسباب ما قاله المفسرون في تفسير هذه الآية من ان اليهود قالوا للنبي (ص): انك لست نبيا، لأن اللّه لا يرسل الأنبياء الا من اليهود. و بالمناسبة يزعم اليهود ان اللّه لهم وحدهم و انه إله قبيلة، و ليس إله العالم.

و أيضا أنكر زعماء النصارى، و صناديد قريش نبوة محمد (ص) خوفا على مكانتهم و مصالحهم، و تذرعوا بالأباطيل كما تذرع اليهود، حيث قال النصارى

تفسير الكاشف، ج ١، ص ٢١٥

- كما جاء في التفاسير-: لو أرسل اللّه نبيا لكان منا لا من العرب، أما صناديد قريش فقالوا: لو أرسله من العرب لاختاره

من الطبقة الثرية القوية، كما أشارت الآية ٣١ من الزخرف: «لَوْ لا نُزِّلَ هٰذَا الْقُرآنُ عَلىٰ رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ» «١». و الآية ٨ من الفرقان: «أَوْ يُلْقىٰ إِلَيْهِ كَنْزٌ، أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهٰا».

و كل شيء يقبل الخصام و الحجاج، حتى وجود اللّه الا شيئا واحدا فانه لا يقبل النقاش أبدا عند المعترفين بوجود اللّه، ألا و هو تخصيص رحمة اللّه و انعامه على فرد دون فرد: «أم يقسمون رحمة ربك» .. و لذا أمر اللّه نبيه محمدا (ص) أن يقول للذين استنكروا انعام اللّه عليه بالنبوة أن يقول لهم: أ تحاجوننا في اللّه، و أنتم تعلمون انه تعالى أعلم بمن يصلح للرسالة، و بمن لا يصلح لها، فلا تعترضوا على ربكم .. و ان علينا و عليكم التسليم لحكمه، لا المجادلة في ارادته و اختياره، و هذا معنى قوله تعالى: «هُوَ رَبُّنٰا وَ رَبُّكُمْ».

(لَنٰا أَعْمٰالُنٰا وَ لَكُمْ أَعْمٰالُكُمْ). هذا تماما كقوله سبحانه: (لَكُمْ دِينُكُمْ وَ لِيَ دِينِ). أي ان خصامكم في اختيار اللّه و انعامه عليّ تعود آثاره عليكم وحدكم، تماما كما يعود ضرر الكفر على الكافر، و نفع الايمان على المؤمن. (وَ نَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ) من دونكم، لأنكم تتحكمون على اللّه، و تريدونه أن ينزل على رغبتكم، أما نحن فنفوّض الأمر كله اليه، و نستسلم لحكمه.

(أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرٰاهِيمَ وَ إِسْمٰاعِيلَ وَ إِسْحٰاقَ وَ يَعْقُوبَ وَ الْأَسْبٰاطَ كٰانُوا هُوداً أَوْ نَصٰارىٰ). هذا عطف على أ تحاجوننا في اللّه، و المعنى بأي الأمرين تتشبثون؟.

أفي قولكم بأن اللّه لا يرسل من العرب نبيا، أم بدين ابراهيم و بنيه و حفدته؟.

فان تشبثتم بالأول فان اللّه أعلم حيث يجعل رسالته، و ان تشبثتم بالثاني فان ابراهيم كان حنيفا مسلما لا يهوديا و لا نصرانيا، لأن اليهودية و النصرانية حدثتا بعده و بعد بنيه و الأسباط .. فعلى كلا التقديرين قولكم باطل لا مبرر له .. و يرشدنا القرآن في هذه المحاورة الى الأسلوب الذي ينبغي أن نتبعه مع الخصم، و ان نعتمد في حصاره و افحامه على منطق العقل الذي يقتنع به و يتسالم عليه جميع العقلاء.

---

(١) المراد بالقريتين مكة و الطائف، و الرجل الذي عنوه في مكة الوليد بن المغيرة، و في الطائف عروة بن مسعود.

تفسير الكاشف، ج١، ص ٢١٦

(قُلْ أَ أَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللّٰهُ). قدمنا ان كلا من اليهود و النصارى قالوا: نحن أولى بالنبوة .. فأمر اللّه نبيه الكريم أن يرد عليهم بقوله: أ أنتم أعلم حيث يجعل رسالته، أم هو؟ .. ان الرسول للّه و من اللّه، و مع هذا تريدون أنتم أن تختاروه؟

و هل أنتم أوصياء عليه؟ تعالى اللّه علوا كبيرا .. و هل أجهل و أسخف ممن يقول لك: أنا أعلم منك بما يعجبك و يرضيك، و بما يغضبك و يؤذيك؟ و هل أكثر حمقا من جاهل لا يعرف شيئا يقول لمن اخترع سفينة الفضاء- مثلا- أنا أعرف بها منك؟ .. و لست أعرف قولا أبلغ في التجهيل و التقريع من قوله تعالى:

أَ أَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللّٰهُ .. نستغفره و نعوذ به مما يقول و يفعل المبطلون.

(وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهٰادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللّٰهِ). من اللّه متعلق بشهادة، أو بمحذوف صفة للشهادة، تقديره شهادة كائنة من اللّه .. و معنى الكلام ان عندكم يا معشر اليهود و النصارى شهادة من اللّه قرأتموها في التوراة و الإنجيل، و هي ان

اللّه سبحانه سيبعث نبيا عربيا من أبناء إسماعيل (ع)، و مع ذلك كتمتم الشهادة، و تجرأتم على اللّه بتحريف كتابه تعصبا للباطل، و عنادا للحق، فاستوجبتم اللعنة و العذاب.

(تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهٰا مٰا كَسَبَتْ وَ لَكُمْ مٰا كَسَبْتُمْ). هذه الآية تقدم ذكرها بالحرف الواحد برقم ١٣٤ .. وردت هناك لبيان ان اخلاص ابراهيم (ص) و عظمته لا تجدي اليهود و النصارى شيئا، و جاءت هذه الآية هنا لبيان ان أعمال اليهود و النصارى تباين عقيدة ابراهيم و عمله .. اذن دعواهم بأنهم على ملة ابراهيم كذب و افتراء، و تكلمنا عند تفسير الآية ٤٨ عن التكرار في القرآن.

الشهادة:

يجب على كل بالغ عاقل أن يستجيب و يلبي إذا دعي الى تحمل الشهادة، و لا يسوغ له رفضها من غير عذر، قال تعالى: «وَ لاٰ يَأْبَ الشُّهَدٰاءُ إِذٰا مٰا دُعُوا- البقرة ٢٨٢». و قال الإمام جعفر الصادق (ع): إذا دعاك الرجل لتشهد على دين أو حق فلا يسعك أن تتقاعس عنه.

و وجوب تحملها يستدعي وجوب أدائها، و تحريم كتمانها، قال تعالى: «وَ لاٰ

تفسير الكاشف، ج١، ص ٢١٧

تَكْتُمُوا الشَّهٰادَةَ وَ مَنْ يَكْتُمْهٰا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ- البقرة ٢٨٣. و قال: و من أظلم ممن كتم شهادة عنده .. و قال الإمام الصادق (ع): من كان في عنقه شهادة فلا يأبى إذا دعي لإقامتها، و ليقمها، و لينصح فيها، و لا تأخذه فيها لومة لائم.

أجل، يجوز له أن يتخلف عن أداء الشهادة مع خوف الضرر على نفسه، أو على غيره من الابرياء، لأنه لا ضرر في الإسلام بالاضافة الى الإجماع، و أحاديث خاصة.

مخلصون و كفى:

نعى الإسلام على المبطلين، و حاجّهم بالعقل و الضمير، و نصحهم بالحسنى، و أمرهم بالمعروف، و لكنه لم يجعل لأحد سبيلا عليهم بغير الموعظة الحسنة إلا إذا تجاوزوا الحدود، و اعتدوا و ضللوا الأبرياء و البسطاء عن الحق بالافتراءات و الدعايات الكاذبة، فان فعلوا شيئا من هذا وجب ردعهم و تأديبهم، و قد بيّن اللّه ذلك في العديد من آياته: منها الآية ١٩٣ من البقرة: «فَإِنِ انْتَهَوْا فَلاٰ عُدْوٰانَ إِلاّٰ عَلَى الظّٰالِمِينَ». و منها ١٠٥ من النساء: «يٰا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لاٰ يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُمْ بِمٰا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ» ..

و منها ما نحن فيه: «**وَ لَنٰا أَعْمٰالُنٰا وَ لَكُمْ أَعْمٰالُكُمْ وَ نَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ**» .. أجل مخلصون لا أقل و لا أكثر- ان استقام التعبير بالأكثر-.

تفسير الكاشف، ج١، ص ٢١٩

الجزء الثاني في سورة البقرة

تفسير الكاشف، ج١، ص ٢٢١

[سورة البقرة (٢): آية ١٤٢]

سَيَقُولُ السُّفَهٰاءُ مِنَ النّٰاسِ مٰا وَلّٰاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كٰانُوا عَلَيْهٰا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَ الْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشٰاءُ إِلىٰ صِرٰاطٍ

مُسْتَقِيمٍ (١٤٢)

اللغة:

تقدم الكلام عن معنى السفه في الآية ١٣٠: «إِلاَّ مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ». و قال ابن عربي في تفسيره: ان كل من لم يدرك حقيقة دين الإسلام فهو سفيه، لأنه خفيف العقل .. و القبلة مأخوذة من الاستقبال، و هي كل جهة يستقبلها الإنسان .. و ولاه عنه صرفه عنه.

الاعراب:

من الناس متعلق بمحذوف حال من السفهاء، لأن الظرف و المجرور بعد المعرفة يتعلق بالحال، و بعد النكرة بالصفة. و ما استفهام إنكاري، و محلها الرفع بالابتداء، و خبرها جملة ولاهم، و الضمير في (هم) عائد على النبي (ص) و المسلمين.

المعنى:

(سَيَقُولُ السُّفَهاءُ مِنَ النَّاسِ ما وَلاَّهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كانُوا عَلَيْها). كان الأنبياء السابقون يصلون الى بيت المقدس، و قد صلى النبي (ص) اليه بأمر اللّه أمدا غير قصير، و لكنه (ص) كان يتمنى لو يحول اللّه القبلة الى الكعبة، و حقق اللّه تعالى أمنيته، كما يأتي قريبا.

و المراد بالسفهاء اليهود، لأنهم هم الذين عابوا على المسلمين رجوعهم في الصلاة عن بيت المقدس الى الكعبة، و لفظة (سيقول) تدل بظاهرها على اعلام

تفسير الكاشف، ج١، ص ٢٢٢

اللّه سبحانه نبيه الأكرم بقول السفهاء قبل وقوعه منهم، و صدوره عنهم، أما قول من قال بأن لفظة (سيقول) و ان كان ظاهرها الاستقبال، و لكن المراد منها الماضي، و ان اللّه خاطب بها رسوله بعد ان قال السفهاء، لا قبل أن يقولوا، و جاءت بصيغة المستقبل ايحاء بأن ما قالوه كان مقدرا و مترقبا، أما هذا القول فانه تأويل للظاهر من غير دليل يدل عليه، أو ضرورة تدعو اليه.

و على كل، فلقد أمر اللّه سبحانه رسوله الأعظم محمدا (ص) أن يجيب هؤلاء السفهاء بأن **(لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَ الْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ)**.

أي ان الجهات كلها للّه، و الكعبة و بيت المقدس اليه سواء. و لكن الحكمة و المصلحة تارة تستدعي أن يهدي من يشاء من عباده الى بيت المقدس، و تارة الى الكعبة.

لما ذا الصلاة الى جهة معينة؟

و هنا سؤال يردده كثيرون، و هو: لما ذا تجب الصلاة الى جهة معينة، و لا تصح الا اليها، مع العلم بأن اللّه سبحانه في كل مكان، و انه قال صراحة:

وَ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَ الْمَغْرِبُ فَأَيْنَما تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ؟. الآية ١١٥ البقرة.

الجواب: أولا ان اللّه سبحانه قال أيضا: فول وجهك شطر المسجد الحرام، و حيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره، و هذه الآية ١٤٤ من سورة البقرة تفسير و بيان للآية ١١٥ و ان المراد بها التوجه الى أية جهة تكون في الصلاة المستحبة حال المشي و الركوب، و في صلاة المتحير الذي يجهل القبلة، و المراد بآية ١٤٤ الاتجاه في الصلاة الواجبة، و تقدم بيان

ذلك مفصلا في الآية ١١٥.

ثانيا: ان صحة الصلاة تتوقف على وجود الأمر بها من اللّه سبحانه، و على هذا الأصل لا بد أن ننظر: هل تعلق الأمر بالصلاة الى أية جهة أردنا، أو الى جهة خاصة، فان كان الأول صحت الصلاة الى أية جهة تكون. و ان كان الثاني فلا تصح الا إلى الجهة المأمور بها، سواء أ كانت الكعبة أو بيت المقدس، أو غيرهما .. و بكلمة ان امتثال الأمر شيء، و وجود اللّه في كل مكان شيء آخر ..

ان العبادة من الأمور «التوقيفية» على تعبير الفقهاء، أي تتوقف على بيان اللّه

تفسير الكاشف، ج ١، ص ٢٢٣

لها بلسان نبيّه، و لا مجال فيها للظنون و الاحتمالات، و لا لأي شيء الا النص الصريح الصحيح .. و قد أمر اللّه المسلمين أولا أن يصلوا الى بيت المقدس، فلو صلوا الى الكعبة لم يقبل منهم، ثم أمرهم أن يتحولوا الى الكعبة، و لو صلوا الى بيت المقدس بعد هذا لم يقبل منهم مع انهما له و منه .. ذلك ان معيار صحة الصلاة موافقتها للأمر بجميع أجزائها و شروطها، كما ان معيار فسادها مخالفة الأمر.

[سورة البقرة (٢): آية ١٤٣]

وَ كَذٰلِكَ جَعَلْنٰاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدٰاءَ عَلَى النّٰاسِ وَ يَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً وَ مٰا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهٰا إِلاّٰ لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلىٰ عَقِبَيْهِ وَ إِنْ كٰانَتْ لَكَبِيرَةً إِلاّٰ عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللّٰهُ وَ مٰا كٰانَ اللّٰهُ لِيُضِيعَ إِيمٰانَكُمْ إِنَّ اللّٰهَ بِالنّٰاسِ لَرَؤُفٌ رَحِيمٌ (١٤٣)

اللغة:

الوسط بسكون السين ظرف، تقول جلست وسط القوم، و الوسط بفتح السين الخير، قال الرسول الأعظم (ص): خير الأمور أوسطها، و قال:

عليكم بالنمط الأوسط، و يأتي الوسط بمعنى العدل، تقول: فلان وسط أو متوسط في أخلاقه، أي معتدل فيها، و العدل و الخير متقاربان، و المراد بالوسط هنا ان اللّه سبحانه جعل دين المسلمين معتدلا في العقيدة و الأخلاق، أما العقيدة فلا شرك فيها و لا الحاد، بل توحيد، و أما الأخلاق فلا مادية فقط، و لا روحية فقط، بل من هذه و تلك بشرط التعادل و التكامل. و عقب الإنسان في

تفسير الكاشف، ج ١، ص ٢٢٤

اللغة نسله، و أيضا يطلق على مؤخر القدم، و قد استعير هنا لمن يكفر باللّه و رسوله، لأن المنقلب على عقبه يترك ما بين يديه، و يدبر عنه، و حيث أن تارك الايمان هو بمنزلة المدبر عما بين يديه، فوصف بذلك.

الإعراب:

كذلك الكاف بمعنى مثل، و محلها النصب نعتا لمصدر محذوف متصيد من جعلناكم، و التقدير جعلناكم جعلا مثل ذلك .. و ذلك اشارة الى الهداية، و يأتي التوضيح عند التعرض للمعنى، و جعلنا تحتاج الى مفعولين: و المفعول الأول هنا القبلة، و الثاني محذوف، و هو الجهة، و التي صفة للجهة، و التقدير و ما جعلنا القبلة الجهة التي كنت عليها إلا لنعلم .. و ان كانت: (ان) مخففة من الثقيلة لا عمل لها. قال صاحب المغني: تهمل كثيرا، و تعمل قليلا، و كبيرة خبر كان، و دخلت اللام على كبيرة للفرق و عدم اللبس بين «ان» المخففة المهملة، و بين «ان» النافية.

المعنى:

(وَ كَذٰلِكَ جَعَلْنٰاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً). هذه الجملة بيان لقوله تعالى يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم، و وجه البيان ان اللّه سبحانه قد أنعم على أتباع محمد (ص) بالهداية، و أبرز مظهر لهذه الهداية انه جعلهم في الدين معتدلين متوسطين بين الافراط الذي هو الزيادة، كتعدد الآلهة، و بين التفريط الذي هو النقص، كالالحاد .. هذا من جهة العقيدة، و اما الاعتدال في الأخلاق فقد جمع لهم في تعاليمه و توجيهاته بين حق الروح، و حق الجسد، فلا روحانية مقترة، و لا مادية مسرفة، بل تعادل و توازن بينهما.

و قد استدل البعض بقوله تعالى: وَ كَذٰلِكَ جَعَلْنٰاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً، استدل به على حجة الإجماع، و هو استدلال في غير محله، لأن الآية لم ترد لبيان الإجماع، و انه حجة، أو ليس بحجة ..

تفسير الكاشف، ج ١، ص ٢٢٥

و قال آخرون: ان قوله سبحانه هذا يدل على ان كل مسلم عادل بطبيعته ..

و هذا القول باطل من الأساس، لأن العدالة من الموضوعات التي لا تثبت إلا بالحس أو البينة.

التكامل و التعادل في الإسلام:

لما كان الإنسان مكوّنا من جسم ترابي فان، و من سر إلهي خالد، و هو الروح، «وَ يَسْئَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي». و لما كان لكل منهما مطالب و حاجات، لذلك جاءت تشريعات الإسلام و توجيهاته على أساس الأمرين و تنظيمهما معا دون أن يطغى أحدهما على الآخر. و بكلمة: للإنسان جزءان، فإهمال أحدهما إهمال له بالذات.

لقد حرم الإسلام الرهبانية، و إرهاق النفس بالقضاء على الطبيعة، كما حرم الخبائث و الإسراف في الشهوات، و الترف على حساب الغير .. و أحل زينة الحياة و متعها من الأكل الطيب، و اللبس الطيب، و ما اليهما .. و من يستعرض آيات القرآن يجد ان الدنيا كلها خلقت من أجل حياة راضية مرضية عند الجميع، و ان الانكماش عنها انكماش عن الدين، كما ان التكالب على احتكارها و حرمان الغير فساد في الأرض، و خطر على المجتمع كله .. و أفضل الأرزاق كلها عند الإسلام ما كان بكدّ اليمين، و عرق الجبين.

قال انس: كنا مع رسول اللّه (ص) في سفر، و منا الصائم، و منا المفطر، فنزلنا منزلا في يوم حار، فسقط الصائمون، و قام المفطرون بخدمتهم. فقال رسول اللّه (ص): ذهب المفطرون اليوم بالأجر كله.

هذا هو الوسط و العدل الذي يرتكز عليه الإسلام، و يدعو اليه، لا عبادة تقعد بك عن السعي و العمل، و لا شراسة في التكالب تصرفك عن اللّه و عبادته.

(لِتَكُونُوا شُهَدٰاءَ عَلَى النّٰاسِ وَ يَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً). ان معاني الكلمات المفردة واضحة، و كذا المعنى العام للمركب منها .. و لكن الاشكال و الغموض في تعيين ما نشهد به نحن المسلمين على غيرنا .. أي شيء هو؟. ان الرسول يشهد غدا على من خالف منا بأنه لم يعمل بالإسلام و أحكامه، فهل نشهد نحن

تفسير الكاشف، ج ١، ص ٢٢٦

يوم القيامة على غير المسلمين بأنهم خالفوا الكتاب و السنة؟ .. و قد تعددت أقوال المفسرين في ذلك، و تضاربت، و لم تركن نفسي الى شيء منها.

و الذي أميل اليه ان علماء المسلمين خاصة مكلفون دينا بأن يبلغوا رسالة محمد (ص) على وجهها للناس، سواء منهم

المسلم الجاهل، و غير المسلم .. فمن قام بهذا الواجب المقدس من العلماء يصبح شاهدا على من بلغه الرسالة و لم يعمل بها، و من أهمل من العلماء و لم يبلغ فان محمدا (ص) يشهد عليه غدا أمام اللّه أنه قد خان الرسالة بعد ان عرفها و حملها ..

و للتوضيح نضرب هذا المثل: رجل عنده مال، و له ولد لم يبلغ الرشد بعد، و حين شعر صاحب المال بدنو أجله أوصى جارا له يثق بدينه أن ينفق من المال على تربية ولده و تعليمه، فان فعل، و نجح الولد كما أراد الوالد فذاك، و ان اهتم الوصي بشأن الولد، و لكنه تمرد و رفض التعليم كان الوصي شاهدا على الولد، و ان أهمل الوصي و قصر في الوصية كان الوالد شاهدا على الوصي، و الوصي مسؤولا أمام اللّه و الوالد.

و هكذا نحن العلماء مسؤولون أمام اللّه و رسوله عن بث الدعوة الاسلامية بين أهل الأديان بالحكمة و الموعظة الحسنة، و عن تعليم الأحكام لمن يجهلها من المسلمين .. و من قصّر في هذا الواجب شهد عليه غدا سيد الكونين شهادة صريحة واضحة بين يدي العزيز الجبار .. و الويل كل الويل لمن يشهد عليه رسول اللّه، و يحكم عليه اللّه .. هذا إذا أهمل و لم يبشر، فكيف إذا أساء و كان هو السبب الباعث على التشكيك في الدين و أهله.

(وَ ما جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْها إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلى عَقِبَيْهِ). بعد ان أمر اللّه نبيه الأكرم بالتحول من بيت المقدس الى الكعبة ارتاب بعض أتباع الرسول (ص) و قالوا: مرة هاهنا و مرة هاهنا، و استغل اليهود موقف هؤلاء الجهلة، و أخذوا يشككونهم بالنبي. و قد كان اليهود، و ما زالوا، و لن يزالوا أبدا و دائما أرباب فتن و فساد، و أداة مكر و خداع بطبيعتهم و فطرتهم، يخلقون المشاكل و يضعون العقبات في طريق كل مخلص، و يحولون المجتمعات ان استطاعوا الى جحيم .. و هكذا يلتقي أعداء الحق دائما و في كل عصر مع ضعاف العقول، و يتخذون منهم أداة للكيد و التخريب و الفوضى .. و قد

تفسير الكاشف، ج ١، ص ٢٢٧

وصف الإمام علي هؤلاء أبلغ وصف بقوله: «همج رعاع، أتباع كل ناعق، يميلون مع كل ريح، لم يستضيئوا بنور العلم، و لم يلجئوا الى ركن وثيق».

و أخبر اللّه نبيه العظيم بأن الذين شككوا و ارتابوا ليسوا بمؤمنين في واقعهم، بل كان ايمانهم زائفا لا أصيلا، و لقد محصناهم بالبلاء، ليظهروا على حقيقتهم لك و لغيرك. (و ان كانت- القبلة الجديدة- لكبيرة الا على الذين هدى اللّه). و هم أهل الإيمان المستقر الأصيل، لا أهل الايمان المستعار المموه.

و تسأل: ان اللّه سبحانه يعلم الشيء قبل وقوعه، فما هو الوجه في قوله لنعلم من يتبع الرسول؟

الجواب: ان المراد ليظهر الطائع و العاصي، و يتميز لدى الناس كل بما هو فيه و عليه .. و قال أكثر المفسرين ان علم اللّه بالنسبة الى الحادث على قسمين:

علم به قبل إيجاده، و هو في عالم الغيب، و علم به بعد إيجاده، و هو في عالم الشهادة، و المراد بالعلم هنا الثاني دون الأول، أي ان اللّه يريد أن يعلم به حال وجوده، كما علم به حال عدمه .. و هذا تحذلق و لعب بالألفاظ .. فان علم اللّه واحد، و عالم الغيب بالنسبة اليه، تماما كعالم الشهادة.

(وَ ما كانَ اللهُ لِيُضِيعَ إِيمانَكُمْ إِنَّ اللهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُفٌ رَحِيمٌ). هذه بشارة من اللّه لمن ثبت على إيمانه مع الرسول الأعظم (ص) في السراء و الضراء، و لم يرتب في أمر من أوامره، و لا نهي من نواهيه .. و قال أكثر المفسرين، أو الكثير

منهم: ان السبب لنزول هذه الآية ان جماعة من الأصحاب صلوا مع النبي (ص) الى القبلة الأولى، ثم ماتوا قبل التحول الى الثانية، فسئل الرسول عن صحة صلاتهم؟ فقال اللّه: **(وَ ما كانَ اللهُ لِيُضِيعَ إِيمانَكُمْ)**.

و نحن لا نعتمد روايات أسباب النزول إلا القليل البالغ حد اليقين أو الاطمئنان، لأن العلماء لم يهتموا بغربلتها و تمحيصها، كما فعلوا بأحاديث الأحكام، فبقيت على سقمها و عللها.

تفسير الكاشف، ج١، ص ٢٢٨

[سورة البقرة (٢): الآيات ١٤٤ الى ١٤٥]

قَدْ نَرىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّماءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضاها فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ وَ حَيْثُ ما كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَ إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَ مَا اللهُ بِغافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ (١٤٤) وَ لَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ بِكُلِّ آيَةٍ ما تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَ ما أَنْتَ بِتابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَ ما بَعْضُهُمْ بِتابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَ لَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْواءَهُمْ مِنْ بَعْدِ ما جاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذاً لَمِنَ الظَّالِمِينَ (١٤٥)

اللغة:

يطلق الشطر، و يراد به القسم من الشيء، و قيل: إذا أطلق يفهم منه النصف، فإذا قلت: شطرته شطرين معناه انك جعلته نصفين متعادلين، و أيضا يراد بالشطر الجهة و النحو، و هذا المعنى هو المقصود هنا.

الإعراب:

قد إذا دخلت على المضارع أفادت التقليل في كلام المخلوق، و هي دائما تفيد التحقق و الثبوت إذا وردت في كلام الخالق. و حيث و إذ لا تجزمان الا مع (ما)، فإذا اقترنت ما بإحدى اللفظتين فإنها تجزم فعلين، أحدهما فعل الشرط، و الآخر جوابه، و كنتم في محل جزم فعل الشرط، و فولوا جواب. و لئن اللام للقسم، أي تاللّه لئن، و ان شرطية، و كل من اللام و ان يحتاج الى جواب، و قوله تعالى: (ما تبعوا) جواب القسم، و من أجل هذا دخلت عليه (ما)، أما جواب ان فمحذوف دل عليه جواب القسم الموجود. و شطر منصوب على الظرف.

تفسير الكاشف، ج١، ص ٢٢٩

المعنى:

قال صاحب مجمع البيان: «روي عن الإمام جعفر الصادق (ع) انه قال:

تحولت القبلة الى الكعبة بعد ما صلى النبي (ص) بمكة ثلاث عشرة سنة الى بيت المقدس، و بعد مهاجرته الى المدينة صلى الى بيت المقدس سبعة أشهر، ثم وجهه اللّه الى الكعبة، و ذلك ان اليهود كانوا يعيرون رسول اللّه (ص)، و يقولون له:

أنت تابع لنا، تصلي الى قبلتنا، فاغتم رسول اللّه (ص) من ذلك غما شديدا، و خرج في جوف الليل ينظر الى آفاق السماء، ينتظر من اللّه تعالى أمرا في ذلك، فلما أصبح و حضر وقت الظهر كان في مسجد بني سالم، و صلى فيه من الظهر ركعتين، فنزل عليه جبريل (ع) فأخذ بعضديه، و حوله الى الكعبة، و أنزل عليه: **(قَدْ نَرىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّماءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضاها فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ)** فصلى ركعتين الى بيت المقدس، و ركعتين

الى الكعبة».

(فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ). وصف المسجد بالحرام، حيث يجب تقديسه، و يحرم هتكه، و الكعبة جزء من المسجد الحرام، و هو جزء من الحرم الذي يشمل مكة و ضواحيها المحددة في كتب الفقه، باب الحج، مسألة محرمات الإحرام، و الصيد في الحرم.

و المعروف من طريقة القرآن الكريم ان كل تكليف شرعي موجه بظاهره لرسول اللّه (ص) يدخل فيه عموم المكلفين، مثل: «وَ أَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهارِ وَ زُلَفاً مِنَ اللَّيْلِ- هود ١١٤». و لا يختص التكليف به وحده إلا مع القرينة، كقوله تعالى: «وَ مِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نافِلَةً لَكَ- الاسراء ٧٩». فان لفظة لك تدل على ان هذا التكليف لا يشمل سواه .. و أيضا من طريقة القرآن ان التكليف الموجه الى المكلفين يدخل فيه محمد (ص) دون أدنى فرق من هذه الجهة بينه و بين غيره، و عليه فان الأمة داخلة في قوله تعالى: **(فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ)**.

(وَ حَيْثُ ما كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ). أي أينما كنتم في بحر أو بر أو سهل أو جبل في الشرق أو في الغرب فعليكم أن تستقبلوا المسجد الحرام بمقدم البدن، و لا يجوز أن تستدبروه في الصلاة، أو تضعوه على اليمين أو الشمال ..

تفسير الكاشف، ج ١، ص ٢٣٠

و على هذا تختلف قبلة المسلمين باختلاف الأقطار، فقد تكون بالنسبة إلى أهل قطر في الغرب، و الى غيرهم في الشرق، و من أجل هذا اهتم المسلمون بأمر القبلة، و وضعوا علما خاصا يسمى بعلم «سمت القبلة» بخلاف النصارى الذين يلتزمون دائما جهة الشرق، و اليهود جهة الغرب أينما كانوا، حتى و لو استلزم ذلك ادبارهم لبيت المقدس.

و تسأل: إذا كانت الأمة تدخل في خطاب التكليف الموجه للرسول، و خطاب التكليف للأمة يشمل الرسول، فلما ذا الجمع بين الخطابين في آية واحدة، و موضوع واحد، و بدون فاصل أيضا، حيث قال جل من قائل: فولّ- يا محمد- وجهك شطر المسجد الحرام، و حيثما كنتم- أيها المسلمون- فولّوا وجوهكم شطره؟.

الجواب: ان التحول كان من الحوادث العظيمة في الإسلام، كما انه جاء وفقا لرغبة الرسول الأعظم (ص) فأراد اللّه سبحانه أن ينبه الى ذلك و يؤكده بالتكرار ..

هذا، الى ان التكليف هو بالأصالة لمحمد (ص) لأنه جاء مراعاة لرغبته، و بالتبع لأمته.

متى يجب استقبال اهل القبلة؟

الكعبة قبلة لمن هو داخل المسجد الحرام الذي تقع الكعبة فيه، و المسجد قبلة لأهل الحرم، أي لأهل مكة و ضواحيها، و الحرم أو الجهة التي هو فيها قبلة لأهل المشرق و المغرب.

و يجب استقبال القبلة في الصلاة اليومية، و ركعات الاحتياط، و الأجزاء المنسية من الصلاة، و سجدتي السهو، و لكل صلاة واجبة بما في ذلك ركعتا الطواف، و الصلاة على الميت، و يجب الاستقبال أيضا بالميت عند احتضاره و دفنه، و أيضا عند الذبح و النحر .. أما الصلاة المستحبة فيجب الاستقبال بها حال الاستقرار، و لا يجب حال المشي و الركوب.

تفسير الكاشف، ج ١، ص ٢٣١

اهل القبلة:

أهل القبلة، و أهل القرآن، و أهل الشهادتين، و المسلمون ألفاظ تترادف على معنى واحد، أما اسم المحمديين فقد اخترعه لنا، و أطلقه علينا أعداء الإسلام، يقصدون بذلك اننا أتباع شخص، لا أهل دين سماوي، تماما كالبوذيين أتباع بوذا، و الزرادشتيين أتباع زرادشت.

و مهما يكن، فان الغرض من هذه الفقرة التنبيه على ان الأمة الاسلامية على اختلاف بلادها، و ألوانها، و ألسنتها تجمعها و توحد بينها أصول واحدة هي أعز و أغلى من حياتها، لأن المسلمين جميعا يستهينون بالحياة من أجل تلك الأصول، و لا يستهينون بها من أجل الحياة، و من تلك الأصول الايمان باللّه و كتابه، و بمحمد (ص) و سنته، و الصلاة الى القبلة .. فمن كفّر من يصلي الى القبلة، و أخرجه من عداد المسلمين فقد أضعف قوة الإسلام، و شتت كلمة المسلمين، و أعان أعداء الدين على الدين، من حيث يريد، أو لا يريد.

(وَ إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ). المراد بأهل الكتاب اليهود و النصارى، لا خصوص اليهود- كما قيل- لأن اللفظ عام، و لا دليل على التخصيص .. و اختلف المفسرون في ضمير (انه) هل يعود الى الرسول، أو الى المسجد الحرام، و سبب الاختلاف انه قد تقدم ذكر الرسول في قوله تعالى: «**قَدْ نَرىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ**». و أيضا تقدم ذكر المسجد الحرام، و نميل نحن الى إعادته الى المسجد، لأنه أقرب لفظا الى الضمير، و الضمير يعود الى الأقرب، و عليه يكون المعنى ان أهل الكتاب يعلمون حق العلم بأن ابراهيم (ع) أبا الأنبياء و كبيرهم هو الذي رفع قواعد البيت، و لكنهم رفضوه لا لشيء الا لأنه في يد العرب، و هم سدنته و حماته، و لو لم يكن في يد العرب لكان اليهود و النصارى أسبق الناس اليه، و أكثرهم تقديسا له.

(وَ لَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ بِكُلِّ آيَةٍ ما تَبِعُوا قِبْلَتَكَ). فضلا عن اتباع ملتك، فأعرض عنهم، حيث لا تجدي معهم حجة و لا منطق بعد ان أعماهم الجهل و التعصب.

(وَ ما أَنْتَ بِتابِعٍ قِبْلَتَهُمْ). ربما طمع بعض أهل الكتاب ان يعود النبي (ص)

تفسير الكاشف، ج ١، ص ٢٣٢

الى القبلة التي كان عليها .. فحسم اللّه طمعهم بقوله: و ما أنت بتابع قبلتهم، كما حسم أمل النبي (ص) باتباع قبلته بقوله: ما تبعوا قبلتك.

(وَ ما بَعْضُهُمْ بِتابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ). اليهود يصلون الى المغرب، و النصارى الى المشرق، و لا تترك طائفة ما هي عليه، و تتبع الأخرى، فكيف يتبعون قبلتك يا محمد؟ .. بل ان بين فرق اليهود بعضها مع بعض، و بين فرق النصارى كذلك أكثر مما بينهم و بين المسلمين .. و المذابح التي حصلت بين الكاثوليك و بين البروتستانت لا مثيل لفظاعتها في جميع العصور.

(وَ لَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْواءَهُمْ مِنْ بَعْدِ ما جاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذاً لَمِنَ الظَّالِمِينَ).

و محال أن يتبع النبي (ص) أهواءهم، لأنه معصوم .. و لكن الغرض من هذا النهي أن يتشدد النبي (ص) في معاملته مع اليهود، و يتصلب في موقفه منهم، إذ لا خير في مهادنتهم، و لا أمل في سلمهم، و لا تجدي أية محاولة لردعهم عن الكيد و الفساد، لأنهم جبلوا على الشر، و معاندة الحق، و الاساءة لمن أحسن اليهم، و قد مر الكلام في ذلك عند تفسير الآية ١٢٠ فقرة «أعداء الدين و المبدأ».

الإسلام و أهل الأديان المتعصبون:

من المعقول جدا أن يختلف العلماء من كل نوع و صنف في مسألة غير دينية، و بعد التذاكر و التدارس يتفقون على ما كانوا فيه مختلفين- و لقد وقع هذا بالفعل- أما إذا اختلف العلماء من أديان شتى في مسألة دينية فاتفاقهم بحكم المحال، حتى و لو قام ألف دليل و دليل، و قد ثبت عند علماء النفس ان تحول الناس عن كيانهم أيسر بكثير من تحولهم عن دينهم .. ذلك ان أكثر الناس يعتمد دينهم على التعصب لدين الآباء و الأجداد .. و ما عرف عن دين من الأديان انه نعى على تقليد الآباء غير الإسلام .. فلقد استند في تثبيت أصوله الى العقل وحده.

و من استعرض آيات القرآن، و الأحاديث النبوية يرى انها تهتم بمتابعة العقل بقدر ما تهتم بالايمان باللّه، لأن هذا الايمان لا ينفك أبدا عن الهداية بنور العقل السليم.

تفسير الكاشف، ج ١، ص ٢٣٣

[سورة البقرة (٢): الآيات ١٤٦ الى ١٤٧]

الَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ يَعْرِفُونَهُ كَما يَعْرِفُونَ أَبْناءَهُمْ وَ إِنَّ فَرِيقاً مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَ هُمْ يَعْلَمُونَ (١٤٦) الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (١٤٧)

اللغة:

الامتراء الشك.

الإعراب:

الحق خبر مبتدأ محذوف، تقديره هو الحق، و من ربك متعلق بالحال المحذوف، و النون في لا تكونن نون التوكيد، يؤكد بها الأمر و النهي.

المعنى:

(الَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ يَعْرِفُونَهُ كَما يَعْرِفُونَ أَبْناءَهُمْ). أي ان الكثير من علماء اليهود و النصارى على معرفة صحيحة و جلية بنبوة محمد (ص)، تماما كمعرفتهم بأبنائهم التي لا شك فيها، و لا ريب، لأن التوراة و الإنجيل بشّرا به، و ذكراه بنعوته و صفاته التي لا تنطبق على غيره .. قال تعالى في الآية ١٥٧ من الاعراف:

«يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْراةِ وَ الْإِنْجِيلِ». و في الآية ٦ من الصف:

«وَ إِذْ قالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يا بَنِي إِسْرائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْراةِ وَ مُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جاءَهُمْ بِالْبَيِّناتِ قالُوا هذا سِحْرٌ مُبِينٌ».

كان عبد اللّه بن سلام من أحبار اليهود، ثم أسلم، و قال فيما قال: أنا أعلم بنبوة محمد مني بابني .. فقيل له: و لمه؟ قال اني لا أشك في محمد أنه نبيّ، أما ولدي فلعل والدته قد خانت.

تفسير الكاشف، ج ١، ص ٢٣٤

(وَ إِنَّ فَرِيقاً مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَ هُمْ يَعْلَمُونَ). أجل، يكتمونه حتى و لو قرأوا اسم محمد (ص) في اللوح المحفوظ حرصا على الرئاسة الدنيوية، و المصالح الشخصية .. و لا يختص العناد للحق باليهود و النصارى، لأن السبب عام، و الباعث واحد، و قد رأينا بعض الشيوخ ينكر فضل زميله بغيا و حسدا.

(الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ). النبي (ص) لا يشك أبدا فيما جاءه من ربه، و محال ان يشك، و اللّه

سبحانه يعلم ان نبيه الأكرم لا يشك ..

و انما الغرض بيان ان ما أنزل عليه (ص) غير قابل للشك و الريب إطلاقا، فإذا ما أنكره منكر، و جحده جاحد فما ذاك إلا تعصبا و عنادا.

بيني و بين مبشر:

في ١٥/ ٧/ ١٩٦٣ زارني في بيتي مستشرق ايطالي يتقن الحديث بالعربية، و يبشر بالمسيحية، و جرى بيني و بينه محاورات شفاها و كتابة، و قال لي فيما قال:

ان القرآن يعترف صراحة بالإنجيل، فلما ذا ينكره المسلمون؟.

فأجبته بأن القرآن يعترف بالإنجيل الذي بشّر بنبوة محمد (ص)، كما نطقت الآية ٦ من الصف: «وَ مُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ»، و الآية ١٥٧ من الاعراف: «يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْراةِ وَ الْإِنْجِيلِ». ثم ان القرآن يقول: «إِنَّ مَثَلَ عِيسىٰ عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ قالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ». و انجيلكم يقول: ان عيسى إله، فكيف تريدون منا أن نؤمن به، و في نفس الوقت نؤمن بالقرآن؟.

و إذا كان النصارى يمنعون التناقض و التهافت بحكم العقل فقط، و يجيزونه في الدين و العقيدة فان المسلمين يرونه محالا و ممتنعا في العقل و في الدين و في كل شيء، لأن أصول الدين الأساسية ترتكز عندهم على العقل وحده.

[سورة البقرة (٢): الآيات ١٤٨ الى ١٥٣]

وَ لِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيها فَاسْتَبِقُوا الْخَيْراتِ أَيْنَ ما تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللهُ جَمِيعاً إِنَّ اللهَ عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٤٨) وَ مِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ وَ إِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَ مَا اللهُ بِغافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (١٤٩) وَ مِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ وَ حَيْثُ ما كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلا تَخْشَوْهُمْ وَ اخْشَوْنِي وَ لِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٥٠) كَما أَرْسَلْنا فِيكُمْ رَسُولاً مِنْكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آياتِنا وَ يُزَكِّيكُمْ وَ يُعَلِّمُكُمُ الْكِتابَ وَ الْحِكْمَةَ وَ يُعَلِّمُكُمْ ما لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ (١٥١) فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَ اشْكُرُوا لِي وَ لا تَكْفُرُونِ (١٥٢)

تفسير الكاشف، ج ١، ص ٢٣٥

الاعراب:

لكل متعلق بمحذوف خبر مقدم، و وجهة مبتدأ مؤخر، و المضاف اليه محذوف تقديره لكل فريق أو واحد، و هو موليها مبتدأ و خبر، و الخيرات منصوب بنزع الخافض تقديره الى الخيرات، و ما في قوله كما أرسلنا مصدرية، و المصدر المنسك مجرور بالكاف متعلق بمحذوف صفة لرسول، لأنه وقع بعد النكرة، و جملة يتلو صفة لرسول، و مثلها يزكيكم و يعلمكم.

المعنى:

(وَ لِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيها). لما ذكر اللّه القبلة التي أمر المسلمين بالتوجه اليها، و هي الكعبة، و ذكر تصميم كل من اليهود و النصارى على اتباع قبلتهم،

تفسير الكاشف، ج ١، ص ٢٣٦

و تمسكهم بها بيّن ان السر لهذا التصميم و الإصرار هو ان كل فريق قد اختار لنفسه جهة يتجه اليها، لا يفارقها أبدا، و ان كان فسادها بينا كالشمس، فقوله: (لِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهٰا) أشبه بقوله: كل حزب بما لديهم فرحون.

هذا ما فهمته من ظاهر اللفظ، و قد تعددت في تفسيره الأقوال أنهاها صاحب مجمع البيان الى أربعة.

(فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرٰاتِ أَيْنَ مٰا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللّٰهُ جَمِيعاً إِنَّ اللّٰهَ عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ). أي دعوا أهل الكتاب و المشركين المعاندين، و اتجاهاتهم، و إصرارهم على ضلالهم، و انصرفوا الى عمل الخير، و المبادرة اليه، فان مرجعكم غدا اليه سبحانه، فيثيب المحق المحسن، و يعاقب المبطل المسيء .. و على حد تعبير المفسرين ان قوله تعالى: أَيْنَ مٰا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللّٰهُ، هو وعد بالثواب لأهل الطاعة، و وعيد بالعقاب لأهل المعصية. أما قوله: ان اللّه على كل شيء قدير بعد هذا الوعد و الوعيد فهو دليل و تعليل لإمكان الإتيان بالخلق و بعثهم بعد الموت.

(وَ مِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرٰامِ).

و تسأل: كرر اللّه الأمر هنا باستقبال المسجد الحرام ثلاث مرات، و في الآية ١٤٥ مرتين، فالمجموع خمس مرات دون فاصل طويل .. فما هو الوجه؟.

الجواب: ذكر صاحب المجمع في ذلك ثلاثة أقوال، و الرازي خمسة، و منها الجواب التقليدي الموروث، و هو ان التكرار للتأكيد و الاهتمام .. و لم تركن النفس الى شيء من تلك الأقوال .. و ليس لدي شيء سوى ان التكرار هنا قد يكون لمناسبة خاصة استدعاها المقام آنذاك، و قد خفيت علينا، و ما أكثر المناسبات و الملابسات التي لا تدخل تحت ضابط و حساب .. و معلوم ان موارد الآيات و بواعثها منها خاص و منها عام .. و ليس لأحد أن يستنبط و يتأول من غير أصل و يعتمد على الحدس و الظن.

(لِئَلاّٰ يَكُونَ لِلنّٰاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ). قال كثير من المفسرين: ان النبي (ص) حين كان يصلي الى بيت المقدس قال المشركون العرب: كيف يدعي محمد انه على دين ابراهيم، و لا يصلي الى الكعبة التي كان يصلي اليها ابراهيم و إسماعيل؟. و ان أهل الكتاب قالوا: ان الموجود في كتبنا ان النبي الذي يبعث من ولد إسماعيل يصلي الى الكعبة، لا الى بيت المقدس،

تفسير الكاشف، ج ١، ص ٢٣٧

فكيف نعترف بنبوته؟. فكان لكل من المشركين و أهل الكتاب حجة يتذرع بها في زعمه .. فحول اللّه نبيه الى الكعبة، و جعلها قبلة دائمة للنبي و لجميع المسلمين الى يوم الدين، كي لا يبقى لهؤلاء، و لا لأولئك ما يحتجون به.

و ظاهر الجملة يدل على ان الصلاة الى الكعبة تدفع حجة المعترضين من الناس، أما من هم المعترضون من الناس فلم تتعرض الآية لبيانهم .. و من الجائز أن يكون الوجه في قطع حجة المعترضين ان الكعبة بناها و صلى اليها ابراهيم (ع)، و هو محل وفاق بين الجميع، و محمد (ص) على سنته.

(إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ). أي لا حجة عليك لواحد من الناس إذا صليت الا للمبطل المعاند الذي لا يستند في اعتراضه و طعنه الى برهان عقلي، و لا هدى سماوي، بل لمجرد التعصب و التعنت.

(فَلاٰ تَخْشَوْهُمْ وَ اخْشَوْنِي). أي لا تخافوا في الحق لومة لائم، فأنا وحدي أملك لكم النفع و الضر. و قال ابن عربي في تفسيره: «معنى اخشوني اعرفوا عظمتي لئلا يعظم الكافر عندكم، قال علي أمير المؤمنين (ع): عظم الخالق في أنفسهم، فصغر ما دونه في أعينهم».

(وَ لأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ). أي أنعمت عليكم بالإسلام، و أتممت النعمة باعطائي إياكم قبلة مستقلة توحد كلمتكم، و تجمع شملكم، و تتجه اليها شعوب العالم من أقطار الأرض على اختلاف ألوانها و ألسنتها ..

أواصر الأمة الاسلامية:

قال عالم مدقق: تربط الأمة الاسلامية ثلاث أواصر: إله واحد، و كتاب واحد، و قبلة واحدة، يفد اليها المسلمون من أقطار الأرض كل عام، ليعبدوا هذا الإله الواحد بتلك الشريعة الواحدة على أرض واحدة، هي أرض الوطن الروحي .. و هكذا تجسدت وحدة العقيدة، و وحدة الشريعة، و وحدة الوطن الأعلى، ليذكر المسلمون انهم و ان تفرقت أقطارهم، و اختلفت أنسابهم و ألسنتهم و ألوانهم تجمعهم جامعة الدين و اللّه و الوطن .. و انه إذا جد الجد وجب ان يضحي كل فريق منهم بمصالحه الخاصة في سبيل هذه المصلحة المشتركة.

تفسير الكاشف، ج ١، ص ٢٣٨

(كَما أَرْسَلْنا فِيكُمْ رَسُولاً مِنْكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آياتِنا وَ يُزَكِّيكُمْ وَ يُعَلِّمُكُمُ الْكِتابَ وَ الْحِكْمَةَ). للعلماء كلام كثير و طويل في معنى الحكمة .. و الذي نفهمه نحن ان كل ما وضع في مكانه اللائق به من قول أو فعل فهو من الحكمة .. و على أية حال، فان المعنى العام لهذه الآية ان اللّه سبحانه قد أنعم بالقبلة على العرب، كما أنعم عليهم من قبل بمحمد (ص)، فهو منهم و فيهم، و قد أنشأهم خلقا جديدا، فطهرهم من أرجاس الشرك، و مساوئ الأخلاق، و أصبحوا بفضله أصحاب دين سماوي، و شريعة إلهية، أساسها العدل و المساواة، كما أصبحت لهم دولة بسطت جناحيها على نصف المعمورة، حتى لغتهم عظمت و ارتفع شأنها بالقرآن و بلاغته.

و ليس من شك انه لو لا محمد و آل محمد لم يكن للعرب تاريخ، و لا تراث، و لا شيء سوى الوثنية و قذارتها، و الجاهلية و حميتها، و وأد البنات تخلصا من نفقتها، بل ان محمدا العربي (ص) هو النعمة الكبرى على البشرية كلها، فلقد تقدمت بفضله تقدما هائلا و سريعا في ميدان العلم و الحضارة، و اعترف بهذه الحقيقة، و سجلها المنصفون من علماء الغرب، و نقلنا طرفا منها في كتاب «الإسلام و العقل».

و من أجل النعم الجلى التي أنعم اللّه بها على العرب دعاهم الى ذكره و شكره، و حذرهم من كفران النعم و الإحسان بقوله: (فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَ اشْكُرُوا لِي وَ لا تَكْفُرُونِ). أي اذكروني بالطاعة أذكركم بالأجر و الثواب، و اشكروني على نعمة الإسلام، و بعثة محمد (ص) الذي هو منكم و فيكم، و لا تكفروا بمخالفة اللّه و رسوله .. و في الآية ٧ من سورة ابراهيم: «لَئِنْ شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَ لَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذابِي لَشَدِيدٌ». و قال أمير المؤمنين (ع): ما كان اللّه ليفتح باب الشكر، و يغلق عنكم باب الاجابة. و قال: أفيضوا في ذكر اللّه فانه أحسن الذكر، و ارغبوا فيما وعد المتقين فان وعده أصدق الوعد.

شكر المنعم:

من بديهيات العقل الأولية ان الشكر للّه واجب على كل بالغ عاقل، حتى

تفسير الكاشف، ج ١، ص ٢٣٩

و لو لم تنزل آية أو ترد رواية بوجوب شكره، لأنه جل و عز هو الخالق الرازق، و معنى شكره تعالى بعد الاعتقاد بأنه المبدئ و المعيد، و انه على كل شيء قدير ان نطيع أمره و نهيه، و نفوض الأمور اليه وحده.

هذا، بالنسبة اليه سبحانه، أما إذا أحسن انسان لإنسان مثله بشيء مادي أو أدبي فهل على من أحسن اليه ان يشكر صاحب

الإحسان، بحيث إذا لم يشكره بنحو من الانحاء يكون عاصيا مستحقا للعقاب؟.

ليس من شك ان شكر الإنسان المحسن على إحسانه راجح في نفسه، بل هو من شعار الطيبين الصالحين، أما الوجوب و عدم جواز الترك فلا دليل عليه، و كل ما ورد في شكر المنعم- غير اللّه و النبي و أهل بيته- فمحمول على الاستحباب تماما كقول الإمام أمير المؤمنين (ع): «إذا قدرت على عدوك فاجعل العفو عنه شكرا للقدرة عليه». فان العفو عمن أساء اليك غير واجب قطعا، و لكنه مستحب اجماعا .. أما الكلمة التي تتردد كثيرا على الألسن، و هي: «من لم يشكر المخلوق لم يشكر الخالق» فإنها حكم أخلاقي لا الزامي .. و الا فأية ملازمة بين شكر الخالق، و شكر المخلوق؟.

أجل، ان انكار النعمة، و قولك لمن أحسن اليك: لم تحسن، محرم- لأنه كذب، و بالأولى تحريم الاساءة اليه، لأنها حرام بذاتها، حتى لغير المحسن ..

و لكن وجوب الشكر شيء، و حرمة الكذب و الاساءة شيء آخر.

[سورة البقرة (٢): الآيات ١٥٣ الى ١٥٧]

يٰا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَ الصَّلاٰةِ إِنَّ اللهَ مَعَ الصّٰابِرِينَ (١٥٣) وَ لاٰ تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوٰاتٌ بَلْ أَحْيٰاءٌ وَ لٰكِنْ لاٰ تَشْعُرُونَ (١٥٤) وَ لَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَ الْجُوعِ وَ نَقْصٍ مِنَ الْأَمْوٰالِ وَ الْأَنْفُسِ وَ الثَّمَرٰاتِ وَ بَشِّرِ الصّٰابِرِينَ (١٥٥) الَّذِينَ إِذٰا أَصٰابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قٰالُوا إِنّٰا لِلَّهِ وَ إِنّٰا إِلَيْهِ رٰاجِعُونَ (١٥٦) أُولٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوٰاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَ رَحْمَةٌ وَ أُولٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ (١٥٧)

تفسير الكاشف، ج١، ص ٢٤٠

الإعراب:

يا أيها أي منادى، و الهاء للتنبيه، و الذين عطف بيان لأي، لأنها من الأسماء المبهمة التي تحتاج الى بيان، إما بالمضاف اليه مثل أي الرجلين، أو بالوصف و البدلية، و أموات خبر لمبتدأ محذوف تقديره هم أموات. و لنبلونكم اللام واقعة في جواب قسم محذوف، و النون للتوكيد، و من الخوف متعلق بمحذوف صفة لشيء.

الصبر:

(يٰا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَ الصَّلاٰةِ إِنَّ اللهَ مَعَ الصّٰابِرِينَ). جاء في تفسير المنار: «ان الصبر ذكر في القرآن سبعين مرة .. و هذا يدل على عظم أمره، و قد جعل التواصي به في سورة العصر مقرونا بالتواصي بالحق، إذ لا بد للداعي الى الحق منه».

و اشتط صاحب البحر المحيط، حيث قال: ان الصبر و الصلاة ركنا الإسلام ..

و ذهل عن حديث: بني الإسلام على خمس «١» .. و ليس الصبر منها، كما ذهل عن ان التكاليف الاسلامية منها مولوية الزامية يلحظ فيها الصدور من الأعلى الى الأدنى، و يحاسب المكلف و يعاقب غدا على مخالفتها، كالأمر بالصلاة و وفاء الدين، و ما اليهما .. و منها تكاليف ارشادية وردت لمجرد النصيحة أشبه بالأمر من المساوي، لا يعاقب المكلف على تركها، كالأمر بالنظافة، و غسل اليد قبل الأكل، و النهي عن إدخال الطعام على الطعام، و نحو ذلك .. و الأمر بالصبر من هذا النوع يراد به مجرد الإرشاد و النصيحة، و أين هذا من أركان الدين التي يستوجب تركها الخروج عن الدين؟

(١) و هذا هو الحديث: بني الإسلام على خمس: شهادة ان لا اله الا اللّه، و ان محمدا رسول اللّه، و اقام الصلاة، و إيتاء الزكاة، و صوم رمضان، و حج البيت من استطاع اليه سبيلا.

تفسير الكاشف، ج١، ص ٢٤١

ثم ان الصبر لا يحمد لذاته، و من حيث هو، و انما يحمد و يحسن إذا كان وسيلة لغاية نبيلة، كالصبر في الجهاد المقدس، و الصبر على الفقر و العوز من أجل العلم و تحصيله، و الصبر على المكاره من أجل العيال. و تربية الأطفال، أو لاغاثة ملهوف، و الصبر على كلمة من سفيه دفعا للشر، أو على فقد عزيز لا يرده الجزع و الهلع، بل يزداد المصاب تفاقما، قال أمير المؤمنين (ع): من عظّم صغار المصائب ابتلاه اللّه بكبارها، اي ان تفاقم الجزع يوقع الرجل المصاب في ما هو أشد و أعظم .. و قيل لبزرجمهر: ما لك أيها الحكيم لا تأسف على ما فات، و لا تفرح بما هو آت؟ .. فقال: ان الفائت لا يتلافى بالعبرة، و الآتي لا يستدام بالحبرة .. و قال آخر: لا أقول لشيء كان ليته لم يكن، و لا لشيء لم يكن ليته كان ..

و قد يكون الصبر قبيحا مذموما، كالصبر على الجوع مع القدرة على العمل، و على الاضطهاد .. ففي هذه الحال يحسن الصبر في كفاح الظالم و نضاله.

و تسأل: ما هي المناسبة بين الصلاة و الصبر، حتى قرنا معا في آية واحدة؟.

الجواب: ان معنى الصبر توطين النفس على احتمال المكاره، و يحتاج هذا الى الثقة باللّه، و الايمان بأنه «مع الصابرين» .. و ليس من شك ان الصلاة تؤكد هذه الثقة، و تثبت هذا الايمان .. بالاضافة الى ان مناجاة اللّه سبحانه تخفف من وطأة المصاب.

(وَ لا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْواتٌ بَلْ أَحْياءٌ وَ لكِنْ لا تَشْعُرُونَ).

و نظير هذه الآية قوله تعالى: «وَ لا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْواتاً بَلْ أَحْياءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ». و معلوم ان كل من يفارق هذه الحياة يرجع الى ربه لا محالة صالحا كان أو طالحا، شهيدا أو غير شهيد، سوى ان الصالح ينتقل من حياة أدنى الى حياة أعلى، و الطالح بالعكس .. و خص الشهيد بالذكر اما للتنبيه على مكانته عند اللّه ترغيبا في الاستشهاد، و اما لما نقل عن ابن عباس من ان الآية نزلت فيمن قتلوا يوم بدر، و هم ١٤ من المهاجرين، و ٨ من الأنصار، فقيل مات فلان و فلان، فنزلت الآية: و لا تقولوا الخ .. و هذا غير بعيد، لأنّ لا تقولوا أموات، تشعر بذلك.

و مهما يكن، فان الذي يجب أن نؤمن به هو ان من استشهد دفاعا عن

تفسير الكاشف، ج١، ص ٢٤٢

الإسلام، أو عن أي شيء ينطبق عليه الحق و العدل و الانسانية فانه ينتقل من عالم الشهادة الى عالم الغيب، و يحيا هناك حياة طيبة، و انه يمتاز عند اللّه عمن مات حتف امه، قال أمير المؤمنين (ع): و الذي نفس ابن أبي طالب بيده لألف ضربة بالسيف أهون عليّ من ميتة على فراش .. أما حقيقة حياة الشهيد بعد الموت، و ما هو الرزق الذي يتنعم به فأمر لا نعرفه، و لا نبحث عنه، لأننا غير مكلفين بمعرفته.

ثمن الجنة:

(وَ لَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَ الْجُوعِ وَ نَقْصٍ مِنَ الأَمْوالِ وَ الأَنْفُسِ وَ الثَّمَراتِ وَ بَشِّرِ الصَّابِرِينَ). ما اتبع الحق واحد الا دفع ثمنه من نفسه، أو أهله، أو ماله، و كلما عظم الحق عظم الثمن المرير، و لو لا هذا لم يكن لأنصار الحق من فضل، و لاتّبع الناس، كل الناس الحق .. و بهذا نجد تفسير الحديث الشريف: «البلاء موكل بالمؤمن .. و ان أشد الناس بلاء الأنبياء، ثم الذين يلونهم الأمثل فالأمثل» .. و أيضا بلاء الأنبياء يأتي على قدر منزلتهم، قال الرسول الأعظم (ص): ما اوذي نبي بمثل ما أوذيت. و قال أمير المؤمنين (ع) ان الحق ثقيل مريء، و الباطل خفيف و وبيء .. و كفى شاهدا قوله تعالى:

«أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَ لَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْساءُ وَ الضَّرَّاءُ- البقرة ٢١٤.

و تدل هذه الآية على ان الجنة محرمة إلا على من ضحى في سبيل اللّه، و لا تنحصر التضحية في ميدان القتال، و جهاد أهل الشرك و الكفر، بل إن أيّ مكروه يتحمله الإنسان من أجل الدفاع عن الحق و العدل لهو تضحية في سبيل اللّه، و ثمن لدخول الجنة، حتى و لو كان الدفاع بكلمة يجابه بها مبطلا، و يناصر محقا.

بعد أن باشرت بكتابة التفسير تكوّن عندي يقين لا يشوبه ريب بأن الجنة محرمة إلا على من أوذي، و تحمل صابرا، و لو شيئا من الضغط و البلاء في سبيل الحق و العدل، و على الأقل أن يكبح نفسه عما تميل اليه من المحرمات، أو يحملها على بذل ما لا تجود به طوعا، أو يجهد نفسه من أجل غيره، و لو

تفسير الكاشف، ج ١، ص ٢٤٣

كان الغير والدا، أو ولدا. و المعيار أن يتحمل المشاق بصبر في سبيل مرضاة اللّه سبحانه، اما ان يدخل الجنة على «البارد المستريح» كما يقول أهل جبل عامل فبعيد كل البعد.

(الَّذِينَ إِذا أَصابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَ إِنَّا إِلَيْهِ راجِعُونَ). و معنى انا للّه الاعتراف له بالملك و العبودية، و معنى انا اليه راجعون الإقرار بالبعث بعد الموت.

ثم ان التمحيص بالبلاء هو المحك الذي يظهر الإنسان على حقيقته، فالمؤمن العاقل لا يخرج عن دينه عند نزول المصيبة، و لا يتفوه بكلمة الكفر و السفه و الجهل، بل يصبر و لا يذهب البلاء بعقله و إيمانه، أما ضعيف العقل و الايمان فيستولي عليه الشيطان، و يذهب به كل مذهب من الكفر و الشتم و البذاءة، و ينحدر الى هوة الرذالة و السفالة، و خير ما قيل في ذلك قول سيد الشهداء الحسين بن علي يوم الطفّ: الناس عبيد الدنيا، و الدين لعق على ألسنتهم يحوطونه ما درت معايشهم، فإذا محصوا بالبلاء قلّ الديانون.

(أُولئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَواتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَ رَحْمَةٌ). الصلاة من اللّه التكريم و علو المنزلة، و رحمته تعالى لعبيده الرفق بهم، و الهداية الى خيرهم، و الانعام عليهم.

و في الحديث: ما من مسلم يصاب بمصيبة فيفزع الى أمر اللّه بقوله: إنا للّه و انا اليه راجعون، اللهم عندك احتسب مصيبتي، فأجرني فيها و عوضني خيرا منها، إلا آجره اللّه عليها و عوضه خيرا منها.

أنواع أجر الصابرين:

ذكر بعض المفسرين ان اللّه سبحانه أعطى للصابرين ثمانية أنواع من الأجر و الكرامة.

١- المحبة، قال تعالى: وَ اللهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ- آل عمران ١٤٦.

٢- النصر، قال سبحانه: إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ- البقرة ١٥٣.

٣- غرفات الجنة: أُولٰئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمٰا صَبَرُوا- الفرقان ٧٥.

٤- الأجر الجزيل: إِنَّمٰا يُوَفَّى الصّٰابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسٰابٍ- الزمر ١٠.

تفسير الكاشف، ج١، ص ٢٤٤

٥- البشارة: **وَ بَشِّرِ الصّٰابِرِينَ**- البقرة ٥٥.

٦ و ٧- الصلاة و الرحمة: **أُولٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوٰاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَ رَحْمَةٌ**- البقرة ١٥٧.

٨- الهداية: **وَ أُولٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ**- البقرة ١٥٧.

[سورة البقرة (٢): آية ١٥٨]

إِنَّ الصَّفٰا وَ الْمَرْوَةَ مِنْ شَعٰائِرِ اللهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلاٰ جُنٰاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمٰا وَ مَنْ تَطَوَّعَ خَيْراً فَإِنَّ اللهَ شٰاكِرٌ عَلِيمٌ (١٥٨)

اللغة:

الصفا و المروة جبلان صغيران، و بالأصح ربوتان بمكة، قريبتان من الكعبة، يسعى بينهما الحاج و المعتمر .. و الشعائر جمع شعيرة، و هي العلامة، مأخوذة من الإشعار بمعنى الاعلام. و الجناح بضم الجيم الميل، تقول جنح اليه، أي مال اليه، و المراد به هنا الإثم. و التطوع ما تبرعت به تلقائيا دون أن يكون واجبا عليك.

الاعراب:

جناح اسم لا النافية للجنس، و المصدر المنسبك من أن يطوف مجرور بفي المحذوفة، و المجرور متعلق بمحذوف خبر لا، و خيرا صفة لمفعول مطلق محذوف تقديره تطوعا خيرا، أو منصوب بنزع الخافض تقديره تطوع بخير.

المعنى:

(إِنَّ الصَّفٰا وَ الْمَرْوَةَ مِنْ شَعٰائِرِ اللهِ). العبادة على أقسام شكلا و توقيتا، و بالنظر الى التوقيت منها ما يجب في كل يوم، و هي الصلاة، و منها في كل سنة،

تفسير الكاشف، ج١، ص ٢٤٥

و هو صوم رمضان، و منها في العمر مرة، و هو الحج للمستطيع، و الحج أحد الأركان الخمسة التي بني عليها الإسلام، و هي: شهادة ان لا إله إلا اللّه، و ان محمدا رسول اللّه، و اقام الصلاة، و إيتاء الزكاة، و صوم رمضان، و حج البيت ..

و العمرة عادة كالحج، و لكن لا وقوف فيها بعرفة، و لا مبيت بالمزدلفة، و لا رمي أحجار و جمار في منى، و يأتي التفصيل في الآية ١٩٦ و ما بعدها من هذه السورة، و بقية السور التي تشير الى شيء من ذلك. و تجمل الاشارة الى ان العبادة بشتى أنواعها بما فيها أعمال الحج لا مجال فيها للاجتهاد، و لا للتعليلات و غيرها، و انما يقتصر فيها على نص الكتاب و السنة فقط، و كل ما يتعدى ذلك لم يأذن اللّه به.

و الذي تعرضت له هذه الآية، و دل ظاهرها عليه هو ان الصفا و المروة من الأماكن التي يتعبد الإنسان فيهما للّه بالطواف بهما، و هذا الطواف المشار اليه بقوله سبحانه: **(فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلاٰ جُنٰاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمٰا)** ان هذا الطواف هو المعروف بالسعي بين الصفا و المروة .. أما كيفية السعي و عدد أشواطه، و الابتداء بالصفا فيأتي بيانه في موضعه ان شاء اللّه تعالى.

و تسأل: ان السعي بين الصفا و المروة في حجة الإسلام واجب بالإجماع، مع ان التعبير بعدم الجناح لا يفيد الا مجرد

جواز الفعل، و عدم الإثم فيه، و هذا أعم من الوجوب و الاستحباب و الاباحة، و العام لا يدل على الخاص؟.

الجواب: ان قوله تعالى: **فَلاٰ جُنٰاحَ عَلَيْهِ** لم يرد لبيان حكم السعي، و انه فرض أو غير فرض، و انما ورد لبيان ان السعي مشروع، و ان الإسلام يجيزه و يقره .. أما معرفة حكمه، و هل هو فرض أو ندب فيستفاد من دليل آخر، و قد تواترت السنة النبوية، و أجمع المسلمون على وجوب السعي في حجة الإسلام.

و جاء في مجمع البيان: «ان الإمام جعفر الصادق (ع) قال: كان المسلمون يرون ان الصفا و المروة مما ابتدع أهل الجاهلية، فأنزل اللّه هذه الآية». أي ان اللّه سبحانه نفى هذا الوهم، و بيّن ان الصفا و المروة من الإسلام في الصميم ..

تفسير الكاشف، ج١، ص ٢٤٦

و إذا تطوّف المشركون بهما تقربا الى الأوثان فان المسلمين يسعون بينهما طاعة للّه، و امتثالا لأمره.

(وَ مَنْ تَطَوَّعَ خَيْراً فَإِنَّ اللهَ شٰاكِرٌ عَلِيمٌ). أي من تبرع بالسعي بين الصفا و المروة بعد ما أدى الواجب الذي عليه فان اللّه يجزيه بالإحسان على إحسانه ..

و الشاكر من صفات اللّه، و معنى شكر اللّه لعبده المطيع انه راض عنه، و يثيبه على شكره و طاعته.

[سورة البقرة (٢): الآيات ١٥٩ الى ١٦٢]

إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مٰا أَنْزَلْنٰا مِنَ الْبَيِّنٰاتِ وَ الْهُدىٰ مِنْ بَعْدِ مٰا بَيَّنّٰاهُ لِلنّٰاسِ فِي الْكِتٰابِ أُولٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللهُ وَ يَلْعَنُهُمُ اللاّٰعِنُونَ (١٥٩) إِلاَّ الَّذِينَ تٰابُوا وَ أَصْلَحُوا وَ بَيَّنُوا فَأُولٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَ أَنَا التَّوّٰابُ الرَّحِيمُ (١٦٠) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ مٰاتُوا وَ هُمْ كُفّٰارٌ أُولٰئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللهِ وَ الْمَلاٰئِكَةِ وَ النّٰاسِ أَجْمَعِينَ (١٦١) خٰالِدِينَ فِيهٰا لاٰ يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذٰابُ وَ لاٰ هُمْ يُنْظَرُونَ (١٦٢)

المعنى:

(إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مٰا أَنْزَلْنٰا مِنَ الْبَيِّنٰاتِ وَ الْهُدىٰ مِنْ بَعْدِ مٰا بَيَّنّٰاهُ لِلنّٰاسِ فِي الْكِتٰابِ أُولٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللهُ وَ يَلْعَنُهُمُ اللاّٰعِنُونَ). ظاهر هذه الآية انها مستأنفة لا ترتبط بما قبلها .. و محصل المراد منها ان كل من علم بحكم من أحكام الدين الذي جاء بيانه في كتاب اللّه، أو في سنة رسول اللّه، أو في حكم العقل و كتمه فهو ملعون عند اللّه و أهل السماء و الأرض .. و قد أشار اللّه الى حكم العقل بلفظه

تفسير الكاشف، ج١، ص ٢٤٧

«الهدى» .. قال صاحب مجمع البيان: البينات هي الأدلة الشرعية، و الهدى الدلائل العقلية ..

و لا يختص اللعن على الكتمان بأهل الكتاب فقط، بل يشمل كل من كتم الحق، لأمور:

١- ان اللفظ لم يقيد بشيء.

٢- لو افترض ان مورد نزول الآية ما فعله أهل الكتاب من تحريف التوراة و الإنجيل فان المورد لا يخصص الوارد على حد تعبير الفقهاء، و هم يعنون بذلك ان الحادثة الخاصة لا تقتضي تخصيص اللفظ العام.

٣- قد ثبت في علم الأصول ان ترتب الحكم على الوصف مشعر بأن الوصف علة له، و قد ترتبت اللعنة هنا على الكتمان من حيث هو، فيكون عاما لكل كتمان.

و جاء في الحديث: من سئل عن علم يعلمه فكتمه ألجم يوم القيامة بلجام من نار .. و اتفق الفقهاء كلمة واحدة على أن تعليم الجاهل احكام دينه الضرورية واجب كفاية على كل عارف بها، فان فعل البعض سقط عن الكل، و ان ترك الكل

استحقوا جميعا العقاب.

و معنى اللعن من اللّه سبحانه طرد الملعون من رحمته، و معناه من الملائكة و الناس الدعاء عليه بالطرد من رحمة اللّه.

قبح العقاب بلا بيان:

ان مسؤولية البالغ العاقل أمام اللّه سبحانه تقاس بوصول التكليف اليه، و معرفته به، و لا أثر لمجرد التكليف في نفسه، و لبيانه إذا لم يصل الى المكلف .. فان عدم وصول البيان تماما كعدمه من الأساس .. أجل، يجب على المكلف أن يبحث و ينقب عن البيان و دليل الحكم في مظان وجوده، و يسأل عنه أهل الاختصاص في الدين و الشرع .. و لا يجوز له أن يقصر و يهمل، ثم يعتذر بالجهل، لأن المقصر تماما كالعامد، بل هو هو، لأنه تعمد عدم البحث و الدرس .. فإذا

تفسير الكاشف، ج ١، ص ٢٤٨

بحث مجدا، و لم يظفر بشيء فهو غير مسؤول، حتى و لو كان البيان موجودا في الواقع.

و هذه الحقيقة من أولى البديهيات العقلية، و أي عاقل يعاتب غيره على أمر يجهله من غير تقصير! و قد أجمع الفقهاء كلمة واحدة على هذا المبدأ، و أقره الشرع في العديد من الآيات و الروايات، فمن الآيات ما نحن بصددها: **(مِنْ بَعْدِ ما بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ)**. و الآية ١٥ من الاسراء: (وَ ما كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً). و من الروايات قول الرسول الأعظم (ص): (رفع عن أمتي ما لا يعلمون) و سنعود الى الموضوع كلما وصلنا إلى آية تشعر به.

(إِلاَّ الَّذِينَ تابُوا وَ أَصْلَحُوا وَ بَيَّنُوا). أي ان الذين يكتمون الحق ملعونون إلا من تاب و ندم على ما فرط، و أصلح سريرته بالإخلاص في توبته عازما على عدم العودة الى المعصية، و ان يبين صراحة ما كان قد كتمه من قبل .. فان مجرد ندم السارق لا يكفي في توبته ما لم يرجع الحق إلى أهله.

(فَأُولئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَ أَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ). التواب من صفات اللّه تعالى، و معناه القابل توبة من تاب، و هو مبالغة في القبول، و اقترن الرحيم بالتواب للتنبيه على ان السبب في قبول التوبة عمن أساء هو رحمته تعالى بعباده.

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ ماتُوا وَ هُمْ كُفَّارٌ أُولئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللهِ وَ الْمَلائِكَةِ وَ النَّاسِ أَجْمَعِينَ). حتى من كفر باللّه و جحده يقبل اللّه توبته إذا تاب و أناب، و يغفر له، و يرحمه، و لا يعذب إلا من مات مصرا على الكفر و المعصية، لأنه، و الحال هذه، مستحق للعنة أهل السماء و الأرض.

و تسأل: كيف قال اللّه سبحانه: و الناس أجمعين، مع العلم بأن في الناس من لا يلعن الكافر، بخاصة أهل دينه الذين هم على شاكلته؟.

الجواب: ان القصد من قوله: **(وَ الْمَلائِكَةِ وَ النَّاسِ أَجْمَعِينَ)** ان من مات على الكفر هو أهل و محل للعنة أهل الأرض و السماء، سواء أ لعنوه بالفعل أم لم يلعنوه، حتى و لو كانوا كفارا مثله فهو أهل للعنتهم .. و قد جاء في القرآن الكريم ان الكفار غدا يلعن بعضهم بعضا: «ثُمَّ يَوْمَ الْقِيامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَ يَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضاً» - العنكبوت ٢٥.

(خالِدِينَ فِيها لا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذابُ وَ لا هُمْ يُنْظَرُونَ). و معنى الخلود

تفسير الكاشف، ج ١، ص ٢٤٩

في اللعنة الخلود في أثرها، و هو النار، و قال الرازي: «معنى لا ينظرون انهم إذا استمهلوا لا يمهلون، و إذا استغاثوا لا يغاثون، و يقال لهم: اخسأوا و لا تكلمون .. نعوذ باللّه».

حكم اللعن في الشريعة:

لعن الغير محرم، و من الكبائر، لأنه أثم و عدوان، تماما كالتعدي على الأموال، و في الحديث: «ان اللعنة إذا خرجت من صاحبها ترددت، فان وجدت مساغا، و إلا رجعت على صاحبها .. و قد خرج عن هذا المبدأ أصناف أجازت الشريعة لعنهم، و هم:

١- الكافر، و الآيات كثيرة في ذلك، و منها الآية التي نحن بصددها، أما الأحاديث فقد تجاوزت حد التواتر، منها ما جاء في كتاب أحكام القرآن للقاضي أبي بكر المعافري، فقد ذكر عند تفسير الآية ١٦١ من سورة البقرة ان النبي (ص) قال: اللهم ان عمرو بن العاص هجاني، و قد علم اني لست بشاعر، فلعنه.

٢- الظالم، مسلما كان، أو غير مسلم، لقوله تعالى: لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الظَّالِمِينَ- الاعراف ٤٣.

٣- من كذب على اللّه و رسوله، قال تعالى: «وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرىٰ عَلَى اللهِ كَذِباً أُولٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلىٰ رَبِّهِمْ وَ يَقُولُ الْأَشْهٰادُ هٰؤُلاٰءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلىٰ رَبِّهِمْ أَلاٰ لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الظّٰالِمِينَ- هود ١٨ .. و من الكذب على اللّه سبحانه الحكم بغير ما أنزل.

٤- من يسعى في الأرض فسادا.

٥- من يفتن بين الناس، و يثير النعرات و الحزازات.

أما لعن غير هؤلاء فمحلّ إشكال و نظر .. أجل، من تجاهر بمعصية غير مكترث تجوز غيبته فيما تجاهر به خاصة .. و بديهة ان جواز الغيبة شيء، و جواز اللعن شيء آخر .. أما ما يستعمله العوام من لعن الحيوان، و ما اليه فهو من اللغو الذي يجمل تركه.

تفسير الكاشف، ج١، ص ٢٥٠

[سورة البقرة (٢): الآيات ١٦٣ الى ١٦٤]

وَ إِلٰهُكُمْ إِلٰهٌ وٰاحِدٌ لاٰ إِلٰهَ إِلاّٰ هُوَ الرَّحْمٰنُ الرَّحِيمُ (١٦٣) إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ وَ اخْتِلاٰفِ اللَّيْلِ وَ النَّهٰارِ وَ الْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمٰا يَنْفَعُ النّٰاسَ وَ مٰا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ السَّمٰاءِ مِنْ مٰاءٍ فَأَحْيٰا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهٰا وَ بَثَّ فِيهٰا مِنْ كُلِّ دٰابَّةٍ وَ تَصْرِيفِ الرِّيٰاحِ وَ السَّحٰابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمٰاءِ وَ الْأَرْضِ لَآيٰاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (١٦٤)

الإعراب:

إلهكم مبتدأ خبره إله، و واحد صفة لإله، و لا إله مبني على الفتح اسم لا النافية للجنس، و خبرها محذوف تقديره لا إله موجود إلا هو، و الجملة خبر ثان، و هو بدل من اسم لا، و رفع تبعا للمحل، و قيل هو بدل من الضمير المستتر في الخبر المحذوف، و هو موجود، و الرحمن الرحيم خبر ثالث لإلهكم، أو لمبتدأ محذوف تقديره هو الرحمن الرحيم.

المعنى:

(وَ إِلٰهُكُمْ إِلٰهٌ وٰاحِدٌ لاٰ إِلٰهَ إِلاّٰ هُوَ). قال أمير المؤمنين (ع) في وصيته لولده الحسن (ع): (و اعلم يا بني لو كان لربك شريك لأتتك رسله و لرأيت آثار ملكه و سلطانه، و لعرفت أفعاله و صفاته) و يأتي الكلام على نفي الشريك في تفسير قوله تعالى: «قُلْ لَوْ كٰانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمٰا يَقُولُونَ إِذاً لاَبْتَغَوْا إِلىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً- الاسراء ٤٢». و قوله: «لَوْ كٰانَ فِيهِمٰا آلِهَةٌ إِلاَّ اللهُ لَفَسَدَتٰا- الأنبياء ٢٢».

و قوله: «وَ مٰا كٰانَ مَعَهُ مِنْ إِلٰهٍ إِذاً لَذَهَبَ كُلُّ إِلٰهٍ بِمٰا خَلَقَ وَ لَعَلاٰ بَعْضُهُمْ عَلىٰ بَعْضٍ- المؤمنون ٩١».

تفسير الكاشف، ج١، ص ٢٥١

السماء:

(إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمٰاوٰاتِ وَ الأَرْضِ). ان في السماء من النجوم ما يفوق على حبات الرمل عددا، و ان أصغر نجم لهو أكبر حجما من الأرض بأكثر من مليون مرة، و ان كل مجموعة من النجوم تؤلف مدينة عظمى، اسمها المجرة، تضم أكثر من مائة مليون نجمة، و ان عدد هذه المدن أكثر من مليوني مدينة تبعد الواحدة عن الأخرى مسافة رسالة لا سلكية تصل بعد ثلاثة ملايين من السنين، أي ان نسبة هذه المدن بمجموعها الى الفضاء الخالي، تماما كنسبة ذبابة تائهة في الكرة الأرضية، و كل هذه النجوم و المجرات تسير بتوازن و انتظام .. هذا مثال من ملايين الملايين على قدرة اللّه و عظمته، اكتشفها العلم الحديث .. و ما زالت الآية الكريمة تخاطب العلماء المكتشفين، و تقول لهم: و ما أوتيتم من العلم الا قليلا.

الأرض:

الأرض كرة معلقة في الهواء، تدور حول نفسها مرة واحدة كل ٢٤ ساعة، فيكون تعاقب الليل و النهار، و تسبح حول الشمس مرة كل عام، فيكون تعاقب الفصول الأربعة، و يحيط بالأرض غلاف غازي يشتمل على الغازات اللازمة للحياة، و يحفظ هذا الغلاف من الغازات درجة الحرارة المناسبة للحياة، و يحمل بخار الماء من المحيطات الى مسافات بعيدة داخل القارات، حيث يتكاثف المطر.

ثم لو كان قطر الأرض أصغر مما هو عليه لعجزت عن الاحتفاظ بالتوازن، و لصارت درجة الحرارة بالغة حد الموت، و لو كان قطرها أكبر مما هو لزادت جاذبيتها للأجسام، و تؤثر هذه الزيادة أبلغ الأثر في الحياة على سطح الأرض.

و لو بعدت الأرض عن الشمس أكثر من المسافة الحالية لنقصت كمية الحرارة التي تتلقاها من الشمس، و لو قربت منها أكثر مما هي الآن لزادت الحرارة، و في كلتا الحالتين تتعذر الحياة على الأرض.

فكروية الأرض، و الفراغ الذي يحيط بها، و دورانها حول الشمس، و احاطتها بالغلاف الجوي، و وضعها في مكانها الخاص، و كون قطرها بهذا

تفسير الكاشف، ج١، ص ٢٥٢

المقدار الخاص، كل أولئك تهيئ للإنسان أسباب الحياة على الأرض، و لو فقد وصف واحد من هذه الأوصاف، كما لو كانت الأرض مسطحة، أو أصغر، أو أكبر، أو أبعد أو أقرب الى الشمس، أو فقد الغلاف لاستحال أن يكون الإنسان ابن الأرض بشهادة العلماء، و ليس من المعقول ان هذا النظام العجيب مجرد مصادفة .. بل بحكمة حكيم، و تدبير مدبر.

وجود اللّه:

ذكرنا عند تفسير الآية ٢١- ٢٢ من هذه السورة الادلة على وجود المدبر الحكيم، و من هذه الأدلة الدليل المعروف بالدليل الغائي، و ان النظام الدقيق المحكم بين الاجرام السماوية و العوالم الأرضية لا يمكن أن يكون وليد الصدفة، و لا تفسير مقنع له إلا وجود قادر حكيم. و قد اعتمد القرآن هذا الدليل، و أشار اليه في العديد من الآيات، منها هذه الآية. و بمناسبتها نعود الى الاستدلال على وجود اللّه، و لكن بأسلوب غير الأسلوب الذي اتبعناه عند تفسير الآية ٢١، و قبل كل شيء نمهد بما يلي:

ان الماديين يحصرون سبب العلم و المعرفة بالمشاهدة و التجربة، فكل ما تؤمن به عن طريق التجربة فهو علم، و كل ما تعتقده عن غير هذا الطريق فلا يسمونه علما، و يسمونه عقيدة .. فالعلم و الاعتقاد في اصطلاحهم مختلفان في مصدرهما، و متى استعان المرء بالتأمل و التجربة على صحة ما يعتقد يصبح المعتقد علما.

و على أساسهم هذا يكون الايمان بوجود اللّه عقيدة لا علما، و كذا الايمان بعدم وجوده عقيدة لا علم، لأن كلا منهما لا يستند الى التجربة و الاختبار، و تكون المقارنة بينهما مقارنة بين عقيدة و عقيدة .. و بكلمة ان كل ما يتصل باللّه سبحانه من الاعتراف أو الإنكار فهو من شئون الغيب، فإذا كان المؤمن بوجود اللّه مؤمنا بالغيب، لأنه لم يستند الى التجربة، فكذا من كفر به لم يستند الى التجربة، بل الى الغيب، فاذن هما سواء في ذلك.

و بعد هذا التمهيد نعرض قول الماديين الجاحدين لوجود اللّه، و قول المؤمنين باللّه، و نترك الخيار للقارئ.

تفسير الكاشف، ج ١، ص ٢٥٣

قال الجاحدون: ان وجود الكون، و ما فيه من نظام و انسجام، و الإنسان و ما فيه من شعور و عقل- كل ذلك و ما اليه لا يخضع لضابط، و لا لمنطق، و انما جاء وليد الصدفة، فالكون وجد صدفة ثم حصل الترتيب، و النظام صدفة، و كل شيء أخذ محله اللائق به صدفة، و المادة هي التي أعطت الحياة و العقل، و السمع و البصر، و بكلمة ان المادة العمياء هي الإله القادر على كل شيء، و لكن جاءتها القدرة و الحكمة و التدبير عن طريق الصدفة.

أما المؤمنون بوجود اللّه فيقولون: ان الكون و نظامه قد انبثق عن قصد و تصميم، و حكمة و تدبير من إله قادر حكيم.

و الآن أيها القارئ القِ على نفسك هذا السؤال: ما هو مصدر الكون، و النظام و التدبير فيه؟ هل هو الصدفة كما يقول الجاحدون، أو القصد و التدبير كما يقول المؤمنون؟ القِ هذا السؤال على نفسك أيها القارئ، ثم أجب عنه بوحي من عقلك .. أما «فولتر» الشهير فقد أجاب عن هذا السؤال بقوله:

«ان فكرة وجود اللّه فرض ضروري، لأن الفكرة المضادة حماقات».

أيهما أسبق: الليل أو النهار؟

اختلف العلماء: هل النور سابق على الظلمة، أو الظلمة سابقة على النور في الوجود، و على الأول يكون النهار سابقا على الليل، و تكون ليلة اليوم هي الليلة التي تأتي بعد النهار، و على الثاني يكون الليل سابقا على النهار، و تكون ليلة اليوم هي الليلة التي تأتي قبل النهار، و ذهب الأوائل الى هذا القول، فليلة الجمعة عندهم- مثلا- هي التي تدخل قبل فجر الجمعة، و هكذا سائر ليالي الأيام، و مما استدلوا به قوله تعالى: وَ آيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهارَ- يس ٣٧.

[سورة البقرة (٢): الآيات ١٦٥ الى ١٦٧]

وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللهِ أَنْداداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ وَ الَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَ لَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً وَ أَنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعَذابِ (١٦٥) إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَ رَأَوُا الْعَذابَ وَ تَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبابُ (١٦٦) وَ قالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَما تَبَرَّؤُا مِنَّا كَذلِكَ يُرِيهِمُ اللهُ أَعْمالَهُمْ حَسَراتٍ عَلَيْهِمْ وَ ما هُمْ بِخارِجِينَ مِنَ النَّارِ (١٦٧)

اللغة:

دون ظرف مكان، تقول: قعد فلان دون زيد، أي في مكان منحط عن مكانه، و يستعمل لفظ دون بمعنى رديء، و بمعنى غير مجازا، و هذا هو المراد من قوله تعالى من دون اللّه، أي من غير اللّه. و الأنداد جمع ند، و هو النظير و المماثل،

تقول: عامله معاملة الند للند، أي النظير للنظير، و المراد بالأنداد هنا بعض المخلوقات التي ينسب اليها جماعة من الناس ما للّه من خصائص، كالنفع و الضر، و القدرة الخارقة، و العلم بالغيب، و ما الى ذلك.

الإعراب:

كحب اللّه الكاف بمعنى مثل صفة لمفعول مطلق محذوف، تقديره يحبونهم حبا مثل حب اللّه، و أشد خبر الذين آمنوا، و حبا تمييز، و ان القوة للّه بفتح همزة أن، و المصدر المنسبك منها و مما بعدها مفعول يرى، و جميعا حال، و ان اللّه شديد العذاب عطف على ان القوة للّه، و التقدير لو يرى الذين ظلموا قوة اللّه، و شدة عذابه، و جواب لو يرى محذوف دلّ عليه سياق الكلام، و التقدير لعلموا ان اللّه لا شريك له و لا ند.

تفسير الكاشف، ج ١، ص ٢٥٥

المعنى:

(وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللهِ أَنْداداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ). أي ان بعض الناس يشركون باللّه، لأنهم قد جعلوا له نظراء في بعض خصائصه، كالنفع و الضرر .. و عن الإمام الباقر (ع) انه قال: الأنداد الذين اتخذوهم، و أحبوهم كحب اللّه هم أئمة الظلمة، و أشياعهم.

و قيل: ان معنى حب اللّه سبحانه هو حب الكمال: لأنه الكمال المطلق.

و قيل: بل هو العلم بعظمته و قدرته و حكمته. و قيل: الايمان بأنه المبدئ المعيد، و ان كل شيء في يده .. و نحن على الطريقة التي التزمناها من اختيار المعنى الملائم الواضح القريب الى كل فهم، و على هذا الأساس نقول: ان الذي يحب اللّه هو الذي يخالف هواه، و يطيع مولاه، كما قال الإمام الصادق (ع) في تعريف من يؤخذ الدين عنه، و بكلمة: ان معنى حبك للّه ان تترك ما تريد لما يريد، كما ان معنى محبة الرسول (ص) العمل بسنته، أما حب اللّه لعبده فاجزال الثواب له، و جاء في الحديث: «سأعطي الراية غدا الى رجل- و هو علي بن أبي طالب- يحب اللّه و رسوله، و يحبه اللّه و رسوله». أي ان عليا يطيع اللّه، و اللّه يجزل له الثواب، و الرسول يكرمه و يقدمه.

و بعد، فان كل من يؤثر طاعة المخلوق على طاعة الخالق فقد اتخذ من دون اللّه أندادا، من حيث يريد، أو لا يريد.

(وَ الَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ). لأنهم لا يشركون أحدا في طاعته، و الثقة به، و التوكل عليه، أما غير المؤمنين فيثقون بالعديد من الأنداد، و يشركونهم مع اللّه في الطاعة، و طلب الخير، و دفع الشر.

(وَ لَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً). أي لو علم المشركون الذين ظلموا أنفسهم ان لا سلطان في يوم الحق و الفصل لأحد سوى اللّه، و انه وحده يستقل بعذاب العاصين، و ثواب الطائعين- لو علموا ذلك لأيقنوا ان الذي يستقل غدا في شئون الآخرة هو وحده الذي يدبر هذا العالم .. فجواب لو محذوف دل عليه سياق الكلام.

(إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَ رَأَوُا الْعَذابَ وَ تَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبابُ).

تفسير الكاشف، ج ١، ص ٢٥٦

ما زال الكلام في الذين اتخذوا أندادا من دون اللّه، و هؤلاء هم المرءوسون و التابعون، و الأنداد هم الرؤساء و المتبوعون .. و غدا إذا انكشف الغطاء تبرأ الرئيس من المرءوس، و المتبوع من التابع، لشدة ما وقع به من العذاب، و

تقطعت الروابط و العلاقات بين الاثنين، قال صاحب مجمع البيان: «يزول بينهم كل سبب يمكن التعلق به من مودة و قرابة و منزلة و حلف و عهد، و ما إلى ذلك مما كانوا ينتفعون به في هذه الدنيا، و ذلك غاية الإياس». و تجري هذه الآية مجرى قوله تعالى: «كُلَّما دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَها حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيها جَمِيعاً قالَتْ أُخْراهُمْ لِأُولاهُمْ رَبَّنا هؤُلاءِ أَضَلُّونا فَآتِهِمْ عَذاباً ضِعْفاً مِنَ النَّارِ قالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَ لكِنْ لا تَعْلَمُونَ- الأعراف ٣٧».

(وَ قالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَما تَبَرَّؤُا مِنَّا). يتمنى غدا كل عاص ان يعود الى الدنيا ليصلح ما كان أفسد، بخاصة التابع لأهل البغي و الضلال، ليتبرأ من المتبوع المضل، و لا شيء أبعد من هذه الأمنية، بل هي حسرة تحرق النفس، تماما كما تحرق النار الجسد .. و هكذا تكون الحسرات ثمرة لاتباع الهوى و التفريط.

و ظاهر لفظ الآية يدل على انها مختصة بالكفار، و لكن السبب الموجب للحكم يشمل كل من اتبع و ناصر أهل الجور و الفساد، و من اعتقد ان غير اللّه ينفع و يضر، و من أخذ دينه عن أهل الجهل و الضلال، ان هذه الآية تشمل هؤلاء جميعا، حتى من نطق بكلمة التوحيد، و أقام الصلاة، و آتى الزكاة .. اللهم الا الجاهل القاصر الذي يعجز عن معرفة الحقيقة، و ادراك ما تدركه العقول السليمة.

التقليد و الأئمة الأربعة:

جاء في تفسير المنار نقلا عن الشيخ محمد عبده ان الأئمة الأربعة: أبا حنيفة و مالكا و الشافعي و ابن حنبل نهوا عن تقليدهم و الأخذ بأقوالهم، و انهم قد أمروا بتركها لكتاب اللّه و سنة رسوله، و بعد ان نقل قول كل إمام في ذلك قال: و لكن الكرخي- هو أحد فقهاء الحنفية- صرح قائلا بأن الأصل قول الحنفية،

تفسير الكاشف، ج ١، ص ٢٥٧

فان وافقته نصوص الكتاب و السنة فذاك، و الا وجب تأويل نصوص القرآن و السنة النبوية على وفق قول الحنفية.

و معنى هذا ان قول الحنفية حاكم و مقدم على القرآن و السنة، و هما محكومان له، و هذا القول هو الكفر بعينه، و أي كفر أعظم من طرح قول اللّه و رسوله بقول أبي حنيفة و أصحابه؟ و أي فرق بين من يقول هذا، و بين من أشار اللّه اليهم بقوله: «وَ إِذا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا ما أَنْزَلَ اللهُ قالُوا بَلْ نَتَّبِعُ ما أَلْفَيْنا عَلَيْهِ آباءَنا». و قد بحثنا التقليد بصورة أوسع عند تفسير الآية ١٧٠ من هذه السورة فقرة «التقليد و أصول العقيدة»، فراجع.

هذا، الى ان العمل بأقوال الأئمة الأربعة عمل بلا اجتهاد و لا تقليد، لأن الأربعة قد منعوا من تقليدهم و العمل بأقوالهم.

[سورة البقرة (٢): الآيات ١٦٨ الى ١٧٠]

يا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلالاً طَيِّباً وَ لا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (١٦٨) إِنَّما يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَ الْفَحْشاءِ وَ أَنْ تَقُولُوا عَلَى اللهِ ما لا تَعْلَمُونَ (١٦٩) وَ إِذا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا ما أَنْزَلَ اللهُ قالُوا بَلْ نَتَّبِعُ ما أَلْفَيْنا عَلَيْهِ آباءَنا أَ وَ لَوْ كانَ آباؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَ لا يَهْتَدُونَ (١٧٠)

اللغة:

الحلال كل ما لم يثبت النهي عنه في الشريعة، و الحرام ما ثبت النهي عنه، و الطيب هو الحسن، تقول: حياة طيبة، و كلمة طيبة، أي حسنة، و مأكول طيب أي حسن، و المراد بالطيب هنا ما تميل النفس اليه و تستلذه على شريطة ان

تفسير الكاشف، ج ١، ص ٢٥٨

لا يكون منهيا عنه .. و السوء كل ما تسوء عاقبته، و الفحشاء من الفحش، و هو قبح المنظر، ثم استعمل في كل قبيح من

قول أو فعل.

الاعراب:

حلالا حال من الموصول المجرور بمن، و هو قوله: (مِمَّا فِي الأَرْضِ)، و طيبا صفة لحلال، و ألفينا لم تتعد هنا الى مفعولين، لأنها بمعنى وجدنا.

المعنى:

(يا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الأَرْضِ حَلالاً طَيِّباً). هذا الخطاب عام لجميع الناس، سواء منهم من حرّم على نفسه بعض الأطعمة، أو لم يحرّم، و سواء منهم المؤمن و الكافر، لأن الكافر يحرم من نعيم الآخرة، لا من متاع الدنيا، و في الحديث القدسي: «أنا أخلق، و يعبد غيري، و أرزق و يشكر غيري».

و لما كان المأكول منه حلال و منه حرام، فقد أباح اللّه الأول دون الثاني، و كل ما لم ينه الشرع عنه فهو حلال: جاء في الحديث: «ان اللّه سكت عن أشياء لم يسكت عنها نسيانا فلا تتكلفوها رحمة من اللّه بكم». و قد يحرم بالعارض الشيء الذي هو حلال بالأصل، كالمال المأخوذ بالربا و الغش و الرشوة و السرقة.

(وَ لا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ). بعد أن أباح اللّه للناس الحلال حذرهم من التعدي الى الحرام، و عبّر عن هذا التحذير بالنهي عن اتباع الشيطان و وسوسته التي تزين للإنسان ما لا يحل له .. و كل خاطر يغري بارتكاب الحرام، كالخمر و الزنا و الكذب و الرياء، أو يحذر من فعل الواجب، كالخوف من الفقر إذا أدّى ما عليه من حق، أو من الضرر إذا جاهد او قال الحق، كل ذلك و ما اليه هو من وحي الشيطان .. و قد حكى اللّه عن الشيطان قوله: «لَأُضِلَّنَّهُمْ وَ لَأُمَنِّيَنَّهُمْ». و قوله: «لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِراطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَ مِنْ خَلْفِهِمْ وَ عَنْ أَيْمانِهِمْ وَ عَنْ شَمائِلِهِمْ وَ لا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شاكِرِينَ- الأعراف ١٥».

(إِنَّما يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَ الْفَحْشاءِ وَ أَنْ تَقُولُوا عَلَى اللهِ ما لا تَعْلَمُونَ). هذا

تفسير الكاشف، ج١، ص ٢٥٩

بيان للآثار و النتائج التي تترتب على اتباع دعوة الشيطان و خطواته، و هي أمور ثلاثة: السوء، و هو كل فعل تسوء عاقبته، و الفحشاء، و هي أقبح أنواع المعاصي، و القول على اللّه بغير علم من أن له أندادا و أولادا، و من تحليل الحرام، و تحريم الحلال، و منه العمل بالرأي و القياس و الاستحسان لاستخراج الأحكام الشرعية.

(وَ إِذا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا ما أَنْزَلَ اللهُ قالُوا بَلْ نَتَّبِعُ ما أَلْفَيْنا عَلَيْهِ آباءَنا).

الضمير في (لهم) يعود على كل من قلد الغير بلا حجة و دليل، و ترك قول اللّه و الرسول بقول الآباء، و المراد بما انزل اللّه كل ما قامت عليه الدلائل و البراهين، و آمنت به العقول السليمة.

(أَ وَ لَوْ كانَ آباؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَ لا يَهْتَدُونَ). الهمزة للتوبيخ، و الواو للحال، و المعنى أ يتبعون الآباء حال كونهم لا يعقلون شيئا من أمور الدين ..

فليس المراد من قوله (لا يَعْقِلُونَ شَيْئاً) نفي العقل و الفهم عنهم في كل شيء، و ان كان الظاهر يعطي ذلك، بل المراد نفي التعقل في أمور الدين فقط، لأن الكلام في خصوص الأمور الدينية. و سنشير في الفقرة التالية الى ان هذه الآية تدل على قبح التقليد في الضلال، أما التقليد في الهدى فانه من القدوة الحسنة.

التقليد و أصول العقائد:

ان التقليد كفكرة، و من حيث هو، لا يذم و لا يمدح، و لا يحكم عليه بحسن و لا بقبح بوجه عام، بل يختلف باختلاف أنواعه التالية:

١- التقليد الذي يرجع الى العدوى النفسية، و الغريزة التي تشاهد في الإنسان، و الحيوان على السواء، من ذلك صياح الديكة حين تسمع صوت أحدها، و نهيق الأحمرة حين ينهق واحد منها .. و كذلك الحال بالنسبة الى الإنسان، يصفق واحد للخطيب، فيقلده الآخرون من غير شعور، حتى و لو لم يفهموا شيئا مما أراد، و ينظر شخص الى جهة معينة، فيصوب النظر اليها كل من يراه من غير قصد، و هذا النوع من التقليد لا يوصف بحسن و لا بقبح، لأنه خارج عن دائرة الشعور و الارادة.

تفسير الكاشف، ج١، ص ٢٦٠

٢- ما جرت عليه العادة في طريقة المحاورات و المجاملات، و في كيفية اللباس، و ما الى ذلك مما تستدعيه الحياة الاجتماعية، و يشترك فيه الكبير و الصغير، و العالم و الجاهل، و هذا النوع من التقليد يوصف بالحسن و القبح تبعا لما يراه الناس.

٣- تقليد الجاهل للعالم في الشؤون الدنيوية، كالطب و الهندسة، و الزراعة و الصناعة، و ما اليها من الرجوع الى أهل الخبرة و الاختصاص، و هذا التقليد حسن، بل هو ضرورة لازمة تفرضها الحياة الاجتماعية، و لولاه لاختل النظام، و تعطلت الأعمال، إذ ليس في مقدور الإنسان أن يعلم كل شيء، و يحيط بكل ما يحتاج اليه، و قد كان الإنسان و ما زال بحاجة الى التعاون، و تبادل الخدمات.

٤- تقليد المجتهد لمجتهد مثله في الأمور الدينية، فانه مذموم عقلا و عرفا، و محرّم شرعا، لأن ما علمه هو حكم اللّه في حقه، فلا يجوز تركه بقول غيره .. و أي عاقل كفوء تقوم الحجة لديه فينكرها بحجة سواه؟ .. و أي عالم يرغب عن قول اللّه و رسوله المعصوم الى قول من يخطئ و يصيب؟.

٥- تقليد الجاهل للمجتهد العادل في المسائل الدينية الفرعية، كأحكام العبادات، و الحلال و الحرام، و الطهارة و النجاسة، و صحة المعاملات، و ما اليها، و هذا التقليد واجب عقلا و شرعا، لأنه تقليد لمن أخذ علمه من الدليل و الحجة، تماما كتقليد المريض الجاهل بدائه و دوائه للعالم بهما .. ان الجاهل مكلف بالاحكام، و لا طريق له الى الامتثال إلا بالرجوع الى العالم: «فَسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ».

أجل، إذا صلى الجاهل و صام تبعا لآبائه و من اليهم، لا تقليدا للمجتهد العادل، و طابقت عبادته الواقع صحت منه و قبلت، لأن التقليد ليس جزءا و لا شرطا من المأمور به، و انما هو مجرد وسيلة .. و بالأولى ان تصح معاملاته إذا وقعت على وجهها.

أما قول من قال: ان العبادة تفتقر الى نية القربة، و نية القربة لا تتحقق إلا من المجتهد أو المقلد له .. أما هذا القول فمجرد دعوى، لأن معنى نية القربة الإتيان بالمأمور به بدافع الأمر المتعلق به خالصا من كل شائبة دنيوية .. و ليس

تفسير الكاشف، ج١، ص ٢٦١

من شك ان هذا يتحقق من غير المقلد للمجتهد، و قوله تعالى: «أَ وَ لَوْ كانَ آباؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَ لا يَهْتَدُونَ» يشعر بأن الأب إذا كان على هدى، و قلده الابن صح عمله .. فالعبرة، اذن، بالمطابقة و كفى.

٦- التقليد في أصول الدين و العقيدة، كمعرفه اللّه و صفاته، و نبوة محمد و عصمته، و البعث و النشر .. و قد منع أكثر

علماء السنة و الشيعة هذا النوع من التقليد، و قالوا بعدم جوازه، لأن التقليد قبول الشيء بلا دليل، و هذا هو الجهل بعينه، أي ان القائل بوجود اللّه تقليدا، تماما كمن يجهل وجوده من الأساس .. و قال هؤلاء: انما أجزنا التقليد في الفروع و المسائل العملية دون الأصول العقائدية، لأن المطلوب في الفروع مجرد العمل على مقتضى قول المجتهد و هذا ممكن بذاته، بخلاف الأصول العقائدية فان المطلوب فيها العلم و الاعتقاد ..

و العلم لا يجتمع مع التقليد، لأنه جهل محض، و الاعتقاد خارج عن الاختيار و الارادة، فلا يتعلق التكليف به.

و قال المحققون من السنة و الشيعة: إذا أعقب التقليد تصديق جازم مطابق للواقع صح، لأنه هو المطلوب، و الاجتهاد ليس شرطا و لا جزءا من الايمان و التصديق، و انما هو وسيلة، لا غاية.

و هذا هو الحق، لأن العبرة في اصول العقائد بالايمان الصحيح المطابق، و من أجل هذا قبل النبي (ص) اسلام كل من آمن به، و اطمأنت نفسه لصدقه و نبوته، دون أن يجتهد و يستعمل النظر .. أما الآيات التي وردت في ذم اتباع الآباء فان سياقها يدل على ان المراد منها التقليد في الباطل و الضلال، لا في الحق و الهداية .. و تظهر هذه الحقيقة لكل من أمعن الفكر في قوله تعالى: «أَ وَ لَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبٰاءَكُمْ». و قوله: «وَ إِذٰا قِيلَ لَهُمْ تَعٰالَوْا إِلىٰ مٰا أَنْزَلَ اللّٰهُ وَ إِلَى الرَّسُولِ قٰالُوا حَسْبُنٰا مٰا وَجَدْنٰا عَلَيْهِ آبٰاءَنٰا». و قوله: «أَ وَ لَوْ كٰانَ آبٰاؤُهُمْ لاٰ يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَ لاٰ يَهْتَدُونَ». فان المفهوم من هذه الآيات ان آباءهم إذا كانوا على الهدى الذي نزل على الرسول جاز اتباعهم، لأن المطلوب هو اتباع ما انزل اللّه، فإذا اتبعوه فقد امتثلوا و أطاعوا، و لا يسألون بعد الطاعة عن شيء.

و اختصارا ان كل من اتبع قول اللّه و الرسول فقد اتبع الحق الثابت بالدليل،

تفسير الكاشف، ج ١، ص ٢٦٢

سواء أ كان على علم من هذا الدليل، أو لم يكن. و يكفي ان يعلم اجمالا بأن هناك دليلا صحيحا يعرفه أهل الاجتهاد و الاختصاص، بل من اتبع الحق دون أن يعلم انه حق فلا يعاقب على ترك التعلم، و ان لم يستأهل المدح و الثواب.

و يشعر بذلك قوله تعالى: «وَ إِنْ جٰاهَدٰاكَ لِتُشْرِكَ بِي مٰا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلاٰ تُطِعْهُمٰا»- لقمان ١٤» فان المستفاد منه أيضا ان جاهداك على ان تؤمن باللّه، و أطعت من غير علم فلا بأس عليك.

و قد تعرضنا لتقليد الأئمة الأربعة عند تفسير الآية ١٦٧ من هذه السورة، فقرة «تقليد الأئمة الأربعة»، فراجع.

[سورة البقرة (٢): آية ١٧١]

وَ مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمٰا لاٰ يَسْمَعُ إِلاّٰ دُعٰاءً وَ نِدٰاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاٰ يَعْقِلُونَ (١٧١)

اللغة:

نعق بمعنى صاح، و الدعاء و النداء بمعنى واحد، و البعض فرّق بينهما بأن الدعاء للقريب، و النداء للبعيد.

الإعراب:

دعاء مفعول يسمع، و صمّ خبر مبتدأ محذوف.

المعنى:

ضرب اللّه في هذه الآية مثلا من الكفار الذين تعصبوا لدين الآباء .. فشبههم بالبهائم، و شبّه من يدعوهم الى الحق بالراعي، فكما ان البهائم لا تعقل شيئا

تفسير الكاشف، ج ١، ص ٢٦٣

من كلام الراعي، و انما تسمع صوتا تقبل أو تدبر عند سماعه بعد التمرين و التعويد كذلك الكفار لا يعرفون الحق الذي يدعوهم اليه الداعي، و لا النفع الذي يترتب على العمل بموجبه .. و انهم في ذلك تماما كالأطرش، و ان كانوا يسمعون، و كالأخرس، و ان كانوا يتكلمون، و كالأعمى، و ان كانوا يبصرون.

و في القرآن العديد من الآيات لا تفرق بين الأصم الذي لا يسمع إطلاقا، و بين من يسمع الحق و لا يعمل بموجبه .. منها هذه الآية: «لا يَسْمَعُ إِلاَّ دُعاءً وَ نِداءً».

و منها قوله تعالى: «إِنَّما يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ- الانعام ٣٦». و منها:

«وَ لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قالُوا سَمِعْنا وَ هُمْ لا يَسْمَعُونَ- الانفال ٢١».

و تسأل: ان ظاهر الآية يدل على ان اللّه سبحانه شبّه الكفار براعي البهائم، لا بالبهائم، لأنه قال: و مثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع.

و بديهة ان الذي ينعق هو الراعي، و ما لا يسمع البهائم، و عليه يكون الكفار كالراعي الذي يصيح بالبهائم، لا كالبهائم، كما قلت في تفسير الآية؟.

الجواب: ان في الكلام حذفا تدل عليه قرينة الحال، و التقدير ان مثل من يدعو الذين كفروا الى الحق كمثل الذي ينعق بما لا يسمع.

[سورة البقرة (٢): الآيات ١٧٢ الى ١٧٣]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّباتِ ما رَزَقْناكُمْ وَ اشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (١٧٢) إِنَّما حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَ الدَّمَ وَ لَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَ ما أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ باغٍ وَ لا عادٍ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٧٣)

تفسير الكاشف، ج ١، ص ٢٦٤

المعنى:

بعد أن خاطب اللّه سبحانه الجميع بقوله: «يا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ» أعاد الخطاب ثانية لخصوص المؤمنين بقوله: «يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّباتِ ما رَزَقْناكُمْ» ليبين لهم ان الايمان الصحيح لا يكون بحرمان النفس، و الامتناع عن الطيبات، كما يفعل بعض الرهبان و القسيسين و غيرهم فانه سبحانه قد أحل لنا التمتع بالحياة، و النعم الجسدية، و أمرنا بالشكر عليها، و معنى شكرها أن نستعملها في الوجه الذي ينبغي استعمالها فيه. قال أمير المؤمنين (ع): «أقلّ ما يلزمكم للّه ان لا تستعينوا بنعمه على معاصيه». و عسى أن يتعظ بهذه الحكمة البالغة أهل الجاه و الثراء، و لا يستغلوهما في الملذات المحرمة، و في الكبر و الطغيان.

(إِنَّما حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَ الدَّمَ وَ لَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَ ما أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللهِ). و ليس من شك ان المراد بالحرمة هنا حرمة الفعل، و هو الأكل، لا حرمة الأعيان، لأن الأعيان لا يمكن وصفها بحل و لا بحرمة.

و بعد ان ذكر اللّه سبحانه في الآية السابقة الحلال مما يؤكل ذكر في هذه الآية أربعة أنواع مما يحرم أكله .. الأول: الميتة، و هي كل حيوان مات من غير تذكية شرعية. الثاني: الدم، و المراد به الدم المسفوح أي المتميز عن اللحم، لأن ما يختلط باللحم معفو عنه. الثالث: الخنزير لحمه و شحمه و جميع أجزائه خلافا لداود الظاهري الذي قال: يحرم لحم الخنزير دون شحمه عملا بظاهر اللفظ، و انما ذكر اللحم بالخصوص، لأنه أظهر الأجزاء التي ينتفع بها.

الرابع: ما أهلّ به لغير اللّه، و هو ما ذكر عليه حين الذبح غير اسم اللّه تعالى، سواء أذبح للأصنام، أو لغيرها.

و الحكمة في تحريم الأنواع الثلاثة الأولى صحية محض يعرفها الأطباء، و أهل الاختصاص، أما حكمة المنع عمّا ذكر غير اسم اللّه عليه فدينية صرف تهدف الى صيانة التوحيد و التنزيه عن الشرك.

و تسأل: ان ظاهر الآية يدل على انه لا يحرم من المأكولات سوى هذه الأربعة، لأن (انما) تفيد الحصر، و كل حصر يتضمن جملتين: الأولى تفيد

تفسير الكاشف، ج١، ص ٢٦٥

اثبات ما يتناوله الخطاب، و هو هنا تحريم الأشياء الأربعة، و الثانية تفيد النفي، و هو هنا عدم تحريم ما عدا الأربعة، مع العلم بأن هناك مأكولات أخرى محرمة، كالكلاب، و الحيوانات المفترسة، و الحشرات، و بعض أنواع السمك، و محرمات الذبيحة، و التفصيل في كتب الفقه، و منها الجزء الرابع من كتابنا فقه الإمام جعفر الصادق (ع).

الجواب: أجل، ان الظاهر يدل على ذلك، و لكنه متروك في العمل بعد قيام الإجماع، و ثبوت السنة النبوية .. و ليست هذه هي الآية الوحيدة التي يترك ظاهرها بالإجماع.

و تجمل الاشارة الى انه يجب ذكر اللّه تعالى حين الذبح، فمن تركه عامدا حرمت الذبيحة، سواء أ كان الترك عن علم بالوجوب أو جهل به .. أجل لو نسي الذابح ذكر اللّه لم تحرم الذبيحة .. و يكفي من الذكر قول: اللّه أكبر، أو الحمد للّه، أو بسم اللّه، أو لا إله الا اللّه، و ما أشبه.

المضطر و حكمه:

(فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ باغٍ وَ لا عادٍ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ). المضطر هو الذي يخاف التلف على نفسه لو لم يتناول المحرم، أو يخشى حدوث مرض، أو زيادته، أو يخاف الضرر و الأذى على نفس محترمة، كالحامل تخاف على حملها، و المرضعة على رضيعها، أو أكرهه قوي على أكل أو شرب المحرم، بحيث إذا لم يفعل أوذي في نفسه، أو في ماله، أو في عرضه- كل هذه، و ما اليها من المسوغات لتناول المحرم و لكن بمقدار ما يرتفع به الضرر. و من هنا اشتهر بين الفقهاء الضرورة تقدر بقدرها، و يدل عليه قوله تعالى: «**فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ باغٍ وَ لا عادٍ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ**». فالباغي من يرتكب الحرام من غير ضرورة، و العادي من يتجاوز مقدار الحاجة.

تفسير الكاشف، ج١، ص ٢٦٦

[سورة البقرة (٢): الآيات ١٧٤ الى ١٧٦]

إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ ما أَنْزَلَ اللهُ مِنَ الْكِتابِ وَ يَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً أُولئِكَ ما يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلاَّ النَّارَ وَ لا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَ لا يُزَكِّيهِمْ وَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (١٧٤) أُولئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ بِالْهُدى وَ الْعَذابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَما أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ (١٧٥) ذلِكَ بِأَنَّ اللهَ نَزَّلَ الْكِتابَ بِالْحَقِّ وَ إِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتابِ لَفِي شِقاقٍ بَعِيدٍ (١٧٦)

الاعراب:

أولئك ما يأكلون في بطونهم إلا النار: أولئك مبتدأ، و ما بعدها خبر، و الجملة من المبتدأ و الخبر خبر ان. و أولئك الذين اشتروا الضلالة: أولئك بدل من أولئك الأولى، و ما أصبرهم ما للتعجب في محل رفع بالابتداء، و اصبر فعل ماض فيه ضمير مستتر يعود على ما، و الجملة خبر لما تماما كقولك ما أحسن زيدا. و ذلك مبتدأ، و تسبك ان و ما بعدها بمصدر

مجرور بالباء متعلق بمحذوف خبر ذلك، و التقدير ذلك حاصل بكون اللّه نزل الكتاب.

المعنى:

(إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مٰا أَنْزَلَ اللّٰهُ مِنَ الْكِتٰابِ وَ يَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً أُولٰئِكَ مٰا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلاَّ النَّارَ).

قيل: ان هذه الآية نزلت في أهل الكتاب الذين كتموا وصف محمد (ص) و نبوته، و مهما كان سبب النزول فان المراد كل من عرف شيئا من الحق و كتمه بالتأويل و التحريف لمنفعته الشخصية، يهوديا كان أو نصرانيا، أو مسلما، لأن اللفظ عام، و العبرة بعموم اللفظ، لا بخصوص سبب النزول.

تفسير الكاشف، ج ١، ص ٢٦٧

و قد هدد اللّه سبحانه هذا الضال المضل في العديد من الآيات: منها ما تقدم في الآية ١٤٦ و ١٥٩، و ما يأتي في سورة آل عمران، و النساء، و المائدة، و منها هذه الآية، و كلها غضب و وعيد بأشد العذاب و العقاب، لأن الحق يجب تقديسه و إعلانه بكل وسيلة، و دفع الشبهات عنه، و تحدي من يتحداه، و تنفيذه بقوة السلاح، و التضحية في سبيله بكل عزيز، إذ لا قوام للدين، و لا للنظام، و لا للحياة الا به.

(مٰا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلاَّ النَّارَ). أي ما يوجب العذاب في النار، فهو من باب اطلاق المسبب، و هو النار، على السبب، و هو أكل الحرام .. و ذكر البطون، مع العلم بأن الأكل لا يكون الا في البطن، للاشارة الى انه لا همّ لهم الا امتلاء بطونهم.

(وَ لاٰ يُكَلِّمُهُمُ اللّٰهُ يَوْمَ الْقِيٰامَةِ). كناية عن اعراضه عنهم، و غضبه عليهم. (وَ لاٰ يُزَكِّيهِمْ) من الذنوب بالمغفرة. (أُولٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلاٰلَةَ بِالْهُدىٰ). الضلالة اتباع الهوى، و الهدى اتباع كتاب اللّه، و شراء الضلالة بالهدى أن يؤثر الباطل على الحق، و الهوى على الهدى.

(فَمٰا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النّٰارِ). ليس هذا اخبارا عن صبرهم على النار، و لا تعجبا من صبرهم عليها، لأن التعجب منشأه الجهل بالسبب، و هو ممتنع في حقه تعالى، و انما القصد تصوير أقدامهم و جرأتهم على اللّه بترك أحكامه و حدوده، و اتباعهم الباطل و الضلال، القصد تصوير حالهم هذه، و تمثيل مآلهم الذي لا يمكن الصبر عليه بحال، قال الرازي: لما أقدموا على ما يوجب النار صاروا كالراضين بعذاب اللّه، و الصابرين عليه .. فهو كما تقول لمن يتعرض لما يوجب غضب السلطان: ما أصبرك على القيد و السجن؟.

و تسأل: هذا حال من عرف الحق و كتمه، فما هو حال من لم يعرف شيئا مما أنزل اللّه، و مع ذلك يقول: هذا حلال، و ذاك حرام، و لا مستند له الا الوهم و الخيال؟.

الجواب: ان هذا أسوأ حالا ممن عرف الحق و كتمه، لأنه قد أقام نفسه مقام اللّه جل و علا، و اتخذ منها مصدرا للتشريع، و التحليل و التحريم.

تفسير الكاشف، ج ١، ص ٢٦٨

التجاذب بين الحق و الباطل:

نقل صاحب المنار في تفسيره عن الشيخ محمد عبده انه قال في تفسير هذه الآية: «ان في المسلمين من كتم ما أنزل اللّه بالتحريف و التأويل، تماما كما فعل اليهود بكتمان وصف الرسول، و هؤلاء المسلمون يشعرون بجاذبين متعاكسين:

جاذب الحق الذي عرفوه، و جاذب الباطل الذي ألفوه، ذاك يحدث لهم هزة و تأثيرا، و هذا يحدث لهم استكبارا و نفورا، و قد غلب عقولهم ما عرفوا، و غلب قلوبهم ما ألفوا، فثبتوا على ما حرفوا، و صاروا الى حرب عوان بين العقل و الوجدان، يتصورون الخطر الآجل، فينتغص عليهم التلذذ بالعاجل، و يتذوقون حلاوة ما هم فيه، فيؤثرونه على ما سيصيرون اليه .. أ ليس هذا الشعور بخذل الحق، و نصر الباطل نارا تشب في الضلوع؟. أليس ما يأكلونه من ثمن الحق ضريعا لا يسمن، و لا يغني من جوع؟».

و هذا صحيح بالنسبة إلى بعض الأفراد الذين يحسون بوخز الضمير و تأنيبه، و هم يقترفون الذنوب .. و لكن بعض الأفراد قد ألفوا الباطل، و اعتادوه، حتى أصبح طبيعة ثانية لهم، و يشعرون من أعماقهم بالعداء لكل ما فيه رائحة الحق و الانسانية .. و الآن أكتب هذه الكلمات في شهر حزيران سنة ١٩٦٧، و في هذا الشهر المشئوم تغلب الاسرائيليون على بعض أطراف البلاد العربية بمعاونة بريطانيا و أمريكا، و أخرجوا أهلها من ديارهم، و شردوا أكثر من مائتين و خمسين ألفا، و حرقوا الألوف من الرجال و النساء و الأطفال بقنابل النابالم. و قد بارك هذه الفضائح كثيرون، و طربوا لها، و تمنوا لو ان إسرائيل استمرت في طغيانها الى غير حد .. ان الهوى عندهم قد طغى على العقل و الوجدان، حتى لم يبق لهما عينا و لا أثرا فصار من فقدوهما تماما كالبهائم، و قد وصف اللّه هؤلاء بأنهم قوم لا يعقلون، و لا يفقهون، و بأنهم كالانعام، بل أضل سبيلا.

(ذٰلِكَ بِأَنَّ اللهَ نَزَّلَ الْكِتٰابَ بِالْحَقِّ). ذلك اشارة الى العذاب الذي سينزل بالذين يكتمون الحق، و قوله **(بِأَنَّ اللهَ نَزَّلَ الْكِتٰابَ)** بيان لسبب العذاب، و هو جرأتهم على مخالفة الحق الذي جاء في كتاب اللّه.

(وَ إِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتٰابِ لَفِي شِقٰاقٍ بَعِيدٍ). اختلف المفسرون في

تفسير الكاشف، ج ١، ص ٢٦٩

المراد بقوله تعالى: **(الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتٰابِ)**. فذهب أكثرهم- على ما في مجمع البيان- إلى أنهم الكفار، و وجه الاختلاف ان منهم من قال: ان القرآن سحر، و منهم من قال: هو رجز، و قال آخرون: أساطير الأولين.

و قال بعض المفسرين: بل المراد المسلمون، فإنهم بعد أن اتفقوا على ان القرآن من عند اللّه اختلفوا في تفسيره و تأويله، و تشعبوا الى فرق و شيع، و كان عليهم أن تكون كلمتهم واحدة بعد ان كان قرآنهم واحدا.

و يجوز أن يكون المراد الكفار، و لكن، لا لأن بعضهم قال: ان القرآن سحر، و آخر قال: انه رجز، بل لأنهم السبب الوحيد للخلاف و الشقاق، و عدم جمع الكلمة على الحق بينهم و بين من آمن بالقرآن.

[سورة البقرة (٢): آية ١٧٧]

لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَ الْمَغْرِبِ وَ لٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ وَ الْمَلٰائِكَةِ وَ الْكِتٰابِ وَ النَّبِيِّينَ وَ آتَى الْمٰالَ عَلىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبىٰ وَ الْيَتٰامىٰ وَ الْمَسٰاكِينَ وَ ابْنَ السَّبِيلِ وَ السَّائِلِينَ وَ فِي الرِّقٰابِ وَ أَقٰامَ الصَّلٰاةَ وَ آتَى الزَّكٰاةَ وَ الْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذٰا عٰاهَدُوا وَ الصّٰابِرِينَ فِي الْبَأْسٰاءِ وَ الضَّرّٰاءِ وَ حِينَ الْبَأْسِ أُولٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَ أُولٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (١٧٧)

اللغة:

كل عمل من أعمال الخير فهو بر، و قبل ظرف مكان بمعنى الناحية و الجهة، و ابن السبيل المسافر في غير معصية، فيذهب ماله، و لا يستطيع العودة الى أهله

تفسير الكاشف، ج ١، ص ٢٧٠

و وطنه، و البأساء الفقر، و الضراء كل ما يضر الإنسان من مرض، أو فقد عزيز، و ما اليه. و البأس شدة القتال.

الاعراب:

البر منصوب خبر ليس مقدم، و ان مع صلتها اسم ليس، و يجوز العكس، فترفع البر اسما، و تنصب الصلة خبرا، و كلمة البر الثانية اسم لكن، و خبرها محذوف، و التقدير و لكن البر بر من آمن باللّه، لأن اسم المعنى لا يخبر عنه باسم العين، و آتى بمعنى أعطى، و المال مفعول ثان مقدم، و ذوي القربى مفعول أول مؤخر، و على حبه متعلق بمحذوف حال من ضمير آتى، و الموفون بعهدهم خبر مبتدأ محذوف، أي هم الموفون، أو معطوف على من آمن باللّه، و الصابرين مفعول لفعل محذوف، و التقدير أعني الصابرين، كما في مجمع البيان و غيره من التفاسير، و أولئك الذين صدقوا أولئك مبتدأ، و خبره الذين.

المعنى:

ذكر اللّه سبحانه في هذه الآية أمورا اعتبرها أركانا للبر و التقوى و الصدق في الايمان، و من هذه الأمور ما يتعلق بالعقيدة، و منها ما يتعلق ببذل المال، و منها بالعبادة، و منها بالأخلاق، و قبل أن يشير الى كل صنف منها مهد بقوله تعالى:

(لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَ الْمَغْرِبِ). هذا خطاب عام يشمل الجميع، حتى و لو كان سبب النزول خاصا، لأن العبرة بعموم اللفظ، لا بسبب النزول، و المراد بالخطاب توجيه المؤمنين و المصلين إلى أن مجرد الصلاة الى ناحية معينة ليس هو الخير المقصود من الدين، لأن الصلاة انما شرعت لاقبال المصلي على اللّه، و الاعراض عمن سواه. و بعد هذا التمهيد شرع ببيان أصول العقيدة التي هي من أركان البر، و حصرها بخمسة أمور تضمنها قوله تعالى:

(وَ لكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ وَ الْمَلائِكَةِ وَ الْكِتابِ وَ النَّبِيِّينَ). الايمان باللّه هو الأساس لعمل البر، و الباعث على طاعة اللّه في جميع ما أمر به،

تفسير الكاشف، ج ١، ص ٢٧١

و نهى عنه، و الايمان بالملائكة ايمان بالوحي المنزل على الأنبياء، و انكار الملائكة انكار للوحي و النبوة: (نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ- الشعراء ١٩٤). و الايمان بالكتاب ايمان بالقرآن، و الايمان بالنبيين ايمان بشرائعهم ..

و ترجع هذه الأمور الخمسة الى ثلاثة: الايمان باللّه و النبوة و اليوم الآخر، لأن الايمان بالنبي يتضمن الايمان بالملائكة و الكتاب. ثم أشار سبحانه الى التكاليف المالية بقوله:

(وَ آتَى الْمالَ عَلى حُبِّهِ). قيل: ان الضمير في حبه عائد الى اللّه تعالى، حيث تقدم اسمه جل و علا في قوله: **(مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ)**. و يكون المعنى ان المعطي أعطى المال لوجه اللّه. و قيل: بل يعود الضمير على المال، و يجري مجرى قوله تعالى: (لَنْ تَنالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ). و قوله:

(وَ يُطْعِمُونَ الطَّعامَ عَلى حُبِّهِ). و هذا هو الأظهر، لأن الضمير يعود الى الأقرب، دون الأبعد. ثم ان المراد بإيتاء المال هنا غير الزكاة الواجبة، لأنه تعالى عطف عليه إيتاء الزكاة، و العطف يقتضي التغاير.

و ذكرت الآية من الذين ينبغي اعطاؤهم المال ستة أصناف:

١- ذوو القربى، و هم قرابة صاحب المال، لأنهم أحق الناس بالبر و الصلة، قال تعالى: (وَ لا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَ السَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبىٰ- النور ٢٢). و تجب نفقة القريب على قريبه إذا كان من الآباء و الأبناء، مع عجزه عن الإنفاق على نفسه و قدرة الآخر عليه، و ما عدا ذلك يكون إيتاء ذوي القربى مستحبا لا واجبا عند الفقهاء «١».

٢- اليتامى الذين لا مال لهم، و لا كفيل يعولهم، فيجب على أهل اليسار كفالتهم و كفايتهم، مع عدم وجود بيت مال للمسلمين.

٣- المساكين، و هم أهل الحاجة الذين لا يمدون للناس يد المذلة.

---

(١) قال الحنفية: تجب نفقة للقريب على قريبه إذا كانت القرابة موجبة لحرمة الزواج. و قال الحنابلة:

يشترط أن يكون المنفق وارثا للمنفق عليه. و قال المالكية: لا تجب النفقة إلا على الأبوين و الأولاد من الصلب فقط دون بقية الفروع و الأصول. و قال الامامية و الشافعية: تجب نفقة على الآباء و ان علوا، و الأبناء و ان نزلوا دون غيرهم من الأقارب. [.....]

تفسير الكاشف، ج ١، ص ٢٧٢

٤- ابن السبيل، و هو الذي انقطع في السفر، و لا يستطيع العودة الى وطنه من غير عون.

٥- السائلون الذين يمدون الى الناس كف المذلة، و هذا السؤال محرم شرعا الا لضرورة ملحة، تماما كأكل الميتة في رأينا، و يكفي دليلا على تحريمه انه ذل و هوان، و الاهانة محرمة من حيث هي، سواء أصدرت من الغير، أم من النفس، و في الحديث: «لا تحل الصدقة لغني، و لا لذي مرة سوي» و المرة بكسر الميم القوة، و السوي سليم الجسم، و المراد به القادر على الكسب.

٦- في الرقاب، أي شراء العبيد، ثم عتقهم و تحريرهم من العبودية، و لا مورد لهذا الصنف اليوم بعد أن الغي الرق.

و تجمل الاشارة الى ان هذه الأصناف الستة ذكرها اللّه سبحانه على سبيل المثال، دون الحصر .. فان هناك أمورا كثيرة يحسن فيها بذل المال كإنشاء المدارس، و دور الأيتام، و المصحات، و الدفاع عن الدين و الوطن، و سائر المشاريع العامة.

و إذا توقفت صيانة النفس المحترمة على بذل المال وجب بذله على المستطيع، لأن هذه الصيانة واجبة، و ما لا يتم الواجب الا به فهو واجب.

و أشار تعالى الى الركن العبادي للبر بقوله: **(وَ أَقٰامَ الصَّلاٰةَ وَ آتَى الزَّكٰاةَ)**.

و الصلاة تزكية للنفس، و الصوم تزكية للبدن، و الزكاة تزكية للمال.

و أشار الى الركن الأخلاقي بقوله سبحانه: **(وَ الْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذٰا عٰاهَدُوا)**.

و العهد الذي يجب الوفاء به على قسمين: الأول ما يكون بين العبد و ربه، مثل اليمين و النذر و العهد بالشروط المذكورة في كتب الفقه، و فصلنا ذلك في الجزء الخامس من كتاب «فقه الإمام جعفر الصادق».

النوع الثاني من العهد الذي يجب الوفاء به المعاملات التي تجري بين الناس، كالبيع و الاجارة و الدين، و ما الى ذلك ..

و المؤمن البار يفي بجميع التزاماته، حتى و لو لم يكن عليه اثباتات و سندات ترغمه على الوفاء و أداء الحق .. أما الوعد فلا يجب الوفاء به شرعا، بل يستحب عند الفقهاء.

و من الأخلاق الحميدة التي هي من أركان البر الصبر في الشدائد المشار اليه بقوله تعالى: **(وَ الصَّابِرِينَ فِي الْبَأْساءِ وَ الضَّرَّاءِ وَ حِينَ الْبَأْسِ)**. و البأساء الفقر،

تفسير الكاشف، ج١، ص ٢٧٣

و الضراء المرض، و ما اليه، و حين البأس شدة الحرب، و ليس القصد من الصبر على الفقر و المرض الرضا بهما .. كلا، فان الإسلام قد أوجب السعي جهد المستطاع للتخلص من الفقر و المرض و الجهل، و من كل ما يعوق الحياة عن التقدم، و انما القصد ان لا ينهار الإنسان أمام الشدائد، و ان يتماسك و يتمالك و يعمل بروية و ثبات للتخلص مما ألمّ به من النوازل .. و قال بعض المفسرين:

انما خص اللّه هذه الثلاث بالذكر، مع ان الصبر محمود في جميع الأحوال، لأن هذه الثلاث أشد البلاءات جميعا، فمن صبر فيها كان في غيرها أصبر.

(أُولئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَ أُولئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ). أولئك اشارة الى الذين استجمعوا كل هذه الخصال من أصول العقيدة، و بذل المال و تأدية العبادة للّه، و الأخلاق الحميدة، و انهم الصادقون في ايمانهم، المتقون بأفعالهم لغضب اللّه و عذابه، أما الذين يقولون بأفواههم آمنّا، و لا ينفقون ما يحبون، و يفون بما يلتزمون، و يصبرون في الشدائد، أما هؤلاء فهم أبعد الناس عن البر و أهله.

البارّ في مفهوم القرآن:

تعرضت هذه الآية لخمسة أمور: أولها أصول العقيدة، و ثانيها التكاليف المالية، و ثالثها العبادة، و رابعها الوفاء بالعهد، و خامسها الصبر في الشدائد، و الأخيران من شئون الأخلاق.

و بديهة ان العبادة كالصلاة و الصوم أثر من آثار الايمان باللّه، و علامة من علاماته التي لا تنفك عنه، لأن من لا يعترف بوجود اللّه لا يتعبد له .. أما بذل المال و الوفاء بالعهد و الصبر في الشدائد فتكون من المؤمن و الجاحد، فان أكثر المؤمنين باللّه أو الكثير منهم يقولون ما لا يفعلون، و يبخلون بالقليل، حتى على أنفسهم، و ينهارون جزعا أمام كل فاجعة و نازلة .. و قد يضحي الجاحد بالغالي و الثمين في سبيل العدالة و الانسانية، و يثبت في الشدائد، و يصدق في جميع أقواله و أفعاله .. اذن، لا تلازم بحسب الظاهر بين الايمان و الخلق الحميد، و لا بين الكفر و الخلق الذميم أما في الواقع فلا ايمان بلا تقوى.

و لكن هذه الآية: **(لَيْسَ الْبِرَّ)** الخ .. قد اعتبرت الايمان و الأخلاق الحميدة

تفسير الكاشف، ج١، ص ٢٧٤

كلا لا يتجزأ، و وحدة لا تنفصم بالنسبة الى البر و الخير، فلا الايمان باللّه وحده يجعل الإنسان من الأبرار، و لا الأخلاق من غير ايمان تجعله كذلك، بل لا بد من الايمان و الأخلاق و التعبد للّه .. و عليه فالبارّ في مفهوم القرآن هو المؤمن المتعبد الوفي الكريم الصابر.

[سورة البقرة (٢): الآيات ١٧٨ الى ١٧٩]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَ الْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَ الْأُنْثى بِالْأُنْثى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ

فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَ أَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَ رَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدىٰ بَعْدَ ذٰلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٧٨) وَ لَكُمْ فِي الْقِصٰاصِ حَيٰاةٌ يٰا أُولِي الْأَلْبٰابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٧٩)

المعنى:

صنف فقهاء الشريعة الاسلامية العقوبات إلى ثلاثة أصناف: الأول الحدود، كقطع يد السارق، و رجم الزاني المتزوج، و جلد شارب الخمر، و يأتي التفصيل في محله ان شاء اللّه. الصنف الثاني الديات، و هي العقوبات المالية. الصنف الثالث القصاص، و هو ان يستوفي المجني عليه عمدا، أو وليه من الجاني بمثل ما جنى من قتل، أو قطع عضو، أو جرح. أما الضرب فلا قصاص فيه، و عقد الفقهاء لكل واحد من هذه الأصناف بابا مستقلا، و هذه الآية تدخل في باب القصاص.

(يٰا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصٰاصُ فِي الْقَتْلىٰ). كانوا في الجاهلية يسيرون على شريعة الغاب و الفوضى فيقتلون لأتفه الأسباب ظلما و عدوانا، و يقتص

تفسير الكاشف، ج ١، ص ٢٧٥

أولياء القتيل من الأبرياء، لا من الجاني نفسه، فإذا قتل رجل عادي مثله قتل أولياء القتيل عددا كبيرا من ذوي القاتل، و إذا قتلت امرأة مثلها أخذوا مكانها رجلا من أسرتها أو قبيلتها، و ربما قتلوا عشرة بواحد، و أدى هذا الظلم الى الحروب الطاحنة بين القبائل، و إبادة الكثير منها، و وراثة العداء و الأحقاد بين الأبناء و الأحفاد .. فشرع اللّه القصاص، و هو بمفهومه يفيد المساواة، و الوقوع على الجاني نفسه أيا كان دون غيره من الأبرياء، و دون زيادة أو نقصان خلافا لما كان عليه أهل الجاهلية، و أن يكون القتل عمدا، و لا قصاص في قتل الخطأ و شبه العمد «١».

و في معنى هذه الآية قوله تعالى: «النَّفْسَ بِالنَّفْسِ- المائدة ٤٥». و قوله: «فَلاٰ يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ- الاسراء ٣٣». و قوله: «وَ جَزٰاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهٰا- الشورى ٤٠». و قوله: «فَمَنِ اعْتَدىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدىٰ عَلَيْكُمْ- البقرة ١٩٤».

(الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَ الْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَ الْأُنْثىٰ بِالْأُنْثىٰ). المعنى واضح لا يحتاج الى شرح و تفسير، و هو اعتبار المساواة في القصاص بين القاتل و المقتول في الحرية و العبودية و الأنوثة.

و تسأل: ان المفهوم من سياق اللفظ ان الحر لا يقتل بالعبد، و ان الرجل لا يقتل بالمرأة، أي ان الحر إذا قتل عبدا لا يقتل به، و إذا قتل الرجل امرأة لا يقتل بها، فهل هذا محل وفاق بين الفقهاء؟.

الجواب: ان الآية تعرضت لصور ثلاث فقط، و هي حر يقتل حرا، و عبد يقتل عبدا، و امرأة تقتل امرأة و لم تتعرض للصور الباقية، و هي أربع:

حر يقتل عبدا، و عبد يقتل حرا، و رجل يقتل امرأة، و امرأة تقتل رجلا ..

---

(١) قتل العمد ان يقصد الفعل و القتل كمن طعن آخر بسكين قاصدا نفس الطعن و القتل أيضا، أو قصد الفعل القاتل فقط، أي قصد طعنه في قلبه، و لكنه لم يقصد قتله، فان هذا من قتل العمد. و الخطأ المحض أن يكون مخطئا في قصده و فعله، كمن رمى حيوانا فأصاب إنسانا فان الإنسان غير مقصود لا بالرمي و لا بالقتل. و شبه العمد أن يكون عامدا في فعله مخطئا في قصده، كمن ضرب صبيا للتأديب فمات، فان الضرب مقصود، و الموت غير مقصود، و في قتل الخطأ و شبه العمد تتعين الدية، و لا يجوز القصاص بحال.

تفسير الكاشف، ج ١، ص ٢٧٦

و قد دلت الآية بمنطوقها ان القصاص مشروع في الصور الثلاث الأولى، و هي محل وفاق بين الفقهاء، لأن صريح القرآن لا خلاف فيه .. و الآية لم تنف أو تثبت القصاص في الصور الأخرى لا منطوقا و لا مفهوما، و عليه فلا بد من الرجوع الى دليل آخر من سنة أو اجماع.

و قد اختلف الفقهاء في ذلك، فقال مالك و الشافعي و ابن حنبل: ان الحر لا يقتل بالعبد. و قال أبو حنيفة: بل يقتل الحر بعبد غيره، و لا يقتل بعبده.

و اتفق الأربعة على ان الرجل يقتل بالمرأة، و بالعكس. و قال الإمامية: إذا قتل الحر عبدا لا يقتل به، بل يضرب ضربا شديدا، و يغرّم دية العبد، و إذا قتلت المرأة رجلا عمدا كان ولي المقتول بالخيار بين أن يأخذ منها الدية ان رضيت هي، و بين أن يقتلها، فان اختار القتل فلا يغرم أهلها شيئا .. و إذا قتل الرجل امرأة كان وليها بالخيار بين أن يأخذ الدية ان رضي القاتل، و بين ان يقتله الولي على أن يدفع لورثة القاتل نصف دية الرجل ٥٠٠ دينار.

(فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَ أَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ). الضميران في له و أخيه يعودان الى القاتل، أما لفظة شيء فإنها تدل على ان ولي الدم إذا عفا عن شيء يتعلق بالقاتل، كالعفو عن قتله، و الرضا بأخذ الدية فينبغي ان يقابل القاتل هذا العفو بالمعروف، و قيل: ان لفظة شيء تشعر بأن الورثة إذا تعددوا، و عفا واحد منهم عن القاتل سقط القصاص، حتى و لو أصر بقية ورثة المقتول على القتل، و مهما يكن، فان اللّه سبحانه جعل لولي الدم حق القصاص من قاتل العمد، و ليس له أن يلزم القاتل بالدية إذا قدم نفسه للقتل، و لا للقاتل أن يلزم ولي المقتول بأخذ الدية إذا أصر على القتل قصاصا .. و لهما معا أن يتفقا و يصطلحا على مبلغ من المال بمقدار الدية، أو أقل، أو أكثر عوضا عن القصاص، فإذا تم مثل هذا الاتفاق أصبح لازما، و لا يجوز العدول عنه، و على ولي المقتول أن يطالب القاتل ببدل الصلح بالمعروف، فلا يشدد و يضيق في الطلب، أو يطلب أكثر من حقه، و على القاتل أن يؤدي المال بإحسان، و بلا مطل و بخس و أذى.

(ذٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَ رَحْمَةٌ). أي ان الحكمة من تشريع الدية بدلا عن القصاص هي التخفيف عنكم، و الرحمة بكم. **(فَمَنِ اعْتَدىٰ بَعْدَ ذٰلِكَ فَلَهُ عَذٰابٌ**

تفسير الكاشف، ج ١، ص ٢٧٧

أَلِيمٌ). كان بعض أهل الجاهلية إذا عفوا و أخذوا الدية، ثم ظفروا بعد ذلك بالقاتل قتلوه، و جمعوا بين القتل و أخذ الدية، فنهى اللّه عن هذا الاعتداء، و توعد فاعله بالعذاب الأليم. و قال جماعة من المفسرين: يتحتم على الحاكم أن يقتل من قتل القاتل بعد العفو عنه، حتى و لو بذل الدية، و رضي بها ولي المقتول .. و هذا القول مجرد استحسان لا تدل الآية عليه من قريب و لا بعيد.

(وَ لَكُمْ فِي الْقِصٰاصِ حَيٰاةٌ يٰا أُولِي الْأَلْبٰابِ). هذا تعليل لشرعية القصاص، و بيان للحكمة منه، و ان فيه صيانة الناس من اعتداء بعضهم على بعض، فان من علم انه إذا قتل يقتل يرتدع خوفا على نفسه من الهلاك، أما دفع المال فليس بالرادع الكافي عن القتل، فان الكثير من الناس يبذلون الأموال الطائلة للانتقام من أعدائهم.

و قد أطال المفسرون الكلام في بيان وجوه البلاغة في هذه الآية، و المقارنة بينها و بين قول من قال: القتل أنفى للقتل، و

ذكر بعضهم ستة أوجه لأفضلية الآية، و زاد الألوسي عليه في تفسيره، حتى أنهاها ١٣ وجها، و زاد على الألوسي من جاء بعده، و كل هذه الوجوه أو جلها ترجع الى مباحث الألفاظ.

[سورة البقرة (٢): الآيات ١٨٠ الى ١٨٢]

كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْراً الْوَصِيَّةُ لِلْوالِدَيْنِ وَ الْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ (١٨٠) فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَ ما سَمِعَهُ فَإِنَّما إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٨١) فَمَنْ خافَ مِنْ مُوصٍ جَنَفاً أَوْ إِثْماً فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٨٢)

اللغة:

الخير ضد الشر، و المراد به هنا المال، و قيل: ان كل آية في القرآن فيها

تفسير الكاشف، ج١، ص ٢٧٨

لفظة خير فالمقصود به المال «١» من ذلك: وَ إِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ- العاديات ٨.

فَكاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْراً- النور ٣٣. إِنِّي أَراكُمْ بِخَيْرٍ- هود ٨٣ و المعروف ما يستحسنه أهل العرف، و الجنف الخطأ.

الإعراب:

الوصية نائب فاعل كتب، و حقا منصوب على المصدر، تقديره أحق حقا، و من موص متعلق بمحذوف حال من جنفا، و جاز أن يكون صاحب الحال نكرة لأن الحال مقدم عليه لفظا، و الضمير في بدّله و سمعه و يبدلونه عائد الى الإيصاء، أما في إثمه فيعود على التبديل، و هو مصدر مفهوم من بدّله.

المعنى:

(كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْراً الْوَصِيَّةُ لِلْوالِدَيْنِ وَ الْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ) هذه الآية من آيات الأحكام، و تدخل في باب الوصية، و قد كثرت و تضاربت حولها أقوال الفقهاء و المفسرين .. من ذلك ان من كان عنده مال و ظهرت له دلائل الموت و علاماته فيجب عليه أن يوصي بشيء من ماله للوالدين و الأقربين، حتى و لو كانوا وراثا، فيجمع لهم بين الميراث و الوصية بالمال، و منها ان الوصية تجب للقريب إذا كان غير وارث، و منها ان الوصية للأقرباء مستحبة، و ليست بواجبة، و منها أن يوصي لورثته بحقهم و أنصبتهم من الميراث، فالآية تجري مجرى قوله تعالى: يُوصِيكُمُ اللهُ فِي أَوْلادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ، و منها ان الوصية للاقارب انما تجب إذا كان المال كثيرا، و منها ان الآية منسوخة بآية المواريث، الى غير ذلك من الأقوال التي لا تعتمد على أساس.

---

(١) وجدت هذا القول في بعض ما لدي من كتب التفسير، و ترده الآية ١٠٦ من هذه السورة: «ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها» حيث أطلقت لفظ الخير على الاية، لا على المال.

الوصية للوارث:

اختلف السنة و الشيعة في صحة الوصية للوارث، و قد اتفق فقهاء المذاهب الأربعة على انها لا تصح معتمدين على حديث: «لا وصية لوارث».

و اتفق فقهاء الشيعة الامامية على صحة الوصية لوارث و غيره، لعدم ثبوت هذا الحديث عندهم، و لأن الأدلة الدالة على صحة الوصية و جوازها تشمل بعمومها الوصية للوارث .. بالاضافة الى روايات خاصة عن أهل البيت (ع)، و أقوى الأدلة كلها على صحة الوصية للوارث هذه الآية، قال العلامة الحلي في كتاب التذكرة:

«الوصية للوارث صحيحة عند علمائنا كافة، سواء أجاز الوارث أو لا، لقوله تعالى: **كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْراً الْوَصِيَّةُ لِلْوالِدَيْنِ وَ الْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَ ما سَمِعَهُ فَإِنَّما إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ**- فأوجب اللّه الوصية للوالدين اللذين هما أقرب الناس الى الميت، ثم قال تأكيدا للوجوب: حقا على المتقين، و هو يعطي عدم اتقاء من لا يعتقد ذلك، ثم ثنى التأكيد بقوله تعالى: «**فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَ ما سَمِعَهُ فَإِنَّما إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ**، ثم أكد هذه الجملة بقوله: **إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ**، و هذه الآية نص في الباب».

و تسأل: ان الشيعة قالوا بجواز الوصية للوالدين و الأقربين، و لم يقولوا بوجوبها مع ان الآية صريحة في الوجوب، لأن معنى كتب فرض، و على هذا فان الشيعة قد خالفوا ظاهر الآية، كما خالفها السنة القائلون بعدم صحة الوصية للوارث.

الجواب: من المتفق عليه بين المسلمين كافة ان استخراج الحكم الشرعي من القرآن لا يجوز إلا بعد النظر الى السنة النبوية، بل و البحث عن الإجماع أيضا، فإذا لم يكن سنة و لا اجماع في موضوع الآية جاز الاعتماد على ظاهرها، و قد ثبت في السنة، و قام الإجماع على ان الوصية للأقرباء ليست بواجبة .. اذن، فلا بد من حمل الآية على استحباب الوصية لهم دون الوجوب، و يكون معنى:

حقا على المتقين، ان هذا الاستحباب ثابت حقا، لأن معنى الحق هو الثبوت.

تفسير الكاشف، ج ١، ص ٢٨٠

و المراد من المعروف بالآية أن يكون الشيء الموصى به مناسبا بحال الموصي و الموصى له، فلا يستنكر و يستهجن لقلته، و لا يبلغ حدا من الكثرة يضر بالوارث، كما لو تجاوز عن ثلث التركة، فلقد جاء في الحديث: «ان اللّه أعطاكم ثلث أموالكم عند وفاتكم».

(فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَ ما سَمِعَهُ). أي بدّل الإيصاء و حرفه، و هو عالم به.

(فَإِنَّما إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ). أي ان اثم التبديل و التحريف يقع على من بدّل و حرّف، وارثا كان أو وليا أو حاكما أو وصيا أو شاهدا .. و في هذا دليل على ان من اقترف ذنبا فان و باله عليه وحده لا على غيره، فإذا أوصى الميت بما عليه من حق للّه أو للناس، و أوصى في تنفيذه الى من اعتقد صدقه و أمانته، ثم قصر الوصي أو خان فلا اثم على الميت و انما الآثم المسئول هو الوصي وحده. قال الرازي: ان العلماء استدلوا بهذه الآية على ان الطفل لا يعذب بكفر أبيه .. و هذا من بديهيات العقل التي أقرها القرآن بشتى الأساليب، منها: «وَ لا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى».

(فَمَنْ خافَ مِنْ مُوصٍ جَنَفاً أَوْ إِثْماً فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ). الجنف الخطأ، و الإثم تعمد الظلم. و هذه الآية استثناء من الحكم السابق، أي ان المبدل للوصية آثم الا إذا زل الوصي في وصيته، فعندها يجوز للوصي أو للولي أو

الحاكم أن يبدل الوصية من الباطل الى الحق، فالمحرّم هو تبديل الحق الى الباطل، لا تبديل الباطل الى الحق.

هذا ما ذكره المفسرون في معنى الآية، و هو صحيح في نفسه .. و لكن الذي نفهمه من سياق الآية، و قربه صاحب مجمع البيان: ان الإنسان إذا ظهرت له دلائل الموت، و أراد أن يوصي بأشياء فيها حيف، مثل أن يعطي بعضا و يحرم بعضا .. و حضر هذه الوصية من حضر من العقلاء و المؤمنين فلا إثم على الحاضر أن يشير على الموصي بالحق، و أن يرده الى الصواب، و يصلح بينه و بين الورثة، كي يكون الجميع على رضا و وفاق، و لا يحدث بينهم التشاجر و التطاحن بعد موت الموصي.

تفسير الكاشف، ج ١، ص ٢٨١

[سورة البقرة (٢): الآيات ١٨٣ الى ١٨٥]

يٰا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيٰامُ كَمٰا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٨٣) أَيّٰاماً مَعْدُودٰاتٍ فَمَنْ كٰانَ مِنْكُمْ مَرِيضاً أَوْ عَلىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيّٰامٍ أُخَرَ وَ عَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعٰامُ مِسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْراً فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَ أَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (١٨٤) شَهْرُ رَمَضٰانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدىً لِلنّٰاسِ وَ بَيِّنٰاتٍ مِنَ الْهُدىٰ وَ الْفُرْقٰانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَ مَنْ كٰانَ مَرِيضاً أَوْ عَلىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيّٰامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللّٰهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَ لاٰ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَ لِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَ لِتُكَبِّرُوا اللّٰهَ عَلىٰ مٰا هَدٰاكُمْ وَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٨٥)

الإعراب:

ذكر الرازي أربعة أقوال في اعراب (أياما معدودات). و أطال الكلام في ذلك صاحب مجمع البيان، ثم اختار ان (أياما) ظرف متعلق بالصيام على ان تكون الكاف في **(كَمٰا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ)** بمعنى مثل صفة لحال محذوف، و التقدير كتب عليكم الصيام مفروضا مثل ما فرض على من كان قبلكم.

و عدة مبتدأ محذوف الخبر، و التقدير فعليه عدة، و طعام بدل من فدية، و مصدر أن تصوموا في موضع رفع بالابتداء، و خبره خير لكم، و شهر رمضان شهر خبر مبتدأ محذوف تقديره ذلكم شهر رمضان، و رمضان ممنوع من الصرف للعلمية

تفسير الكاشف، ج ١، ص ٢٨٢

و الألف و النون، و شهد منكم الشهر، الشهر مفعول فيه، أي في الشهر، فليصمه، أي يصم فيه.

المعنى:

(يٰا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيٰامُ كَمٰا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ).

الصوم من أهم العبادات، و هو واجب بضرورة الدين، تماما كوجوب الصلاة و الزكاة، و في الحديث «بني الإسلام على خمس: شهادة ان لا إله الا اللّه، و اقام الصلاة، و إيتاء الزكاة، و صيام شهر رمضان، و حج البيت لمن استطاع اليه سبيلا».

و أفتى الفقهاء ان من أنكر وجوب الصوم فهو مرتد يجب قتله، و من آمن بوجوبه، و لكن تركه تهاونا و استخفافا عزّر بما يراه الحاكم الشرعي، فان عاد عزر ثانية، فان عاد قتل، و قيل: بل يقتل في الرابعة.

و الصوم عبادة قديمة افترضها اللّه سبحانه على من سبق من الأمم بصورة مختلفة عن صومنا نحن المسلمين كمّا و كيفا و زمنا، فالتشبيه هنا تشبيه الفريضة بالفريضة بصرف النظر عن الصفة و عدد الأيام، و وقتها .. فان تشبيه شيء بشيء لا يقتضي التسوية بينهما من كل وجه.

(لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ). قال كثير من المفسرين: ان هذه الجملة تشير الى الحكمة من وجوب الصوم، و هي أن يتمرن الصائم على ضبط النفس، و ترك الشهوات المحرمة، و الصبر عنها، فقد جاء في الحديث: «الصيام نصف الصبر».

و قال الإمام أمير المؤمنين (ع): لكل شيء زكاة، و زكاة البدن الصيام. و قال:

فرض اللّه الصيام ابتلاء لاخلاص الخلق .. و بديهة ان كل أوامر اللّه و نواهيه هي ابتلاء لاخلاص الخلق، و لكن الصوم أشق التكاليف، لأن فيه مغالبة النفس، و جهادها، و ضبطها عما تميل اليه من الطعام و الشراب و شهوة الجنس.

(أَيَّاماً مَعْدُودٰاتٍ). هي ايام رمضان، لأن اللّه لم يكتب علينا غيرها.

(فَمَنْ كٰانَ مِنْكُمْ مَرِيضاً أَوْ عَلىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَ عَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ

تفسير الكاشف، ج١، ص ٢٨٣

فِدْيَةٌ طَعٰامُ مِسْكِينٍ). ذكر اللّه في هذه الآية ثلاث مسوغات للإفطار في رمضان:

المرض، و السفر، و الشيخوخة.

و المرض المسوغ للإفطار هو أن يكون الإنسان مريضا بالفعل، و إذا صام ازداد مرضه، بحيث تشتد آلامه، أو تزيد أيامه، أو كان صحيحا، و لكن يخشى إذا هو صام أن يحدث له الصوم مرضا جديدا، أما مجرد الضعف و الهزال فلا يسوغ الإفطار ما دام محتملا، و الجسم سالما. و إذا أصر المريض على الصوم مع تحقق الضرر واقعا فسد صومه، و عليه القضاء، تماما كما لو أفطر بلا عذر.

و ثبت عن طريق السنة و الشيعة ان رسول اللّه (ص) قال: ليس من البر الصيام في السفر. و في تفسير المنار انه اشتهر عن الرسول الأعظم قوله: «الصائم في السفر كالمفطر في الحضر». و ممن ذكر هذا الحديث ابن ماجة و الطبري، و قال الرازي: ذهب قوم من علماء الصحابة الى انه يجب على المريض و المسافر أن يفطرا، ثم يصوما عدة من ايام أخر، و هو قول ابن عباس و ابن عمر، و اختيار داود بن علي الأصفهاني.

و على هذا يكون الإفطار في السفر عزيمة، لا رخصة، أي لا يجوز للمسافر أن يصوم بحال، لعدم الأمر بالصوم، و أقوى الأدلة كلها على ذلك ان اللّه سبحانه قد أوجب القضاء بنفس السفر و المرض، حيث قال: فمن كان منكم مريضا أو على سفر فعدة من ايام أخر، و لم يقل فأفطر فعدة من ايام أخر، و تقدير أفطر خلاف الظاهر، و الكلام لا يوجبه، لأنه يستقيم من غير تقدير.

أما المسوغ الثالث للإفطار، و هو الشيخوخة فقد أشار اليه سبحانه بقوله:

«و على الذين يطيقونه فدية طعام مسكين». فقد نزل هذا الحكم في خصوص المسن الضعيف الهرم رجلا كان أو امرأة، و الطاقة اسم لمن كان قادرا على الشيء مع الشدة و المشقة، و هذا هو المخير بين الصوم، و الإفطار مع الفدية، و هي اطعام مسكين، و في ذلك روايات صحيحة عن أهل البيت (ع).

(فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْراً فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ). أي من زاد في الإطعام على مسكين واحد، أو اطعم المسكين الواحد أكثر من القدر الواجب فهو خير .. و له الخيار في أن يدعو المسكين المحتاج، فيطعمه، حتى يشبع، أو يعطيه من الدقيق و الحبوب التي يأكل منها أكثر من ٨٠٠ غرام بقليل، و يجوز أن يعطيه الثمن

تفسير الكاشف، ج١، ص ٢٨٤

دراهم على شريطة أن يقول له: اجعله ثمن وجبة لك من الطعام.

(وَ أَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ). أي ان الشيخ و الشيخة الضعيفين الهرمين، و ان كانا مخيرين بين الإفطار و الصيام إلا ان تجشمهما الصيام أفضل عند اللّه من الفطر مع الفدية.

(شَهْرُ رَمَضانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ). قال صاحب مجمع البيان: لما خص اللّه الصوم بشهر رمضان بيّن ان الحكمة في ذلك ان القرآن نزل فيه، و عليه مدار الدين و الايمان .. ثم نقل صاحب المجمع عن النبي (ص) بطريق السنة و الشيعة ان صحف ابراهيم (ع) نزلت لثلاث مضين من شهر رمضان، و توراة موسى (ع) لست مضين منه، و إنجيل عيسى (ع) لثلاث عشرة خلت من رمضان، و زبور داود لثمان عشرة ليلة مضت من رمضان، و القرآن نزل على محمد (ص) لأربع و عشرين منه.

و تسأل: ان قوله تعالى: شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن يدل بظاهره ان القرآن نزل بكامله في شهر رمضان، مع العلم بأنه نزل على دفعات في مدة البعثة كلها، و هي ثلاث و عشرون سنة؟.

الجواب: ان المراد منه ان انزاله ابتدأ في شهر رمضان، لا انه انزل كاملا فيه، و سميت الليلة التي أنزل فيها ليلة القدر، أي الشرف. قال تعالى: «إِنَّا أَنْزَلْناهُ فِي لَيْلَةٍ مُبارَكَةٍ». هذا، الى أن لفظة القرآن تطلق على ما بين الدفتين، و على بعضه، أما قول من قال: ان اللّه أنزل القرآن من اللوح المحفوظ الموجود فوق السموات السبع الى سماء الدنيا جملة واحدة في ليلة القدر، ثم أنزله على محمد (ص) بالتفريق، أما هذا القول فلا دليل عليه.

(هُدىً لِلنَّاسِ وَ بَيِّناتٍ مِنَ الْهُدىٰ وَ الْفُرْقانِ). الفرقان هو الذي يفرق بين الحق و الباطل، و الخير و الشر، و تكلمنا في تفسير الآية ٢ عن معنى الهدى، و ان القرآن لم يكن كتاب فلسفة، أو تاريخ، أو علوم طبيعية، و انما هو بصائر و هدى و رحمة .. و قوله تعالى: هُدىً لِلنَّاسِ، يدل على ما في القرآن من مواعظ و حكم و وعد و وعيد يفهمه جميع الناس، و لا يختص علمه بالمجتهدين و المتخصصين.

(فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ). أي حضر في بلده، و لم يسافر في شهر

تفسير الكاشف، ج ١، ص ٢٨٥

رمضان فعليه أن يصوم أيامه، و لا يجوز أن يفطر من غير عذر، و يدل على ان المراد من شهد حضر قوله تعالى: وَ مَنْ كانَ مَرِيضاً أَوْ عَلىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ .. و أعاد ذكر المرض و السفر للتأكيد بأن شهر رمضان يجوز فيه الإفطار في حالات معينة ردا على المتزمتين الذين يظنون ان الإفطار لا يجوز بحال ..

(يُرِيدُ اللّٰهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَ لا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ). ظاهر السياق ان هذه الجملة تعليل لجواز الإفطار حال المرض و السفر و الشيخوخة، و لكنها في الحقيقة تعليل لجميع الأحكام، فقد جاء في الحديث: «يسروا و لا تعسروا، و بشروا و لا تنفروا» .. و من قال: ان الإفطار في السفر عزيمة، لا رخصة فسر قوله تعالى (يُرِيدُ اللّٰهُ بِكُمُ الْيُسْرَ) بأن اللّه يريد منكم الإفطار في السفر و المرض، و لا يريد منكم الصيام، و من قال ان الإفطار رخصة، لا عزيمة فسره بأن اللّه سبحانه يريد أن تكونوا في سعة من أمركم، و تختاروا ما هو الأيسر لكم، فان كان الإفطار أيسر فهو أفضل، و ان كان الصيام أيسر، كمن يسهل عليه الصيام في رمضان، و يشق عليه القضاء فالصيام أفضل، و ليس من شك ان الاعتبار و رعاية ظاهر اللفظ يرجحان هذا المعنى على المعنى الأول .. و لو لا الروايات الصحيحة عن أهل البيت عن جدهم (ص) لجزمنا بأن الإفطار في السفر رخصة، لا عزيمة.

(وَ لِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ). هذا تعليل للقضاء الذي أوجبه اللّه تعالى بقوله: «فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ» أي عليكم أن تقضوا الصوم

بعدد الأيام التي أفطرتم فيها من رمضان بسبب المرض و السفر لتتم عدة أيام الشهر كاملة، و تارة تكون ٣٠ يوما، و تارة ٢٩ يوما.

(وَ لِتُكَبِّرُوا اللهَ عَلىٰ ما هَداكُمْ وَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ). أي ان اللّه سبحانه بيّن لنا أحكام دينه لنعظمه و نشكره. قال صاحب مجمع البيان: «المراد بقوله لتكبروا اللّه التكبيرات عقيب صلاة المغرب ليلة العيد، و صلاة العشاء، و صلاة الصبح، و صلاة العيد على مذهبنا». يشير بالتكبيرات الى هذه الصيغة التي يرددها المصلون جماعة بعد صلاة العيد، و هي اللّه أكبر اللّه أكبر لا إله الا اللّه و اللّه أكبر اللّه أكبر و للّه الحمد، اللّه أكبر على ما هدانا.

تفسير الكاشف، ج ١، ص ٢٨٦

[سورة البقرة (٢): آية ١٨٦]

وَ إِذا سَأَلَكَ عِبادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذا دَعانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَ لْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ (١٨٦)

الإعراب:

دعان بياء المتكلم، و قد حذفت للتخفيف، تماما كقوله تعالى: فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ، أي فاعبدوني.

المعنى:

(وَ إِذا سَأَلَكَ عِبادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذا دَعانِ). قيل:

ان أعرابيا جاء الى النبي (ص)، و قال له: أ قريب ربنا فنناجيه، أو بعيد فنناديه؟ فنزلت هذه الآية جوابا عن سؤال الاعرابي .. و سواء أصح هذا القول، أم لم يصح فانه يتناسب مع الموضوع.

و الدعاء من أفضل العبادات، و قد جاء الأمر به، و الحث عليه في الكتاب و السنة، لأنه اظهار للعبودية، و الافتقار اليه سبحانه. و قد تكلمنا عنه مطولا في كتاب «بين اللّه و الإنسان».

و تسأل: ان ظاهر قوله تعالى: **(إِذا دَعانِ)** بعد قوله: **(أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ)** تحصيل حاصل، لأنه أشبه بقول القائل: انظر الى القاعد إذا كان قاعدا، و اصغ الى المتكلم إذا كان متكلما؟

الجواب: ان المراد بإذا دعان الدعاء الصادر عن قلب مخلص صادق في دعائه، لا مجرد الدعاء باللسان، فهو أشبه بقول من قال: أكرم العالم إذا كان عالما. يريد العالم حقا و واقعا، لا من يتسم بسمات العالم فقط.

سؤال ثان معروف و مشهور، و هو ان الظاهر من قوله تعالى: أجيب دعوة

تفسير الكاشف، ج ١، ص ٢٨٧

الداعي و قوله: ادعوني استجب لكم، ان اللّه يستجيب لكل من دعاه، مع العلم بأن الإنسان يبالغ في الدعاء و التضرع فلا يجاب؟.

و أجاب المفسرون عن ذلك باجوبة شتى أنهاها بعضهم الى ست، و اتفقوا جميعا على ان المؤمن المطيع للّه تستجاب دعوته دون سواه، و يبطل هذا القول ان اللّه استجاب دعوة إبليس .. قال أنظرني الى يوم يبعثون قال انك من المنظرين.

و مهما يكن، فان الجواب عن هذا السؤال يستدعي التفصيل على الوجه التالي:

١- أن يطلب العبد من ربه ما يتنافى مع العادات و سنن الطبيعة، كطلب الرزق من غير السعي، و العلم من غير تعلم، و ما الى ذاك من إيجاد المسببات بلا أسبابها، و دخول البيوت من حيطانها، لا من أبوابها .. و ليس هذا من الدعاء في شيء،

أو هو من دعاء الجاهل باللّه و حكمته و سننه، فان للّه سنة في خلقه، وَ لَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً- الفتح ٢٣.

٢- أن يطلب في دعائه التوفيق و الهداية الى احكام الدين، و عمل الخير، و فعل الواجبات، و ترك المعاصي و المحرمات: (اهْدِنَا الصِّرٰاطَ الْمُسْتَقِيمَ)، و اجتناب الشرور و الآفات: (قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ مِنْ شَرِّ مٰا خَلَقَ)، و ان يهيئ له اللّه أسباب النجاح في الرزق و العلم و الصحة: (رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي وَ يَسِّرْ لِي أَمْرِي)، على أن يعمل الداعي جاهدا مخلصا متوكلا على اللّه وحده .. و هذا هو مسؤول الأنبياء و الصالحين، و المقصود من دعائهم.

٣- ينبغي قبل كل شيء أن نتنبه، و لا نذهل عن هذه الحقيقة التي نراها و نشاهدها بالعيان، و هي ان اللّه سبحانه يعطي من سأله، و من لم يسأله تحننا منه و كرما، و انه يهب الملك لمن يشاء، و يمنع الملك عمن يشاء، و يذل من يشاء، و يعز من يشاء من غير دعاء .. و عليه فليس معنى قوله تعالى: أجيب دعوة الداعي إذا دعان أنه لا يعطي إلا من دعاه، و لا معنى قوله: ان رحمة اللّه قريب من المحسنين، أن رحمة اللّه هذه بعيدة عن المسيئين .. كلا .. ان رحمته وسعت كل شيء، و ما كان عطاء ربك محظورا.

و تجمل الاشارة الى أنه قد جاء في بعض الروايات دعاء لوجع البطن، و آخر لوجع الظهر، و ثالث للعين و الضرس، و ما اليه .. و هذه الروايات اما موضوعة،

تفسير الكاشف، ج ١، ص ٢٨٨

لأنها تخالف الواقع، و لا تغني شيئا، و اما أن يكون القصد منها السعي في العلاج مع التوكل على اللّه .. قيل: ان عليا أمير المؤمنين (ع) مر بأعرابي، و إلى جنبه ناقة جرباء، فقال له الإمام: ألا تداويها؟ قال: بلى، يا أمير المؤمنين، اني أداويها. قال الإمام: و بماذا؟ قال الاعرابي: بالدعاء. قال الإمام:

ضع مع الدعاء شيئا من القطران.

(فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَ لْيُؤْمِنُوا بِي) قال الرازي في تفسيره: يقول اللّه سبحانه لعبده: أنا أجيب دعاءك، مع اني غني عنك مطلقا، فكن أنت أيضا مجيبا دعائي، مع انك محتاج إلي من كل الوجوه، فما أعظم هذا الكرم!

[سورة البقرة (٢): آية ١٨٧]

أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيٰامِ الرَّفَثُ إِلىٰ نِسٰائِكُمْ هُنَّ لِبٰاسٌ لَكُمْ وَ أَنْتُمْ لِبٰاسٌ لَهُنَّ عَلِمَ اللهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتٰانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتٰابَ عَلَيْكُمْ وَ عَفٰا عَنْكُمْ فَالْآنَ بٰاشِرُوهُنَّ وَ ابْتَغُوا مٰا كَتَبَ اللهُ لَكُمْ وَ كُلُوا وَ اشْرَبُوا حَتّٰى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيٰامَ إِلَى اللَّيْلِ وَ لاٰ تُبٰاشِرُوهُنَّ وَ أَنْتُمْ عٰاكِفُونَ فِي الْمَسٰاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللهِ فَلاٰ تَقْرَبُوهٰا كَذٰلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ آيٰاتِهِ لِلنّٰاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (١٨٧)

اللغة:

ليلة الصيام هي الليلة التي يصبح المرء منها صائما، و الرفث في الأصل القول الفاحش، و المراد به هنا الجماع، و اللباس معروف، و هو الثوب، و المراد به

تفسير الكاشف، ج ١، ص ٢٨٩

في الآية الملابسة من لابسه بمعنى خالطه، و المراد بالخيط الأبيض الفجر، و بالخيط الأسود الليل.

المعنى:

(أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيٰامِ الرَّفَثُ إِلىٰ نِسٰائِكُمْ). أي يجوز للصائم أن يأتي امرأته في ليلة الصيام، و ليلة الصيام تشمل

جميع ليالي رمضان، و لا تختص بليلة دون أخرى، و لا بجزء من الليلة دون جزء، للإطلاق و عدم التقييد.

و كنّى اللّه سبحانه بالرفث عن الجماع تنزيها في التعبير، كما كنّى عنه في آيات أخر باللمس و الإفضاء و الدخول و الغشيان و المقاربة، قال تعالى: لامَسْتُمُ النِّساءَ.

أفضى بعضكم الى بعض. دخلتم بهن. فلما تغشاها. و لا تقربوهن حتى يطهرن.

قال ابن عباس: ان اللّه حيي يكني بما شاء.

(هُنَّ لِباسٌ لَكُمْ وَ أَنْتُمْ لِباسٌ لَهُنَّ). قال بعض المفسرين: اللباس هنا كناية عن المعانقة. و قال الرازي: ان الربيع قال: المراد هن فراش لكم، و أنتم لحاف لهن .. و هذا تماما كترجمة بعض المستشرقين: هن بنطلون لكم و أنتم بنطلون لهن .. و الصحيح ان اللباس هنا مصدر لابس، بمعنى خالط، و القصد بيان حكمة الترخيص في مباشرة النساء ليلة الصيام، و هي ان شدة المخالطة و المعاشرة بين الزوجين تجعل من العسير على الرجل أن يصبر عن امرأته.

(عَلِمَ اللهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتابَ عَلَيْكُمْ وَ عَفا عَنْكُمْ). الخطاب للبعض لا للكل، و نستكشف من لفظ الخيانة و التوبة و العفو ان البعض قد صدرت عنه معصية للّه، و نستكشف نوع هذه المعصية من قوله تعالى: **فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ**، إذ المفهوم منه انه قد أحل لكم من الآن مباشرة نسائكم، و لازم هذا ان المباشرة كانت محرمة من قبل، ثم صارت حلالا.

و قال أكثر المفسرين: ان اللّه أحل للصائم في أول الشريعة أن يأكل و يشرب و يجامع في ليلة الصيام بشرط أن لا ينام، أو يصلي صلاة العشاء، فإذا نام في الليل أو صلى العشاء حرم عليه الطعام و الشراب و الجماع، حتى تدخل الليلة التالية، و ان بعض الصحابة لم يتقيد بهذا الشرط، و جامع امرأته بعد ان استيقظ من

تفسير الكاشف، ج ١، ص ٢٩٠

رقاده، ثم ندم، و اعترف للنبي (ص) بذنبه، فنزلت الآية ..

و مهما يكن، فان للنفس ميولا لا يملك الإنسان كبح جماحها في كثير من الأحيان، فيشبعها مستخفيا من الناس، أو محرفا دين اللّه، فالأفضل تحليل الشيء المرغوب، ان كان هناك وجه للتحليل، كي لا يتمادى الإنسان في الغي، و تجره المعصية الأولى الى المعصية مرات و مرات، و بالتالي الى الاستخفاف و اللامبالاة بالدين و احكام اللّه.

(وَ ابْتَغُوا ما كَتَبَ اللهُ لَكُمْ) من التمتع بالنساء ليلة الصيام الذي كان محرما عليكم من قبل. **(وَ كُلُوا وَ اشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ)**. أي أبيح لكم الأكل و الشرب، كما أبيح لكم الجماع من أول الليل، حتى مطلع الفجر، و عن رسول اللّه (ص): «الفجر فجران:

فأما الذي كأنه ذنب السرحان، فانه لا يحل شيئا، و لا يحرمه، و اما المستطيل الذي يأخذ في الأفق- أي ينتشر فيه- فانه يحل الصلاة، و يحرم الطعام».

(ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيامَ إِلَى اللَّيْلِ). مبدأ الصيام أول الفجر، و منتهاه أول الليل، و يدخل الليل بمجرد مغيب الشمس، و لكن مغيبها لا يعرف بمواراتها عن العيان، بل بارتفاع الحمرة من المشرق، لأن المشرق مطل على المغرب، و على هذا تكون الحمرة المشرقية انعكاسا لنور الشمس، و كلما أوغلت الشمس في المغيب تقلص هذا الانعكاس. أما ما نسب الى الشيعة من أنهم يؤخرون صلاة المغرب و الإفطار في رمضان حتى تشتبك النجوم فهو كذب و افتراء، فقد قيل للإمام الصادق (ع): ان أهل العراق يؤخرون المغرب حتى تشتبك النجوم، قال: هذا من عمل عدو اللّه أبي الخطاب.

(وَ لا تُباشِرُوهُنَّ وَ أَنْتُمْ عاكِفُونَ فِي الْمَساجِدِ). في كتب الفقه باب خاص، اسمه باب الاعتكاف، و في الغالب يذكره الفقهاء بعد باب الصوم، و معنى الاعتكاف في الشرع أن يقيم الإنسان في المسجد الجامع ثلاثة أيام بليلتين على الأقل صائما، على أن لا يخرج من المسجد إلا لحاجة ماسة، و يعود بعد قضائها مباشرة، و يحرم على المعتكف مباشرة النساء ليلا و نهارا، حتى التقبيل و اللمس بشهوة .. و النهي هنا متعلق بمباشرة النساء إطلاقا في المسجد و خارجه، فإذا خرج المعتكف من المسجد، و جامع ليلا، و اغتسل، ثم رجع الى المسجد فقد

تفسير الكاشف، ج١، ص ٢٩١

ارتكب محرما، و عليه كفارة من أفطر في شهر رمضان متعمدا: عتق رقبة، أو صيام شهرين متتابعين، أو اطعام ستين مسكينا.

[سورة البقرة (٢): آية ١٨٨]

وَ لا تَأْكُلُوا أَمْوالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْباطِلِ وَ تُدْلُوا بِها إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقاً مِنْ أَمْوالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَ أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (١٨٨)

المعنى:

(وَ لا تَأْكُلُوا أَمْوالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْباطِلِ). الخطاب لجميع المكلفين، و المعنى لا يأكل بعضكم مال بعض، تماما كقوله تعالى: وَ لا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ، أي لا يقتل بعضكم بعضا، و فيه اشعار بوحدة الانسانية و تكافلها، و انها بمنزلة الجسم الواحد، و الفرد عضو من أعضائها يصيبه ما أصابها، و بالعكس.

و المراد بالأكل مطلق التصرف في المال المأخوذ بطريق لا يقره الشرع، و لفظة بينكم بالآية تخصصها و تقيدها بالمال المأخوذ عن طريق المعاملات المحرمة، كالمعاوضات الربوية، أو القائمة على محرم كالخمر و الخنزير و الميتة، أو الغش و الاحتيال، و ما الى ذلك مما لا يقره الشرع «و مثلها قوله تعالى في الآية ٢٨ النساء:

«لا تَأْكُلُوا أَمْوالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْباطِلِ إِلاَّ أَنْ تَكُونَ تِجارَةً عَنْ تَراضٍ مِنْكُمْ». أما حرمة المال المأخوذ بالسلب و الغصب و السرقة و اليمين الكاذبة، و ما إلى ذاك فتستفاد من دليل آخر .. و من أجل هذا استدل الفقهاء بالآيتين على بطلان كل معاملة حرم اللّه المال المأخوذ بسببها. و هذه الآية تدل دلالة صريحة و واضحة على ان الإسلام يقر الملكية الفردية.

(وَ تُدْلُوا بِها إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقاً مِنْ أَمْوالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ). تدلوا عطف على لا تأكلوا، و المراد بالإثم هنا الرشوة بقرينة السياق، و المعنى المقصود هو النهي عن رشوة الحكام للوصول الى أكل أموال الناس.

تفسير الكاشف، ج١، ص ٢٩٢

(وَ أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ). أي لا ترتكبوا هذا الإثم و أنتم عالمون بقبحه، و ليس من شك ان الاقدام على القبيح مع العلم أقبح من الاقدام مع الشبهة .. و في الحديث: «الوقوف عند الشبهة خير من الاقتحام في الهلكة». فبالأولى إذا كان عالما بالتحريم.

و الرشوة من أعظم المحرمات، حتى على الحكم بالحق، فقد لعن اللّه و رسوله الراشي و المرتشي و الماشي بينهما بالرشوة، و في رواية ان الرشوة كفر باللّه العظيم، و في ثانية انها شرك.

حكم القاضي الفاسق:

قال الحنفية: ان حكم القاضي الفاسق نافذ، فقد جاء في متن الكتاب المعروف بابن عابدين ج ٤ ص ٣١٢ طبعة ١٣٢٥ هـ باب القضاء ما نصه بالحرف: «الفاسق أهل للشهادة، فيكون أهلا للقضاء». و في فتح القدير ج ٥ ص ٤٥٤ باب القضاء:

«الوجه تنفيذ حكم كل من ولاه سلطان ذو شوكة، و ان كان جاهلا فاسقا، و هو ظاهر المذهب عندنا».

و أجمع الشيعة الإمامية كلمة واحدة على ان الفاسق لا يجوز أن يتولى القضاء، و ان حكمه لا ينفذ إطلاقا بالغا ما بلغ من العلم .. و تشدد جماعة من الفقهاء الإمامية، حيث ذهبوا الى ان صاحب الحق لا يجوز له أن يرفع دعواه الى غير القاضي العادل، حتى و لو انحصر تحصيل حقه بهذا الترافع، بحيث لولاه لذهب هدرا و ضياعا، و إذا خالف صاحب الحق، و رجع الى القاضي غير العادل، و حكم له هذا بالحق فلا يجوز لصاحبه أن يأخذ الشيء المحكوم به، و ان كان حقا، عملا بقول الإمام جعفر الصادق (ع): «فإنما يأخذه سحتا، و ان كان حقا ثابتا له».

و قال أكثر الفقهاء الإمامية: ان لصاحب الحق أن يستعين بغير العادل للحصول على حقه إذا انحصر بالرجوع اليه، بحيث لا يجد وسيلة سواه من غير فرق بين أن يكون الحق دينا أو عينا، لأن دفع الضرر عن النفس جائز، و قد يجب، و لا يتم الا بالرجوع الى غير العادل، كما هو المفروض، فيكون جائزا أو

تفسير الكاشف، ج ١، ص ٢٩٣

واجبا، أما الإثم و الحرام فهو على من امتنع عن دفع الحق، لا على من أخذ حقه.

حكم الحاكم لا يغير الواقع:

إذا تحاكم اثنان عند الحاكم المجتهد العادل، و حكم لغير صاحب الحق، لعجز هذا عن الإثبات فلا يجوز للخصم المحكوم له أن يأخذ الشيء المحكوم به، لأن حكم الحاكم لا يغير الواقع، و ينفذ ظاهرا، لا واقعا، قال الرسول الأعظم (ص):

«انما انا بشر مثلكم يوحى إليّ، و أنتم تختصمون الي، و لعل بعضكم الحن بحجته من بعض، فاقضي له على نحو ما أسمع، فمن قضيت له شيئا من حق أخيه فإنما أقضي له قطعة من نار».

و لكن أبا حنيفة قال بعكس ذلك تماما، فقد نقل عنه صاحب تفسير المنار عند التعرض لهذه الآية انه قال: إذا حكم القاضي بفسخ النكاح بين الزوجين اعتمادا على شهادة الزور حرم عليهما معا ان يعيشا عيشة الأزواج، و إذا شهد شهود زور بأن فلانا عقد على فلانة، و حكم القاضي بصحة العقد حل للرجل المحكوم له أن يدخل بها بغير عقد اكتفاء بحكم القاضي الذي يعلم انه بغير حق.

[سورة البقرة (٢): آية ١٨٩]

يَسْئَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوٰاقِيتُ لِلنَّاسِ وَ الْحَجِّ وَ لَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهٰا وَ لٰكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقىٰ وَ أْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوٰابِهٰا وَ اتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٨٩)

اللغة:

الاهلة جمع هلال، و هو في واقعه جرم واحد، و انما صح الجمع بالنظر الى تعدد الأشهر، و المواقيت جمع ميقات، و هو الزمن المقدر المعين.

تفسير الكاشف، ج ١، ص ٢٩٤

الاعراب:

للناس متعلق بمحذوف صفة للمواقيت، و الباء في بأن تأتوا زائدة، لأنها وقعت بعد النفي، و المصدر المنسبك في

موضع نصب خبر ليس.

المعنى:

(يَسْئَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ). يحتمل هذا السؤال أمرين إذا نظرنا اليه مستقلا عن جوابه: الأول أن يكون السؤال عن السبب الطبيعي لاختلاف ما يبدو أولا من دقة الهلال: ثم تمامه بدرا، ثم يعود كما كان، و هكذا دواليك. الاحتمال الثاني أن يكون السؤال عن الحكمة في ذلك، لا عن السبب الطبيعي، أما إذا نظرنا الى السؤال و جوابه معا، و هو **(قُلْ هِيَ مَوٰاقِيتُ لِلنَّاسِ)** تعين أن يكون السؤال عن الحكمة فقط، دون السبب الطبيعي، و هذا هو الأرجح عملا بمبدإ مطابقة الجواب للسؤال.

أما قول من قال: انهم سألوا عن السبب الطبيعي، و ان اللّه سبحانه أمر نبيّه أن يجيبهم ببيان الحكمة تعريضا بأن سؤالهم في غير محله، لأنهم عاجزون عن إدراك السبب الطبيعي الذي يحتاج الى دراسة طويلة و عميقة، و مقدمات علمية كثيرة، و ان الأجدر بهم أن يسألوا عن الحكمة و الفائدة في اختلاف الاهلة، حيث يمكنهم فهمها و هضمها- أما هذا القول فمجرد احتمال لا يستند إلى دليل سوى الاستحسان.

و تقول: ان الدليل موجود، و هو قوله تعالى: **لَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهٰا**، لأن معناه ان سؤالكم عن السبب الطبيعي كمن يطلب دخول البيت من ظهره، أما سؤالكم عن الحكمة فهو كمن يطلب دخول البيت من بابه.

الجواب: أولا ان هذا اجتهاد في تأويل اللفظ، و ليس تفسيرا لظاهر اللفظ ..

ثانيا لقد ثبت ان هذه الجملة نزلت في ما كان يفعله أهل الجاهلية إذا أحرموا من إتيان البيت من ظهره .. و التفصيل فيما يلي.

تفسير الكاشف، ج ١، ص ٢٩٥

و مهما يكن، فان اللّه سبحانه أمر نبيه الأكرم (ص) أن يجيبهم بأن الحكمة من اختلاف الاهلة هي توقيت مصالحهم و أمورهم الدنيوية كالديون و الإجارات، و أمورهم الدينية كالحج و الصوم. و بكلمة ان الجواب يجري مجرى قوله تعالى: «وَ قَدَّرَهُ مَنٰازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَ الْحِسٰابَ- يونس ٥».

(وَ لَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهٰا وَ لٰكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقىٰ وَ أْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوٰابِهٰا). قال أكثر المفسرين: ان أهل الجاهلية كان إذا أحرم أحدهم نقب نقبا في ظهر بيته و دخل منه، أو اتخذ سلما يصعد منه الى سطح البيت، و ان كان من أهل الوبر خرج من خلف الخباء، و كان بعض المسلمين يفعل ذلك في أول الأمر، فنزلت الآية تبين لهم ان البر هو تقوى اللّه، و عمل الخير، و التخلي عن المعاصي و الرذائل، لا بدخول البيوت من ظهورها، و ما إلى ذلك من التقاليد التي تحجب العقل عن ادراك الحقيقة، و لا تمت إلى الدين و الايمان بسبب.

[سورة البقرة (٢): الآيات ١٩٠ الى ١٩٣]

وَ قٰاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللّٰهِ الَّذِينَ يُقٰاتِلُونَكُمْ وَ لاٰ تَعْتَدُوا إِنَّ اللّٰهَ لاٰ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (١٩٠) وَ اقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَ أَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَ الْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَ لاٰ تُقٰاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرٰامِ حَتّٰى يُقٰاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قٰاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذٰلِكَ جَزٰاءُ الْكٰافِرِينَ (١٩١) فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللّٰهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٩٢) وَ قٰاتِلُوهُمْ حَتّٰى لاٰ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَ يَكُونَ الدِّينُ لِلّٰهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَلاٰ عُدْوٰانَ إِلاّٰ عَلَى الظّٰالِمِينَ (١٩٣)

اللغة:

ثقف الشيء إذا حذقه، و المراد بالثقف هنا الوجود، حيث ثقفتموهم أي

تفسير الكاشف، ج ١، ص ٢٩٦

وجدتموهم، و الفتنة الابتلاء و الاختبار، و المراد بها هنا الكفر باللّه بقرينة قوله تعالى: **وَ يَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ.**

الاعراب:

يقاتلوكم منصوب بأن بعد حتى، و المصدر المنسبك مجرور بحتى متعلق بيقاتلوكم، و مثله حتى لا تكون فتنة.

المعنى:

في مجمع البيان عن ابن عباس ان رسول اللّه (ص) لما خرج هو و أصحابه في العام الذي أرادوا فيه العمرة «١» و كانوا ألفا و أربعمائة، و حين وصلوا الحديبية صدهم المشركون عن البيت الحرام، فنحروا الهدي في الحديبية، ثم صالحهم المشركون على أن يرجعوا و يعودوا في العام المقبل .. فلما كان العام المقبل تجهز المسلمون لقضاء العمرة، و لكنهم خافوا ان لا تفي لهم قريش و يقاتلوهم، و كره النبي (ص) و أصحابه قتال المشركين في الشهر الحرام في الحرم، فأنزل اللّه هذه الآية، و اذن لهم بالقتال، و قال جماعة: انها أول آية نزلت في القتال.

الإسلام حرب على الظلم و الفساد:

قال بعض الجدد من الذين يغارون على الإسلام، و يحاولون الذب عنه بكل وجه، حتى و لو خالف منهج القرآن، قالوا: ان الإسلام لا يجيز قتال أحد الا من أصر على القتال، و ابتدأ به، و ان الحروب الاسلامية في عهد الرسول كانت دفاعية، لا هجومية، و استدلوا بآيات، منها هذه الآية: و قاتلوا في سبيل اللّه الذين يقاتلونكم، و منها: و قاتلوا المشركين كما يقاتلونكم كافة .. و الذي

---

(١) كان ذلك في ذي القعدة سنة ست من الهجرة. و كانت الحديبية يومذاك كثيرة المياه و الأشجار، أما اليوم فصحراء جرداء على ما رأيتها سنة ١٩٦٤ م.

تفسير الكاشف، ج ١، ص ٢٩٧

دفعهم الى هذا القول ما يردده أعداء الإسلام من انه دين حرب، لا دين سلام متذرعين بحروب الرسول الأعظم (ص).

و الحق ان الإسلام أجاز القتال في موارد: منها الدفاع عن النفس. و منها:

قتال أهل البغي، قال تعالى في الآية ١٠ من سورة الحجرات: «وَ إِنْ طائِفَتانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُما فَإِنْ بَغَتْ إِحْداهُما عَلَى الْأُخْرىٰ فَقاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلىٰ أَمْرِ اللهِ». و منها: القتال للقضاء على الكفر باللّه، قال تعالى في الآية ٣٠ من التوبة: «قاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَ لا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَ لا يُحَرِّمُونَ ما حَرَّمَ اللهُ وَ رَسُولُهُ وَ لا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَ هُمْ صاغِرُونَ». و قال الرسول الأعظم (ص): «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله الا اللّه، فان قالوها عصموا مني دماءهم و أموالهم» و لكن هذا النوع من الجهاد و القتال لا يجوز الا بإذن المعصوم أو نائبه تحرزا من الفوضى.

ان جواز القتال دفاعا عن النفس لا يدل على عدم الاذن بالقتال لغاية أخرى، كالقضاء على البغي و الكفر .. ان الإسلام

يجيز الحرب و القتال من أجل التدين بدين الحق و العدل، لأن الكفر عدوان بذاته في مفهوم الإسلام، و يحرم القتال من أجل استعباد الشعوب، و نهب مقدراتها، و السيطرة على أسواقها. لقد أجاز الإسلام العنف للقضاء على الجرائم و الآثام، و الدفاع عن حقوق الإنسان و حريته و كرامته .. و أثار المستعمرون الحروب، و سفكوا الدماء، و سخروا العلم للتخريب و الفناء «١» من أجل النهب و السلب، و سيادة الظلم و العدوان .. هذا هو الجواب الصحيح الذي ينبغي أن يجاب به الذين يحاولون النيل من الإسلام و نبي الإسلام متذرعين بأنه دين القتال و السيف .. ان الإسلام ايجابي، لا سلبي .. انه حرب على كل من لا يدين بدين الحق و العدل، و يبغي في الأرض الفساد .. و الكفر باللّه ظلم و فساد في دين الإسلام و شريعته.

---

(١) في سنة ١٩٥٧ صدر كتاب بالولايات المتحدة، اسمه مستقبل الطاقة الذرية، و اسم المؤلف تريتون، جاء فيه ان التقدم العلمي خفض كثيرا سعر قتل الإنسان، فقبل القنبلة الذرية كان قتل الرأس البشرية يكلف العديد من الجنيهات، و بعدها أصبح يكلف جنيها واحدا، و بعد القنبلة الهيدروجينية أصبح يكلف شلنا واحدا.

تفسير الكاشف، ج ١، ص ٢٩٨

و لا بد من الاشارة بهذه المناسبة الى ان فقهاء المذاهب الاسلامية كافة اتفقوا كلمة واحدة على ان كل من انتهك حرمات اللّه مستحلا لها و لسفك الدماء، و نهب الأموال المحرمة بضرورة الدين فهو و الكافر باللّه سواء، حتى و لو صلى و صام و حج الى بيت اللّه الحرام، بل ان هذا أسوأ حالا ممن كفر و حرم سفك الدماء و نهب الأموال، و كف أذاه عن الناس .. ان كلا منهما كافر ما في ذلك ريب، و لكن هذا كافر كف شره و أذاه عن عباد اللّه و عياله، و ذاك كافر مسيء الى اللّه و عباده و عياله .. قال رسول اللّه (ص): خير الناس أنفع الناس للناس، و شر الناس من تخاف الناس من شره .. و مرة ثانية ان كل من أنكر حكما شرعيا ثبت بالبديهة الدينية و اجماع المسلمين كافة فهو كافر بالاتفاق، و ان تولد من أبوين مسلمين، و نطق بالشهادتين.

و قوله تعالى: **(وَ لا تَعْتَدُوا)** أي لا تقاتلوا بدافع المنفعة الشخصية، بل قاتلوا بدافع انساني شريف، و قصد الذب عن الدين و الحق، و لا تقتلوا النساء و الأطفال و الشيوخ و المرضى، و لا تخربوا العمار، و تقطعوا الأشجار .. و كل هذه التعاليم و ما اليها قد وردت في السنة النبوية.

(وَ اقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ). أي اقتلوا الكافرين في أي زمان أو مكان كانوا إلا في المسجد الحرام فان القتال فيه محرم إلا أن يبتدئوا به.

و تسأل: ان الآية الأولى أمرت بقتال من يقاتل المسلمين، و هذه أطلقت و لم تقيد، فهل هذه ناسخة لتلك كما قيل؟.

الجواب: لا نسخ، و منذ قريب أشرنا الى أن جواز القتال دفاعا عن النفس لا يدل على عدم الاذن بالقتال لغاية أخرى، كالقضاء على الكفر و الظلم، و بكلمة إذا قلت لإنسان: أنت طيب ليس معنى قولك هذا ان غيره ليس بطيب، فكذلك قوله تعالى: **قاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقاتِلُونَكُمْ** ليس معناه لا تقاتلوا من لا يقاتلكم.

أجل، لو قال: لا تقاتلوا إلا من يقاتلكم لدل هذا الحصر على النفي.

(وَ أَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ). أخرج مشركو مكة النبي (ص) و أصحابه منها، لا لشيء إلا لأنهم آمنوا باللّه و رسوله، فأمر اللّه نبيه و المسلمين إن عادوا إلى مكة منتصرين ان يخرجوا منها من لا يؤمن باللّه و رسوله، تماما كما فعل المشركون من قبل جزاء وفاقا. و قيل: ان النبي (ص) أخرج المشركين

تفسير الكاشف، ج ١، ص ٢٩٩

من مكة بعد ان جاء نصر اللّه و الفتح عملا بهذه الآية.

(وَ الْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ). هذا تعليل لجواز قتل المشركين، و المراد بالفتنة الشرك، و عليه يكون المعنى انما جاز لكم قتل المشركين، لأن ذنب الشرك أشد قبحا من ذنب القتل، و في بعض التفاسير ان اللّه سبحانه أراد بقوله: (وَ الْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ) ان مشركي مكة في بدء الدعوة كانوا يفتنون من أسلم عن دينه بالإيذاء و التعذيب، و الإخراج من الوطن، و مصادرة الأموال، و هذه الأعمال فتنة، و هي أشد قبحا من القتل، و من أجل هذا جاز لكم قتلهم و إخراجهم من ديارهم .. و مهما يكن، فان المراد من لفظ الفتنة في القرآن الكريم غير النميمة و نقل الكلام، كما توهم الكثيرون.

(وَ لا تُقاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ، حَتَّى يُقاتِلُوكُمْ فِيهِ). هذا شرط لجواز القتال في الحرم الشريف الذي حرم اللّه القتال فيه إلا إذا انتهكت حرمته بالقتال.

(فَإِنْ قاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ). لأنهم ابتدأوا و انتهكوا حرمة المسجد الحرام، و البادئ ليس بأظلم، بل هو وحده الظالم.

(فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ). و رعاية السياق تقتضي أن يكون المعنى إن كفوا عن القتال عند المسجد الحرام فكفوا عنهم و اغفروا لهم، لأن السبب الموجب لقتالهم هو ابتداؤهم بالقتال، فإن كفوا زال السبب. و قال كثير من المفسرين: المعنى ان تابوا عن الكفر و آمنوا باللّه و رسوله، لأن الكافر لا يغفر اللّه له بترك القتال، بل بترك الكفر .. و هذا تحكم على اللّه جل و علا، فانه يغفر لمن يشاء، حتى و لو كان كافرا .. أجل، انه تعالى لا يعذب المحسن قطعا، لأنه عادل، و لكنه يعفو عن المسيء، مهما كانت الاساءة، لأنه كريم رحيم.

(وَ قاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَ يَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ) أي ان الجهاد من أجل الايمان باللّه، و القضاء على الجحود واجب ما دام على وجه الأرض أثر للشرك و الإلحاد، فإذا زال الإلحاد، و آمن الناس جميعا باللّه سقط وجوب الجهاد.

و تجمل الاشارة الى ان وجوب الجهاد من أجل انتشار الإسلام مشروط بإذن الإمام العادل، و لا يجوز بحال من غير أمره. أما الجهاد دفاعا عن الدين و النفس فان وجوبه مطلق غير مقيد بشيء.

تفسير الكاشف، ج ١، ص ٣٠٠

(فَإِنِ انْتَهَوْا فَلا عُدْوانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ). أي فان انتهوا عن الكفر، و أسلموا فلا يحل قتالهم إلا بسبب موجب للقتل، و هو واحد من ثلاثة: كفر بعد ايمان، و زنا بعد إحصان، و قتل نفس بغير حق.

[سورة البقرة (٢): الآيات ١٩٤ الى ١٩٦]

الشَّهْرُ الْحَرامُ بِالشَّهْرِ الْحَرامِ وَ الْحُرُماتُ قِصاصٌ فَمَنِ اعْتَدى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدى عَلَيْكُمْ وَ اتَّقُوا اللهَ وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (١٩٤) وَ أَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللهِ وَ لا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَ أَحْسِنُوا إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٩٥) وَ أَتِمُّوا الْحَجَّ وَ الْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَ لا تَحْلِقُوا رُؤُسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ فَمَنْ كانَ مِنْكُمْ مَرِيضاً أَوْ بِهِ أَذىً مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَ سَبْعَةٍ إِذا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كامِلَةٌ ذلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ

حاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرامِ وَ اتَّقُوا اللهَ وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقابِ (١٩٦)

المعنى:

(الشَّهْرُ الْحَرامُ بِالشَّهْرِ الْحَرامِ). الأشهر الحرم أربعة: ثلاثة منها متتابعة، و هي ذو القعدة، و ذو الحجة، و المحرم، و شهر واحد فرد، و هو رجب، و انما سميت هذه الأشهر حرما، لتحريم القتال فيها في الجاهلية و الإسلام، فلقد كان الرجل يلقى قاتل أبيه في هذه الأشهر، و لا يتعرض له بسوء.

و سبق عند تفسير قوله تعالى: وَ قاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقاتِلُونَكُمْ، سبق ان النبي و أصحابه أرادوا العمرة في ذي القعدة سنة ست هـ فصدهم المشركون، و رموهم بالسهام و الحجارة، ثم اصطلحوا على أن يعود المسلمون في قابل، و لكن خاف المسلمون أن يبدأهم المشركون بالقتال في الشهر الحرام، فأذن اللّه لهم بقتال المشركين، و بيّن ان المحظور هو الاعتداء بالقتال دون المدافعة.

و عليه يكون معنى: الشهر الحرام بالشهر الحرام، ان من استحل دمكم أيها المسلمون في هذا الشهر فاستحلوا أنتم دمه فيه.

تفسير الكاشف، ج١، ص ٣٠١

(وَ الْحُرُماتُ قِصاصٌ). أي ان من ينتهك حرمات اللّه يقتص منه، و يعامل بمثل فعله، و هذا أصل عام يقطع كل عذر يتذرع به من ينتهك الحرمات، فمن استباح دماء الناس و أموالهم و أعراضهم استبيح منه ما استباح هو منهم ..

ان حرمة الإنسان من حرمة اللّه الا ان ينتهك حرمة غيره، فعندها يأتي الحق الذي يعلو و لا يعلى عليه. و بهذا نجد تفسير قوله تعالى: **(فَمَنِ اعْتَدىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدىٰ عَلَيْكُمْ)**. فشرط العقوبة أن تكون مماثلة لجناية المعتدي دون زيادة أو نقصان، و هذا هو القصاص في حقيقته.

و تسأل: ان من يبتدئ بالعدوان فهو معتد بلا ريب، أما من يقتص من المعتدي و يقابله بمثل فعله فلا يكون معتديا، اذن، فما هو الوجه لقوله تعالى:

فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ؟.

الجواب: ليس المراد بالاعتداء الاعتداء على حقيقته، بل المراد به جزاء الاعتداء و المقابلة بالمثل كما و كيفا بلا حيف و ظلم، و مثله قوله تعالى: وَ جَزاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُها.

(وَ أَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللهِ). الإنفاق في سبيله تعالى يشمل المصالح العامة، كالمدارس و المصحات و دور الأيتام، و الجهاد، و الصدقات على الفقراء و المساكين، و الإنفاق على الأهل و الأولاد و العيال، و أفضل موارد الإنفاق ما فيه إعزاز للدين و انتشاره، و احقاق للحق، و إبطال للباطل.

(وَ لا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ). عبّر سبحانه بالأيدي عن الأنفس .. و لو نظرنا الى هذه الجملة مستقلة عن السياق لكان المعنى ان الإنسان لا يجوز له أن يقدم على ما يعود عليه بالضرر المحض دون أن يترتب على اقدامه أية منفعة عامة، أما إذا راعينا سياق الكلام، و مجيء قوله تعالى: **لا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ** بعد قوله: **أَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللهِ**- أما إذا راعينا ذلك فيكون المعنى أنفقوا من أموالكم إنفاقا لا تقتير فيه، و لا إسراف، لأن كلا منهما يؤدي الى التهلكة، فالآية على هذا تجري مجرى قوله تعالى: «وَ الَّذِينَ إِذا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَ لَمْ يَقْتُرُوا وَ كانَ بَيْنَ ذلِكَ قَواماً- الفرقان ٦٧.

و قيل: ان معنى لا تلقوا بأيديكم الى التهلكة بترك جهاد أعداء الدين، و بذل

تفسير الكاشف، ج ١، ص ٣٠٢

المال لتجهيز المجاهدين، لأن ذلك يضعفكم، و يمكن العدو منكم فتهلكون و تذلون ..

و هذا ما أثبتته التجارب التي مر بها المسلمون، فلقد فقدوا حريتهم و كرامتهم منذ أن تركوا الجهاد و البذل في نصرة الحق و العدل، و طمع فيهم كل غاصب و سالب، حتى عصابة الصهاينة عميلة الاستعمار، فإنها احتلت فلسطين سنة ١٩٤٨، و بعد سكوتهم عنها و عن جهادهم لها عشرين عاما أغارت على سيناء، و الضفة الغربية من الأردن، و احتلتهما بمساعدة أمريكا و بريطانيا و المانيا الغربية، و قتلت الرجال، و شردت النساء و الأطفال .. و لو ان المسلمين جاهدوها من قبل لكانوا في منجى من هذه التهلكة، و هذا الذل المشين، و لم يكن لدولة إسرائيل عين و لا أثر.

(وَ أَحْسِنُوا). بالجهاد و بذل المال في سبيله، و في كل سبيل يرضي اللّه، و يمدح المرء على فعله.

[سورة البقرة (٢): الآيات ١٩٦ الى ٢٠٣]

وَ أَتِمُّوا الْحَجَّ وَ الْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَ لا تَحْلِقُوا رُؤُسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ فَمَنْ كانَ مِنْكُمْ مَرِيضاً أَوْ بِهِ أَذىً مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَ سَبْعَةٍ إِذا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كامِلَةٌ ذلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرامِ وَ اتَّقُوا اللهَ وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقابِ (١٩٦) الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُوماتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلا رَفَثَ وَ لا فُسُوقَ وَ لا جِدالَ فِي الْحَجِّ وَ ما تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللهُ وَ تَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوى وَ اتَّقُونِ يا أُولِي الْأَلْبابِ (١٩٧) لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُناحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ فَإِذا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفاتٍ فَاذْكُرُوا اللهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرامِ وَ اذْكُرُوهُ كَما هَداكُمْ وَ إِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ (١٩٨) ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفاضَ النَّاسُ وَ اسْتَغْفِرُوا اللهَ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٩٩) فَإِذا قَضَيْتُمْ مَناسِككُمْ فَاذْكُرُوا اللهَ كَذِكْرِكُمْ آباءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْراً فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنا آتِنا فِي الدُّنْيا وَ ما لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ (٢٠٠)

وَ مِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنا آتِنا فِي الدُّنْيا حَسَنَةً وَ فِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَ قِنا عَذابَ النَّارِ (٢٠١) أُولئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا وَ اللهُ سَرِيعُ الْحِسابِ (٢٠٢) وَ اذْكُرُوا اللهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُوداتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ وَ مَنْ تَأَخَّرَ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقى وَ اتَّقُوا اللهَ وَ اعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٢٠٣)

تفسير الكاشف، ج ١، ص ٣٠٣

المعنى:

تعرضت هذه الآيات من ١٩٦ الى ٢٠٣ لبعض أحكام الحج، و قد وضع الفقهاء كتبا خاصة، و ألفت فيه كتابا، اسمه الحج على المذاهب الخمسة، ثم أدرجته في كتاب الفقه على المذاهب الخمسة عند ما أعيد طبع هذا الكتاب للمرة الثالثة، كما تكلمت عن الحج مطولا في الجزء الثاني من كتاب فقه الإمام جعفر الصادق (ع) .. و قد كان الحج معروفا منذ عهد ابراهيم و إسماعيل (ع)، و استمر عليه أهل الجاهلية، و أقره الإسلام بعد أن خلّصه من المنكرات، و طعّمه ببعض المناسك.

تفسير الكاشف، ج ١، ص ٣٠٤

(وَ أَتِمُّوا الْحَجَّ وَ الْعُمْرَةَ لِلَّهِ). معنى الحج في اللغة القصد، و في الشرع عبادة خاصة في مكان مخصوص في زمن

معين، و العمرة في اللغة مطلق الزيارة، و في الشرع زيارة بيت اللّه الحرام على نحو خاص.

و الحج واجب كتابا و سنة و اجماعا، بل ثبت وجوبه بالبديهة الدينية، و من أنكره فليس بمسلم، تماما كمن أنكر وجوب الصوم و الصلاة، أما العمرة فقد أوجبها الامامية و الشافعية، و قال باستحبابها الحنفية و المالكية .. و قوله تعالى: للّه أي حجوا و اعتمروا لوجه اللّه وحده، لا لمقاصد دنيوية، فقد كانت العرب تقصد الحج للاجتماع و التفاخر و التنافر، و قضاء الحوائج، و حضور الأسواق، فأمر اللّه بالقصد اليه للعبادة الخالصة من كل شائبة.

(فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ). الإحصار هو الحبس و المنع، و الهدي ما يضحي به الحاج أيام حجه، و المعنى إذا أحرمتم للحج أو العمرة، ثم منعكم مانع من إكمال العبادة على وجهها الشرعي من مرض أو عدو، و ما اليه من العوائق- إذا كان الأمر كذلك فعليكم أن تذبحوا ما تيسر، و أقله شاة، و أوسطه بقرة، و أعلاه ناقة.

(وَ لا تَحْلِقُوا رُؤُسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ). الخطاب للمحصورين الذين منعوا من إتمام الحج أو العمرة، و عليهم أن لا يحلوا من إحرامهم، حتى يعلموا ان الهدي الذي بعثوه قد بلغ المكان الذي يجب فيه الذبح، و مكان الذبح منى ان كان الإحرام للحج، و مكة ان كان للعمرة .. هذا، إذا كان المرض هو المانع، أما إذا كان المانع العدو فان محل الذبح هو المكان الذي حصل فيه المنع، لأن النبي (ص) ذبح هديه في الحديبية حين صده المشركون عن زيارة بيت اللّه الحرام.

(فَمَنْ كانَ مِنْكُمْ مَرِيضاً أَوْ بِهِ أَذىً مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ). أي ان المحرم إذا حلق رأسه لضرورة فعليه كفارة مخيرا بين صيام ثلاثة ايام، أو اطعام ستة مساكين، أو التضحية، و أقلها شاة.

(فَإِذا أَمِنْتُمْ). أي لم يمنعكم مانع من إكمال الحج. **(فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ)**. أي ان من أتى بالعمرة، ثم حج بعدها في نفس السنة فعليه الهدي، و هذا النوع من الحج هو المعروف بحج التمتع الذي

تفسير الكاشف، ج ١، ص ٣٠٥

يجب على غير أهل مكة، و انما سمي حج التمتع لأن الحاج بعد أن ينتهي من العمرة يحل له أن يتمتع بكل ما حرم عليه، حين كان محرما للعمرة الى أن يحرم للحج.

(فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَ سَبْعَةٍ إِذا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كامِلَةٌ).

قال الإمام الصادق (ع) إذا لم يجد المتمتع الهدي صام ثلاثة ايام في الحج:

السابع و الثامن و التاسع من ذي الحجة- و لا يشترط فيها الاقامة- و سبعة ايام إذا رجع الى أهله، تلك عشرة كاملة لجزاء الهدي.

(ذلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرامِ). قال صاحب مجمع البيان: «أي ما تقدم ذكره من التمتع بالعمرة الى الحج ليس لأهل مكة، و من يجري مجراها، و انما هو لمن لم يكن من حاضري مكة، و هو من يكون بينه و بينها أكثر من اثني عشر ميلا من كل جانب». و قال فقهاء الإمامية: ان حج التمتع فرض للبعيد عن مكة، و لا يجوز له ان يحج حج القران و الإفراد، و القران و الإفراد فرض لأهل مكة و ضواحيها، و لا يجوز أن يحجوا حج التمتع، و التفصيل في كتب الفقه.

(الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُوماتٌ). هي شوال و ذو القعدة و العشر الأول من ذي الحجة، فمن أحرم قبلها لم يصح منه الحج، و من أحرم فيها صح، و أتى ببقية الأعمال.

(فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ). أي ألزم نفسه بالحج في هذه الأيام (فَلا رَفَثَ وَ لا فُسُوقَ وَ لا جِدالَ فِي الْحَجِّ). الرفث الجماع، فإذا جامع الرجل زوجته، و هو محرم فسد حجه، تماما كما لو جامع أو أكل و هو صائم، و عليه المضي في إكمال حجه، ثم القضاء في العام المقبل، كما هو الحكم فيمن أفسد صومه برمضان، و الفسوق الكذب و السباب، أما الجدال فجاء تفسيره في روايات أهل البيت (ع) بقول الرجل: لا و اللّه، و بلى و اللّه.

(لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُناحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ). كانوا في الجاهلية يتاجرون و يكتسبون ايام الحج، فتوهم البعض ان هذا محرم، فأزال اللّه سبحانه هذا الوهم، و بيّن ان الاكتساب لا يتنافى مع الإخلاص في أعمال الحج.

(فَإِذا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفاتٍ فَاذْكُرُوا اللهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرامِ). عرفات موقف معلوم، و الافاضة من عرفات الخروج منها، و المشعر الحرام المكان المعروف

تفسير الكاشف، ج١، ص ٣٠٦

بالمزدلفة، و الوقوف فيها واجب، تماما كالوقوف في عرفات.

(ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفاضَ النَّاسُ). قيل: ان قريشا كانوا لا يقفون مع الناس بعرفات ترفعا و تكبرا، فأمر اللّه نبيه أن يقف بها و يخرج منها مع الناس، ليبطل ما كانت عليه قريش.

(فَإِذا قَضَيْتُمْ مَناسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللهَ كَذِكْرِكُمْ آباءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْراً). جاء عن الإمام الباقر أبي الإمام الصادق (ع): انهم كانوا إذا فرغوا من الحج يجتمعون هناك، و يذكرون مفاخر آبائهم و مآثرهم، فأمرهم اللّه سبحانه أن يتركوا ذلك، و يذكروا اللّه و نعمه عليهم، لأنه هو المنعم الأول عليهم و على آبائهم.

(فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنا آتِنا فِي الدُّنْيا وَ ما لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ. وَ مِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنا آتِنا فِي الدُّنْيا حَسَنَةً وَ فِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَ قِنا عَذابَ النَّارِ. أُولئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا وَ اللهُ سَرِيعُ الْحِسابِ). الناس في حجهم نوعان:

نوع لا يطلب إلا متاع الدنيا، و لا همّ له إلا همها، و إذا عبد اللّه فإنما يعبده من أجلها. و هذا النوع محروم من نعيم الآخرة، و نوع يطلب خير الدارين، و يعمل لدنياه و آخرته، و لهذا حظ وافر عند اللّه غدا جزاء على صالح أعماله.

و نقل صاحب تفسير روح البيان عن الإمام علي بن أبي طالب (ع) ان الحسنة في الدنيا هي المرأة الصالحة، و في الآخرة الحوراء، أما عذاب النار فالمراد به المرأة السوء .. و سواء أصح هذا النقل عن الإمام، أم لم يصح فاني أعرف إنسانا يشعر من أعماق نفسه انه لو كان في جهنم، ثم خيّر بين الخروج منها على أن يعود الى زوجته التي عاشرها في الدنيا، و بين البقاء في جهنم لاختار البقاء في جهنم على معاشرة تلك الزوجة التي أبدله اللّه بخير منها ..

(وَ اذْكُرُوا اللهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُوداتٍ). المراد بها أيام التشريق، و هي اليوم الحادي عشر، و الثاني عشر، و الثالث عشر من ذي الحجة، و لا يجب على الحاج المبيت بمنى ليلة الثالث عشر، على شريطة أن يخرج من منى في اليوم الثاني عشر بعد الزوال، و قبل المغيب، و أن يكون قد اتقى الصيد و النساء، و هو محرم، و في هذا تجد تفسير قوله تعالى: فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ وَ مَنْ تَأَخَّرَ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقى). أي اتقى الصيد و النساء في إحرامه ..

تفسير الكاشف، ج١، ص ٣٠٧

و إذا كان قد أتى النساء أو الصيد، أو غابت الشمس في اليوم الثاني عشر، و هو في منى، وجب عليه المبيت فيها حتما ليلة الثالث عشر، و رمي الجمار الثلاث في صبيحته.

[سورة البقرة (٢): الآيات ٢٠٤ الى ٢٠٧]

وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَياٰةِ الدُّنْيٰا وَ يُشْهِدُ اللهَ عَلىٰ مٰا فِي قَلْبِهِ وَ هُوَ أَلَدُّ الْخِصٰامِ (٢٠٤) وَ إِذٰا تَوَلّٰى سَعىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهٰا وَ يُهْلِكَ الْحَرْثَ وَ النَّسْلَ وَ اللهُ لاٰ يُحِبُّ الْفَسٰادَ (٢٠٥) وَ إِذٰا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَ لَبِئْسَ الْمِهٰادُ (٢٠٦) وَ مِنَ النّٰاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغٰاءَ مَرْضٰاتِ اللهِ وَ اللهُ رَؤُفٌ بِالْعِبٰادِ (٢٠٧)

اللغة:

اللدد شدة الخصومة، و الخصام جمع خصم، كضخام جمع ضخم، و تولى أدبر و انصرف، أو تولى الحكم و السلطان، و الحرث الزرع، و النسل ما تناسل من الحيوان، و المهاد الفراش.

الاعراب:

ليفسد منصوب بأن مضمرة، و حسبه مبتدأ بمعنى كافيه، و جهنم خبر.

المعنى:

ملأ بعض المفسرين الجدد الصفحات بكلام رائع من الوجهة الفنية في تفسير

تفسير الكاشف، ج ١، ص ٣٠٨

هذه الآيات، و لكنه لم يزد شيئا على تقسيم الناس الى طيب و خبيث، و بديهة ان هذا معلوم للجميع لا يحتاج الى بيان فضلا عن التفسير و التطويل.

و تسأل: إذا كان تقسيم الناس معلوما للجميع يكون بيانه تحصيلا للحاصل، و توضيحا للواضح، مع ان كلام اللّه سبحانه يجب أن يحمل على أحسن المحامل؟

الجواب: من الجائز أن يكون القصد هو الإرشاد و التوجيه الى أن العاقل ينبغي له أن لا يخدع بالظواهر، و لا يثق بمن يتقن صناعة الكلام، فان المفسدين المأجورين متخصصون بهذه الصناعة و عملية الرياء، فعلينا أن لا نعتمد على أحد الا بعد التجربة، و قيام الدليل على صدقه و نزاهته.

و هذا أصل عام يتفرع عليه كثير من الأحكام الدينية و الدنيوية، كاختيار الحاكم و النائب و القاضي و المفتي، و كل من يتولى مصلحة من المصالح العامة ..

و غريبة الغرائب ان تطلب الشهادات العلمية من المرشح للوظائف الحساسة التي تناط بها مقدرات البلاد و حياة العباد، و لا يسأل عن أمانته و كفاءته الخلقية، مع انها الأساس .. ان الكثير من حملة الشهادات يستعملونها أداة للصوصية.

(وَ مِنَ النّٰاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَياٰةِ الدُّنْيٰا وَ يُشْهِدُ اللهَ عَلىٰ مٰا فِي قَلْبِهِ وَ هُوَ أَلَدُّ الْخِصٰامِ). أي يظهر الحب و الخير، و هو من أشد الناس عداوة للخير و أهله.

(وَ إِذٰا تَوَلّٰى سَعىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهٰا). اختلف المفسرون: هل المراد بالتولي هنا الانصراف و الاعراض، و يكون المعنى ان هذا الذي يدعي الإصلاح إذا انصرف عن مخاطبه سعى في الأرض بالفساد، او ان المراد بالتولي الولاية و السلطان، و يكون المعنى إذا صار واليا فعل ما يفعله ولاة السوء من إهلاك الحرث و النسل؟.

و نقل صاحب تفسير المنار عن استاذه الشيخ محمد عبده انه رجح المعنى الثاني بقرينة قوله تعالى: «**وَ إِذٰا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ**» لأن الحاكم المستبد يكبر عليه أن يرشد الى مصلحة، أو يحذر من مفسدة، فهو يرى ان هذا المقام الذي ركبه يجعله أعلى الناس رأيا، و أرجحهم عقلا، بل يرى نفسه فوق الحق، كما انه فوق أهله في السلطة ..

فكيف يجوز لأحد أن يقول له:

اتق اللّه.

تفسير الكاشف، ج١، ص ٣٠٩

(وَ يُهْلِكَ الْحَرْثَ وَ النَّسْلَ). الحرث الزرع، و النسل ما تناسل من الحيوان، و المراد بهما جميع المصالح الاقتصادية من زرع و صناعة و ماشية، و مواد أولية، و ما اليها مما يتصل بحياة الناس و معيشتهم، و انما خص الزرع و الماشية بالذكر، حيث لم يكن للصناعة و توابعها أهميتها و خطرها آنذاك كما لها اليوم.

و حرمة هذه المقدرات في نظر الإسلام، تماما كحرمة الدماء، و من اعتدى على شيء منها فقد اعتدى على الانسانية نفسها، حتى و لو كان ذلك ملكا للعدو المحارب، فلقد نهى رسول اللّه (ص) عن قطع الأشجار، و التعرض للزرع و العمار، و عن إلقاء السموم في بلاد المشركين ايام الحرب و غيرها .. و لو قارنّا بين شريعة الإسلام، و بين ما تفعله الدول الاستعمارية «المتحضرة!» اليوم، و ما تشنه من الحروب الكيماوية على ما تنبته الأرض من زرع و أشجار، و يدب عليها من انسان و حيوان، و من تسميم الجو بالقنابل الذرية، و القائها على النساء و الأطفال، لو قارنّا بينهما لعرفنا انسانية الإسلام و عدالته و رحمته، و توحش الغرب، و افراطه في الظلم و الاغتصاب.

(وَ اللّهُ لا يُحِبُّ الْفَسادَ). و لا شيء أعظم فسادا من اثارة الحروب، و استعمال الأسلحة المدمرة ضد الشعوب للسيطرة عليها، و نهب أقواتها، و حرمان أهلها من ثمار كدحهم و عرقهم.

(وَ إِذا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ). ان الطيب المخلص يتقبل النقد و النصح، بل يطلبه و يرحب به، لأنه لا يهدف الا الى الحق و الواقع، و لا يطلب المديح و الاطراء، لأن عمله للّه، لا للسمعة و الشهرة، قال الإمام أمير المؤمنين علي (ع) في كلام يصف به المتقين: «لا يرضون من أعمالهم القليل، و لا يستكثرون الكثير، فهم لأنفسهم متّهمون، و من أعمالهم مشفقون». و قال في خطبة له ايام خلافته: «ليس امرؤ و ان عظمت في الحق منزلته، و تقدمت في الدين فضيلته بفوق أن يعاون على ما حمله اللّه من حقه، و لا امرؤ و ان صغّرته النفوس و اقتحمته العيون بدون أن يعين على ذلك أو يعان عليه .. و لا تظنوا بي استثقالا في حق قيل لي، و لا التماس إعظام لنفسي، فانه من استثقل الحق ان يقال له، أو العدل أن يعرض عليه كان العمل بهما أثقل عليه».

هذا هو شأن العالم المخلص حقا، أما المنافق الخائن فيصعب عليه قول الحق،

تفسير الكاشف، ج١، ص ٣١٠

لأنه يفضحه و يظهر مخازيه، و يشتري المديح الكاذب بأغلى الأثمان، ليستر نقائصه و أسواءه.

(وَ مِنَ النّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغاءَ مَرْضاتِ اللّهِ). أي ان بعض المؤمنين يقبلون على الجهاد، و يحبون الموت في سبيل اللّه، تماما كما يحب غيرهم الحياة ..

و لا دافع لهم إلا مرضاة اللّه و ثوابه. قال الرازي في تفسير هذه الآية: جاء في سبب نزولها ثلاث روايات: منها انها نزلت في علي بن أبي طالب (ع) حين بات على فراش رسول اللّه (ص) ليلة الهجرة، و انه لما نام على فراشه قام جبريل عند رأسه، و ميكائيل عند رجليه، و جبريل ينادي: بخ بخ من مثلك يا علي، يباهي اللّه بك الملائكة «١».

[سورة البقرة (٢): الآيات ٢٠٨ الى ٢١٠]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَ لا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (٢٠٨) فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ ما

جاءَتْكُمُ الْبَيِّناتُ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٠٩) هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمامِ وَ الْمَلائِكَةُ وَ قُضِيَ الأَمْرُ وَ إِلَى اللهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ (٢١٠)

اللغة:

أصل السلم التسليم، و يطلق على الصلح و السلام، و الزلل عثرة القدم، و المراد به هنا الانحراف عن الحق، و الظلل جمع ظلة، و هي كل ما أظلك.

---

(١) قال الشيخ المظفر في الجزء الثاني من كتاب دلائل الصدق: ان الذين نقلوا نزول هذه الاية بعلي هم الرازي و الثعلبي، و صاحب ينابيع المودة، و ابو السعادات في فضائل العترة الطاهرة، و الغزالي في الأحياء، و الحاكم في المستدرك، و أحمد بن حنبل في مسنده ... هذا ما عدا الروايات الكثيرة الأخرى من طرق الشيعة.

تفسير الكاشف، ج١، ص ٣١١

الإعراب:

كافة منصوب على الحال من الواو في ادخلوا، و من الغمام متعلق بمحذوف صفة لظلل.

المعنى:

(يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً). قيل: المراد بالسلم هنا الإسلام، و ان الخطاب موجه للمنافقين الذين أبطنوا الكفر و أظهروا الإسلام، و قيل: هو موجه لمن آمن باللّه من أهل الكتاب، و لم يسلم، و قيل: بل موجه لجميع المسلمين، و عليه يكون السلم طاعة اللّه و الانقياد له في جميع أحكامه، لا في بعضها دون بعض، و قيل: معنى السلم الصلح، و المعنى ادخلوا في الصلح جميعا.

و الذي نراه ان اللّه سبحانه أمر من يؤمن به ايمانا صحيحا أن يدخل فيما فيه سلامته في الدنيا و الآخرة .. و طريق السلامة معلوم لدى الجميع، و هو التعاون و التآلف، و ترك الحروب و الخصام، و التغلب على الشهوات و الأهواء، و الإخلاص للّه في الأقوال و الأفعال.

و يؤيد ارادة هذا المعنى قوله تعالى: (وَ لا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ). بعد قوله بلا فاصل: ادخلوا في السلم كافة، حيث اعتبر اللّه سبحانه خطوات الشيطان الطرف المضاد للسلم، و وضع الإنسان أمام أمرين لا ثالث لهما: إما الدخول في السلم، و اما اتباع خطوات الشيطان التي هي عين الشقاق و النزاع، و الشر و الفساد.

(فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ ما جاءَتْكُمُ الْبَيِّناتُ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ). بعد أن أمر سبحانه بالدخول في السلم، و نهى عن اتباع خطوات الشيطان هدد و حذر من يخالف أمره و نهيه، هدده بقوله: ان اللّه عزيز حكيم. عزيز لا يغلب على أمره، و لا يمنعه مانع عن قصده، و حكيم يثيب المطيع، و يعاقب العاصي، قال الرازي: هذا نهاية في الوعيد، لأنه يجمع من ضروب الخوف ما لا يجمعه

تفسير الكاشف، ج١، ص ٣١٢

الوعيد بذكر العقاب، و ربما قال الوالد لولده: ان عصيتني فأنت عارف بي، و تعلم قدرتي عليك، و شدة سطوتي،

فيكون هذا الكلام في الزجر أبلغ من ذكر الضرب و غيره.

(هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَ الْمَلائِكَةُ). المراد من ينظرون ينتظرون، و من إتيان اللّه إتيان عذابه على حذف المضاف، و معنى الآية بمجموعها ان المكذبين و العاصين يأتيهم العذاب بغتة، و لا ينجيهم منه شيء ..

فالآية تجري مجرى قوله تعالى: «فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً- محمد ١٧».

(وَ قُضِيَ الأَمْرُ وَ إِلَى اللهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ). إذا جاء الموت الذي لا بد منه، و قامت الساعة ينتهي كل شيء، و لا يبقى أمام المجرمين إلا الحساب و العقاب.

المخبآت و المفاجئات:

لا أحد يعلم ما يحدث له في المستقبل، و ما يخبئ له الدهر من خير و شر بالغا ما بلغ من العلم و الايمان: «وَ ما تَدْرِي نَفْسٌ ما ذا تَكْسِبُ غَداً- لقمان ٣٤».

و كثيرا ما يفاجأ الإنسان بالخير من حيث يتوقع الشر، و يباغت بالشر من حيث يتوقع الخير، و لا شيء آلم للنفس من هذه المباغتة، كما ان الخير إذا جاءه من حيث لا يحتسب يكون أحلى و أعذب من المترقّب.

و العاقل لا يغتر بما لديه، بل يدخل في حسابه دوران الدهر و ضرباته، كما انه لا ييأس ان نزلت به نازلة، فان الدنيا في تحول دائم، و لذا قيل: دوام الحال من المحال، و الفرج يأتي من قلب الضيق، قال الإمام علي (ع): عند تناهي الشدة تكون الفرجة، و عند حلق البلاء يكون الرخاء، و قال: ان موسى ابن عمران خرج يقتبس لأهله نارا، فكلمه اللّه، و رجع نبيا .. و قال تعالى:

لا ييأس من روح اللّه الا القوم الكافرون. و قال جل جلاله: و لا يأمن مكر اللّه الا القوم الخاسرون.

و جاء في كتب التاريخ و السير ان ابن الزيات عمل وزيرا للمعتصم و الواثق، و كان من أقسى الطغاة و أظلمهم، فلقد اتخذ تنورا من حديد، ملأ جوانبه بمسامير

تفسير الكاشف، ج١، ص ٣١٣

لها مثل رؤوس الابر، فإذا غضب على انسان ألقاه فيه، فكيف تحرك دخلت المسامير في جسده، و لما تولى المتوكل الخلافة اعتقل ابن الزيات، و وضع الحديد في يديه و رجليه، و ألقاه في هذا التنور، و لم يخرج منه الا ميتا، و سمعه الموكل به قبل موته ينشد و يردد:

لا تجزعن رويدا انها دول دنيا تنقّل من قوم الى قوم

[سورة البقرة (٢): الآيات ٢١١ الى ٢١٢]

سَلْ بَنِي إِسْرائِيلَ كَمْ آتَيْناهُمْ مِنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ وَ مَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللهِ مِنْ بَعْدِ ما جاءَتْهُ فَإِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقابِ (٢١١) زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَياةُ الدُّنْيا وَ يَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ الَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَ اللهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشاءُ بِغَيْرِ حِسابٍ (٢١٢)

الإعراب:

سل في الأصل اسأل، فحذفت ألف الوصل من الأول، و الهمزة من الوسط للتخفيف، و كم في موضع نصب مفعول ثان مقدم لآتيناهم، و الدنيا صفة للحياة، و بغير حساب متعلق بمحذوف حال.

المعنى:

(سَلْ بَنِي إِسْرائِيلَ كَمْ آتَيْناهُمْ مِنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ). ليس المقصود من قوله:

سل بني إسرائيل السؤال على الحقيقة، لأن النبي (ص) يعلم أحوالهم، و لا المقصود الحكاية عما كانوا عليه، كما هو الشأن في الآيات السابقة ٤٩ و ما بعدها، و انما القصد أن يعتبر المسلمون و يتعظوا بحال بني إسرائيل، و وجه العظة ان بني

تفسير الكاشف، ج١، ص ٣١٤

إسرائيل قد جاءتهم الرسل بالمعجزات و البينات، و اليد البيضاء، و قلب العصا حية، و فلق البحر و تظليل الغمام و انزال المنّ و السلوى و نتق الجبل، و مع ذلك عصوا و خالفوا، فعاقبهم اللّه بالمذلة و الهوان في الدنيا، و العذاب الأليم في الآخرة.

و المسلمون قد جاءهم محمد (ص) بالمعجزات و البينات الدالة على صدقه في نبوته، و صحة شريعته، و بلغهم عن اللّه سبحانه أن يدخلوا في السلم كافة لأن فيه خيرهم و صلاحهم، فان أعرضوا و عصوا كما أعرض و عصى بنو إسرائيل يصبهم ما أصاب الاسرائيليين من قبل.

(وَ مَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللهِ مِنْ بَعْدِ ما جاءَتْهُ فَإِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقابِ). المراد بنعمة اللّه هنا الدلائل على الحق، فإنها من أعظم النعم، لأن فيها الهداية و الرشاد، و النجاة من الهلاك و الضلالة، و المراد بتبديلها تحريفها و عصيانها .. فقوله تعالى:

وَ مَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللهِ مِنْ بَعْدِ ما جاءَتْهُ، تماما كقوله: فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ ما جاءَتْكُمُ الْبَيِّناتُ. و قوله: **فَإِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقابِ**، كقوله: فان اللّه عزيز حكيم، فالمعنى واحد، و الغرض واحد.

لا ايمان الا بالتقوى:

(زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَياةُ الدُّنْيا). لا فرق إطلاقا بين من يكفر بوجود اللّه، و بين من يؤمن به نظريا، و يؤثر دنياه على آخرته عمليا، لا فرق أبدا بين الاثنين من حيث ان كلا منهما قد فتن بالدنيا و زخرفها، و آثر العاجلة على الآجلة، و قاس الخير و الفضيلة بمقياس منفعته الشخصية، و لم يقم وزنا لحرمات اللّه، و لا للقيم الانسانية .. و اني كلما تقدمت و توغلت في تفسير القرآن، و تعمقت في تدبّر آياته ازددت يقينا بأن الايمان باللّه بلا تقوى ليس بشيء، و ان من جعل الدنيا كل همه ينصرف كلية عن شريعة الحق و الدين من حيث يريد، أو لا يريد، و النتيجة الختمية لهاتين المقدمتين ان من كفر باللّه، و آمن به سواء ما دام هذا «المؤمن» يؤثر دنياه على دينه، و لا يقيم له وزنا في شيء من أقواله و أفعاله. و قد تواتر عن الرسول الأعظم (ص): «الدنيا و الآخرة

تفسير الكاشف، ج١، ص ٣١٥

ضرتان» أي ان الاهتمام بإحداهما يصرف الإنسان عن الأخرى قهرا «١». و قال الإمام علي (ع): ان الدنيا و الآخرة عدوتان متفاوتتان و سبيلان مختلفتان، فمن أحب الدنيا و تولاها ابغض الآخرة و عاداها، و هما بمنزلة المشرق و المغرب، و ماش بينهما كلما اقترب من واحدة ابتعد عن الأخرى.

(وَ يَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا). طبيعي أن يسخر الذين يتخذون آيات اللّه و أحكامه هزوا، و يستحلون الدم الحرام، و المال الحرام- طبيعي أن يسخر هؤلاء ممن يكف عن محارم اللّه، و يتحمل المشاق من أجل مرضاته، طبيعي أن يسخر

من لا يعمل الا لهذه الحياة ممن يعمل لها و لما بعد الموت.

(وَ الَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ). قال: و الذين اتقوا، و لم يقل:

و الذين آمنوا، لأن الإيمان بلا تقوى ليس بشيء كما بيّنا، و المعنى واضح، و هو ان الكافرين إذا سخروا من المؤمنين الآن، فستنعكس الآية غدا، و يسخر هؤلاء من أولئك .. قال جل جلاله: ان الخزي اليوم و السوء على الكافرين .. فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون.

(وَ اللهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشاءُ بِغَيْرِ حِسابٍ). الرزق رزقان: رزق الدنيا، و رزق الآخرة، و رزق الدنيا معلوم، و رزق الآخرة هو النعيم الذي لا انقطاع له، و لا تشوبه شائبة من حزن او خوف و لا يناله أحد إلا بالايمان و العمل الصالح:

«وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ أُولئِكَ أَصْحابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيها خالِدُونَ». أما رزق الدنيا فيناله الكافر و المؤمن و البر و الفاجر بسعي و غير سعي، كالارث و الهبة و الوصية، و ما اليها، و أيضا يناله عن طريق جائز، و غير جائز، كالسلب و النهب، و الغش و الاحتيال.

و نقل صاحب تفسير المنار عن استاذه الشيخ محمد عبده انه قال عند تفسير هذه الآية ما يتلخص بأن الرزق بغير سعي قد يحصل لبعض الأفراد، أما الأمة فمحال أن تكون غنية عزيزة إلا بالسعي و العمل .. و هذا حق ثابت بالعيان و البديهة.

---

(١) في الحديث: ليس خيركم من ترك الدنيا للآخرة، و لا الاخرة للدنيا، و لكن خيركم من أخذ من هذه و هذه، المؤمن القوي خير و أحب عند اللّه من المؤمن الضعيف.

تفسير الكاشف، ج ١، ص ٣١٦

[سورة البقرة (٢): آية ٢١٣]

كانَ النَّاسُ أُمَّةً واحِدَةً فَبَعَثَ اللهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَ مُنْذِرِينَ وَ أَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيما اخْتَلَفُوا فِيهِ وَ ما اخْتَلَفَ فِيهِ إِلاَّ الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ ما جاءَتْهُمُ الْبَيِّناتُ بَغْياً بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِما اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَ اللهُ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ (٢١٣)

اللغة:

أطلق اللّه في كتابه الكريم لفظ الأمة على معان: منها الملة كما في قوله تعالى في سورة الأنبياء الآية ٩٢: إِنَّ هذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً واحِدَةً. و منها الجماعة كما في سورة الأعراف ١٨١: وَ مِمَّنْ خَلَقْنا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ. و منها السنون، كقوله في سورة هود الآية ٨: وَ لَئِنْ أَخَّرْنا عَنْهُمُ الْعَذابَ إِلى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ، و منها الإمام الذي يقتدى به، كقوله في سورة النحل ١٢٠: إِنَّ إِبْراهِيمَ كانَ أُمَّةً قانِتاً لِلَّهِ .. و المراد بلفظ الأمة هنا الملة.

الاعراب:

مبشرين و منذرين حال من النبيين، و بالحق متعلق بمحذوف حال من الكتاب، و بغيا مفعول لأجله.

المعنى:

تضاربت أقوال المفسرين في معنى هذه الآية، و شرحها الرازي بحوالي سبع

تفسير الكاشف، ج١، ص ٣١٧

صفحات بالقطع الكبير، أما صاحب المنار فشرحها باثنتين و عشرين صفحة، و ترك القارئ العادي في متاهة لا يهتدي الى شيء .. و نحن على منهجنا من الرفق بالقراء مهتمين بأضعفهم ما أمكن واقفين معه عند مداليل الألفاظ، نشرحها بأوضح و اخصر بيان، كي يتدبر آيات اللّه بسهولة، و تؤثر أثرها في نفسه، فان كان هناك موضوع هام أشرنا اليه بفقرة مستقلة.

(كانَ النَّاسُ أُمَّةً واحِدَةً). أي كانوا على الفطرة التي فطر اللّه الناس عليها، و التي أشار اليها النبي (ص) بقوله: كل مولود يولد على الفطرة.

قال صاحب مجمع البيان: «روى أصحابنا عن الإمام أبي جعفر الباقر: انهم كانوا قبل نوح «١» أمة واحدة على فطرة اللّه لا مهتدين و لا ضالين، فبعث اللّه النبيين. و على هذا فالمعنى انهم كانوا متعبدين بما في عقولهم غير مهتدين الى نبوة، و لا شريعة».

ثم عرض على فطرتهم التخيلات و الأوهام، و جرتهم هذه الأوهام الى الاختلاف في العقيدة و الرأي، و بالتالي الى اعتداء بعضهم على بعض، فتفرقوا شيعا بعد أن كانوا أمة واحدة، فأرسل اللّه الأنبياء، و معهم الكتاب ينطق بالحق، و يحكم بالعدل، ليحتكموا اليه في خلافاتهم و منازعاتهم .. و هذا هو المعنى الظاهر من قوله تعالى:

(فَبَعَثَ اللهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَ مُنْذِرِينَ وَ أَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ) .. و بهذا يتبين ان في الكلام جملة محذوفة، و التقدير كان الناس أمة واحدة فاختلفوا، بدليل قوله تعالى **لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ**، و تؤكد ذلك الآية ١٩ من سورة يونس: «وَ ما كانَ النَّاسُ إِلاَّ أُمَّةً واحِدَةً فَاخْتَلَفُوا».

(وَ مَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلاَّ الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ ما جاءَتْهُمُ الْبَيِّناتُ بَغْياً بَيْنَهُمْ).

أي ان الناس الذين كانوا أمة واحدة ثم اختلفوا فأرسل اللّه اليهم الأنبياء، ان أولئك الناس أيضا اختلفوا فيما أرسل به الأنبياء، فمنهم من آمن و صدق، و منهم من كفر و كذّب بعد أن قامت الأدلة و البراهين، و الحجة القاطعة على

---

(١) جاء في تفسير روح البيان عن الأكثر ان بين آدم و مبعث نوح ثماني مائة سنة.

تفسير الكاشف، ج١، ص ٣١٨

الكافرين و المكذبين للأنبياء و رسالتهم، و لا سبب لهذا التكذيب الا البغي و الخوف على منافعهم و مصالحهم الشخصية، و مكاسبهم العدوانية.

(فَهَدَى اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِما اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ). أي ان اللّه سبحانه وفق أرباب النوايا الصالحة الى الايمان بالحق الذي جاء به الأنبياء، و هذا الايمان كان بأمره تعالى .. فالمراد بالاذن الأمر.

(وَ اللهُ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ). في تفسير الآية ٢٦ من هذه السورة «فقرة الهدى و الضلال» ذكرنا معاني الهداية، و منها أن يتقبل الإنسان النصيحة و يعمل بها، و هذا المعنى هو المراد بها هنا، و ان اللّه سبحانه يوفق الطيبين الى تقبل النصح و العمل بالحق و الخير.

الاختلاف بين الناس:

وجد الاختلاف بين الناس منذ أن قتل قابيل أخاه هابيل، و استمر حتى اليوم، و سيبقى الى آخر يوم .. و لا يختص الاختلاف بأهل الأديان، كما يحلو للمستهترين ان ينتقدوا، أو يتحذلقوا .. فان اختلاف غيرهم قد بلغ النهاية، و تجاوز الكلام الى الحروب الطاحنة، فالتناقضات بين الدول الرأسمالية أدت الى حرب نووية، فقنبلة هيروشيما ألقتها على النساء و الأطفال دولة رأسمالية ضد دولة مثلها .. و انقسام الجبهة الاشتراكية لم يخف على أحد، كما مهد السبيل للسياسة العدوانية على الشعوب المستضعفة، و شتات كل من الدول الافريقية و الاسيوية ضمن النجاح لكل من أراد استغلالها و السيطرة على مقدراتها، أما اختلاف الدول العربية فكان من نتائجه وجود إسرائيل في قلب بلادهم، و بالتالي نكسة ٥ حزيران ١٩٦٧.

و مهما يكن، فان للاختلاف أسبابا كثيرة، منها التباين في الثقافة و التربية، و منها التغاير في الاستعداد و الموهبة، و منها الاختلاف في الطبع و المزاج، و منها التصادم بين المصالح و المنفعة الخاصة. و الاختلاف الناشئ من تباين الثقافة، أو الموهبة، أو المزاج يمكن علاجه بالاحتكام الى مبادئ أثبتها العلم و التجربة، أما الاختلاف الناشئ من تصادم المنافع الشخصية فلا علاج له إلا ردع المعتدي بالقوة، و كلامنا

تفسير الكاشف، ج١، ص ٣١٩

في هذه الفقرة متمم لما قلناه في فقرة «كل يعزز دينه» عند تفسير الآية ١١٣.

[سورة البقرة (٢): آية ٢١٤]

أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَ لَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْساءُ وَ الضَّرَّاءُ وَ زُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتى نَصْرُ اللهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللهِ قَرِيبٌ (٢١٤)

اللغة:

زلزلوا أصلها زل الشيء، ثم كرر اللفظ، فصار زلزل، و المراد به هنا ان المتقين حركوا بأنواع البلايا و الرزايا، و مثل بفتح الثاء، و جمعه أمثال، و المراد به هنا الوصف الذي كان عليه من سبق، حيث بلغ درجة من الشدة حتى صار مضرب الأمثال.

المعنى:

(أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَ لَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْساءُ وَ الضَّرَّاءُ). ان هذه الآية الكريمة تخاطب كل من آمن بالحق، و عمل به و دعا اليه، و تقول له بصراحة: ان سنة اللّه قد جرت في أنصار الحق أن يدفعوا ثمنه من أنفسهم و أهلهم و أموالهم، و أن يتحملوا في سبيله الأذى و المكاره و يصبروا على المصائب و الشدائد .. و قد لاقى من كان قبلكم من أجل الحق ألوانا من الأذى، فصبروا .. فهل تصبرون أنتم كما صبروا: أم انكم تريدون أن تدخلوا الجنة بلا ثمن، و قد أبى صاحبها و مالكها إلا أن يكون ثمنها الإيمان و الإخلاص و الصبر على الخوف و الجوع و نقص من الأموال و الأنفس! و جاء في

تفسير الكاشف، ج١، ص ٣٢٠

خطبة من خطب النهج: «ان رسول اللّه (ص) كان يقول: ان الجنة حفت بالمكاره، و ان النار حفت بالشهوات. و اعلموا انه ما من طاعة اللّه شيء إلا يأتي في كره، و ما من معصية اللّه شيء الا يأتي في شهوة» .. و من المفيد ان يراجع القارئ

مع هذه الفقرة ما ذكرنا عند تفسير الآية ١٥٥ فقرة «ثمن الجنة».

(وَ زُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتى نَصْرُ اللهِ). متى نصر اللّه سؤال من الرسول و المؤمنين، يصور المحنة و الشدة التي لاقوها من أعداء الحق و حزب الباطل، و محصل المعنى ان السابقين من أنصار الحق أصابهم البؤس و الضر، و وقعوا في الاضطراب من شدة الهول، حتى ظنوا ان النصر قد أبطأ عنهم، فاستعجلوه بقولهم: متى نصر اللّه؟.

فأجابهم اللّه بقوله: (أَلا إِنَّ نَصْرَ اللهِ قَرِيبٌ). فهذه الآية تجري مجرى الآية ١١٠ من سورة يوسف: «حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَ ظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جاءَهُمْ نَصْرُنا».

[سورة البقرة (٢): آية ٢١٥]

يَسْئَلُونَكَ ما ذا يُنْفِقُونَ قُلْ ما أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوالِدَيْنِ وَ الْأَقْرَبِينَ وَ الْيَتامى وَ الْمَساكِينِ وَ ابْنِ السَّبِيلِ وَ ما تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللهَ بِهِ عَلِيمٌ (٢١٥)

الإعراب:

ما ذا ما مبتدأ، و ذا خبر بمعنى الذي، و قيل ان ما ذا بمنزلة الكلمة الواحدة في محل نصب بينفقون.

المعنى:

(يَسْئَلُونَكَ ما ذا يُنْفِقُونَ). الخطاب موجه للرسول الأعظم (ص).

تفسير الكاشف، ج١، ص ٣٢١

(قُلْ ما أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ). المراد بالخير المال (فَلِلْوالِدَيْنِ) المراد بهما الأب و الأم و الجد و الجدة، لأنهم يدخلون في اسم الوالدين (وَ الْأَقْرَبِينَ) هم أرحام المعطي (وَ الْيَتامى) كل من لا أب له (وَ الْمَساكِينِ) الفقراء (وَ ابْنِ السَّبِيلِ) المسافر المنقطع عن أهله و وطنه، و لا نفقة له.

و تسأل: ان ظاهر الآية يدل على ان القوم سألوا عن نوع النفقة، لا عن مصرفها، و عمن ينفقون عليه، فجاء الجواب عن المصرف، لا عن النوع، فما هو الوجه؟.

أجاب أكثر المفسرين عن ذلك بأن القصد من الجواب هو تنبيه السائلين الى انه ينبغي ان يسألوا عمن ينفقون عليه، لا عن نوع ما ينفقون .. و نقل الرازي عن القفال جوابا آخر، و هو ان السؤال و ان كان بلفظ (ما) الا ان المسئول عنه هو مصرف النفقة، لا نوعها، لأن النوع معلوم .. و أيده الشيخ محمد عبده بقوله: ان علماء المنطق هم الذين قالوا: السؤال بما يختص بالماهية و الحقيقة، أما العرب فإنهم يسألون بما عن الماهية و عن الكيفية .. و القرآن لا يجري على مذهب أرسطو في منطقه، و انما هو بلسان عربي مبين .. و هذا الجواب أرجح من الأول و ان كانت النتيجة واحدة.

سؤال ثان: هل الإنفاق على من ذكرتهم الآية واجب أم مستحب؟.

الجواب: تجب نفقة الأولاد على الوالدين، و بالعكس إذا كان أحدهما قادرا على الإنفاق، و الآخر عاجزا عن الإنفاق على نفسه، و لو عن طريق الكسب ..

و هذه النفقة لا تحسب من أصل الزكاة، لأن النفقة على الآباء و الأبناء تجب وجوبا مستقلا عن وجوب الزكاة، أما اليتامى و المساكين و أبناء السبيل فيجوز اعطاؤهم من الزكاة الواجبة، كما يجوز إعطاء الجميع من الصدقات المستحبة، و الصدقة المستحبة تعطى لكل محتاج، مسلما كان أو غير مسلم، لأن لكل كبد حرى أجرا، كما جاء في الحديث.

[سورة البقرة (٢): الآيات ٢١٦ الى ٢١٨]

كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتالُ وَ هُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَ عَسىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَ عَسىٰ أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَ هُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَ اللهُ يَعْلَمُ وَ أَنْتُمْ لاٰ تَعْلَمُونَ (٢١٦) يَسْئَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرامِ قِتالٍ فِيهِ قُلْ قِتالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَ صَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَ كُفْرٌ بِهِ وَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ وَ إِخْراجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللهِ وَ الْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَ لاٰ يَزالُونَ يُقاتِلُونَكُمْ حَتّٰى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطاعُوا وَ مَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَ هُوَ كافِرٌ فَأُولٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ فِي الدُّنْيا وَ الْآخِرَةِ وَ أُولٰئِكَ أَصْحابُ النّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ (٢١٧) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ الَّذِينَ هاجَرُوا وَ جاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أُولٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللهِ وَ اللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢١٨)

الإعراب:

كره لكم، أي مكروه لكم، أو ذو كره، و عسى أن تكرهوا المصدر المنسبك من أن و ما بعدها فاعل عسى، و هي هنا تامة لا تحتاج الى خبر، و مثلها عسى أن تحبوا، و قتال فيه مجرور بدل اشتمال من الشهر الحرام، و قتال فيه مرفوع مبتدأ، و فيه متعلق بمحذوف صفة، و كبير خبر، و صد مبتدأ، و كفر به معطوف عليه، و إخراج أهله أيضا مثله، و خبره أكبر عند اللّه، و المسجد الحرام مجرور عطفا على سبيل اللّه.

المعنى:

(كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتالُ). فرض اللّه القتال على المسلمين لا لأنه مطلوب و محبوب

تفسير الكاشف، ج ١، ص ٣٢٣

لذاته، و لا ليتسع ملكهم، و يمتد سلطانهم، و يعيشوا على حساب غيرهم من الشعوب، و انما فرضه عليهم لنصرة الحق، و الدفاع عنه، فان الحق من حيث هو ليس إلا مجرد فكرة و نظرية. أما تطبيقها و الالتزام بها فيحتاج الى العمل الجاد، و هو أولا الدعوة بالحكمة، و الطرق المألوفة، فإن لم تجد وجب تنفيذ الحق بالقوة .. و أية نظرية لا تعتمد على القوة التنفيذية فوجودها و عدمها سواء، و من أجل هذا فرض اللّه على المسلمين في هذه الآية و غيرها جهاد كل معتد على الحق، حيث لا يجدي معه الأمر بالمعروف و الموعظة الحسنة .. و لو لا السلطة التنفيذية لكانت السلطة التشريعية مجرد كلام ملفوظ أو مكتوب.

(وَ هُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَ عَسىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَ عَسىٰ أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَ هُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَ اللهُ يَعْلَمُ وَ أَنْتُمْ لاٰ تَعْلَمُونَ). قال المفسرون: ان أصحاب الرسول كرهوا القتال، لأن الإنسان بطبعه يشق عليه أن يعرض نفسه للهلاك، و لكنهم في الوقت نفسه يستجيبون لأمر اللّه تعالى طلبا لمرضاته، تماما كالمريض يشرب الدواء بغية الشفاء. و ان اللّه سبحانه قد نبههم بقوله: **(وَ عَسىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ)** الى أن ثمرة القتال و الجهاد تعود اليهم، لا اليه .. هذا ملخص ما قاله أهل التفاسير، و ظاهر اللفظ يتحمله و لا يأباه.

و لكن إذا نظرنا الى سيرة الأصحاب الخلص و بطولاتهم في الجهاد و الفداء من أجل الدين، و سيطرته على مشاعرهم، و كيف استهانوا بالحياة طلبا للاستشهاد، حتى ان من كان ينجو من القتل، و يرجع من الجهاد سالما يرى نفسه شقيا سيء الحظ - إذا نظرنا الى هذه الحقيقة، و أدخلناها في حسابنا، و نحن نفسر هذه الآية نجد ان ما قاله المفسرون من كراهية الأصحاب للقتال غير وجيه، و انه لا بد من تفسير الآية بمعنى آخر يساعد عليه الاعتبار، و يتحمله اللفظ، و يتلخص هذا المعنى في أن الأصحاب كانوا يرون أنفسهم دون المشركين عدة و عددا، فخافوا إذا قاوموهم بالقوة أن

يهلكوا عن آخرهم، و لا يبقى للإسلام من ناصر، و تذهب الدعوة الاسلامية سدى .. فكراهيتهم للقتال جاءت من الخوف على الإسلام، لا على أنفسهم. فبين اللّه لهم ان القتال الذي دعيتم اليه، و كرهتموه هو خير لكم و للإسلام، و ان القعود عنه يؤدي الى ذهابكم و ذهاب الإسلام .. و أنتم تجهلون هذه الحقيقة، و لكن اللّه بها عليم، لأنه لا تخفى

تفسير الكاشف، ج ١، ص ٣٢٤

عليه خافية، فالآية أشبه بقوله جل جلاله: «يٰا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتٰالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صٰابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ، وَ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفاً مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاٰ يَفْقَهُونَ- الأنفال ٦٥».

(يَسْئَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرٰامِ قِتٰالٍ فِيهِ قُلْ قِتٰالٌ فِيهِ كَبِيرٌ). مر تفسير الآية في الآية ١٩٢ و ما بعدها.

(وَ صَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللّٰهِ وَ كُفْرٌ بِهِ وَ الْمَسْجِدِ الْحَرٰامِ وَ إِخْرٰاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللّٰهِ). كان العرب يحرمون القتال في الأشهر الحرم، و هي ذو القعدة و ذو الحجة و المحرم و رجب، و أقر النبي هذه العادة، لأن فيها تقليلا للشر و سفك الدماء، و قد أقر الإسلام بوجه عام كل عادة مستحسنة أو غير قبيحة كانوا عليها في الجاهلية، و لكن العرب الذين كانوا يقدسون هذه الأشهر قد انتهكوا حرمتها، و أعلنوا فيها الحرب على الرسول سنة ست من الهجرة، و صدوه مع أصحابه عن زيارة بيت اللّه الحرام، و فتنوا من أسلم عن دينه، و عذبوه بشتى أنواع العذاب طوال ثلاثة عشر عاما، كما فعلوا ببلال و صهيب و خباب و عمار بن ياسر و أبيه و امه، حتى إذا أراد المسلمون أن يدافعوا عن أنفسهم، أو يقتصوا من المشركين في الأشهر الحرم رفع هؤلاء عقيرتهم بالدعاية المضللة، و أظهروا المسلمين بمظهر المعتدي على المقدسات.

فبيّن اللّه سبحانه ان الجرائم التي ارتكبها المشركون في حق المسلمين هي أكبر و أعظم عند اللّه من القتال في الشهر الحرام، و من أجل هذا أباح للمسلمين قتال المشركين في أي مكان و زمان يجدونهم فيه عملا بمبدإ القصاص، و المعاملة بالمثل.

(وَ الْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ). أي فتنة المسلمين عن دينهم بالتعذيب تارة، و محاولة إلقاء الشبهات في قلوبهم تارة أخرى، هذه الفتنة أشد جرما من القتال في الشهر الحرام.

(وَ لاٰ يَزٰالُونَ يُقٰاتِلُونَكُمْ حَتّٰى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطٰاعُوا). فالهدف للمشركين ان لا يبقى للإسلام عين و لا أثر على الكرة الأرضية، و من أجل هذا وحده يقاتلون المسلمين، و يداومون على قتالهم، فإذا كره المسلمون قتال المشركين تحقق الهدف الذي يبتغيه أعداء الدين.

و لا زالت هذه الروح الكافرة العدائية لكل ما فيه رائحة الإسلام، لا زالت

تفسير الكاشف، ج ١، ص ٣٢٥

حية الى اليوم في نفوس الكثيرين من الشرقيين و الغربيين، لأن الإسلام بانسانيته و عدالته، و مقاومته للبغي و الفساد هو السبب الأول للعداء، و لهذا وحده يضمرون لأهله كل شر، و يحاربونهم بشتى الوسائل، و يتفننون فيها حسب ما تقتضيه الظروف و التطورات .. و علينا أن نتنبه لهؤلاء الأعداء، و نقاتلهم بنفس السلاح الذي يقاتلوننا به.

(وَ مَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَ هُوَ كٰافِرٌ فَأُولٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمٰالُهُمْ فِي الدُّنْيٰا وَ الْآخِرَةِ وَ أُولٰئِكَ أَصْحٰابُ النّٰارِ هُمْ فِيهٰا خٰالِدُونَ). هذا تحذير و تهديد من اللّه سبحانه لمن يستجيب لأعداء الدين، و يرتد عن دينه فانه بذلك يخسر الدنيا و الآخرة، و مآله جهنم و بئس المصير .. و قوله تعالى: **(فَيَمُتْ وَ هُوَ كٰافِرٌ)** يدل بصراحة على ان المرتد إذا

تاب قبل الموت يقبل اللّه منه، و يسقط العقوبة عنه، و العقل حاكم بذلك .. و لكن فقهاء الشيعة الإمامية قالوا: إذا كان المرتد رجلا، و كان ارتداده عن فطرة «١» ثم تاب يسقط عنه العذاب الاخروي، أما العقوبة الدنيوية، و هي القتل، فلا تسقط بحال، اما إذا تاب المرتد عن ملة فيسقط القتل عنه مستندين في هذا التفصيل الى روايات عن أهل البيت (ع). و معنى حبط الأعمال في الدنيا انه يعامل معاملة الكافر، بالاضافة الى استحقاق القتل، أما الحبط في الآخرة فالعذاب و العقاب.

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ الَّذِينَ هاجَرُوا وَ جاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أُولئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللهِ وَ اللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ). بعد ان ذكر اللّه جل جلاله حال المشركين و المرتدين و عقابهم ناسب أن يذكر المؤمنين و ثوابهم، و الذين هاجروا هم الذين هاجروا من مكة الى المدينة مع رسول اللّه (ص)، و المجاهدون هم الذين بذلوا جهدهم في نصرة الإسلام، و مقاومة أعدائه.

عبادة التائب بعد ارتداده:

إذا تاب المرتد، و عاد الى الإسلام قبل موته يقبل اللّه توبته بحكم العقل،

---

(١) المرتد عن فطرة أن يكون أبواه أو أحدهما مسلما، و المرتد عن ملة أن يكون أبواه كافرين، ثم يسلم، ثم يرتد.

تفسير الكاشف، ج١، ص ٣٢٦

و بظاهر قوله تعالى: «فَيَمُتْ وَ هُوَ كافِرٌ» حيث قيد إحباط العمل بالموت على الكفر، و يتفرع على ذلك مسألتان:

الأولى: هل تصح العبادة، كالصلاة و الحج و الصوم و الزكاة، من المرتد بعد عودته الى الإسلام أو لا؟

و قد اتفق فقهاء السنة على انها تصح و تقبل منه.

و اتفق فقهاء الشيعة على انها تقبل من المرتد عن ملة بعد إسلامه، و اختلفوا في صحتها من المرتد عن فطرة بعد عودته الى الإسلام، فذهب أكثرهم الى انها لا تصح منه بحال، و ان إسلامه بعد الارتداد لا يجديه شيئا في الدنيا أبدا، بل يعامل معاملة الكافر، و انما ينفعه إسلامه بعد الارتداد في الآخرة فقط، حيث يسقط عنه العذاب .. و قال المحققون منهم، و نحن معهم: بل تصح عبادته، و ينفعه إسلامه، و يعامل معاملة المسلم دنيا و آخرة.

المسألة الثانية: هل يجب على المرتد أن يقضي بعد عودته الى الإسلام ما كان قد أتاه من العبادة قبل أن يرتد، فلو كان قد صلى و حج، و هو مسلم، ثم ارتد، ثم تاب، فهل عليه أن يعيد الصلاة و الحج بعد العودة الى الإسلام؟

قال الحنفية و المالكية: يلزمه القضاء. و قال الشافعية: لا يلزمه.

أما فقهاء الشيعة الذين قالوا بصحة عبادة من تاب بعد أن ارتد فإنهم ذهبوا إلى أنه لا يقضي شيئا مما كان قد أتى به من العبادة حال الإسلام، و قبل الارتداد، و انما يقضي خصوص ما فاته أثناء الارتداد فقط.

الإحباط:

قال جمهور المعتزلة، ان المؤمن المطيع يسقط ثوابه المتقدم بكامله إذا صدرت منه معصية متأخرة، حتى ان من عبد اللّه طول عمره، ثم شرب جرعة من خمر فهو كمن لم يعبد اللّه قطّ .. و كذا الطاعة المتأخرة تسقط الذنوب المتقدمة، و هذا

هو معنى الإحباط.

و اتفق الامامية و الاشاعرة على بطلان الإحباط، و قالوا: لكل عمل حسابه الخاص، و لا ترتبط الطاعات بالمعاصي، و لا المعاصي بالطاعات .. بل من

تفسير الكاشف، ج ١، ص ٣٢٧

يعمل مثقال ذرة خيرا يره، و من يعمل مثقال ذرة شرا يره .. فمن أساء و أحسن، و هو مؤمن باللّه يوازن بين حسناته و سيئاته، فان كانت الاساءة أكثر كان كمن لم يحسن، و ان كان الإحسان أكثر كان كمن لم يسئ، إذ الأكثر ينفي الأقل، و ان تساويا كان كمن لم يصدر عنه شيء.

و الإحباط بعيد عن هذا المعنى كل البعد، و معناه الصحيح ان من مات على الكفر بعد الإسلام يكشف كفره هذا عن ان أعماله التي أتى بها حين إسلامه لم تكن على الوجه المطلوب شرعا، و لا يستحق عليها شيئا منذ البداية، لا انه استحق الثواب، ثم ارتفع و نسخ بعد ثبوته، بل هو من باب الدفع، لا من باب الرفع.

[سورة البقرة (٢): الآيات ٢١٩ الى ٢٢٠]

يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَ الْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِما إِثْمٌ كَبِيرٌ وَ مَنافِعُ لِلنَّاسِ وَ إِثْمُهُما أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِما وَ يَسْئَلُونَكَ ما ذا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الْآياتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ (٢١٩) فِي الدُّنْيا وَ الْآخِرَةِ وَ يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْيَتامى قُلْ إِصْلاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَ إِنْ تُخالِطُوهُمْ فَإِخْوانُكُمْ وَ اللهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَ لَوْ شاءَ اللهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٢٠)

اللغة:

الخمر منقول من مصدر خمر الشيء بمعنى ستره و غطاه، و خمرت الجارية ألبستها الخمار، و الوجه في النقل ان هذا الشراب يستر العقل و يغطيه، و المراد

تفسير الكاشف، ج ١، ص ٣٢٨

بها هنا كل مسكر، و الميسر القمار مأخوذ من اليسر، و هو السهولة، لأنه كسب بلا مشقة، و العفو الزيادة، و العنت المشقة، و الاعنات الحمل على المشقة.

الإعراب:

العفو مفعول لمحذوف، أي أنفقوا العفو، و إصلاح لهم مبتدأ، و خير خبر، و فإخوانكم خبر مبتدأ محذوف، أي هم إخوانكم.

المعنى:

(يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَ الْمَيْسِرِ). سأل بعض المسلمين عن حكم الخمر و القمار، و كان السؤال في المدينة، أي بعد أكثر من ثلاث عشرة سنة من تاريخ الدعوة الاسلامية .. و يدل هذا على ان حكمهما كان مسكوتا عنه أمدا طويلا، كما سكت عن حكم بعض المحرمات الى وقت البيان حسبما تقتضيه المصلحة، و قد تستدعي الحكمة الرفق و التدريج في بيان الحكم، و قيل: ان بيان حكم الخمر كان من هذا الباب، لأن المسلمين كانوا قد ألفوها في الجاهلية، فلو منعوا عنها دفعة واحدة لشق ذلك عليهم .. بل ان اللّه سبحانه قد ذكّر الناس بأن من جملة نعمه عليهم انهم يتخذون من النخيل و الأعناب سكرا و رزقا، حيث قال عز من قائل في الآية ٦٧ من سورة النحل: «وَ مِنْ ثَمَراتِ النَّخِيلِ وَ الْأَعْنابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَراً وَ رِزْقاً حَسَناً».

سأل بعض المسلمين عن حكم الخمر و القمار، فأمر اللّه نبيه الأكرم أن يجيبهم بأن (فِيهِمٰا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَ مَنٰافِعُ لِلنّٰاسِ وَ إِثْمُهُمٰا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمٰا). و هذا الجواب بمفرده لا يدل على تحريم الخمر صراحة، لأنه لم يقل: الخمر حرام .. و لكنه يدل عليه بالالتزام، لقاعدة: درء المفسدة اولى من جلب المصلح لأهم مقدم على المهم، غير انه إذا لحظنا الآية ٣٢ من الأعراف: «قُلْ إِنَّمٰا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوٰاحِشَ مٰا ظَهَرَ مِنْهٰا وَ مٰا بَطَنَ وَ الْإِثْمَ وَ الْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ»، و عطفنا هذه الآية على الآية التي نحن بصددها، و جمعناهما في كلام واحد تكون الدلالة على التحريم

تفسير الكاشف، ج١، ص ٣٢٩

صريحة و قطعية أيضا، حيث تأتي النتيجة هكذا: الخمر إثم، و كل إثم حرام، فالخمر حرام.

هذا، بالاضافة الى الآية ٩٠ و ٩١ من سورة المائدة: «يٰا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَ الْمَيْسِرُ وَ الْأَنْصٰابُ «١» وَ الْأَزْلاٰمُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطٰانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ. إِنَّمٰا يُرِيدُ الشَّيْطٰانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدٰاوَةَ وَ الْبَغْضٰاءَ فِي الْخَمْرِ وَ الْمَيْسِرِ وَ يَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللّٰهِ وَ عَنِ الصَّلاٰةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ». فقوله: فاجتنبوه أمر بالاجتناب، و الأمر يدل على الوجوب، و قوله: فهل أنتم منتهون، ظاهر في النهي، لأن معناه انتهوا، و النهي يدل على التحريم، و لذا قال المسلمون بعد سماع هذه الآية: انتهينا. أما الآية ٤٣ من النساء: «يٰا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاٰ تَقْرَبُوا الصَّلاٰةَ وَ أَنْتُمْ سُكٰارىٰ». أما هذه الآية فقد نزلت قبل آية المائدة التي هي أشد و أغلظ، و أشرنا ان الحكمة ربما تستدعي التدريج في بيان التحريم. على ان لا تقربوا الصلاة و أنتم سكارى لا دلالة فيها على حليّة الخمر في غير الصلاة، و يأتي الكلام عنها مفصلا ان شاء اللّه حين نصل اليها.

هذا، الى أن المسلمين منذ الصدر الأول الى اليوم قد أجمعوا كلمة واحدة على ان الخمر من الكبائر، و ان من استحلها فليس بمسلم، و من ارتكبها متهاونا فهو فاسق، و يحد بثمانين جلدة، و قد تواتر عن الرسول الأعظم (ص) انه لعن غارسها، و عاصرها، و بائعها و شاريها و ساقيها و شاربها. و في بعض الأخبار أو الآثار: ان ما من شريعة سماوية إلا و نهت عن الخمر. و قد بحثنا هذا الموضوع مفصلا في الجزء الرابع من فقه الإمام جعفر الصادق، باب الأطعمة و الأشربة.

(وَ إِثْمُهُمٰا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمٰا) و المراد بالإثم هنا الضرر، و يظهر ضرر الخمر في الجسم و العقل و المال، و في الصد عن ذكر اللّه، و في الخصومات و المشاحنات، و في ارتكاب المحرمات، فلقد روى أهل السير ان بعض السكارى نزا على بنته ..

و كان العباس بن مرداس رئيسا في قومه في الجاهلية، و قد حرم الخمر على نفسه بفطرته، و لما قيل له في ذلك قال: ما أنا بآخذ جهلي بيدي فادخله جوفي، و لا أرضى أن أصبح سيد القوم، و امسي سفيههم. و قال طبيب الماني شهير:

---

(١) الانصاب و الازلام سهام كانوا يجيلونها في الجاهلية للقمار.

تفسير الكاشف، ج١، ص ٣٣٠

اقفلوا نصف الحانات، اضمن لكم الاستغناء عن نصف المستشفيات و المارستانات و السجون.

أما القمار فانه يورث العداوة و البغضاء، و يصد عن ذكر اللّه، كما أشارت الآية الكريمة .. و يفسد الأخلاق بالتعويد على

الكسل، و طلب الرزق من أسباب وهمية، و يهدم البيوت العامرة، و ينتقل بالإنسان من الغنى الى الفقر فجأة في ساعة واحدة .. و يكفي لتحريم القمار انه أخذ للمال بلا عوض و مقابل.

(وَ يَسْئَلُونَكَ ما ذا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ). أي أنفقوا ما زاد عما تحتاجونه أنتم و عيالكم. و الأمر بالإنفاق هنا للاستحباب، لا للوجوب، و انما يجب البذل إذا تحققت شروط الخمس و الزكاة، و سنتكلم عنهما مفصلا ان شاء اللّه .. و مهما يكن، فان هذه الآية تجري مجرى الآية ٢٩ من الاسراء: «وَ لا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلى عُنُقِكَ وَ لا تَبْسُطْها كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَحْسُوراً». و في الحديث ان رجلا جاء رسول اللّه (ص) بمثل البيضة من ذهب، و قال له: يا رسول اللّه خذها صدقة، فو اللّه لا أملك غيرها، فأعرض الرسول عنه، ثم أتاه من بين يديه، و أعاد القول، فقال النبي (ص): هاتها مغضبا، فأخذها منه، ثم حذفه بها، و قال: يأتيني أحدكم بماله لا يملك غيره، و يجلس يتكفف الناس، انما الصدقة عن غنى، خذها لا حاجة لنا فيها .. و في الحديث أيضا ان النبي (ص) كان يحبس لأهله قوت سنته.

(كَذلِكَ يُبَيِّنُ اللّهُ لَكُمُ الْآياتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ فِي الدُّنْيا وَ الْآخِرَةِ). أي ان اللّه سبحانه بيّن لنا حكمه في الخمر و القمار، و حكمه فيما ينبغي أن نتصدق به من أموالنا على أساس مصلحتنا نحن، فهو لا يأمر إلا بما فيه مصلحة دنيوية و أخروية، و لا ينهى إلا عما فيه مفسدة كذلك، و علينا أن نتدبر هذه الحقيقة، و نراعيها، و لا نعصي اللّه في شيء من أوامره و نواهيه. فالقصد من قوله تعالى:

لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ فِي الدُّنْيا وَ الْآخِرَةِ ان نعمل لهما معا، و لا ننصرف الى إحداهما دون الأخرى.

(وَ يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْيَتامى). اعتاد أهل الجاهلية أن ينتفعوا بأموال اليتامى، و ربما تزوج الرجل اليتيمة أو زوجها من ابنه طمعا في مالها، و بعد الإسلام أنزل اللّه على نبيه: «إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوالَ الْيَتامى ظُلْماً إِنَّما يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ ناراً».

تفسير الكاشف، ج ١، ص ٣٣١

و قوله: «وَ لا تَقْرَبُوا مالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ» فعند ذلك ترك القوم مخالطة اليتامى و القيام بأمورهم، فاختلت مصالحهم، و ساءت معيشتهم.

و سأل بعض المسلمين عن ذلك، فجاء الجواب من اللّه: **«قُلْ إِصْلاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ»**.

و المعنى لا تحرموا على أنفسكم مخالطة اليتامى، و مقاربة أموالهم إذا قصدتم الإصلاح في تربيتهم و تهذيبهم و ادارة أموالهم، بل في ذلك أجر لكم و ثواب، و انما المحرم هو استغلالهم و أكل أموالهم بالباطل.

(وَ إِنْ تُخالِطُوهُمْ فَإِخْوانُكُمْ). قال جماعة من المفسرين: هذا اذن من اللّه لمن يتولى أمر اليتيم أن يشركه مع عياله في المأكل و المشرب ان كان ذلك أيسر على المتولي، و يستوفي من مال اليتيم بقدر ما أنفق عليه.

(وَ اللّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ). المفسد هو الذي يلي أمر اليتيم ليستغل أمواله، و المصلح من يليها لمصلحة اليتيم بالذات .. و قوله: و اللّه يعلم المفسد تهديد عظيم لمن يبتغي الاستغلال و الفساد.

(وَ لَوْ شاءَ اللّهُ لَأَعْنَتَكُمْ). الاعنات الضيق في التكليف، و القصد ان اللّه أباح مخالطة اليتامى مع عيال المتولي، و ان يأخذ عوض ما ينفقه عليه من ماله، كي لا يقع المتولي في المشقة و الحرج، لأن اللّه سبحانه يريد بالناس اليسر، و لا يريد بهم العسر.

و تجدر الاشارة الى انه لا تشترط الدقة و المساواة التامة بين ما يأكله القاصر مع عيال المتولي، و بين ما يستوفيه هذا من مال القاصر، فان اللّه سبحانه يعفو عما جرى به العرف من المسامحة في التفاوت الذي يتعذر أو يتعسر اجتنابه، بل

للمتولي الفقير أن يأكل من مال القاصر بالمعروف، و ليس له ذلك ان كان غنيا، لقوله تعالى: «وَ مَنْ كانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَ مَنْ كانَ فَقِيراً فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ- النساء ٦».

[سورة البقرة (٢): آية ٢٢١]

وَ لا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ وَ لَأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَ لَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَ لا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا وَ لَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَ لَوْ أَعْجَبَكُمْ أُولئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَ اللهُ يَدْعُوا إِلَى الْجَنَّةِ وَ الْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَ يُبَيِّنُ آياتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٢١)

تفسير الكاشف، ج ١، ص ٣٣٢

المعنى:

(وَ لا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ وَ لَأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَ لَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَ لا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا وَ لَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَ لَوْ أَعْجَبَكُمْ).

هذه الآية من آيات الأحكام، و تدخل في باب الزواج، و قبل بيان المضمون نمهد بتفسير لفظ النكاح و المشركين، و الامة و العبد.

يطلق النكاح على عقد الزواج، و على الوطء، تقول: فلان نكح فلانة، أي عقد عليها ان كانت خلية، و تقول: نكح زوجته، أي وطأها، و المفهوم من قوله تعالى: «**وَ لا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكاتِ**» ان المسلم لا يجوز له أن يتخذ المشركة زوجة له، كما ان المفهوم من قوله: «**وَ لا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ**» ان المشرك لا يحق له أن يتخذ المسلمة زوجة له، و عليه يكون المراد من النكاح الزواج بحقيقته و جميع ملابساته.

أما لفظ المشركين فقيل: انه يشمل كل من لا يؤمن بنبوة محمد (ص)، و على هذا القول يدخل أهل الكتاب، و هم النصارى و اليهود في عداد المشركين، و قيل: ان القرآن لا يطلق لفظ المشركين على أهل الكتاب، و ان قالوا بربوبية عيسى، و ان اللّه ثالث ثلاثة، و استدل الذاهبون الى هذا القول بالآية ١٠٥ من سورة البقرة: «ما يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ وَ لَا الْمُشْرِكِينَ».

و الآية ١ من البينة: «لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ وَ الْمُشْرِكِينَ».

حيث عطف المشركين على أهل الكتاب، و العطف يستدعي التعدد و التغاير، لأن الشيء لا يعطف على نفسه.

و يطلق لفظ الامة على المملوكة، و الحرة، تقول للحرة يا أمة اللّه، أي

تفسير الكاشف، ج ١، ص ٣٣٣

يا عبدة اللّه، و كذلك العبد، لأن الآدميين عبيد اللّه، و الآدميات اماؤه ..

و محصل المعنى لا تتزوجوا أيها المسلمون من مشركة ما دامت على الشرك، و تزوجوا امرأة منكم، و ان كانت دون المشركة خلقا و خلقا، و لا تزوجوا مشركا ما دام على شركه، و زوجوا رجلا منكم، و ان كان دون المشرك مالا و جاها.

(أُولئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ). أولئك اشارة الى المشركين و المشركات، و يدعون الى النار بيان للحكمة الموجبة لعدم الزواج أخذا و عطاء من أهل الشرك، و الحكمة هي ان الصلة الزوجية بهم تؤدي الى فساد العقيدة و الدين- و على الأقل- الى الفسق و التهاون بأحكام اللّه.

و الذي نشاهده في هذا العصر ان الكثير من شبابنا و شاباتنا ليسوا بأحسن حالا من أهل الكفر و الشرك من حيث الاستخفاف و التهاون بالدين، و التحرر من قيوده و آثاره، و تنشئة أبنائهم تنشئة لا دينية و لا أخلاقية .. و لو لا شهادتهم للّه بالوحدانية، و لمحمد (ص) بالرسالة لوجب أن نعاملهم معاملة الملحدين و المشركين، و لكن لهذه الكلمة تأثيرها في حقن الدماء، و صيانة الأموال، و صحة الزواج و الميراث، حتى و لو جاءت عن طريق التقليد و الوراثة، بل و الايمان المزيف «١».

(وَ اللهُ يَدْعُوا إِلَى الْجَنَّةِ وَ الْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِه). هنا دعوتان: الأولى دعوة المشركين الى فعل ما يوجب دخول النار، و غضب اللّه سبحانه. و الثانية دعوة اللّه الى فعل ما يوجب المغفرة و دخول الجنة، و من هذا الفعل الزواج بالمؤمنة دون المشركة، و تزويج المؤمن دون المشرك .. و ليس من شك ان المؤمنين هم الذين يلبون دعوة اللّه، و ينالون بذلك مفخرته، و يدخلون جنته باذنه، أي بهدايته و توفيقه.

الزواج بالكتابية:

اتفق المسلمون على انه لا يجوز للمسلم، و لا للمسلمة التزويج ممن لا كتاب

---

(١) ان الزواج و الميراث يترتبان على اظهار الإسلام، لا على الإسلام واقعا، و بحثنا ذلك مفصلا في كتاب أصول الإثبات، فصل الدعوى و مخالفة الشرع، فقرة الإسلام.

تفسير الكاشف، ج ١، ص ٣٣٤

سماوي لأهل ملته، كعبدة الأوثان و الشمس و النيران، و ما الى ذلك، و بالأولى من لا يؤمن بشيء.

و كذا لا يجوز للمسلم أن يتزوج من مجوسية، و بالأولى ان لا تتزوج المسلمة من مجوسي، و ان قيل بأن للمجوس شبهة كتاب.

و اتفقت مذاهب السنة الأربعة على صحة الزواج من الكتابية .. و اختلف فقهاء الشيعة فيما بينهم، فقال أكثرهم: لا يجوز للمسلم أن يتزوج اليهودية و النصرانية، و قال جماعة من كبارهم، منهم الشيخ محمد حسن في الجواهر، و الشهيد الثاني في المسالك، و السيد أبو الحسن في الوسيلة، قالوا: يجوز، و نحن نميل الى هذا الرأي، و الدليل عليه:

١- الأدلة الدالة على اباحة الزواج بوجه عام، خرج منها زواج المسلم بالمشركة، و المسلمة بالمشرك و الكتابي، و بقي ما عدا ذلك مشمولا و مدلولا للعمومات و الإطلاقات.

٢- قوله تعالى: «أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّباتُ وَ طَعامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ حِلٌّ لَكُمْ وَ طَعامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَ الْمُحْصَناتُ مِنَ الْمُؤْمِناتِ وَ الْمُحْصَناتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ- المائدة ٥». أي أحل لكم النساء المحصنات من أهل الكتاب، و المراد بالمحصنات العفيفات، أما قوله سبحانه: **وَ لا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ** فقد تقدم انه خاص بالمشركات، و هن غير الكتابيات. أما قوله تعالى: «وَ لا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوافِرِ» فان المراد بالكوافر هنا المشركات، لا أهل الكتاب، لأن الآية نزلت فيمن أسلمن و هاجرن الى النبي (ص) تاركات أزواجهن المشركين، و السياق يدل على ذلك، و هذه هي الآية بكاملها: «يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا جاءَكُمُ الْمُؤْمِناتُ مُهاجِراتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللهُ أَعْلَمُ بِإِيمانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِناتٍ فَلا

تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَ لا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَ آتُوهُمْ ما أَنْفَقُوا وَ لا جُناحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَ لا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوافِرِ- الممتحنة ١٠».

هذا، الى أحاديث صحيحة عن النبي و أهل بيته (ص) في صحة زواج المسلم من الكتابية. و تكلمنا عن ذلك مفصلا في الجزء الخامس من كتاب فقه الإمام جعفر الصادق، باب المحرمات، فقرة اختلاف الدين.

تفسير الكاشف، ج ١، ص ٣٣٥

[سورة البقرة (٢): الآيات ٢٢٢ الى ٢٢٣]

وَ يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذىً فَاعْتَزِلُوا النِّساءَ فِي الْمَحِيضِ وَ لا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ فَإِذا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللهُ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَ يُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ (٢٢٢) نِساؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ وَ قَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ وَ اتَّقُوا اللهَ وَ اعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلاقُوهُ وَ بَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (٢٢٣)

اللغة:

الحيض لغة السيلان، و شرعا دم ذو أوصاف خاصة يخرج من رحم المرأة في أمد مخصوص، و المراد بالأذى هنا الضرر من حيث القذارة و النجاسة.

الاعراب:

انّى تكون ظرف مكان بمعنى أين، و تجزم فعلين نحو أنّى تجلس اجلس، و بمعنى من أين نحو يا مريم انّى لك هذا، أي من أين، و تأتي ظرف زمان بمعنى متى نحو أنّى جئت، أي متى جئت، و تأتي للسؤال عن الكيفية، نحو أنّى يحيي اللّه هذه بعد موتها.

المعنى:

سألوا الرسول الأعظم (ص) عن الشهر الحرام، و عن الخمر و الميسر، و عما ينفقون، و عن اليتامى، ثم سألوه عن حيض النساء .. و قال الرازي: «روي ان اليهود و المجوس كانوا يبالغون في التباعد عن المرأة حال حيضها، و النصارى

تفسير الكاشف، ج ١، ص ٣٣٦

كانوا يجامعونهن، و لا يبالون بالحيض، و ان أهل الجاهلية كانوا إذا حاضت المرأة لم يؤاكلوها، و لم يشاربوها، و لم يجالسوها على فراش، و لم يساكنوها في بيت، كفعل اليهود و المجوس.

(وَ يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذىً فَاعْتَزِلُوا النِّساءَ فِي الْمَحِيضِ).

المحيض اسم لمكان الحيض و محله، و المراد به هنا الحيض من باب اطلاق المحل على الحال، و السؤال وقع عن مخالطة النساء في زمن الحيض، فأمر اللّه نبيه الأكرم أن يجيب السائلين بأن يعتزلوا النساء ايام الحيض، أي لا يجامعوهن فيه.

فقد جاء في الحديث: «اصنعوا كل شيء الا الجماع». و قوله: «**هُوَ أَذىً**» تعليل للحكم، و الأذى في اللغة ما يكره من كل شيء، و المراد به هنا الضرر من حيث القذارة و النجاسة.

(وَ لا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ). اختلفوا في «يطهرن» هل المراد به مجرد انقطاع الدم، فإذا انقطع جاز الوطء، و ان لم تغتسل، أو المراد به الاغتسال بعد انقطاع الدم، فلا يجوز الا بعد الانقطاع و الاغتسال.

قال الإمامية: يجوز الوطء بمجرد انقطاع الدم، و ان لم تغتسل، لأن هذا هو المفهوم من لفظ الطهر، أما التطهر فهو من عمل النساء، و يكون عقب الطهر.

و قال المالكية و الشافعية: لا يجوز الوطء الا بعد الاغتسال.

و قال الحنفية: ان استمر الدم لعشرة ايام جاز أن يقربها قبل الاغتسال، و ان انقطع لدون العشرة فلا يجوز الوطء، حتى تغتسل .. و علق صاحب تفسير المنار على هذا التفصيل بقوله: «هو تفصيل غريب».

(فَإِذا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللهُ). ان لفظة حيث حقيقة في المكان، و عليه يكون المعنى فأتوهن في القبل، كما هو المتبادر الى الفهم.

و تكلمنا عن الحيض و أحكامه مفصلا في كتاب فقه الإمام جعفر الصادق، و كتاب الفقه على المذاهب الخمسة.

(نِساؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ). قدمنا في فقرة الاعراب ان انّى تأتي بمعنى كيف و متى و أين .. و قد تعددت الأقوال في تفسير الآية بتعدد معاني انّى، فمن قائل: انها بمعنى متى، و يكون المراد فأتوهن في أي زمان

تفسير الكاشف، ج ١، ص ٣٣٧

شئتم ليلا أو نهارا، و من قائل: انها بمعنى أين، أي أنتم مخيرون ان تأتوهن قبلا أو دبرا، و من قائل: انها بمعنى كيف، أي على أية حال شئتم قعودا أو نياما أو نحو ذلك.

و قال جماعة من المفسرين، منهم صاحب تفسير المنار من علماء السنة، و منهم صاحب تفسير بيان السعادة من علماء الشيعة، قالوا: ان تقييد الإتيان بالحرث ينافي ارادة المكان الشامل للدبر، حيث لا استعداد له لزراعة الولد، هذا، بالاضافة الى ما في الإتيان بالدبر من الأذى .. و نحن على هذا الرأي، أولا لأن الحرث لا يتحقق الا في القبل، كما ذكر أولئك المفسرون، ثانيا ان قوله تعالى: (فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللهُ) يعين ارادة القبل بعد أن فسرنا «حيث» بالمكان.

و تجمل الاشارة الى ان جماعة من فقهاء الشيعة الإمامية قد أباحوا وطء الزوجة دبرا على كراهية شديدة، و أنكر البعض ذلك عليهم زاعما انه من اختصاص الشيعة، و لا يوافقهم أحد من المسلمين عليه .. مع العلم بأن الرازي نقل في تفسير هذه الآية ان ابن عمر كان يقول: المراد من الآية تجويز إتيان النساء في أدبارهن. و قال الحافظ أبو بكر الأندلسي المالكي- توفي سنة ٥٤٢ هـ- في الجزء الأول من كتاب احكام القرآن صفحة ٧٣ طبعة ١٣٣١ هـ قال ما نصه بالحرف:

«اختلف العلماء في جواز نكاح المرأة في دبرها، فجوزه طائفة كثيرة، و قد جمع ذلك ابن شعبان في كتاب جماع النسوان و أحكام القرآن، و أسند جوازه الى زمرة كريمة من الصحابة و التابعين و الى مالك من روايات كثيرة، و قد ذكر البخاري عن ابن عون عن نافع ان ابن عمر كان يقرأ سورة البقرة، حتى انتهى الى انّى شئتم، فقال: أ تدري فيم نزلت؟ قلت: لا. قال نزلت في كذا و كذا». أي في ادبار النساء.

[سورة البقرة (٢): الآيات ٢٢٤ الى ٢٢٧]

وَ لا تَجْعَلُوا اللهَ عُرْضَةً لِأَيْمانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَ تَتَّقُوا وَ تُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَ اللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٢٤) لا يُؤاخِذُكُمُ اللهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمانِكُمْ وَ لكِنْ يُؤاخِذُكُمْ بِما كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَ اللهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ (٢٢٥) لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِنْ فاؤُ فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢٢٦) وَ إِنْ عَزَمُوا الطَّلاقَ فَإِنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٢٧)

تفسير الكاشف، ج ١، ص ٣٣٨

اللغة:

العرضة التهيئة، يقال: هذا عرضة للتلف، أي مهيأ و معرض له. و الإيلاء لغة الحلف، و شرعا حلف الرجل ان لا يقرب امرأته، و التربص الانتظار، و فاءوا أي رجعوا.

الإعراب:

ان تبرّوا المصدر المنسبك مجرور بلام محذوفة، و التقدير لبركم و تقواكم، و قيل: بل هو في محل رفع مبتدأ، و الخبر محذوف، و التقدير بركم و تقواكم خير لكم.

المعنى:

(وَ لا تَجْعَلُوا اللهَ عُرْضَةً لأَيْمانِكُمْ). نهى اللّه سبحانه عن الجرأة عليه بكثرة الحلف به، لأن من أكثر ذكر شيء فقد جعله عرضة له، يقول الرجل لغيره تكلمت علي كثيرا حتى جعلتني عرضة لكذا .. و قد ذم اللّه من أكثر الحلف بقوله: «و لا تطع كل حلاف مهين». و من أكثر الحلف قلّت مهابته، و كثر حنثه، و اتهم بالكذب.

(أَنْ تَبَرُّوا وَ تَتَّقُوا وَ تُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ). هذا تعليل للنهي عن اليمين،

تفسير الكاشف، ج ١، ص ٣٣٩

و المعنى ان اللّه نهاكم عنها من غير ضرورة لتكونوا بررة أتقياء مصلحين في الأرض غير مفسدين.

(لا يُؤاخِذُكُمُ اللهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمانِكُمْ). بعد أن نهى اللّه سبحانه عن الحلف بلا ضرورة بيّن ان ما يدور كثيرا على الألسن، مثل بلى و اللّه، و لا و اللّه، ان هذا، و ما اليه، ليس من اليمين الحقيقية في شيء، و انما هو لغو يسبق الى اللسان من غير قصد، و لا يترتب عليه ضرر لأحد، و لذا لم يفرض اللّه له كفارة في الدنيا، و لا يعاقب عليه في الآخرة.

(وَ لكِنْ يُؤاخِذُكُمْ بِما كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ). لأنه جلت عظمته لا ينظر الى الصور و الأقوال، و انما ينظر الى النوايا و الأفعال، و مثله الآية ٨٨ من سورة المائدة:

«لا يُؤاخِذُكُمُ اللهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمانِكُمْ وَ لكِنْ يُؤاخِذُكُمْ بِما عَقَّدْتُمُ الأَيْمانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعامُ عَشَرَةِ مَساكِينَ مِنْ أَوْسَطِ ما تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ ذلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمانِكُمْ إِذا حَلَفْتُمْ». فالعاقل البالغ القاصد المختار إذا حلف و خالف فعليه أن يكفر بعتق رقبة، أو اطعام عشرة مساكين، أو كسوتهم، فان عجز عن ذلك صام ثلاثة ايام .. و تكلمنا عن اليمين و شروطها و أحكامها في الجزء الخامس من فقه الإمام جعفر الصادق، باب النذر و اليمين و العهد.

(لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِنْ فاؤُ فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ وَ إِنْ عَزَمُوا الطَّلاقَ فَإِنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ). الإيلاء في الشريعة أن يحلف الزوج باللّه على ترك وطء زوجته، و اشترط فقهاء الإمامية لانعقاده أن تكون الزوجة مدخولا بها، و الا لم يقع الإيلاء، و ان يحلف الزوج على ترك الوطء مدة حياة الزوجة، أو مدة تزيد على الأربعة أشهر، لأن للزوجة حق المواقعة على الزوج مرة كل أربعة أشهر على الأقل.

و قالوا: إذا وطأ الزوج في الأربعة أشهر يكفر، و يزول المانع، كأن لم يكن شيء، و ان مضى أكثر من أربعة أشهر، و لم يطأ فان صبرت و رضيت فلها ذلك، و لا يحق لأحد أن يعترض، و ان لم تصبر رفعت أمرها الى الحاكم الشرعي، و بعد مضي الأشهر الأربعة يجبره على الرجوع، أو الطلاق، فان امتنع ضيق عليه و حبسه، حتى يختار أحد الأمرين، و لا يحق للحاكم أن يطلق قهرا عن الزوج .. و إذا رجع كفر كفارة اليمين المتقدم ذكرها.

تفسير الكاشف، ج ١، ص ٣٤٠

[سورة البقرة (٢): آية ٢٢٨]

وَ الْمُطَلَّقاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلاثَةَ قُرُوءٍ وَ لا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ ما خَلَقَ اللهُ فِي أَرْحامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ وَ بُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذلِكَ إِنْ أَرادُوا إِصْلاحاً وَ لَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَ لِلرِّجالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَ اللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٢٨)

اللغة:

التربص الانتظار، و القروء واحدها قرء بضم القاف و فتحها، و يطلق تارة على حيض المرأة، و أخرى على طهرها.

المعنى:

(وَ الْمُطَلَّقاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلاثَةَ قُرُوءٍ). لفظ المطلقات عام يشمل بظاهره كل زوجة وقع عليها الطلاق، آيسة كانت، أو غير آيسة، حرة أو مملوكة، حاملا أو حائلا، مدخولا بها أولا، كبيرة أو صغيرة دون التسع ..

و لكن هذا الظاهر غير مراد بالاتفاق، لأن بعض المطلقات لا عدة عليها بنص القرآن، و هي التي لم يدخل بها الزوج، قال تعالى: «إِذا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِناتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ فَما لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَها- الأحزاب ٤٩».

و منها الآيسة، فقد ذهب أكثر فقهاء الشيعة الإمامية الى انه لا عدة عليها، و إن كان قد دخل بها الزوج، و كذلك الصغيرة دون التسع، و أيضا من المطلقات من تعتد بقرءين كالأمة المملوكة، و أيضا منهن من تعتد بثلاثة أشهر، لا بثلاثة قروء، و هي الشابة في سن من تحيض و لا تحيض، كما ان الحامل تعتد بوضع الحمل، قال تعالى: «وَ أُولاتُ الْأَحْمالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ- الطلاق ٤».

تفسير الكاشف، ج ١، ص ٣٤١

و على هذا يكون المراد بالمطلقات في الآية من دخل بها الزوج بعد أن أكملت التسع، و لم تكن حاملا، و لا آيسة، و كانت من ذوات الحيض .. و قد فسر الإمامية و المالكية و الشافعية- فسروا القرء بالطهر، و المراد بالطهر أيام النقاء بين الحيضتين، فإذا طلقها في آخر لحظة من طهرها احتسب من العدة، و أكملت بعده طهرين، أما الحنفية و الحنابلة فقد فسروا القرء بالحيض، و عليه فلا بد من ثلاث حيضات بعد الطلاق.

(وَ لا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ ما خَلَقَ اللهُ فِي أَرْحامِهِنَّ). و فهم هذه الجملة على حقيقتها يتوقف على التمهيد بما يلي:

قسّم فقهاء السنة الطلاق إلى قسمين: سنة و بدعة .. و نترك تفسير طلاق السنة، و طلاق البدعة إلى فقهاء السنة أنفسهم، فلقد جاء في كتاب المغني لابن قدامة ج ٧ ص ٩٨ الطبعة الثالثة ما نصه بالحرف: «معنى طلاق السنة الطلاق الذي وافق أمر اللّه، و أمر رسوله، و هو الطلاق في طهر لم يصبها فيه». و في ص ٩٩ من الكتاب المذكور: «ان طلاق البدعة هو أن يطلقها حائضا، أو في طهر أصابها فيه». و قال الرازي في تفسير الآية ١ من سورة الطلاق:

«فالطلاق حال الطهر لازم، و إلا لا يكون سنيا».

و على هذا يكون طلاق الزوجة في حال الحيض، أو في طهر واقعها الزوج فيه طلاقا غير شرعي، بل هو بدعة، و كل بدعة ضلالة، و كل ضلالة في النار، أما طلاقها في طهر لم يواقعها فيه فهو على سنة اللّه و رسوله، و بهذا يتضح السر في قوله تعالى: «وَ لا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ ما خَلَقَ اللهُ فِي أَرْحامِهِنَّ» من الطهر و الحيض، لأن معرفة وقوع الطلاق على

سنة اللّه و رسوله، أو على البدعة و الضلالة تتوقف على معرفة حال المطلقة، و انها هل هي طاهر أو حائض .. و بديهة ان السبيل إلى معرفة هذين الوصفين، و هما الطهر و الحيض منحصر بالمرأة، و لا وسيلة للمعرفة بالوصفين إلا هي بالذات، و لذا تصدق فيهما ما لم يعلم كذبها، قال الإمام جعفر الصادق (ع): فوض اللّه الى النساء ثلاثة أشياء: الطهر و الحيض و الحمل، و في رواية ثانية و العدة.

و الشيعة يتفقون مع السنة على أن الطلاق إذا وقع في الحيض، أو في طهر واقعها فيه يكون بدعة، و إذا وقع في طهر لم يواقعها فيه يكون على سنة

تفسير الكاشف، ج ١، ص ٣٤٢

الرسول (ص). و لكن الشيعة قالوا: ان طلاق البدعة فاسد لا يقع من الأساس، و ان الطلاق الصحيح الذي تنقطع معه العصمة بين الزوجين هو طلاق السنة، أي الواقع في طهر لم يصبها فيه. و قال فقهاء السنة: كلا، إن طلاق البدعة صحيح، و تترتب عليه جميع الآثار، و لكن المطلق يأثم .. و بكلمة: ان السنة لا يفرقون بين طلاق السنة و طلاق البدعة من حيث الصحة، و انما يفرقون بينهما من حيث الإثم و المعصية فقط، أما الشيعة فقد فرقوا بينهما من حيث الصحة، لا من حيث الإثم.

(إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ). هذا تخويف و تهديد على كتمان ما في الرحم، و ليس شرطا لوجوب الصدق، لأن معناه ان الإيمان يمنع من الكذب، فهو تماما كمن يقول للكاذب: ان كنت تخاف اللّه فلا تكذب.

و سبقت الاشارة إلى أن المطلقة أمينة في الطهر و الحيض و الحمل، و معنى هذا ان القول قولها في العدة بقاء و انقضاء، و بديهة ان حق الزوج في الرجعة يتوقف على بقاء العدة، كما ان صيانة الأنساب تتصل مباشرة بالطهر و الحيض، و كذلك صحة الطلاق و فساده عند فقهاء الإمامية، فإذا كانت حائضا و قالت: انها طاهر حين الطلاق لم يقع الطلاق، و تبقى على العصمة الزوجية، و إذا قالت: انقضت عدتي بالأقراء، و كانت بعد لم تنقض فقد فوتت حق الرجعة على الزوج، و إذا تزوجت في هذه الحال تكون زانية .. و من أجل هذا و غير هذا نهى اللّه سبحانه النساء عن كتمان ما في أرحامهن، و هددهن عليه.

(وَ بُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذٰلِكَ إِنْ أَرٰادُوا إِصْلاٰحاً). قوله: (في ذلك) إشارة إلى زمن التربص، و هو أيام العدة، و محصل المعنى ان اللّه سبحانه بعد أن بيّن وجوب العدة ذكر في هذه الآية حق المطلق في الرجعة على مطلقته ما دامت في العدة إذا كان الطلاق رجعيا، و هذا الحق ثابت له، سواء أرضيت أم لم ترض .. و لا تحتاج الرجعة إلى عقد و مهر، كما انها لا تحتاج إلى شهود عند فقهاء الإمامية، و يأتي بيان ذلك مع دليلهم في سورة الطلاق.

و المراد بقوله: **(إِنْ أَرٰادُوا إِصْلاٰحاً)** إصلاح حاله معها، و عدم قصد الإضرار بها من الرجعة.

و تسأل: إذا أرجع الرجل مطلقته أثناء العدة بقصد الإضرار، لا بقصد

تفسير الكاشف، ج ١، ص ٣٤٣

الإصلاح، فهل تكون الرجعة صحيحة تترتب عليها آثار الزوجية، أو تكون باطلة لا يترتب عليها شيء؟.

الجواب: تصح الرجعة، و يأثم الرجل، لأن قصد الإصلاح شرط للحكم التكليفي، و هو اباحة الرجعة و حليّتها، و ليس شرطا للحكم الوضعي، و صحة الرجعة، و ترتّب الآثار عليها.

(وَ لَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ). ليس المراد بالمماثلة هنا الاتحاد في الجنس، بحيث يستحق هو عليها النفقة و

المهر، كما تستحق هي عليه ذلك، و انما المراد بالمماثلة الوجوب و استحقاق المطالبة .. و قال الفقهاء: حقه عليها أن تطيعه في الفراش، و حقها عليه أن يملأ بطنها، و يكسو جلدها، و قال صاحب تفسير المنار، يرجع في تفسير و تحديد حق الزوج على الزوجة، و حق الزوجة على الزوج إلى ما جرت عليه عادة الناس إلا ما كان منه محرما في الشريعة .. فما يراه العرف حقا لأحد الزوجين فهو كذلك عند اللّه.

و الذي نستظهره من سياق الآية ان الحق الذي عليها هو العدة و الصدق في الاخبار عنها، و عدم الاعتراض على الرجعة المستوفية للشروط، و الحق الذي لها أن يقصد الرجل من إرجاعها الإصلاح، لا الإضرار، و حسن الصحبة، لا سوء المعاملة .. أما سائر الحقوق الأخرى التي لكل من الزوجين على الآخر فالآية أجنبية عنها، و تستفاد من أدلة مستقلة عن الآية.

(وَ لِلرِّجٰالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ). اختلف العلماء و المفسرون في المراد من هذه الدرجة التي امتاز بها الرجل عن المرأة .. فقيل: هي العقل و الدين. و قيل:

هي الميراث. و قيل: هي السيادة، أي ان عليها ان تسمع من الرجل و تطيع ..

و من الطريف ان بعضهم فسر الدرجة باللحية، كما جاء في أحكام القرآن للقاضي أبي بكر الأندلسي، و غير بعيد أن يكون المراد بالدرجة جعل الطلاق و الرجعة بيد الرجل، دون المرأة.

بين الرجل و المرأة في الشريعة الاسلامية:

لقد سبق الإسلام الشرائع و القوانين كلها الى تحريز المرأة، و اقرار حقوقها

تفسير الكاشف، ج ١، ص ٣٤٤

بعد ان كان الرجل يعاملها معاملة السلع و الحيوانات، حتى في أوروبا و أميركا إلى عهد قريب .. و إذا ميز الإسلام الرجل عن المرأة بأشياء فان هذا التمييز تفرضه الفروق الطبيعية بينهما، أو مصلحة الجماعة، و ليس من العقل و العدل المساواة في كل شيء بين من تهتم بالفساتين و الموضة و تسريحات الشعر و ما اليها، و بين من يشعر بالمسؤولية عنها و عن أولادها، و يتحمل المصائب و المشاق من أجلها و أجلهم .. و مهما يكن، فان فقهاء الإسلام ذكروا فروقا بين الرجل و المرأة في الأحكام الشرعية نشير إلى جملة منها فيما يلي:

١- ان دية المرأة نصف دية الرجل.

٢- الطلاق و الرجعة بيد الزوج دون الزوجة.

٣- ليس لها أن تمتنع عن فراشه، و لا أن تسافر، و تخرج من بيته إلا برضاه، و له أن يفعل ما يشاء.

٤- لا تجب عليها صلاة الجمعة، حتى و لو تحققت الشروط الموجبة بالنسبة إلى الرجل.

٥- لا يجوز لها أن تتولى الإمرة، و لا القضاء إلا عند أبي حنيفة في حقوق الناس خاصة دون حقوق اللّه.

٦- لا يجوز أن تكون إماما في الصلاة للرجال، و يجوز أن يكون الرجل إماما للنساء.

٧- لا تقبل شهادتها إطلاقا في غير الأموال، لا منفردة و لا منضمة الى الرجال إلا في مسألة الولادة، و تقبل في الأموال منضمة الى الرجال، على أن تكون شهادة امرأتين بشهادة رجل واحد.

٨- للأنثى من الميراث سهم، و للذكر سهمان.

٩- على المرأة أن تستر عن الرجال الأجانب شعرها و جميع بدنها ما عدا الوجه و الكفين، و لا يجب على الرجل أن

يستر عن النساء سوى القبل و الدبر.

١٠- لا جهاد عليها، و لا جزية، و لا تقتل في الحرب ما لم تقاتل.

١١- لا تشارك الأم الأب في الولاية على وليدهما الصغير في الزواج، و لا التصرف في أمواله، و يستقل الأب في جميع ذلك.

تفسير الكاشف، ج ١، ص ٣٤٥

١٢- لا تصح معها المسابقة و الرماية «١».

١٣- أفتى الفقهاء بأن من قتل إنسانا عن خطأ يحمل الدية عن القاتل من يتقرب اليه بالأب، كالاخوة و الأعمام و أولادهم، و يسمون بالعاقلة، و لا تدخل المرأة معهم.

١٤- إذا قتلت امرأة رجلا قتلت به بلا شرط، و إذا قتل رجل امرأة فلا يقتل بها الا بعد أن يدفع وليها نصف الدية لورثة القاتل.

[سورة البقرة (٢): الآيات ٢٢٩ الى ٢٣٠]

الطَّلاٰقُ مَرَّتاٰنِ فَإِمْسٰاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسٰانٍ وَ لاٰ يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئاً إِلاّٰ أَنْ يَخٰافٰا أَلاّٰ يُقِيمٰا حُدُودَ اللّٰهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاّٰ يُقِيمٰا حُدُودَ اللّٰهِ فَلاٰ جُنٰاحَ عَلَيْهِمٰا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللّٰهِ فَلاٰ تَعْتَدُوهٰا وَ مَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللّٰهِ فَأُولٰئِكَ هُمُ الظّٰالِمُونَ (٢٢٩) فَإِنْ طَلَّقَهٰا فَلاٰ تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتّٰى تَنْكِحَ زَوْجاً غَيْرَهُ فَإِنْ طَلَّقَهٰا فَلاٰ جُنٰاحَ عَلَيْهِمٰا أَنْ يَتَرٰاجَعٰا إِنْ ظَنّٰا أَنْ يُقِيمٰا حُدُودَ اللّٰهِ وَ تِلْكَ حُدُودُ اللّٰهِ يُبَيِّنُهٰا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٢٣٠)

اللغة:

الجناح الإثم، و الاعتداء تجاوز الحد في قول أو فعل.

---

(١) المسابقة أن يتسابق اثنان على الخيل، على أن يكون للسابق جعل معين، و الرماية أن يتباريا في الرمي على هدف على أن يأخذ الجعل من يصيب الهدف. و قد أجاز الإسلام ذلك.

تفسير الكاشف، ج ١، ص ٣٤٦

الاعراب:

فإمساك خبر مبتدأ محذوف، أي فالواجب عليكم إمساك بمعروف، و المصدر من أن تأخذوا مرفوع فاعل لا يحل، و المصدر من أن يخافا مفعول لأجله لتأخذوا أي لا يحل الأخذ إلا الخوف عدم اقامة الحدود، و المصدر من أن يقيما مفعول به ليخافا، أي يخافا ترك إقامة الحدود، و المصدر من أن يتراجعا مجرور بفي محذوفة، و مصدر ان يقيما مفعول لظنا.

المعنى:

(الطَّلاٰقُ مَرَّتاٰنِ فَإِمْسٰاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسٰانٍ). كان للعرب في الجاهلية طلاق، و عدة مقدرة للمطلقة، و رجعة للمطلّق أثناء العدة، و لكن لم يكن للطلاق عدد معين، فربما طلق الرجل امرأته مائة مرة و راجعها، و تكون المرأة

بذلك ألعوبة بيد الرجل يضارها بالطلاق و الرجوع متى شاء .. و جاء في بعض الروايات ان رجلا قال لامرأته: لا أقربك أبدا، و مع ذلك تبقين في عصمتي، و لا تستطيعين الزواج من غيري .. قالت له: و كيف ذلك؟ قال:

أطلقك، حتى إذا قرب انقضاء العدة راجعتك، ثم طلقتك، و هكذا أبدا.

فشكته الى النبي (ص) فأنزل اللّه سبحانه: الطلاق مرتان، أي ان الطلاق الذي شرّع اللّه فيه الرجوع للمطلق هو الطلاق الأول و الثاني فقط، أما الطلاق الثالث فلا يحل الرجوع بعده، حتى تنكح المطلقة زوجا غير المطلّق، كما في قوله:

فان طلقها فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجا غيره.

(فَإِمْسٰاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسٰانٍ). إذا طلق الرجل زوجته للمرة الثانية فهو مخير بين أحد أمرين، ما دامت في العدة: الأمر الأول ان يرجعها الى عصمته بقصد الإصلاح، و حسن المعشر، و هذا هو الإمساك بمعروف. الأمر الثاني ان يدعها و شأنها، حتى تنقضي عدتها، على أن يؤدي اليها ما لها عليه من حق مالي، و لا يذكرها بعد المفارقة بسوء، و لا ينفّر منها من أراد الزواج بها بعد انقضاء العدة، و هذا هو التسريح بإحسان.

تفسير الكاشف، ج ١، ص ٣٤٧

و تسأل: ان كثيرا من المفسرين قالوا: المراد من التسريح الطلقة الثالثة، و استشهدوا بحديث عن الرسول الأعظم (ص) .. فلما ذا عدلت عن قولهم هذا، و فسرت التسريح بالإهمال و ترك المراجعة؟.

الجواب: ان لفظ التسريح بذاته يمكن أن يراد منه الطلقة الثالثة، و يمكن أن يراد منه السكوت عن المطلقة و عدم مراجعتها، و لكن مراعاة السياق. ترجح المعنى الثاني، و هو عدم المراجعة، ذلك ان قوله تعالى: **(فَإِنْ طَلَّقَهٰا فَلاٰ تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ)** هو تفريع عن الإمساك، و يكون المعنى إذا طلقها بعد الإمساك، و رجع اليها أثناء عدتها من الطلاق الثاني تكون الطلقة ثالثة، و لا يحل للمطلق أن يرجع اليها، حتى تنكح زوجا غيره، و لا يصح أن يكون تفريعا عن التسريح بمعنى الطلاق الثالث، إذ يكون المعنى على هذا فان طلقها للمرة الرابعة بعد أن طلقها الطلقة الثالثة، و المفروض انه لا طلاق رابع في الإسلام، أما الحديث الذي فسر التسريح بالطلقة الثالثة فغير ثابت.

الطلاق ثلاثا:

اتفقت المذاهب السنية الأربعة على ان من قال لزوجته: أنت طالق ثلاثا، أو قال: أنت طالق. انت طالق. انت طالق يقع بذلك ثلاث طلقات، و تحرم عليه حتى تنكح زوجا غيره .. و قال الإمامية: تقع طلقة واحدة فقط، و يحل له الرجوع اليها ما دامت بالعدة.

و جاء في تفسير المنار عن ابن حنبل في مسنده، و مسلم في صحيحه، ان طلاق الثلاث كان واحدة على عهد رسول اللّه (ص) و أبي بكر و بعض السنين من خلافة عمر .. و لكن عمر بدا له، و قال: ان الناس قد استعجلوا في أمر كانت لهم فيه أناة، فلو أمضيناه عليهم، فأمضاه عليهم .. ثم نقل صاحب تفسير المنار عن ابن القيّم ان الأصحاب كانوا مجمعين على أن لا يقع بالثلاث مجتمعة الا واحدة من أول الإسلام الى ثلاث سنين من خلافة عمر، و أيضا أفتى به بعد عمر جماعة من الصحابة و التابعين و أتباع تابعيهم، و ان الفتوى بذلك تتابعت في كل عصر، حتى كان من أتباع الأئمة الأربعة من أفتى بذلك.

تفسير الكاشف، ج ١، ص ٣٤٨

(وَ لاٰ يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئاً). (مما) من للتبعيض، و ما من صيغ العموم، و كذلك شيء هنا، لأنها

نكرة في سياق النفي تشمل اليسير و الكثير، و المعنى ان الزوج إذا كان هو الكاره الراغب في الطلاق و الفراق فليس له أن يسترجع شيئا مما كان قد ملكها إياه هبة أو تستحقه عليه مهرا أو نفقة، قال تعالى: «وَ إِنْ أَرَدْتُمُ اسْتِبْدالَ زَوْجٍ مَكانَ زَوْجٍ وَ آتَيْتُمْ إِحْداهُنَّ قِنْطاراً فَلا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئاً أَ تَأْخُذُونَهُ بُهْتاناً وَ إِثْماً مُبِيناً- النساء ٢٠».

هذا إذا كان هو الكاره الراغب في فراقها، أما إذا كانت هي الكارهة له الراغبة في فراقه فلا مانع أن تبذل له ما يرضيه، كي يطلقها، سواء أ كان المبذول بقدر المهر، أو أقل، أو أكثر، و يسمى هذا الطلاق المبني على البذل منها طلاقا خلعيا، لا يحق له الرجوع اليها في العدة ما دامت مستمرة على البذل، فان رجعت عنه أثناء العدة ساغ له أن يرجع هو بدوره في الطلاق ان شاء.

و إلى هذا الطلاق الخلعي أشار سبحانه بقوله:

(إِلاَّ أَنْ يَخافا أَلاَّ يُقِيما حُدُودَ اللهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ يُقِيما حُدُودَ اللهِ فَلا جُناحَ عَلَيْهِما فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ). هذا استثناء من عدم جواز الأخذ منهن عوضا عن الطلاق .. و حدود اللّه هي الحقوق و الواجبات التي لكل من الزوجين للآخر و عليه، و المعنى أيها الأزواج لا تأخذوا شيئا من مطلقاتكم بسبب من الأسباب إلا بسبب واحد، و هو أن تكون هي الكارهة للزوج و لا تطيق عشرته، بحيث يؤدي نفورها منه إلى معصية اللّه في التقصير بحقوق الزوج، و قد يخاف الزوج أيضا أن يقابلها بالاساءة أكثر مما تستحق، ففي هذه الحال يجوز لها أن تطلب الطلاق من الزوج، و تعوضه عنه بما يرضيه، كما يجوز له أن يأخذ ما افتدت به نفسها.

و في الحديث ان ثابت بن قيس كان متزوجا بنت عبد اللّه بن أبي، و كان هو يحبها، و هي تبغضه، فأتت النبي (ص) و قالت: يا رسول اللّه لا أنا و لا ثابت، لا يجمع رأسي و رأسه شيء، و قد كان ثابت قد أصدقها حديقة، فقال ثابت: و الحديقة؟ فقال لها الرسول: ما تقولين؟. فقالت: نعم .. و أزيده.

قال الرسول: لا، الحديقة فقط، فاختلعت منه.

تفسير الكاشف، ج١، ص ٣٤٩

و هنا أسئلة تفرض نفسها:

السؤال الأول: لما ذا جاء بضمير التثنية في قوله: الا أن يخافا ألا يقيما حدود اللّه، و بضمير الجمع في قوله: فان خفتم، و لم يوافق بين الضميرين في الجملتين؟.

الجواب: الضمير في يخافا و يقيما راجع الى الزوجين، و في خفتم الى الحكام و المصلحين، و المعنى: ان خاف الزوجان و الحكام و المصلحون من ترك اقامة الحدود يرتفع المحذور من بذل الزوجة، و أخذ الزوج، و الغرض هو بيان ان المسوغ للبذل و العطاء الخوف المعقول التي ظهرت دلائله و أماراته للجميع، لا لخصوص الزوجين فقط.

السؤال الثاني: لما ذا ثنّى ضمير عليهما في قوله: فلا جناح عليهما، مع العلم بأن المفهوم من السياق انه لا جناح على الزوج في الأخذ منها عوضا عن الطلاق، و لا دخل للزوجة في ذلك؟

الجواب: التثنية هنا للاشارة الى انه لا حرج على الزوجة فيما أعطت، و لا على الزوج فيما أخذ، هذا، الى أن جواز الأخذ يستلزم جواز العطاء، و بالعكس.

السؤال الثالث: إذا تراضيا على الخلع، و بذلت مالا كي يطلقها، و الحال عامرة، و الأخلاق ملتئمة بينهما، فهل تصح المخالعة، و يحل للزوج أن يأخذ الفدية؟.

قالت المذاهب الأربعة: يصح الخلع، و تترتب عليه جميع الأحكام و الآثار، و منها جواز أخذ الفدية.

و قال الامامية: لا يصح الخلع، و لا يملك المطلق الفدية، و لكن يصح الطلاق، و يقع رجعيا مع اجتماع شروطه، و استدلوا على فساد الخلع و عدم جواز أخذ الفدية بأن الآية الكريمة علقت جواز ذلك على الخوف من الوقوع في المعصية إذا استمرت الزوجية.

أما قوله تعالى: وَ آتُوا النِّساءَ صَدُقاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْساً فَكُلُوهُ هَنِيئاً مَرِيئاً- النساء ٤» فان المراد به ما تعطيه المرأة لزوجها هبة مجانية، لا عوضا عن الطلاق، فالآية أجنبية عن الخلع.

تفسير الكاشف، ج ١، ص ٣٥٠

السؤال الرابع: إذا أساء معاملتها بقصد أن تبذل له، و تفتدي نفسها، فبذلت و طلقها على هذا الأساس، فهل يقع الخلع صحيحا، و يحل له ما افتدت به نفسها؟.

قال أبو حنيفة: الخلع صحيح، و العوض لازم، و الزوج آثم.

و قال الشافعي و مالك: الخلع باطل، و العوض مردود (المغني لابن قدامة ج ٧ ص ٥٥ طبعة ٣). لقوله تعالى: «وَ لا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ ما آتَيْتُمُوهُنَّ- النساء ١٨».

و قال الإمامية: لا يصح الخلع، و يحرم أخذ المال المبذول، و لكن يقع الطلاق رجعيا مع توافر شروطه. أما نحن فنميل إلى انه يقع لغوا، لا خلعا و لا طلاقا، لأن المبني على الفاسد فاسد .. و قد فصلنا ذلك في الجزء السادس من كتاب فقه الإمام جعفر الصادق، باب الخلع، فقرة أحكام الخلع.

(فان طلقها) للمرة الثالثة (فلا تحل له) أي للمطلّق ثلاثا (من بعد) الطلقة الثالثة، لا بالرجعة، و لا بعقد جديد **(حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجاً غَيْرَهُ فَإِنْ طَلَّقَها)** الزوج الثاني **(فَلا جُناحَ عَلَيْهِما)** أي على الزوج الأول و المرأة المطلقة من الزوج الثاني **(أَنْ يَتَراجَعا)** بعقد جديد **(إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيما حُدُودَ اللهِ)** من الحقوق الزوجية.

و محصل المعنى ان من طلق زوجته ثلاث مرات فلا تحل له، حتى تنكح زوجا غيره نكاحا صحيحا، و يدخل بها الثاني المحلل حقيقة، فقد جاء في الحديث: لا تحل للأول، حتى يذوق الثاني عسيلتها.

و يشترط أن يكون المحلل بالغا، و ان يكون الزواج دائما لا منقطعا، و متى تحققت الشروط، ثم فارقها الثاني بموت أو طلاق، و انقضت عدتها جاز للأول أن يعقد عليها ثانية.

[سورة البقرة (٢): الآيات ٢٣١ الى ٢٣٢]

وَ إِذا طَلَّقْتُمُ النِّساءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَ لا تُمْسِكُوهُنَّ ضِراراً لِتَعْتَدُوا وَ مَنْ يَفْعَلْ ذلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَ لا تَتَّخِذُوا آياتِ اللهِ هُزُواً وَ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكُمْ وَ ما أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتابِ وَ الْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ وَ اتَّقُوا اللهَ وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٢٣١) وَ إِذا طَلَّقْتُمُ النِّساءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْواجَهُنَّ إِذا تَراضَوْا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ ذلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ ذلِكُمْ أَزْكى لَكُمْ وَ أَطْهَرُ وَ اللهُ يَعْلَمُ وَ أَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ (٢٣٢)

تفسير الكاشف، ج ١، ص ٣٥١

اللغة:

الضرار معناه المضارّة، و يشعر بالمشاركة مثل المضاربة، و يأتي بمعنى الإضرار بالغير، و العضل المنع، و الأمر المعضل الممتنع بصعوبته.

الإعراب:

ضرارا حال من الواو في تمسكوهن، و التقدير لا تمسكوهن مضارين، و يجوز أن يكون مفعولا من أجله، و هزوا مفعول ثان لتتخذوا، و المصدر من ينكحن مجرور بمن محذوفة، تقديره من نكاحهن أزواجهن، و ذلك مبتدأ خبره يوعظ به، و منكم متعلق بمحذوف حال من الضمير في يؤمن، و جملة يؤمن خبر كان.

المعنى:

(وَ إِذٰا طَلَّقْتُمُ النِّسٰاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ).

تفسير الكاشف، ج ١، ص ٣٥٢

هذا الخطاب موجه للمؤمنين أو للناس أجمعين، فكأنه قال عز من قائل: يا أيها المؤمنون إذا طلق أحدكم امرأته الخ.

و بعد أن بيّن سبحانه ان على المطلقة أن تعتد، و ان للمطلق إرجاعها الى عصمته مع توافر الشروط، و انها تحرم عليه بعد الطلقة الثالثة، حتى ينكحها زوج غيره، و انه لا يحل له أن يأخذ شيئا منها عوضا عن الطلاق إلا إذا كرهته، و افتدت نفسها منه- بعد هذا كله بيّن سبحانه ما يجب علينا أن نعامل به المطلقة المعتدة من العدل و الانصاف، و يتحقق العدل في أن يعزم المطلق أحد أمرين- متى أشرفت العدة على الانقضاء- إما إرجاع المطلقة الى عصمته بقصد الإصلاح و حسن المعشر، و هذا هو الإمساك بمعروف، و اما تركها و عدم التعرض لها بسوء، مع تأديتها كل ما تستحقه عليه، و هذا هو التسريح بمعروف.

و بهذا يتبين معنا ان المراد من الآية السابقة، و هي (الطَّلاٰقُ مَرَّتٰانِ فَإِمْسٰاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسٰانٍ) هو غير المراد من هذه الآية، و هي **(وَ إِذٰا طَلَّقْتُمُ النِّسٰاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ)**. إذ المراد بتلك بيان ان الطلاق الذي يصح الرجوع بعده هو الطلاق الأول و الثاني دون الثالث، أما المراد من هذه الآية التي نحن بصددها فهو بيان ما يجب علينا في معاملة المطلقات، كما تبين ان المراد بـ**(فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ)** المشارفة على بلوغ الأجل، لا البلوغ حقيقة.

(وَ لاٰ تُمْسِكُوهُنَّ ضِرٰاراً لِتَعْتَدُوا). أي لا تراجعوهن بقصد إيذائهن، و الاعتداء عليهن، و راجعوهن بقصد تأدية الحقوق الزوجية، و التعاون على ما فيه مصلحة الجميع.

و تسأل: ان معنى الضرار المضارة التي تشعر بالمشاركة بين الطرفين، كالمضاربة و المشاتمة، و المفروض ان القصد هو إضرار الرجل بالمرأة فقط دون العكس؟.

الجواب: ان إضراره بها يستلزم ضرره أيضا لغضب اللّه عليه، و ذم الناس له، و تعمدها هي أن تقتص منه، و تقابله بالمثل، و عندها تتحول الحياة الزوجية الى جحيم عليها و عليه، و ربما اتسع الخرق، و تجاوز الشقاق و الخلاف الى الأقارب و الأرحام، و وقع ما لا تحمد عقباه .. و بهذا نجد تفسير قوله تعالى: **(وَ مَنْ يَفْعَلْ ذٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ)** لا نفسها فحسب.

تفسير الكاشف، ج ١، ص ٣٥٣

(وَ لاٰ تَتَّخِذُوا آيٰاتِ اللهِ هُزُواً). هذا وعيد و تهديد لمن يتعدى حدود اللّه في الحقوق الزوجية، و وجه الهزء بآياته

جلت كلمته ان كل من يدعي الايمان باللّه، و التدين بشريعته، ثم يتهاون بأحكامه و حلاله و حرامه فقد استخف و استهزأ بها من حيث يريد أو لا يريد، تماما كمن يعد إنسانا بشيء، و هو يضمر عدم الصدق و الوفاء .. قال بعض السلف: المستغفر من الذنب، و هو مصر عليه كالمستهزئ بخالقه .. أعوذ باللّه، و استعين به على طاعته.

(وَ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكُمْ). من هذه النعم انه سبحانه خلق لنا من أنفسنا أزواجا لنسكن اليها، و نتعاون معها على ما فيه سعادة الأسرة و هناؤها، فإذا كنا نؤمن باللّه، و نأتمر بأمره حقا فعلينا أن نعمل على تحقيق هذه الغاية، و نبتعد عن كل ما يستدعي شقاء الأسرة، و يعكر صفو الحياة الزوجية.

(وَ إِذٰا طَلَّقْتُمُ النِّسٰاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلاٰ تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوٰاجَهُنَّ).

المراد بـ(فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ) في الآية السابقة قرب انقضاء العدة، كما أشرنا، و المراد به هنا انقضاء العدة حقيقة .. ثم ان هذه الآية قد اشتملت على خطابين:

الأول إذا طلقتم النساء. الخطاب الثاني فلا تعضلوهن، أي تمنعوهن. و قد اختلف المفسرون فيمن هو المقصود بالخطابين، هل هو واحد، أو ان المخاطب بالأول غير المخاطب بالثاني؟.

فمن قائل بأنه واحد، و هو الأزواج، و ان المعنى يا أيها الأزواج إذا طلقتم النساء، و انتهت عدتهن فلا تمنعوهن عمن يرتضين للزواج بعدكم، لأن الرجل كان يتحكم بمطلقته، و يمنعها أن تتزوج بغيره بعد انتهاء العدة انفة أن يرى امرأته تحت غيره، و من قائل بأن المخاطب بـ(إِذٰا طَلَّقْتُمُ النِّسٰاءَ) هم الأزواج، و المخاطب بـ(فَلاٰ تَعْضُلُوهُنَّ) هم الأولياء، و ان المعنى يا أيها الأزواج إذا طلقتم النساء فلا تمنعوهن يا أيها الأولياء ان يرجعن الى أزواجهن الأولين بعد انقضاء عدتهن مع رغبتهن في ذلك، و استشهد الذاهبون الى هذا التفسير بحديث معقل ابن يسار «١».

---

(١) روي عن معقل بن يسار انه قال: كان لي أخت تزوجها ابن عمها، ثم طلقها، و لم يراجعها، حتى انقضت العدة، فهويها و هويته، و خطبها مع الخطاب، فمنعتها عنه، فأنزل اللّه هذه الآية.

تفسير الكاشف، ج ١، ص ٣٥٤

و يلاحظ بأن قوله تعالى: (إِذٰا طَلَّقْتُمُ النِّسٰاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلاٰ تَعْضُلُوهُنَّ) جملة واحدة مركبة من شرط، و هو إذا طلقتم النساء، و جزاء، و هو فلا تعضلوهن، فإذا كان المخاطب بالشرط غير المخاطب بالجزاء يكون المعنى يا أيها الأزواج إذا طلقتم النساء فيا أيها الأولياء لا تعضلوهن، و في هذا ما فيه من التفكيك الذي يجب أن ينزه عنه كلام الباري عز و جل.

و الصحيح ان المخاطب بالشرط و الجزاء واحد، و هم المؤمنون جميعا، لا الأزواج فقط، و لا الأولياء فقط، و لا هما معا، بل كل المؤمنين، و هذا كثير في كلامه جل جلاله، و يكون المعنى يا أيها المؤمنون إذا طلق أحدكم زوجته، و انقضت عدتها، و أرادت الزواج ثانية من زوجها الأول أو من غيره فلا تمنعوها منه، و لا تقفوا في سبيلها إذا تراضيا بينهما بالمعروف، أي عزما الزواج و ثوابه على كتاب اللّه، و سنة نبيه.

و قوله تعالى: (إِذٰا تَرٰاضَوْا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ) يدل على ان للمرأة أن تزوج نفسها بمن ترضى به، و يرضى بها من

غير ولي.

و تقول: ان الآية الكريمة نفت الولاية على المطلقات، و لم تتعرض للولاية على غيرهن لا نفيا و لا اثباتا، و عليه فنفي الولاية في زواج الأبكار يحتاج الى دليل.

و نقول في الجواب: ان اثبات الولاية يحتاج الى دليل خاص، أما نفيها فالدليل عليه الأصل في ان كل بالغ عاقل ذكرا كان أو أنثى يستقل في التصرف في نفسه، و لا ولاية عليه لأحد إطلاقا كائنا من كان إلا إذا تجاوز حدود اللّه سبحانه.

(ذٰلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كٰانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللّٰهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ). ذلك اشارة الى ما ذكره تعالى من أحكامه المقرونة بالترغيب و الترهيب، و يوعظ به، أي يتعظ به أهل الايمان الصحيح. أما غيرهم من ذوي الايمان المزيف ففي آذانهم وقر عن ذكر اللّه و أحكامه، و موعظته و هديه .. و في هذه الآية دلالة واضحة على انه لا ايمان بلا تقوى، و ان الايمان الصحيح لا ينفك أبدا عن الاتعاظ و العمل، و ان من لا يتعظ و لا ينتفع بأوامر اللّه فليس من الايمان في شيء.

(ذٰلِكُمْ أَزْكىٰ لَكُمْ وَ أَطْهَرُ). ذلك اشارة الى الاتعاظ و العمل بأحكام اللّه

تفسير الكاشف، ج ١، ص ٣٥٥

في الحياة الزوجية بعامة، و معاملة المطلقات بخاصة .. و ليس من شك ان الزواج بقصد الانسانية و التعاون على الخير ينتج النماء و الزكاة في الرزق، و الطهر في الخلق، و العفة في العرض، و النجاح في النسل، أما إذا ساء القصد و المعشر فعاقبته الفقر و الفسق، و البلاء و الشقاء في حياة الآباء و الأبناء.

(وَ اللّٰهُ يَعْلَمُ وَ أَنْتُمْ لٰا تَعْلَمُونَ). ليس القصد أن يخبرنا اللّه بأنه عالم أو أعلم .. كلا، ان هذه الحقيقة بديهية لا تحتاج الى تعليم و تفهيم، و انما القصد هو التأكيد و الحث على العمل بأحكامه تعالى، و ان لم يتبين لنا وجه النفع و الصلاح فيها، لأنه جلت حكمته لا يأمر إلا بما فيه الخير و الصلاح، و ليس من الضروري أن نعلم هذا الخير بالتفصيل، بل يكفي أن نعلم ان الآمر الناهي حكيم عليم، لا تخفى عليه خافية في الأرض، و لا في السماء.

و تجمل الاشارة هنا الى الفرق بين المؤمن و غير المؤمن .. ان المؤمن يتعبد بقول اللّه، و يعمل به موقنا بوجود المنفعة واقعا، و ان عجز عن إدراكها بالتفصيل.

أما غير المؤمن فلا يقدم الا مع العلم أو الظن بوجود المنفعة التي يدركها هو بعقله، أو يرشده اليها مخلوق مثله .. و كثيرا ما يخيب ظنه، و يستبين له العكس، و لكن المؤمن في أمان اللّه و حرزه.

[سورة البقرة (٢): آية ٢٣٣]

وَ الْوٰالِدٰاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلٰادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كٰامِلَيْنِ لِمَنْ أَرٰادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضٰاعَةَ وَ عَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَ كِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لٰا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلاّٰ وُسْعَهٰا لٰا تُضٰارَّ وٰالِدَةٌ بِوَلَدِهٰا وَ لٰا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ وَ عَلَى الْوٰارِثِ مِثْلُ ذٰلِكَ فَإِنْ أَرٰادٰا فِصٰالاً عَنْ تَرٰاضٍ مِنْهُمٰا وَ تَشٰاوُرٍ فَلاٰ جُنٰاحَ عَلَيْهِمٰا وَ إِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلاٰدَكُمْ فَلاٰ جُنٰاحَ عَلَيْكُمْ إِذٰا سَلَّمْتُمْ مٰا آتَيْتُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَ اتَّقُوا اللّٰهَ وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللّٰهَ بِمٰا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢٣٣)

تفسير الكاشف، ج ١، ص ٣٥٦

اللغة:

المولود له هو الأب، و تضار معناها المضارة، و مشاركة كل من الأبوين للآخر في الضرر، و الفصال هو الفطام، لأنه

يفصل الولد عن أمه، و يفصلها عنه، و الجناح الحرج، و استرضع الرجل المرأة ولده إذا اتخذها مرضعة له، و كل من أرضعت ولد غيرها تسمى ظئرا.

الاعراب:

و على الوارث معطوف على المولود له، و عن تراض متعلق بمحذوف صفة لفصال.

المعنى:

(وَ الْوالِداتُ يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ). اختلف المفسرون في المراد من لفظ الوالدات، هل هنّ المطلقات فقط، أو الزوجات فقط، أو هما معا؟ و الأكثرون على ان اللفظ يشملهما جميعا عملا بالظاهر، و لا دليل على التخصيص .. و نحن نميل الى هذا، لما قاله الأكثرون، و لأن الرضاعة تستند للأم بما هي أم، لا بما هي مزوجة، و لا بما هي مطلقة.

و يرضعن بلفظ الخبر، و لكنه بمعنى الأمر، أي ليرضعن، و هذا الأمر للاستحباب بدليل الآية ٦ من سورة الطلاق: «وَ إِنْ تَعاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرى».

و معنى الاستحباب هنا ان الوالدات أحق في رضاعة أولادهن من الأجنبيات.

و تسأل: ان قوله تعالى بعد ذلك: «**وَ عَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَ كِسْوَتُهُنَّ**» يرجح ارادة الزوجات و المطلقات الرجعيات اللائي لم يخرجن من عصمة النكاح،

تفسير الكاشف، ج ١، ص ٣٥٧

دون المطلقات اللاتي انتهت عدتهن، لأن أولاء لهن اجرة الرضاع، لا النفقة، و عليه فيجب اخراجهن من العموم؟ فيكون لفظ الوالدات حينئذ عاما و خاصا في آن واحد، عاما بالنسبة الى الرضاعة، و خاصا بالنسبة الى النفقة؟.

الجواب: لا مانع إطلاقا أن يكون اللفظ الواحد عاما من حيث الحكم بالنسبة الى جهة، و خاصا بالنسبة الى جهة أخرى، مع قيام الدليل على ذلك، و قد دلت الأحاديث، و قام الإجماع على ان المطلقة غير المعتدة لا نفقة لها و انما تأخذ اجرة الرضاع فقط فيتبع الدليل، أما بالنسبة الى الرضاعة فلا دليل على التخصيص كما أشرنا فيتبع العموم.

(حَوْلَيْنِ كامِلَيْنِ) بلا تسامح في الزيادة و النقصان، و ان قلّ .. و هنا سؤالان: الأول هل يجوز ان ترضع الأم وليدها أكثر من حولين؟.

الجواب: يجوز، بخاصة إذا احتاج الولد الى الزيادة .. أما فائدة التحديد بالحولين فتظهر في أمور ثلاثة: الأول انها لا تستحق أجرة الرضاعة الزائدة على الحولين. الثاني إذا تنازع الأب و الأم في مدة رضاع الولد، فأراد أحدهما أن يزيد، و الآخر أن يتم أو ينقص، إذا كان الأمر كذلك تحاكما الى قوله تعالى:

(حَوْلَيْنِ كامِلَيْنِ). الأمر الثالث: ان الرضاع بعد الحولين من أجنبية لا أثر له من حيث انتشار الحرمة بينها و بين الطفل الرضيع، و لا يكون مشمولا لحديث:

«يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب». و بهذا قال الإمامية و الشافعية، و قال أبو حنيفة: بل يوجب الحرمة الى ثلاثين شهرا.

السؤال الثاني: هل يجوز الاقتصار على ما دون الحولين؟.

الجواب: يجوز، لقوله تعالى: «**لِمَنْ أَرادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضاعَةَ**». و قوله:

«**فَإِنْ أَرادا فِصالاً عَنْ تَراضٍ مِنْهُما وَ تَشاوُرٍ فَلا جُناحَ عَلَيْهِما**».

و هل نرجع في تحديد أقل مدة الرضاعة الى ضابط شرعي معين، أو انها تختلف باختلاف بنية الطفل و صحته؟.

قال كثير من الفقهاء: ان أقل مدة الرضاعة واحد و عشرون شهرا، لقوله تعالى في الآية ١٥ من سورة الأحقاف: «وَ حَمْلُهُ وَ فِصالُهُ ثَلاثُونَ شَهْراً». فإذا أسقطنا من الثلاثين تسعة أشهر، و هي المدة الغالبة في الحمل، يبقى واحد و عشرون.

تفسير الكاشف، ج ١، ص ٣٥٨

و مهما يكن، فان المهم مراعاة صحة الطفل و مصلحته التي تختلف باختلاف الأجسام .. هذا، و قد كان لمثل هذه البحوث أهميتها فيما مضى، حيث لم تكن المواد الغذائية الصحية للأطفال و غير الأطفال متوافرة، أما اليوم و قد توافرت و أصبحت في متناول كل يد فلم يعد لهذه المسائل من موضوع.

(وَ عَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَ كِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ). المولود له هو الأب، و اللفظ ظاهر في وجوب الإنفاق على من كانت في عصمة الزوج غير مطلقة كانت، أم في العدة الرجعية، و المراد بالرزق الطعام و الإدام، و عبّر عن النفقة التي من جملتها الإسكان، عبّر عنها بالرزق و الكسوة، لأنهما الأهم، و المراد بالمعروف مراعاة حال المرأة في النفقة، و مكانتها الاجتماعية.

أما مراعاة حال الرجل المادية فقد أشار اليها سبحانه بقوله: **(لا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلاَّ وُسْعَها)**. و نجد التفسير الواضح لهذه الجملة في قوله تعالى: «لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَ مَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتاهُ اللهُ لا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْساً إِلاَّ ما آتاها- الطلاق ٧».

كان للإمام جعفر الصادق (ع) أصحاب كثر، و ربما تأخروا عنده الى وقت الغداء، فيقدم اليهم الطعام، فحينا يأتيهم بالخبز و الخل، و حينا بأطيب المآكل، فسأله واحد منهم عن ذلك؟. فقال: ان وسع وسعنا، و ان ضيق ضيقنا.

(لا تُضارَّ والِدَةٌ بِوَلَدِها وَ لا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ). يجب الوقوف عند قوله تعالى: **لا تُضارَّ والِدَةٌ بِوَلَدِها**، لأن قضاة الشرع في هذا الزمان يستشهدون كثيرا بهذه الآية في أحكامهم، و يفسرونها بأنه ليس للأب الإضرار بالأم عن طريق وليدها، أما أهل التفسير فيكادون يجمعون على العكس، و ان المعنى لا تأبى الأم أن ترضع وليدها، و تضره لتغيظ أباه بذلك. قال صاحب مجمع البيان ما نصه بالحرف: «لا تضار والدة بولدها، أي لا تترك الوالدة إرضاع ولدها غيظا على أبيه». و أين هذا من استشهاد القضاة بالآية على ان الأب ليس له الإضرار بالأم بسبب الولد؟.

و نقول بعد توجيه الذهن الى الآية غير مثقل بأقوال الفقهاء و المفسرين: ان الشقاق و الخلاف كثيرا ما يقع بين المرء و زوجه، و يتعمد كل منهما أن يغيظ

تفسير الكاشف، ج ١، ص ٣٥٩

الآخر متخذا الإضرار بالولد وسيلة لهذه الغاية، و بالنتيجة يذهب الطفل ضحية شقاقهما و نزاعهما .. و مثال تعمد الأم إيذاء الأب بسبب إيصال الضرر الى الولد أن تمتنع عن ارضاعه، مع حاجته الى الرضاعة، تمتنع لا لشيء الا تعجيزا للأب .. و مثال تعمد الأب إيذاء الأم أن ينتزع الولد منها، و يعطيه الى أجنبية ترضعه، مع رغبة الأم في إمساكه و ارضاعه.

و قد نهى اللّه جل و عز عن الإضرار بشتى أنواعه، سواء توجه ابتداء الى الطفل، أم الى الوالد، أم الوالدة بسبب الطفل. هذا هو المتبادر من قوله تعالى: **(لا تُضارَّ والِدَةٌ بِوَلَدِها وَ لا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ)**. و لا يتنافى مع قول المفسرين، و يتنافى مع استشهاد القضاة، و ان كان قولهم صحيحا في ذاته، و لكن الخطأ في الاستشهاد.

و تسأل: ان لفظ تضار يفيد المشاركة، كالمكالمة، مع العلم بأن القصد هو الإضرار من طرف واحد، و بتعبير أخصر: لم

قال تضار، و الفعل واحد؟

على حد تعبير الرازي.

الجواب: ان تعمد أحد الوالدين الإضرار بالآخر بسبب الولد هو في نفس الوقت تعمد للإضرار بنفسه، لأن ضرر الولد ضرر للوالدين، بل أشد و أعظم.

(وَ عَلَى الْوارِثِ مِثْلُ ذلِكَ). اختلفوا في المراد من الوارث، هل هو وارث الأب، أو وارث الابن؟ و سياق الكلام يرجح انه وارث المولود له، و هو الأب، لأن الكلام فيه، و لكن المعنى لا يستقيم، لأن الطفل و الأم من جملة ورثة الأب، و لأن قوله تعالى: **(مِثْلُ ذلِكَ)** اشارة إلى أنه يجب على وارث الأب من النفقة مثل ما يجب على الأب، و بالنتيجة يكون المعنى ان نفقة الأم واجبة على الأم، و أيضا على رضيعها، و على بقية الورثة، ان كانوا هناك، مع العلم بأن الأم لا تجب نفقتها على أحد إذا كان لها ما تنفقه على نفسها، سواء اتصل اليها المال من ميراثها من زوجها، أو من سبيل آخر .. هذا، إلى أنه لا معنى لوجوب إنفاقها على نفسها من مالها.

و إذا فسرنا الوارث بوارث الابن نخالف الظاهر من جهة، و الواقع من جهة ثانية، لأن نفقة الأم لا تجب على من يرث ابنها .. أجل، يجب لأمه في ماله

تفسير الكاشف، ج ١، ص ٣٦٠

اجرة الرضاعة ان كان له مال، و لكن الأجرة شيء، و النفقة بمعناها الصحيح شيء آخر.

و الحق ان هذه الآية من المشكلات، و لذا قال مالك: انها منسوخة، كما نقل أبو بكر المالكي في كتاب أحكام القرآن، و قد تخطاها بعض المفسرين، و بعضهم نقل الأقوال فيها من غير ترجيح، و وجه المشكلة ما بيناه ان الظاهر إذا بقي على ما هو لم يستقم المعنى، و نعني بالظاهر تفسير الوارث بوارث الأب، و تفسير (مثل ذلك) بنفقة الأم .. و ان فسرنا الوارث بوارث الابن، و فسرنا (مثل ذلك) باجرة الرضاعة يستقيم المعنى .. و لكن نخالف الظاهر باللفظين، و هما الوارث، و مثل ذلك .. و لكن لا سبيل غير مخالفة الظاهر و تأويله، و غير بعيد أن تكون الأحاديث الواردة في الرضاع و أجرته صالحة للدلالة على صحة هذا التأويل.

(فَإِنْ أَرادا فِصالاً عَنْ تَراضٍ مِنْهُما وَ تَشاوُرٍ فَلا جُناحَ عَلَيْهِما). الفصال هو الفطام، لأنه يفصل الولد عن أمه، و يفصلها عنه، و المعنى ان للوالدين أن يفطما الطفل قبل استيفاء الحولين، أو بعدهما إذا تم هذا بالاتفاق و التشاور بينهما في مصلحة الطفل، بل للأب أن يسلم طفله للمرضعة المأجورة، و الى هذا أشار سبحانه بقوله:

(وَ إِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلادَكُمْ فَلا جُناحَ عَلَيْكُمْ إِذا سَلَّمْتُمْ ما آتَيْتُمْ بِالْمَعْرُوفِ).

قوله: إذا سلمتم ما آتيتم خطاب للآباء، و المعنى يا أيها الآباء ان الأم أحق بارضاع ولدها من الأجنبية، و لها عليكم أجرة المثل، فإذا أنتم سلمتم لها بهذا الحق، و أيضا ضمنتم لها أجرة المثل عن الرضاعة، و أبت هي بعد ذلك أن ترضعه الا بزيادة عما تستحق، إذا كان كذلك فلا بأس عليكم حينئذ أن تسترضعوا لأولادكم المراضع الأجنبيات .. و قيل: إذا سلمتم و آتيتم، معناه إذا أديتم للمراضع الأجنبيات الأجور المعروفة و المعتادة بين الناس فلا جناح عليكم.

و مهما يكن، فان على الأب أن يؤدي لكل ذات حق حقها أما كانت أو ظئرا، أي المرضعة لولد غيرها.

تفسير الكاشف، ج ١، ص ٣٦١

[سورة البقرة (٢): الآيات ٢٣٤ الى ٢٣٥]

وَ الَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَ يَذَرُونَ أَزْواجاً يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَ عَشْراً فَإِذا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلا جُناحَ عَلَيْكُمْ فِيما فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَ اللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٢٣٤) وَ لا جُناحَ عَلَيْكُمْ فِيما عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّساءِ أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَ لكِنْ لا تُواعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلاَّ أَنْ تَقُولُوا قَوْلاً مَعْرُوفاً وَ لا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتابُ أَجَلَهُ وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ ما فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ (٢٣٥)

اللغة:

أصل التوفي أخذ الشيء كاملا وافيا، و من مات فقد استوفى عمره، و التربص الانتظار، و التعريض التلويح من غير تصريح، و الخطبة بكسر الخاء طلب الرجل المرأة للزواج، و الكتاب بمعنى المكتوب، و المراد به هنا المفروض.

الاعراب:

الذين مبتدأ، و يتربصن الجملة خبر، و حذف الظرف، و هو بعدهم لظهوره، و عشرا بالتأنيث تغليبا لليالي على الأيام، منكم متعلق بمحذوف حال، و كذا فيما عرضتم، و المصدر من ان تقولوا في موضع نصب على انه بدل من سرا.

تفسير الكاشف، ج ١، ص ٣٦٢

المعنى:

(وَ الَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَ يَذَرُونَ أَزْواجاً يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَ عَشْراً).

اتفق الفقهاء كافة على ان عدة المتوفى عنها زوجها، و هي غير حامل، أربعة أشهر و عشرة أيام، كبيرة كانت أو صغيرة، آيسة أو غير آيسة، دخل بها الزوج أو لم يدخل، و استدلوا على ذلك بهذه الآية.

أما إذا كانت حاملا فقالت المذاهب الأربعة السنية: ان عدتها تنقضي بوضع الحمل، و لو بعد وفاة الزوج بلحظة، بحيث يحل لها أن تتزوج، و لو قبل الدفن، لقوله تعالى: «وَ أُولاتُ الأَحْمالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ».

و قال فقهاء الإمامية: ان عدتها أبعد الأجلين من وضع الحمل، و الأربعة أشهر و عشرة أيام، فان مضت الأربعة و العشرة قبل الوضع اعتدت بالوضع، و ان وضعت قبل مضي الأربعة و العشرة اعتدت بالأربعة و العشرة، و استدلوا على ذلك بضرورة الجمع بين آية «**يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَ عَشْراً**». و آية «أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ». فالآية الأولى جعلت العدة أربعة و عشرة، و هي تشمل الحامل و غير الحامل، و الآية الثانية جعلت عدة الحامل وضع الحمل، و هي تشمل المطلقة، و من توفي عنها الزوج، فيحصل التنافي بين ظاهر الآيتين في المرأة الحامل التي تضع قبل أربعة أشهر و عشرة أيام، فبموجب الآية الثانية تنتهي العدة، لأنها وضعت الحمل، و بموجب الآية الأولى لا تنتهي، لأن الأربعة و العشرة لم تنته.

و أيضا يحصل التنافي إذا مضت الأربعة و العشرة، و لم تضع الحمل، فبموجب الآية الأولى تنتهي العدة، لأن مدة الأربعة و العشرة مضت، و بموجب الآية الثانية لم تنته، لأنها لم تضع الحمل، و كلام القرآن واحد يجب أن يلائم بعضه بعضا، و إذا عطفنا احدى الآيتين على الأخرى، و جمعناهما في كلام واحد هكذا «**وَ الَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَ يَذَرُونَ أَزْواجاً يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَ عَشْراً**» «وَ أُولاتُ الأَحْمالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ»، إذا جمعنا الآيتين في كلام واحد يكون المعنى ان عدة الوفاة أربعة أشهر و عشرة أيام لغير الحامل، و للحامل التي

تفسير الكاشف، ج ١، ص ٣٦٣

تضع قبل مضي الأربعة و العشرة، و تكون عدة الوفاة للحامل التي تضع بعد مضي الأربعة و العشرة وضع الحمل.

و إذا قال قائل: كيف جعل الامامية عدة الحامل المتوفى عنها زوجها أبعد الأجلين من وضع الحمل و الأربعة و العشرة مع ان آية: «وَ أُولاتُ الأَحْمالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ» صريحة بأن الحامل تنتهي عدتها بوضع الحمل، إذا قال هذا قائل أجابه الامامية كيف قالت المذاهب السنية الأربعة: ان عدة الحامل المتوفى عنها زوجها سنتان إذا استمر الحمل طوال هذه المدة- على مذهبهم- مع ان آية «**وَ الَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَ يَذَرُونَ أَزْواجاً يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَ عَشْراً**» صريحة بأن العدة أربعة و عشرة، و إذا قال قائل منهم: عملا بأولات الأحمال قال قائل من الإمامية: عملا بآية و الذين يتوفون .. اذن لا مجال للعمل بالآيتين إلا القول بأبعد الأجلين.

(فَإِذا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلا جُناحَ عَلَيْكُمْ فِيما فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَ اللهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ) أي إذا انقضت عدة الوفاة فلا إثم عليكم أيها المسلمون أن تفعل المرأة ما كان محظورا عليها أيام العدة من التزيّن و التعرض للخطّاب على الوجه المعروف شرعا و عرفا، و انما خاطب اللّه المسلمين المصلحين لأن عليهم من باب النهي عن المنكر أن يمنعوا المرأة إذا تجاوزت الحدود الشرعية.

و اتفق الفقهاء قولا واحدا على ان المعتدة عدة وفاة يجب عليها أن تجتنب كل ما يحسنها، و يرغّب في النظر اليها، و يدعو الى اشتهائها، و تعيين ذلك يعود الى أهل العرف.

(وَ لا جُناحَ عَلَيْكُمْ فِيما عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّساءِ). حرم اللّه سبحانه الزواج أثناء العدة، أية عدة تكون، بل حرم على الرجل أن يخطب المرأة صراحة أيام عدتها، حتى و لو كانت عدة وفاة، أو عدة الطلاق البائن ..

و أباح سبحانه التلويح بالخطبة، دون التصريح في غير عدة الطلاق الرجعي، لأن المطلقة الرجعية لا تزال في عصمة المطلق.

(أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ). كل ما يخطر في البال، و يعزم عليه القلب لا جناح فيه عند اللّه سبحانه، لأنه غير مقدور، و انما المقدور هو الآثار و اللواحق، فإذا عزم الرجل على الزواج من المعتدة فهو غير آثم، و لكن إذا صرح بعزمه

تفسير الكاشف، ج ١، ص ٣٦٤

هذا، فخطبها أو أبدى لها ما يكنّ صراحة فهو آثم، لأن العزم غير مقدور، و التصريح مقدور .. و قد جاء في الحديث: إذا حسدت فلا تبغ، فنهى عن البغي الذي هو أثر من آثار الحسد، و لم ينه عن الحسد بالذات، لأنه غير مقدور.

(عَلِمَ اللهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ) في أنفسكم، و لذا أباح لكم التلويح، و لو حرم عليكم التلويح و التصريح لشق ذلك عليكم. **(وَ لكِنْ لا تُواعِدُوهُنَّ سِرًّا)**.

حتى التلويح بالزواج أثناء العدة الرجعية أو غيرها لا يجوز في الخلوة، لأن الخلوة بين الرجل و المرأة تجر الى ما لا يرضي اللّه، و في الحديث ما اختلى رجل و امرأة الا و كان الشيطان ثالثا لهما .. بخاصة إذا كانت مرغوبة لمن اختلى بها .. اللهم الا أن يكون الرجل على يقين بأن الخلوة لا تؤدي به الى الحرام في القول، و لا في الفعل، و عندها يجوز له أن يقول لها في السر ما لا يستنكر عند المهذبين في العلانية، و إلى هذا الاستثناء أشار سبحانه بقوله: **(إِلاَّ أَنْ تَقُولُوا قَوْلاً مَعْرُوفاً)**.

(وَ لا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكاحِ) عزما باتا قطعيا، أو لا تنشئوا عقد الزواج **(حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتابُ أَجَلَهُ)** بانقضاء العدة.

الزواج في العدة:

و بعد أن اتفق المسلمون جميعا على ان العقد و الخطبة الصريحة أثناء العدة من المحرمات، و ان العقد باطل قطعا، و لا أثر له إطلاقا، بعد هذا الاتفاق اختلفوا فيما بينهم: هل تحرم المرأة حرمة مؤبدة على من كان قد عقد عليها أثناء العدة، أو يجوز له ان يستأنف العقد عليها و الزواج منها بعد انقضاء العدة؟.

قال الحنفية و الشافعية: لا مانع من تزويجه بها ثانية. (بداية المجتهد).

و قال الإمامية: إذا عقد عليها، مع علمه بالعدة و الحرمة حرمت عليه مؤبدا، سواء ادخل أم لم يدخل، و إذا عقد عليها جاهلا بالعدة و الحرمة فلا تحرم مؤبدا الا إذا دخل، و له استئناف العقد بعد العدة إذا لم يدخل.

هذا حكم العقد أثناء العدة، أما مجرد الخطبة فلا أثر لها إلا من حيث الإثم فقط، و من طريف ما قرأته في هذا الباب ما جاء في احكام القرآن لأبي بكر

تفسير الكاشف، ج ١، ص ٣٦٥

الأندلسي المالكي، حيث قال: إذا خطبها أثناء العدة، ثم عقد عليها بعد العدة فيجب عليه أن يطلقها طلقة واحدة تورعا، ثم يستأنف خطبتها و العقد عليها.

[سورة البقرة (٢): الآيات ٢٣٦ الى ٢٣٧]

لا جُناحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَّقْتُمُ النِّساءَ ما لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَ مَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَ عَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتاعاً بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ (٢٣٦) وَ إِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ وَ قَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ ما فَرَضْتُمْ إِلاَّ أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَا الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكاحِ وَ أَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوى وَ لا تَنْسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللهَ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢٣٧)

الطلاق قبل الدخول

اللغة:

الجناح يطلق على الإثم، و على المسئولية، و هي المراد في الآية، و الفريضة هنا المهر. و المراد بالمتعة العطية، و الموسع الذي يكون في سعة لغناه، و المقتر الذي يكون في ضيق لفقره.

الاعراب:

ما لم تمسوهن ما مصدرية ظرفية، و التقدير مدة المسيس، و متاعا منصوب على المصدر، أي متعوهن متاعا، و أو هنا بمعنى الا ان. و حقا صفة لمتاعا، أي متاعا واجبا، و فنصف ما فرضتم نصف مبتدأ خبره محذوف، أي فلهن نصف، و ان تعفوا في موضع رفع بالابتداء، و خبره أقرب، و التقدير العفو أقرب للتقوى.

تفسير الكاشف، ج ١، ص ٣٦٦

المعنى:

(لا جُناحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَّقْتُمُ النِّساءَ ما لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً).

لا جناح عليكم، أي لا يلزمكم، و أو معناها هنا الا ان كقولك: لألزمنك أو تقضيني حقي، أي الا ان تقضيني، و محصل المعنى ان من عقد على امرأة، و لم يسم لها مهرا في متن العقد، ثم طلقها قبل الدخول فلا مهر لها، و انما تستحق عليه

المتعة، و هي عبارة عن منحة يقدمها المطلق لمطلقته، و يراعى فيها حال الزواج يسرا و عسرا، فالغني يقدم لها قلادة بألف- مثلا- و المتوسط سوارا بـ ٥٠٠، و الفقير ثوبا بـ ٢٠، أو أقل يسيرا أو أكثر، و الى هذا أشار تعالى بقوله: (وَ مَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَ عَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتاعاً بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ) الذين يحسنون الى أنفسهم بطاعة اللّه سبحانه.

(وَ إِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ وَ قَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ ما فَرَضْتُمْ). أما إذا عقد عليها و ذكر لها مهرا في متن العقد، ثم طلقها قبل المسيس فلها نصف المهر المسمى بالاتفاق. (إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ). أي لا يجوز أن يمنعها عن نصف المهر، أو عن شيء منه إلا إذا سمحت عن طيب نفس (أَوْ يَعْفُوَا الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكاحِ). الذي بيده عقد النكاح هو الزوج، و المراد ان المطلقة قبل الدخول لا تستحق أكثر من نصف المهر المسمى إلا أن يتكرم الزوج و يتفضل عليها بالجميع، أو بما زاد عن النصف فالأمر اليه. (وَ أَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوى). هذا خطاب لكل من الرجل و المرأة، و حث لهما على التساهل و التسامح.

[سورة البقرة (٢): الآيات ٢٣٨ الى ٢٣٩]

حافِظُوا عَلَى الصَّلَواتِ وَ الصَّلاةِ الْوُسْطى وَ قُومُوا لِلَّهِ قانِتِينَ (٢٣٨) فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجالاً أَوْ رُكْباناً فَإِذا أَمِنْتُمْ فَاذْكُرُوا اللهَ كَما عَلَّمَكُمْ ما لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ (٢٣٩)

تفسير الكاشف، ج ١، ص ٣٦٧

اللغة:

لفظ الوسطى يطلق على المتوسطة مؤنثة أوسط بين شيئين أو أشياء، و يطلق على الفضلى مؤنثة أفضل من الفضيلة، و المراد بالقنوت هنا مناجاة اللّه سبحانه، و التوجه اليه بذكره و دعائه، و المراد بالرجال هنا جمع راجل، و هو الماشي، و الركبان جمع راكب.

الإعراب:

قانتين حال من الواو في قوموا، و رجالا حال، أي فصلّوا راجلين، و كما علمكم ما مصدرية متعلق باذكروا، أي اذكروا اللّه كتعليمه إياكم، و ما لم تكونوا ما موصول في محل نصب مفعول ثان لعلمكم.

المعنى:

(حافِظُوا عَلَى الصَّلَواتِ). هي الصلوات الخمس، و المحافظة عليها تكون بتأديتها في أوقاتها و على وجهها. (وَ الصَّلاةِ الْوُسْطى). ذكرها سبحانه بالخصوص بعد العموم للتنبيه الى أهميتها، كأهمية جبريل و ميكال بين الملائكة، حيث خصهما بالذكر بعد أن جمعهما مع سائر الملائكة في قوله تعالى: «مَنْ كانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَ مَلائِكَتِهِ وَ رُسُلِهِ وَ جِبْرِيلَ وَ ميكالَ- البقرة ٩٨».

و اختلفوا في تعيين الصلاة الوسطى: ما هي؟. و تعددت الأقوال فيها الى ثمانية عشر قولا، كما نقل عن نيل الأوطار .. و الأكثر الأشهر على انها صلاة العصر، و في ذلك رواية .. و قيل: انها سميت الوسطى لأنها بين صلاتي الليل، و هما المغرب و العشاء، و صلاتي النهار، و هما الصبح و الظهر، أما سبب تخصيصها بالذكر فلأنها تقع وقت اشتغال الناس في الغالب.

و نقل صاحب تفسير المنار عن استاذه الشيخ محمد عبده انه قال: لو لا الإجماع على تفسير الوسطى بالواحدة من الخمس، لا الخمس بكاملها لفسرها بجميع الصلوات دون استثناء، و ان المراد بالوسطى الفضلى مؤنثة الأفضل من الفضل

تفسير الكاشف، ج ١، ص ٣٦٨

و الفضيلة، لا المتوسطة مؤنثة الأوسط بين شيئين، و ان اللّه سبحانه حث و اهتم بالصلاة الفضلى، و هي التي يحضر فيها القلب، و تتجه بها النفس خالصة الى اللّه و ذكره و تدبر كلامه، لا صلاة المراءين أو الغافلين.

و هذا أحسن ما قرأته في تفسير هذه الآية، و يؤيده قوله تعالى: قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاٰتِهِمْ خاٰشِعُونَ.

(وَ قُومُوا لِلَّهِ قانِتِينَ). أي داعين اللّه في صلاتكم بخشوع مستشعرين هيبته و عظمته، منصرفين عما يشغل القلب عن التوجه اليه سبحانه.

(فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجالاً أَوْ رُكْباناً). ان الصلاة لا تسقط بحال، فان تعذر الإتيان ببعض أفعالها أتى المكلف بما تيسر، فان تعذرت جميع الأفعال صلى بالنطق و الإيماء، فان تعذرا استحضر صورة الصلاة في قلبه .. و أشار سبحانه بقوله:

(فَإِنْ خِفْتُمْ) الى ان المكلف قد يأتي عليه وقت الصلاة، و هو في ميدان القتال، أو و هو فار من عدو لا يستطيع مقاومته، و ما الى ذلك من العوارض التي لا يستطيع معها تأدية الصلاة على وجهها .. فان عرض شيء من هذا صلى المكلف كيفما تيسر ماشيا أو راكبا الى القبلة أو غيرها.

قال صاحب مجمع البيان: صلاة الخوف من العدو ركعتان في السفر و الحضر الا المغرب فإنها ثلاث ركعات، و يروى ان عليا (ع) صلى ليلة الهرير خمس صلوات بالإيماء، و قيل بالتكبير، و ان النبي (ص) صلى يوم الأحزاب بالإيماء.

(فَإِذا أَمِنْتُمْ فَاذْكُرُوا اللهَ كَما عَلَّمَكُمْ ما لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ). أي إذا زال الخوف صلوا صلاة المختار الآمن على الطريقة التي علمكم إياها من قبل.

ترك الصلاة يؤدي الى الكفر:

تكلمنا عن الصلاة في تفسير ما تقدم من آياتها، و الآن نعطف هذه الفقرة على ما سبق، و ربما عطفنا على هذه ما تدعو اليه المناسبة فيما يأتي:

لقد أثبتت التجارب ان ترك الصلاة كثيرا ما يؤدي من حيث العمل الى مظاهر الكفر و لوازمه و آثاره من ان الكافر لا يبالي بارتكاب المحرمات و المنكرات، كذلك تارك الصلاة يرتكب المحرم و المنكر بلا اكتراث، و حيثما تجد الكفر تجد الفحش

تفسير الكاشف، ج ١، ص ٣٦٩

و الفسق و الفجور .. و هذه بعينها من آثار ترك الصلاة، و ليس أدل على هذه الحقيقة من انتشار الفساد في هذا العصر الذي نعيش فيه .. فما هذه الحانات، و مواخير الدعارة، و بيوت القمار في بلادنا نحن المسلمين، و ما هذا التفرنج و التبرج في فتياتنا، و هذا الفساد و الانحلال في أخلاق أبنائنا الا نتيجة لترك الصلاة بدليل ان هذه الموبقات لم يكن لها عين و لا أثر حين كانت الصلاة معروفة مألوفة عند الأبناء و البنات .. و بهذا نجد تفسير الحديث الشريف: «العهد بيننا و بينكم الصلاة، فمن تركها فقد كفر».

و لا يجديه قوله: أنا مسلم، و لا كلمة: لا إله إلا اللّه، و اشهد ان محمدا رسول اللّه، ما دامت أعماله أعمال الكافر الملحد.

ان الملحد لا يخجل و لا يحس بوخز الضمير، لترك الصلاة، و يعلن ذلك على الملأ، لأنه لا يدين بها و بمن أوجبها، و كذلك أكثر شباب هذا العصر يجاهرون بترك الصلاة دون مبالاة، بل يسخرون منها و من المصلين .. اذن، لا فرق بينهم و بين الملحدين.

و بالمناسبة ننقل هذه العظة البالغة عن كتاب الإسلام خواطر و سوانح للفرنسي الكونت هنري دي كاستري، قال: «قمت برحلة على الخيل في جوف الصحراء بولاية حوران، و كان معي ثلاثون فارسا يتسابقون جميعا الى خدمتي، و بينما نحن نسير إذ بصوت ينادي جاء وقت العصر، فما أسرع أن ترجلت الفرسان، و اصطفوا جماعة للصلاة، و كنت أسمعهم يكررون بصوت مرتفع: اللّه أكبر، اللّه أكبر. فكان هذا الاسم الإلهي يأخذ مني مأخذا أعظم مما أخذه في ذهني درس علم الكلام، و كنت أشعر بحرج لا سبب له إلا الحياء و الاحساس بأن أولئك الفرسان الذين كانوا يعظمون من شأني قبل لحظة يشعرون الآن، و هم في صلاتهم أنهم أرفع مني مقاما، و أعز نفسا، و لو اني أطعت نفسي لصحت فيهم: أنا أيضا أعتقد باللّه، و أعرف الصلاة .. فما أجمل منظر أولئك القوم في صلاتهم، و خيولهم بجانبهم، أرسنتها على الأرض، و هي هادئة كأنها خاشعة للصلاة، تلك هي الخيل التي كان يحبها رسول اللّه (ص) حبا ذهب به إلى أن يمسح خياشيمها بطرف إزاره .. لقد وقفت جانبا أنظر الى المصلين، و أرى نفسي

تفسير الكاشف، ج ١، ص ٣٧٠

وحيدا تلوح عليّ سمات عدم الايمان، كأنني من الكلاب أمام الذين يكررون الى ربهم صلوات خاشعة، تصدر عن قلوب، ملئت صدقا و إيمانا».

[سورة البقرة (٢): الآيات ٢٤٠ الى ٢٤٢]

وَ الَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَ يَذَرُونَ أَزْواجاً وَصِيَّةً لِأَزْواجِهِمْ مَتاعاً إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْراجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلا جُناحَ عَلَيْكُمْ فِي ما فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَعْرُوفٍ وَ اللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٤٠) وَ لِلْمُطَلَّقاتِ مَتاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ (٢٤١) كَذلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آياتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٢٤٢)

الإعراب:

وصية نصب على المصدر، و التقدير يوصون وصية، و الجملة خبر الذين، و يجوز رفع وصية على الابتداء، و الخبر محذوف، أي فعليهم وصية، و متاعا منصوب على المصدر، أي متعوهن متاعا، أو جعل اللّه لهن ذلك متاعا و غير إخراج منصوب على الحال من أزواجهم، و حقا مفعول مطلق، أي حقّ حقا.

المعنى:

كانت العادة عند العرب قبل الإسلام ان الرجل إذا مات لم يكن لامرأته من ميراثه شيء إلا النفقة حولا كاملا، على شريطة أن تعتد في بيت الميت، فان خرجت قبل الحول سقطت نفقتها، و هذه الآية اقرار و إمضاء صريح لما كان عليه العرب في حكم من مات زوجها، و قد حصل هذا الإمضاء في أول الإسلام.

و اتفق المفسرون و الفقهاء قولا واحدا على نسخ هذه الآية بآيتين: الأولى التي حددت عدة الوفاة بأربعة أشهر و عشرة أيام، و هي قوله تعالى:

تفسير الكاشف، ج ١، ص ٣٧١

«وَ الَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَ يَذَرُونَ أَزْواجاً يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَ عَشْراً- البقرة ٢٣٣».

و الثانية التي جعلت للزوجة نصيبا من تركة زوجها، و هي قوله سبحانه: «وَ لَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ فَإِنْ كانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُمْ- النساء ١٢». و عليه، فان المرأة تنفق على نفسها من نصيبها.

و مع العلم بأن هذه الآية منسوخة قطعا نشرع بتفسيرها كما فعل المفسرون:

(وَ الَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ). اي يشرفون على الموت، من باب تسمية الشيء باسم ما يؤول اليه. **(وَ يَذَرُونَ أَزْواجاً وَصِيَّةً لِأَزْواجِهِمْ)**. كان يجب- قبل النسخ- على الذين تظهر لهم أمارات الموت أن يوصوا لأزواجهم بأن يمتعن بعدهم حولا كاملا بالنفقة و السكنى. (غير إخراج). أي انما تجب لهن النفقة حولا إذا أردن الاقامة في دار الميت، أما إذا خرجن من تلقائهن فتسقط النفقة، و الى هذا أشار سبحانه بقوله: **(فَإِنْ خَرَجْنَ فَلا جُناحَ عَلَيْكُمْ)**. انكم غير مسؤولين عن نفقتهن، ما دمتم لم تخرجوهن قبل الحول .. و بكلمة تجب النفقة لهن بالاقامة الاختيارية الى الحول، فان خرجن قبله سقط الوجوب.

(فِي ما فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَعْرُوفٍ). إذا خرجت المرأة من دار الميت فلها ن تترك الحداد، و تتزين، و تتعرض للخطاب ضمن الحدود الشرعية .. و المفهوم من هذا ان التي مات زوجها كانت مخيرة بين الاقامة في بيته حولا، و تستحق النفقة بذلك، و بين أن تخرج منه، و لا شيء لها، و لا سبيل لأحد عليها.

(وَ لِلْمُطَلَّقاتِ مَتاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ). المراد بالمتاع المنحة يعطيها المطلق لمطلقته، مع مراعاة حاله عسرا و يسرا، كما سبق في الآية ٢٣٦. و لفظ المطلقات عام يشمل كل مطلقة، و هي على أربعة أقسام:

١- مطلقة مدخول بها، و قد فرض لها مهر معين في متن العقد، و هذه لها كل المهر المفروض. قال تعالى: «وَ لا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئاً- البقرة ٢٢٩».

٢- مطلقة غير مدخول بها، و قد فرض لها مهر معين، و لها نصف المهر المفروض. قال سبحانه: «وَ إِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ وَ قَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ ما فَرَضْتُمْ- البقرة ٢٣٧».

تفسير الكاشف، ج ١، ص ٣٧٢

٣- مطلقة مدخول بها، و لم يفرض لها مهر، و لها مهر المثل بإجماع المسلمين كافة.

٤- مطلقة غير مدخول بها، و لم يفرض لها شيء في متن العقد، و هذه لا مهر لها، و انما لها المتعة، قال جل جلاله: «لا جُناحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَّقْتُمُ النِّساءَ ما لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَ مَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ، وَ عَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتاعاً بِالْمَعْرُوفِ- البقرة ٢٣٦».

و نستخلص من مجموع الأدلة ان المتعة تجب للمطلقة غير المدخول بها، و لم يفرض لها مهر فحسب، أما غيرها فلا تجب لها المتعة، بل يترك الأمر للمطلق، ان شاء منحها، و ان شاء منعها، و قيل: يستحب أن يمنحها. **(كَذلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آياتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ)**. أي تعملون، لأن من لا يتعظ و يعمل بآيات اللّه و أحكامه بمنزلة من لا عقل له.

[سورة البقرة (٢): الآيات ٢٤٣ الى ٢٤٤]

أَ لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيارِهِمْ وَ هُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقالَ لَهُمُ اللهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْياهُمْ إِنَّ اللهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ (٢٤٣) وَ قاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٤٤)

اللغة:

ألوف على وزن فعول من أمثلة المبالغة، و لذا قيل: انها تفيد معنى زائدا على معنى آلاف، و انها تطلق على ما زاد على

العشرة، و ما نقص عنها يقال فيه آلاف، لا ألوف.

تفسير الكاشف، ج ١، ص ٣٧٣

الإعراب:

و هم ألوف جملة حالية، و حذر الموت مفعول من أجله.

المعنى:

لقد أطال المفسرون الكلام حول هذه الآية، و قال أكثرهم: انها تشير إلى قصة تاريخية، و سودوا الصفحات في تصوير هذه القصة .. فبعضهم قال بما يتلخص: ان قوما من بني إسرائيل أمروا بجهاد عدوهم، فخافوا الموت بالقتال، فخرجوا من ديارهم فرارا من الموت، فأماتهم اللّه ليعرّفهم انه لا ينجيهم من الموت شيء، ثم أحياهم ليعتبروا و يستوفوا ما بقي من أعمارهم .. و من أطرف ما قرأته في تفسيرها ان أحد المفسرين قال: ان الموت نوعان: موت عقوبة، و هو الذي يحيا الميت بعده في هذه الدنيا، و موت أجل، و هو الذي لا حياة بعده إلا في الآخرة.

و قال آخرون: فروا من مرض الطاعون، لا من جهاد عدوهم.

و فسر محيي الدين بن عربي الآية تفسيرا صوفيا على طريقته، حيث قال:

ان اللّه أماتهم بالجهل، و أحياهم بالعلم و العقل.

و حمل الشيخ محمد عبده الآية- كما في تفسير المنار- على انها تمثيل للاعتبار و العظة، و ليست اشارة الى قصة واقعة حقيقة، و ان الهدف من هذه الاشارة هو بيان سنة اللّه في الأمم، و ان الأمة التي تجاهد، و تستميت في الدفاع عن حقها تحيا حياة طيبة، و ان الأمة التي تجبن و تستسلم للظلم تحيا حياة الذل و الهوان، فقوله تعالى: **(مُوتُوا)**. أي عيشوا بالاستعباد و الاضطهاد، لجبنكم، لأن مثل هذا العيش موت لا حياة، و قوله: **(ثُمَّ أَحْيٰاهُمْ)**. أي عاشوا عيش الحرية و الكرامة لجهادهم و دفاعهم عن حقهم.

هذا تلخيص موجز جدا لرأي الشيخ محمد عبده الذي شرحه بكلام طويل، و هو- كما ترى- من وحي و عيه النير، و رسالته الاصلاحية، لا من وحي دلالة اللفظ. ان رأيه هذا صحيح في ذاته، و انساني من غير شك، و لكنه بعيد

تفسير الكاشف، ج ١، ص ٣٧٤

عن مدلول اللفظ، و قد يظن انه أقرب من قول أكثر المفسرين من هذه الجهة لأن قولهم يعتمد الروايات الاسرائيلية، و الأساطير التي لا سند لها، و لا تمت الى الحياة بسبب، و قوله يهدف الى الترغيب في مقاومة الظلم، و التضحية من أجل الحرية و الكرامة، شأن الموجه المصلح.

و كيف كان، فان الآية تحتمل معاني شتى .. و من ثم كثرت فيها الأقوال، و لا شيء في لفظها يدل على صحة قول بالذات .. أجل، ان قول الشيخ عبده هو أرجح الأقوال جميعا، للاعتبار من جهة، كما أشرنا، و يساعد عليه السياق من جهة أخرى، أما الاعتبار فواضح، و اما السياق فقوله تعالى بعد هذه الآية بلا فاصل: **(وَ قٰاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)**.

[سورة البقرة (٢): آية ٢٤٥]

مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضٰاعِفَهُ لَهُ أَضْعٰافاً كَثِيرَةً وَ اللهُ يَقْبِضُ وَ يَبْصُطُ وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٤٥)

الاعراب:

من اسم استفهام، و المراد بها هنا الطلب، و محلها الرفع بالابتداء، و ذا خبر، و الذي بدل، و قرضا مفعول مطلق، و يجوز أن يكون مفعولا به بمعنى المال المقرض، و فيضاعفه منصوب بأن مضمرة، و يجوز الرفع عطفا على يقرض، و أضعافا حال من الهاء في يضاعفه، و يجوز أن يكون مفعولا مطلقا بمعنى المضاعفة.

المعنى:

بعد أن أمر اللّه سبحانه في الآية السابقة بالقتال دفاعا عن الحق حث في هذه

تفسير الكاشف، ج ١، ص ٣٧٥

الآية على بذل المال لتجهيز المجاهدين، لأن القتال كما يحتاج الى الرجال فانه يحتاج الى المال، و من يقرأ عن ميزانية الحروب اليوم للدول الكبرى فلا بد أن تذهله الأرقام .. فلقد بلغت عند بعض الدول الغربية أكثر من أربعمائة الف مليون و لكن هذه الميزانية الضخمة خصصت للاعتداء و سيطرة الظلم، و فرض الارادة على الشعوب، و التحكم في مصيرها و مقدراتها .. أما الجهاد الذي حث اللّه عليه في كتابه فهو الجهاد من أجل احقاق الحق، و التحصن من عدوان المعتدين.

(مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضاً حَسَناً). هذا في واقعه أمر بالإنفاق و البذل، و جيء به بصيغة الاستفهام عن الاقراض، ليحرك أريحية المؤمنين، و يملأ القلوب بالعطف، حتى يسهل عليها البذل ابتغاء مرضاة اللّه .. و قوله سبحانه: **(قَرْضاً حَسَناً)** اشارة الى أن المال المبذول يجب أن يكون من الحلال لا من الحرام، و أن يبذل عن رضا و بقصد التقرب اليه سبحانه، و أن يصادف موقعه.

و متى تمت هذه الشروط بكاملها **(فَيُضاعِفَهُ لَهُ أَضْعافاً كَثِيرَةً)**. قال الإمام جعفر الصادق (ع): لما نزلت الآية ٨٤ من سورة القصص: «مَنْ جاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْها» قال رسول اللّه: رب زدني، فأنزل اللّه من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها، فقال رسول اللّه: رب زدني، فأنزل اللّه سبحانه: فيضاعفه له أضعافا كثيرة. و الكثير عند اللّه لا يبلغه الإحصاء.

(وَ اللهُ يَقْبِضُ وَ يَبْصُطُ). أي يضيق و يوسع، و المراد ان اللّه سبحانه لم يحث عباده على البذل، لحاجة منه اليهم .. كلا، فانه الغني، و هم الفقراء، و انما الغرض هو إرشادهم و هدايتهم الى عمل الخير. **(وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)**. فيجازى المحسن على إحسانه، و المسيء على إساءته.

[سورة البقرة (٢): الآيات ٢٤٦ الى ٢٥٣]

أَ لَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسى إِذْ قالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنا مَلِكاً نُقاتِلْ فِي سَبِيلِ اللهِ قالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتالُ أَلَّا تُقاتِلُوا قالُوا وَ ما لَنا أَلَّا نُقاتِلَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَ قَدْ أُخْرِجْنا مِنْ دِيارِنا وَ أَبْنائِنا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلاً مِنْهُمْ وَ اللهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٢٤٦) وَ قالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طالُوتَ مَلِكاً قالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنا وَ نَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَ لَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمالِ قالَ إِنَّ اللهَ اصْطَفاهُ عَلَيْكُمْ وَ زادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَ الْجِسْمِ وَ اللهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشاءُ وَ اللهُ واسِعٌ عَلِيمٌ (٢٤٧) وَ قالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَ بَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسى وَ آلُ هارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلائِكَةُ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٢٤٨) فَلَمَّا فَصَلَ طالُوتُ بِالْجُنُودِ قالَ إِنَّ اللهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَ مَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلاً مِنْهُمْ فَلَمَّا جاوَزَهُ هُوَ وَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قالُوا لا طاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجالُوتَ وَ جُنُودِهِ قالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاقُوا اللهِ

كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللهِ وَ اللهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (٢٤٩) وَ لَمَّا بَرَزُوا لِجالُوتَ وَ جُنُودِهِ قالُوا رَبَّنا أَفْرِغْ عَلَيْنا صَبْراً وَ ثَبِّتْ أَقْدامَنا وَ انْصُرْنا عَلَى الْقَوْمِ الْكافِرِينَ (٢٥٠)

فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللهِ وَ قَتَلَ داوُدُ جالُوتَ وَ آتاهُ اللهُ الْمُلْكَ وَ الْحِكْمَةَ وَ عَلَّمَهُ مِمَّا يَشاءُ وَ لَوْ لا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَ لكِنَّ اللهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعالَمِينَ (٢٥١) تِلْكَ آياتُ اللهِ نَتْلُوها عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (٢٥٢)

تفسير الكاشف، ج ١، ص ٣٧٧

قدمنا في تفسير الآية ٢ ان القرآن كتاب هدى و دين، و أخلاق و شريعة، لا كتاب قصص و تاريخ، و فلسفة و علوم طبيعية، و انه سبحانه إذا أشار الى حادثة تاريخية فإنما يشير اليها للعبرة و الموعظة، و يكتفي منها بمحل الشاهد، و موضع الفائدة، و لا يأتي بها مفصلة من جميع جهاتها، و قد جاء التنبيه الى ذلك في العديد من الآيات منها: «لَقَدْ كانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبابِ- يوسف ١١١». و منها: «قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ- آل عمران ١٣٧. إلى غير ذلك من الآيات ..

قال الشيخ محمد عبده:

«ان محاولة جعل قصص القرآن ككتب التاريخ بإدخال ما يروون فيها على انه بيان لها هي مخالفة لسنة القرآن، و صرف للقلوب عن موعظته، و اضاعة لمقصده و حكمته، فالواجب أن نفهم ما فيه، و نعمل أفكارنا في استخراج العبر منه، و ننزع من نفوسنا ما ذمه و قبحه، و نحملها على التحلي بما مدحه و استحسنه».

و قد أشار سبحانه الى قصة طالوت في الآية ٢٤٦- ٢٥٢، و نذكرها نحن كما دلت عليها ألفاظ هذه الآيات، ثم نشير الى موضع العبرة و العظة.

تفسير الكاشف، ج ١، ص ٣٧٨

كان لموسى (ع) بعد موته خلفاء من الأنبياء يقيمون أمر اللّه في بني إسرائيل الواحد تلو الآخر، و من هؤلاء الخلفاء نبي ذكره القرآن، و لم يسمه، و لكنه كان في عهد داود (ع)، كما يستفاد من الآيات، و قال كثير من المفسرين:

انه صمويل، و في ذات يوم أتاه جماعة من بني إسرائيل، و قالوا له: أقم علينا أميرا نصدر عن رأيه في تدبير الحرب، و نقاتل معه في سبيل اللّه، فقال لهم نبيهم- و كان قد سبر أحوالهم- اني أتوقع تخاذلكم إذا كتب عليكم القتال، و دعيتم الى الجهاد.

قالوا: كيف نتخاذل، و قد أخرجنا العدو من ديارنا، و حال بيننا و بين أبنائنا؟!. فاستخار اللّه نبيهم فيمن يصلح للقيادة، فأوحى اللّه سبحانه: اني قد اخترت عليهم طالوت ملكا، و قيل انه سمي طالوت لطوله، و لما أخبرهم النبي بأن اللّه قد اختار طالوت، قالوا: كيف يكون له الملك علينا، و هو غير عريق النسب، و فارغ اليد من المال؟!.

فقال النبي: ان زعامة الجيش لا تحتاج الى نسب و نشب، و انما تحتاج الى الشجاعة، و المعرفة بتصريف الأمور، و اللّه سبحانه قد منح طالوت الكفاءة العلمية و الخلقية، و القدرة الجسمية، و سائر مؤهلات الزعامة و الرئاسة .. فقالوا:

نريد معجزة تدل على مكانته هذه .. قال: آية ذلك أن يعود إليكم التابوت، تأتيكم به الملائكة بأمر اللّه تعالى .. قيل: ان هذا التابوت كان فيه بقية ألواح موسى و عصاه، و ثيابه و شيء من التوراة، و كان قد سلبهم إياه الفلسطينيون في بعض

المعارك الحربية .. و قيل: بل رفعه اللّه الى السماء بعد وفاة موسى ..

و لما جاء التابوت بمعجزة من اللّه سبحانه صحت عندهم العلامة، و أقروا لطالوت بالسلطان و القيادة.

و قادهم طالوت الى جهاد عدوهم، و أخبرهم بأنهم سيمرون على نهر يمتحن به اخلاص المخلصين منهم، فمن كان صابرا محتسبا فلا ينهل منه الا بمقدار ما يأخذه باليد، فمن امتثل فهو المخلص الذي يوثق به، أما الذي ينهل، حتى يرتوي فلا معول عليه في الحرب و الجهاد، و لما مروا على النهر عصوا كعادتهم، و شربوا الا نفرا قليلا ثبتوا على الصدق و الايمان.

تفسير الكاشف، ج ١، ص ٣٧٩

و لما التقى الجمعان: بنو إسرائيل بقيادة طالوت، و الفلسطينيون بقيادة جالوت خاف أكثر الاسرائيليين، و قالوا لطالوت: لا طاقة لنا بجالوت و جنوده. و قال المؤمنون القليلون منهم الذين لم يشربوا من النهر: كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن اللّه، و دعوا اللّه سبحانه أن يمنحهم الصبر و الثبات، و النصر على العدو، فاستجاب لهم ربهم بعد أن علم منهم العزم و الصدق في النية، و قتل داود جالوت، و انهزم العدو شر هزيمة، و صار لداود بقتل جالوت من الصيت و السمعة ما ورث به ملك بني إسرائيل. و آتاه اللّه بعد ذلك النبوة، و أنزل عليه الزبور، و علمه صنعة الدروع، و علوم الدين، و فصل الخطاب كما قال تعالى:

«وَ آتاهُ اللهُ الْمُلْكَ وَ الْحِكْمَةَ».

هذا ملخص ما دلت عليه الآيات الكريمة، أما زواج داود ببنت طالوت، و محاولة هذا الغدر بزوج ابنته، و مقلاع داود و أحجاره، و قصته مع السبع و الدب، أما هذه و ما اليها مما جاء في كتب التفاسير فلا سند لها الا الاسرائيليات.

أما العبرة من الاشارة الى هذه القصة و تدبرها فهي ان الذي تجب له القيادة من يتمتع بالكفاءة العلمية و الخلقية، لا صاحب الحسب و النسب، و الجاه و المال، و ان النصر و الغلبة تكون بالصبر و الايمان، لا بكثرة العدد، و ان السبيل الى معرفة الطيب و الخبيث هي التجربة و الابتلاء.

و بعد تلخيص القصة، و العبرة بها نشرع بتفسير الجمل و الكلمات:

المعنى:

(أَ لَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسى). ألم تر خطاب في ظاهره موجه الى النبي، و في المعنى الى جميع السامعين .. و هذه الصيغة يخاطب بها العالم بالقصة، و غير العالم بها، فتقول له: أ لم تر إلى فلان أي شيء فعل، و أنت تريد أن تعرفه بما فعل، و الملأ اسم جمع، لا واحد له من لفظه، كالقوم و الجيش و الرهط. (إِذْ قالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنا مَلِكاً نُقاتِلْ فِي سَبِيلِ اللهِ). قيل: ان النبي الذي قالوا له هذا القول هو صمويل.

تفسير الكاشف، ج ١، ص ٣٨٠

(قالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتالُ أَلَّا تُقاتِلُوا). هل هنا للتقرير، و عسيتم بالفتح، و معناها المقاربة، و المراد بها التوقع، أي هل الأمر كما أتوقعه أنا منكم من التخاذل و ترك القتال إذا فرض عليكم؟! (قالُوا وَ ما لَنا أَلَّا نُقاتِلَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَ قَدْ أُخْرِجْنا مِنْ دِيارِنا وَ أَبْنائِنا). أنكروا أن يكون لهم أي داع لترك الجهاد، و بينوا السبب الذي يدعوهم للقتال، و هو طردهم من ديارهم، و بعدهم عن أبنائهم.

(فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلاً مِنْهُمْ). و أكثر الناس على هذا الوصف، يقررون و يصممون على الاقدام و

العمل، حتى إذ جد الجد تواروا في جحورهم، و أبلغ ما قيل في ذلك كلمة لسيد الشهداء الحسين بن علي (ع): الناس عبيد الدنيا، و الدين لعق على ألسنتهم يحوطونه ما درت معايشهم، فإذا محصوا بالبلاء قل الديانون.

(وَ قالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طالُوتَ مَلِكاً قالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنا وَ نَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَ لَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمالِ). هذا المنطق لا يختص ببني إسرائيل، فلقد كان الناس، و ما زال أكثرهم يزعمون ان المناصب العالية يجب أن تكون لأهل المال و الجاه: «وَ إِذا رَأَوْكَ إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلاَّ هُزُواً أَ هذَا الَّذِي بَعَثَ اللهُ رَسُولاً- الفرقان ٤١».

(قالَ إِنَّ اللهَ اصْطَفاهُ عَلَيْكُمْ وَ زادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَ الْجِسْمِ). أي ان الرئاسة لا تكون بالمال و النسب، بل بالعلم و الإخلاص، و المراد ببسطة الجسم السلامة من الأمراض، لأن المرض يمنع من القيام بواجبات الرئاسة، و قيل: ان طالوت كان أطول من الرجل المعتاد بمقدار ذراع اليد.

مشيئة اللّه و سلطان الجور:

(وَ اللهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشاءُ). ان اللّه سبحانه مالك الملك يؤتي الملك من يشاء، و ينزع الملك ممن يشاء، و يعز من يشاء، و يذل من يشاء، بيده الخير، و هو على كل شيء قدير .. ما في ذلك ريب، و لكنه جلت حكمته عادل

تفسير الكاشف، ج١، ص ٣٨١

لا يظلم أحدا، و حكيم لا يفعل عبثا، كيف و هو القائل: «وَ كُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدارٍ- الرعد ٨». أي بنظام و سبب، لا بالصدفة و الفوضى، حتى المال الحرام، و السلطان القائم على الظلم و الاستبداد لهما أسبابهما الاجتماعية من نظام جائر، و مجتمع فاسد، و جهل قاتل، و ما اليه.

و تسأل: هل يستند سلطان الجور، و الثراء المغتصب الى مشيئة اللّه؟

الجواب: كلا، لأن اللّه سبحانه قد حرم الظلم، و الغصب؟! أجل، انه تعالى لا يتدخل بإرادته التكوينية في الأمور الاجتماعية على طريقة (كن فيكون).

انه سبحانه لا يردع الظالم عن ظلمه بقوة قاهرة، و انما ينهاه بارادة التشريع و الإرشاد، و يحذره من الظلم، و يتوعده عليه، فإذا خالف عاقبه يوم الجزاء الأكبر .. و لو شاء أن يمنعه لفعل، و لكنه يترك الأمور تجري على أسبابها و سننها .. و ربما كان هذا هو الوجه المسوغ لنسبة التمليك اليه بوجه عام، و عليه يكون معنى يؤتي الملك من يشاء انه سبحانه لو أراد أن يمنع الملك بقوة قاهرة عمن لا يستحقه لفعل، و لم يصل الملك الى الظالم برغم وجود أسبابه العادية.

و كيف كان، فان ثراء المرء و سلطانه يأتيان نتيجة للمجتمع الذي يعيش فيه، أما نسبتهما الى مشيئة اللّه مباشرة، و بدون توسط سبب من الأسباب الخارجية فخطأ محض.

(وَ قالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ). التابوت هو الصندوق الذي كان موسى يضع التوراة فيه، و كان اللّه قد رفعه الى السماء بعد وفاة موسى سخطا على بني إسرائيل- كما قيل- **(فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ)**. أي تسكن اليه نفوسكم، و تطمئن به قلوبكم، حيث كان للتابوت شأن ديني عظيم عند بني إسرائيل.

(وَ بَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسى وَ آلُ هارُونَ). لم يبين اللّه البقية ما هي؟.

و آل موسى و هارون هم الأنبياء الذين توارثوا التابوت. **(تَحْمِلُهُ الْمَلائِكَةُ)**. أي بمعجزة خارقة للعادة.

(فَلَمَّا فَصَلَ طالُوتُ بِالْجُنُودِ قالَ إِنَّ اللهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي

تفسير الكاشف، ج١، ص ٣٨٢

وَ مَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلاَّ مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ). روي ان طالوت قال لبني إسرائيل: لا يخرج معي الى الجهاد شيخ و لا مريض، و لا من بنى بناء لم يفرغ منه، و لا صاحب تجارة مشتغل بها، و لا رجل تزوج امرأة لم يبن بها، فاجتمع جماعة ممن وصف، و كان الوقت قيظا شديد الحر، و سلكوا مفازة لا ماء فيها، و لما شكوا قلة الماء قال طالوت لهم: اللّه سيختبر حالكم في الطاعة و المعصية بنهر تمرون عليه، فمن شرب منه فليس من أشياعي المؤمنين الا أن يتناول قليلا، و هو غرفة تؤخذ باليد. (فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلاَّ قَلِيلاً مِنْهُمْ). قيل:

كان عدد هؤلاء المؤمنين ٣١٣ على عدد أهل بدر .. و لقد كان، و ما زال، و لن يزال الطيبون المخلصون أندر من كل نادر.

(فَلَمَّا جاوَزَهُ هُوَ وَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قالُوا لا طاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجالُوتَ وَ جُنُودِهِ).

سار طالوت هو و الذين أطاعوه فيما ندبهم اليه بعد أن تخطوا النهر، حتى التقوا بجالوت و جنوده، و لما شاهدوا كثرة عدوهم انقسموا فريقين: فريق قال:

لا طاقة لنا بمحاربتهم، و فريق قال: (كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللهِ وَ اللهُ مَعَ الصَّابِرِينَ) الذين ثبتوا و جاهدوا و ضحوا من أجل حياة أفضل، و هي أن يعيشوا أحرارا في وطن حر، و مكتفين في مجتمع لا جائع فيه، و علماء في بلد العلم و الحضارة، أما الصبر على الذلة و المسكنة فانه رجس من عمل الشيطان.

(وَ لَمَّا بَرَزُوا لِجالُوتَ وَ جُنُودِهِ قالُوا رَبَّنا أَفْرِغْ عَلَيْنا صَبْراً وَ ثَبِّتْ أَقْدامَنا وَ انْصُرْنا عَلَى الْقَوْمِ الْكافِرِينَ).

لما رأى المؤمنون القلة في جانبهم، و الكثرة في جانب عدوهم لجأوا اليه سبحانه داعين متضرعين بإخلاص، فاستجاب لهم (وَ قَتَلَ داوُدُ جالُوتَ) و نصر اللّه المؤمنين على الكافرين، و حقق بفضله و رحمته ظن من قال: (كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللهِ).

(وَ آتاهُ اللهُ الْمُلْكَ وَ الْحِكْمَةَ وَ عَلَّمَهُ مِمَّا يَشاءُ). أي ان اللّه سبحانه منح داود الملك، لأنه تولى منصب طالوت بعد وفاته، و الحكمة اشارة الى الزبور، قال تعالى: «وَ آتَيْنا داوُدَ زَبُوراً- النساء ١٦٣». و علمه صنع الدروع، قال تعالى: «وَ عَلَّمْناهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ- الأنبياء ٨٠».

(وَ لَوْ لا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَ لكِنَّ اللهَ ذُو فَضْلٍ

تفسير الكاشف، ج ١، ص ٣٨٣

عَلَى الْعالَمِينَ). تشير الآية الكريمة الى ان أي مجتمع لا تقوم فيه هيئة قوية رادعة لا بد أن تسوده الفوضى و الانحلال .. و ان العقل و الشرع من غير قوة تنفيذية لا يحققان الأمن و النظام، قال الإمام علي (ع): «السلطان وزعة اللّه في أرضه ..» و لكن طالما أفسد السلطان الأرض و أهلها .. و على الرغم من ذلك لا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم.

(تِلْكَ آياتُ اللهِ نَتْلُوها عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ). لقد تلى اللّه آياته على نبيه الكريم، و تلاها النبي علينا، لنتدبر حقيقتها، و نتخذها دستورا في مقاصدنا، و جميع أفعالنا، لنحيا حياة طيبة هادئة .. «قُلْ إِنَّما أُنْذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ وَ لا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعاءَ إِذا ما يُنْذَرُونَ- الأنبياء ٤٥».

تفسير الكاشف، ج ١، ص ٣٨٥

الجزء الثالث سورة البقرة (تتمه)

تفسير الكاشف، ج ١، ص ٣٨٧

[سورة البقرة (٢): آية ٢٥٣]

تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنا بَعْضَهُمْ عَلى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللهُ وَ رَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجاتٍ وَ آتَيْنا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّناتِ وَ أَيَّدْناهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَ لَوْ شاءَ اللهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ ما جاءَتْهُمُ الْبَيِّناتُ وَ لكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَ مِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَ لَوْ شاءَ اللهُ مَا اقْتَتَلُوا وَ لكِنَّ اللهَ يَفْعَلُ ما يُرِيدُ (٢٥٣)

تفضيل الرسل الآية ٢٥٣:

الإعراب:

درجات منصوب بنزع الخافض، و التقدير رفع بعضهم الى درجات.

المعنى:

(تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنا بَعْضَهُمْ عَلى بَعْضٍ). خاطب اللّه نبيه محمدا (ص) في آخر الآية السابقة بقوله: «وَ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ» و عقبه من غير فاصل بقوله:

«**تِلْكَ الرُّسُلُ**» و عليه يتعين أن يكون المراد بالرسل جميع الرسل الذين منهم محمد، لا جماعة خاصة منهم، كما قال كثير من المفسرين، و مع العلم بأن الأنبياء جميعا مستوون في أصل النبوة، و اختيار اللّه لهم لتبليغ رسالته، و هداية خلقه فإنهم يتفاوتون في الخصائص، و على الأصح ان بعض الأنبياء اشتهر ببعض الخصائص دون بعض لأن اللّه سبحانه قد نعته بها في كتابه .. فإبراهيم اشتهر بأنه خليل اللّه، لقوله تعالى: «وَ اتَّخَذَ اللهُ إِبْراهِيمَ خَلِيلاً- النساء ١٢٤».

و اشتهر موسى بأنه كليم اللّه، لقوله سبحانه: «وَ كَلَّمَ اللهُ مُوسى تَكْلِيماً النساء ١٦٤». و اشتهر عيسى بروح اللّه، لقوله: «إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللهِ وَ كَلِمَتُهُ أَلْقاها إِلى مَرْيَمَ وَ رُوحٌ مِنْهُ- النساء ١٧٠». و اشتهر محمد

تفسير الكاشف، ج ١، ص ٣٨٨

بخاتم النبيين، لقوله عز و جل: «رَسُولَ اللهِ وَ خاتَمَ النَّبِيِّينَ- الأحزاب ٤٠».

و قد ذكر اللّه سبحانه بعض الأنبياء المفضلين، أو بعض الخصائص لبعض الأنبياء بقوله: **(مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللهُ)**. و هو موسى بن عمران بالاتفاق.

(وَ رَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجاتٍ).

قال صاحب تفسير المنار: ذهب جمهور المفسرين الى أن المراد به نبينا ..

و قال الرازي: أجمعت الأمة على ان محمدا أفضل الأنبياء، و استدل على ذلك بتسعة عشر دليلا .. منها ان علي بن أبي طالب ظهر من بعيد، فقال النبي (ص):

هذا سيد العرب، فقالت عائشة: أ لست أنت سيد العرب؟. فقال: أنا سيد العالمين، و هو سيد العرب.

و خير ما يستدل به على أفضلية الرسول على جميع الأنبياء و المصلحين شريعته في سعتها و سماحتها و انسانيتها «١».

(وَ آتَيْنا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّناتِ وَ أَيَّدْناهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ). البينات هنا الدلائل التي تظهر الحق، كإحياء الموتى، و شفاء المرضى، و خلق الطير من الطين، و ما اليه .. و المراد بروح القدس هنا الروح الطيبة المقدسة، و مر تفسيرها في الآية ٨٧.

(وَ لَوْ شاءَ اللهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ ما جاءَتْهُمُ الْبَيِّناتُ).

أي ان الرسل بعد أن جاءوا بالبينات، و اوضحوا الحقائق بالدلائل و البراهين اختلف أقوامهم من بعدهم **(فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَ مِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ)**.

و تسأل: ان قوله تعالى: **(وَ لَوْ شاءَ اللهُ ما اقْتَتَلُوا)** يدل على ان الإنسان مسير غير مخير .. و ان في تكرار هذه الجملة تأكيدا لنسبة الاقتتال الى مشيئته سبحانه؟.

---

(١) تكلموا كثيرا عن سبب انحلال المسلمين، و ضعف الإسلام في نفوسهم، و ألفوا في ذلك العديد من الكتب، و ذكروا لذلك أكثر من سبب، و الذي نراه نحن ان السبب الأول و الأخير هو إهمال الشريعة الإسلامية دراسة و عملا، و قد أدرك الاستعمار هذه الحقيقة، و عمل منذ وضع أقدامه في بلاد المسلمين على تنحية الشريعة الإسلامية عن المدارس و دور المحاكم، و أحل محلها الشرائع الوضعية و الاجنبية، و بهذا أبعد المسلمين عن دينهم، و قرآنهم و سنة نبيهم .. و ربما تعرضنا لذلك بصورة أوسع حين تدعو الحاجة.

تفسير الكاشف، ج ١، ص ٣٨٩

الجواب: ان اللّه سبحانه منح القدرة للعبد، و بيّن له الخير و الشر، و نهاه عن هذا، و أمره بذاك، قال عز من قائل: (وَ اعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعاً وَ لا تَفَرَّقُوا) فإذا سلك طريق الالفة و المحبة صح أن ينسب سلوكه هذا الى العبد، لأنه صدر عنه بإرادته و اختياره، و فضّله على طريق الشقاق و النزاع، و أيضا يصح أن ينسب الى اللّه، لأنه أقدره عليه، و أمره به، أما إذا سلك طريق البغض و التناحر فان هذا السلوك ينسب اليه وحده، و لا ينسب الى اللّه، لأن العبد قد فعله برضاه و فضّله على طريق الاتفاق، و لا تجوز إطلاقا نسبته الى اللّه، لأنه نهاه عنه.

و ان قال قائل: لما ذا أقدر اللّه العبد على الشر و التفرقة، و كان ينبغي أن يرغمه و يلجئه الى عمل الخير و الوفاق، و لا يمكّنه من الشر و الاختلاف إطلاقا؟.

قلنا في جوابه: لو فعل اللّه هذا لم يبق للإنسان من فضل، و لم تتصف أفعاله بخير أو بشر، و لا بحسن أو قبح، لأن هذا الوصف منوط بارادة الإنسان و اختياره، بل لو ألجأه اللّه سبحانه إلجاء الى الفعل لم يبق من فرق بين الإنسان و بين الجماد، و لا بينه و بين ريشة في مهب الريح .. و من أجل هذا، من أجل أن تبقى للإنسان انسانيته لم يشأ اللّه أن يكره الناس على الوفاق، و لو شاء ما اقتتلوا.

و اختصارا ان الاقتتال الذي حصل بين الناس لم يقع مخالفا لمشيئة اللّه التكوينية المعبر عنها (بكن فيكون). و انما وقع مخالفا لمشيئته التشريعية التي هي عبارة عن مجرد البيان و الإرشاد، و قد شاءت حكمته جل جلاله ان يمنح الإنسان الاستعداد الكافي لعمل الخير و الشر معا، ليختار هو بنفسه لنفسه الهدى و الخير، و يصبح باختياره إنسانا يفترق عن الجماد و الحيوان.

[سورة البقرة (٢): آية ٢٥٤]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْناكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا بَيْعٌ فِيهِ وَ لا خُلَّةٌ وَ لا شَفاعَةٌ وَ الْكافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٢٥٤)

الإنفاق الآية ٢٥٤:

تفسير الكاشف، ج ١، ص ٣٩٠

الإعراب:

لا بيع فيه قرأ البعض بالفتح على أن تكون لا عاملة عمل ان، و الأكثر بالرفع مبتدأ، و فيه متعلق بمحذوف خبر، و الجملة صفة ليوم.

المعنى:

حث اللّه سبحانه على بذل المال في أساليب شتى، و سبق تفسير قوله:

(مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضاً حَسَناً) الآية ٢٤٥ و غيرها، و أيضا يأتي نظير ذلك، و في هذه الآية: **(يٰا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنٰاكُمْ)** حث على الإنفاق مع الاشارة إلى أن ما في يد الناس من مال هو من عطائه سبحانه، و ان غدا تفلت منهم الفرصة، و على المؤمن العاقل أن يغتنم قبل فوات الأوان.

(مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لاٰ بَيْعٌ فِيهِ وَ لاٰ خُلَّةٌ وَ لاٰ شَفٰاعَةٌ). المراد بالبيع هنا الفدية بالمال من النار، و بالخلة المودة التي تستدعي التساهل و التسامح، و بالشفاعة التوسط للخلاص من العذاب .. و القصد ان الإنسان يجيء غدا وحده أعزل من كل شيء إلا من العمل الصالح. و تفيد هذه الآية نفس المعنى الذي تفيده الآية ٤٨ من هذه السورة: «وَ اتَّقُوا يَوْماً لاٰ تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً وَ لاٰ يُقْبَلُ مِنْهٰا شَفٰاعَةٌ وَ لاٰ يُؤْخَذُ مِنْهٰا عَدْلٌ وَ لاٰ هُمْ يُنْصَرُونَ». و تكلمنا عن الشفاعة عند تفسير هذه الآية، فقرة الشفاعة.

(وَ الْكٰافِرُونَ هُمُ الظّٰالِمُونَ) لأنفسهم بترك العمل الصالح الذي ينجيهم من العذاب، و من فعل فعلهم يكون ماله مالهم .. و تجمل الاشارة الى أن الظلم و الكفر يتواردان في الاستعمال على معنى واحد، فتارة يستعمل الكفر في الظلم، كما في الآية ١٣ من سورة لقمان: «إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ». و قوله هنا: و الكافرون هم الظالمون. و تارة يستعمل الظلم في الكفر، كما في الآية ٣٣- الانعام: «وَ لٰكِنَّ الظّٰالِمِينَ بِآيٰاتِ اللهِ يَجْحَدُونَ».

[سورة البقرة (٢): آية ٢٥٥]

اللهُ لاٰ إِلٰهَ إِلاّٰ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لاٰ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَ لاٰ نَوْمٌ لَهُ مٰا فِي السَّمٰاوٰاتِ وَ مٰا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاّٰ بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مٰا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ مٰا خَلْفَهُمْ وَ لاٰ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلاّٰ بِمٰا شٰاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضَ وَ لاٰ يَؤُدُهُ حِفْظُهُمٰا وَ هُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ (٢٥٥)

آية الكرسي ٢٥٥:

تفسير الكاشف، ج١، ص ٣٩١

اللغة:

القيوم مبالغة في القائم، و السنة النعاس، أي فتور يسبق النوم، و آده يؤوده إذا أثقله و أجهده.

الاعراب:

اللّه مبتدأ، و لا إله لا نافية للجنس، و إله اسمها، و خبرها محذوف تقديره موجود، و هو بدل من إله على المحل، لأن اسم لا محله الرفع، و الجملة خبر للمبتدإ المتقدم.

المعنى:

(اللهُ لاٰ إِلٰهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ). قال الفيلسوف الإلهي الشهير بالملا صدرا:

لفظ الجلالة «اللّه» يدل بذاته على توحيد الذات و الصفات معا، أما دلالته على توحيد الذات فلأن هذا الاسم الأعظم لا يطلق على غيره تعالى لا حقيقة و لا مجازا، قال سبحانه: «فَاعْبُدْهُ وَ اصْطَبِرْ لِعِبٰادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا- مريم ٦٥».

و اما دلالته على توحيد الصفات فلأن هذا الإسلام يدل على الذات الجامعة لكل صفات الكمال و الجلال بخلاف سائر الأسماء كالعالم و القادر و الخالق فان آحادها لا تدل إلا على آحاد المعاني من العلم أو القدرة أو الفعل.

تفسير الكاشف، ج١، ص ٣٩٢

و تسأل: ان صفات الكمال و الجلال كثيرة، و متغايرة بحسب مفاهيمها، فكيف يصح القول بتوحيدها، مع هذا التعدد و التغاير؟!.

الجواب: إذا قلت: هذا رجل عالم، فهم منه وجود شيئين: صفة و موصوف، موضوع و محمول، و كل منهما غير الآخر في حقيقته، لأن الرجولة غير العلم، و العلم غير الرجولة .. هذا بالنسبة الى المخلوق، أما بالنسبة الى الخالق فليس إلا الوجود القدسي، و هذا الوجود هو نفسه العلم، و هو نفسه القدرة، و هو نفسه الحكمة .. فلا صفة و موصوف، و لا موضوع و محمول، بل شيء واحد فقط لا غير .. و هذا الوجود القدسي لا مجانس له، و لا شبيه له، لأنه واجب بالذات، و لا يجب غيره إلا به.

(لاٰ إِلٰهَ إِلاَّ هُوَ) قيل معناه لا معبود بحق إلا هو، و لكن المفهوم لا أحد يجمع صفات الالوهية الا هو، و كيف كان فان المعنيين متلازمان.

(الْحَيُّ الْقَيُّومُ). إذا نسبت الحياة الى غير اللّه سبحانه يكون معناها النمو و الحركة و الاحساس و الإدراك، و إذا نسبتها اليه جل جلاله فيراد بها العلم و القدرة ..

و القيوم مبالغة في القائم، و هو في اللغة غير القاعد و النائم، و المراد به هنا قيامه تعالى على كل موجود بخلقه و تدبيره: «قٰالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدىٰ- طه ٥٠».

«وَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً- الفرقان ٢». قال الملا صدرا: (فقوله:

الحي دل على كونه عالما قادرا، و قوله: القيوم دل على كونه قائما بذاته، مقوما لغيره، فالوصفان متوافقان في المعنى قوة و فعلا، متداخلان في المفهوم كلا أو بعضا). يريد ان القيمومة لا تنفك عن الحياة، كما ان الحياة بمعنى القدرة و العلم لا تنفك عن القيمومة.

اللّه و سنن الطبيعة:

و تسأل: هل معنى قيام اللّه على تدبير الأشياء ان جميع الظواهر الطبيعية، حتى الجزئيات منها هو الذي يتولى أمر تدبيرها مباشرة بنفسه، و من غير توسط أي سبب من الأسباب المادية، كما يظهر من الآية ١٣- ١٤ من سورة المؤمنون:

تفسير الكاشف، ج١، ص ٣٩٣

«ثُمَّ جَعَلْنٰاهُ نُطْفَةً فِي قَرٰارٍ مَكِينٍ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظٰاماً فَكَسَوْنَا الْعِظٰامَ لَحْماً ثُمَّ أَنْشَأْنٰاهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبٰارَكَ اللّٰهُ أَحْسَنُ الْخٰالِقِينَ».

فان المتبادر الى الفهم من هذه الآية ان اللّه سبحانه قد تدخل تدخلا مباشرا و مستمرا لنقل النطفة من طور الى طور، مع العلم بأن النظرية العلمية تقول:

ان النطفة تنمو و تتطور وفقا لقوانين طبيعية معينة؟.

و لا بد في الجواب من التمييز بين حادثة خارقة للطبيعة، كإحياء الموتى، و إيجاد شيء من لا شيء، و بين حادثة تأتي وفقا لقوانين الطبيعة، مثل كسوف الشمس، و خسوف القمر، و ما اليهما .. فما كان من النوع الأول يسند اليه سبحانه مباشرة، و بلا واسطة، و ما كان من النوع الثاني يسند الى الأسباب الطبيعية مباشرة، و اليه تعالى بواسطتها، لأنه هو الذي أوجد الطبيعة بما فيها من قوى و عناصر، و هذه العناصر تتفاعل، و تأخذ مجراها في ظواهر الكون ..

و عليه يكون خلقه لهذه الظواهر، و منها تطور النطفة، هو خلقه لأسبابها.

«وَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً» أي يجريه من خلال السنن و القوانين الطبيعية، و لو كان هو الذي يتولى خلقها مباشرة و بلا واسطة لما وجدت الأسباب و المسببات.

و بهذا يتبين معنا ان من يؤمن بأن كل حادثة طبيعية تستند الى اللّه مباشرة، و بلا توسط سبب من الأسباب المحسوسة التي اكتشفها العلم، و يمكن أن يكتشفها، فهو جاهل مخطئ في إيمانه .. و لو صح إيمانه هذا لم يجب العمل لشيء، و لا كان للعلم من جدوى، و لا للمخترعات و تقدم الانسانية من أثر .. كما ان من يعتقد ان الطبيعة هي كل شيء، و انها السبب الأول و الأخير، و لا شيء وراءها فهو أيضا جاهل مخطئ في اعتقاده، و الا لم يكن للنظام عين و لا أثر، و لسادت الفوضى و الاضطراب، و تكون النتيجة لا علم و لا حياة. و تكلمنا عن ذلك مفصلا عند تفسير الآية ٢١ من هذه السورة، فقرة التوحيد.

(لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَ لا نَوْمٌ). السنة النعاس، و هو الفتور الذي يتقدم النوم ..

لما بيّن سبحانه انه الحي القيوم أكد ذلك بأنه تعالى لا يمنعه نوم و لا سهو و لا شيء عن تدبير خلقه على الوجه الأتم الأكمل، لأن ذلك يتنافى مع عظمته

تفسير الكاشف، ج ١، ص ٣٩٤

و استغنائه عن كل شيء .. قال الإمام علي (ع) مخاطبا ربه: «لسنا نعلم كنه عظمتك الا انّا نعلم انك حي قيوم لا تأخذك سنة و لا نوم، لم ينته اليك نظر، و لم يدركك بصر، أدركت الأبصار، و أحصيت الأعمال، و أخذت بالنواصي و الاقدام».

(لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الأَرْضِ). المراد بما فيهما الكون كله، لا يخرج منه شيء عن سلطانه و تدبيره .. سئل الإمام علي (ع) عن معنى لا حول و لا قوة الا باللّه؟ فقال: انّا لا نملك مع اللّه شيئا، و لا نملك الا ما ملكنا، فمتى ملّكنا ما هو أملك به منا كلفنا، و متى أخذه منا وضع تكليفه عنا.

(مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِه). جاء بصيغة الاستفهام، و معناه النفي و الإنكار، أي لا يشفع أحد عنده الا بأمره .. و هذا رد و إبطال لقول المشركين بأن الأصنام تقربهم الى اللّه زلفى، قال تعالى حكاية عنهم: «وَ يَقُولُونَ هؤُلاءِ شُفَعاؤُنا عِنْدَ اللهِ قُلْ أَ تُنَبِّئُونَ اللهَ بِما لا يَعْلَمُ فِي السَّماواتِ وَ لا فِي الأَرْضِ- يونس ١٨». و تكلمنا عن الشفاعة عند تفسير الآية ٤٨. و قال بعض العارفين:

ان الناس غدا على أصناف: منهم السابقون، و هم المقربون، و منهم أصحاب اليمين، و هم سعداء ناجون، و منهم أصحاب الشمال، و هم أشقياء معاقبون، و منهم أهل العفو، و هم الذين خلطوا عملا صالحا و آخر سيئا، و هؤلاء تقبل الشفاعة فيهم، لقوله تعالى: «وَ آخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلاً صالِحاً وَ آخَرَ سَيِّئاً عَسَى اللهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ- التوبة ١٠٣».

(يَعْلَمُ ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ ما خَلْفَهُمْ). المعنى ان اللّه سبحانه يعلم من عباده ما كان و يكون من خير و شر، و يعلم الشافع و المشفوع له، و من يستحق العفو و الثواب، أو العذاب و العقاب، و ما دام الأمر كذلك فلا يبقى مجال للشفاعة إلا بأمره تعالى ضمن الحدود التي يرتضيها.

(وَ لا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِما شاءَ). الضمير في لا يحيطون راجع الى جميع العباد بما فيهم الملائكة و الأنبياء، و المراد من العلم المعلوم، كالخلق بمعنى المخلوق، و الأكل بمعنى المأكول .. و المعنى واضح، و ان شئت زيادة في التوضيح فاقرأ الآية ٢٦ من سورة الجنّ: «عالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلى غَيْبِهِ

تفسير الكاشف، ج ١، ص ٣٩٥

أَحَداً إِلاَّ مَنِ ارْتَضى مِنْ رَسُولٍ» و الآية ٣٢ من البقرة: «سُبْحانَكَ لا عِلْمَ لَنا إِلاَّ ما عَلَّمْتَنا».

(وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ). كثرت أقوال المفسرين و تضاربت في معنى الكرسي، و بعض هذه الأقوال قول على اللّه من غير علم، و خيرها قولان:

الأول انه كناية عن عظمة اللّه و قدرته. الثاني ان المراد بالكرسي العلم، أي ان علمه سبحانه أحاط بكل شيء و السياق يرجح هذا المعنى.

(وَ لا يَؤُدُهُ حِفْظُهُما وَ هُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ). أي لا يثقله و لا يشق عليه حفظ السموات و الأرض، و تدبير ما فيهما، كيف؟ و خلق الذبابة و الكون بالنسبة اليه سواء، ما دام سبحانه إذا أراد شيئا إنما يقول له كن فيكون.

شيء من لا شيء:

فاعل الشيء على نوعين: الأول من نوع المادة. الثاني منزه عنها، و يفترقان من وجوه:

١- ان الفاعل المادي يحتاج الى حركة و آلة دون الثاني.

٢- ان المادي يناله التعب و الاعياء دون الثاني.

٣- يستحيل على المادي أن يوجد شيئا من لا شيء، و لا يستحيل ذلك عمن تنزه عن المادة .. و من هنا يتبين ان قياس الخالق على المخلوق الذي يعجز عن إيجاد شيء من لا شيء قياس مع الفارق .. و كيف يصح قياس الغني عن كل شيء، و يفتقر اليه كل شيء، و يقول للشيء كن فيكون، كيف يصح قياس هذا القادر على العاجز المفتقر الى كل شيء.

[سورة البقرة (٢): الآيات ٢٥٦ الى ٢٥٧]

لا إِكْراهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَ يُؤْمِنْ بِاللهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقى لَا انْفِصامَ لَها وَ اللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٥٦) اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ وَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِياؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُماتِ أُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ (٢٥٧)

تفسير الكاشف، ج ١، ص ٣٩٦

اللغة:

الرشد اصابة الواقع، و يستعمل في كل خير، و المراد به هنا الايمان، و الغي ضد الرشد، و المراد به في الآية الكفر، لأن الكلام في الدين. و الطاغوت مصدر بمعنى الطغيان، مثل الملكوت و الرحموت، و يقع على الواحد و الجماعة، و المذكر و المؤنث، و العروة من الدلو المقبض الذي يمسك به الآخذ، و من الثوب مدخل الزر، و الوثقى مؤنثة الأوثق،

و هو الأشد و الأحكم، و الانفصام الانقطاع و الانصداع.

المعنى:

(لا إِكْراهَ فِي الدِّينِ). لو نظرنا الى هذه الكلمة مستقلة عن السياق لفهمنا منها ان اللّه سبحانه لم يشرع حكما فيه شائبة الإكراه، و ان ما يكره عليه الإنسان من أقوال أو أفعال لا يترتب عليه أي شيء في نظر الشرع لا في الدنيا، و لا في الآخرة .. و لكن قوله تعالى: **(قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ)** الذي هو تعليل لعدم الإكراه يعين ان في هنا بمعنى على، أي الإكراه على الدين، مثل «وَ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ- طه ٧١». أي على جذوع النخل .. و عليه يكون المعنى ان الإسلام لا يلزم أحدا باعتناقه قسرا و اجبارا، و انما يلزم الجاحد بالحجة و البرهان فقط: «وَ قُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَ مَنْ شاءَ فَلْيَكْفُرْ- الكهف ٢٩»: «أَ فَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ- يونس ٩٩».

و تسأل: ان الدين لا يمكن أن يتعلق به إكراه، لأنه من شئون القلب

تفسير الكاشف، ج ١، ص ٣٩٧

الخارجة عن القدرة، تماما كالتصورات الذهنية، و انما يتعلق الإكراه بالأقوال و الأفعال التي يمكن صدورها عن ارادة القائل و الفاعل .. اذن، ما هو الوجه المسوغ للنهي عن الإكراه على الدين؟.

الجواب: ان قوله تعالى: **(لا إِكْراهَ فِي الدِّينِ)**. جاء بصيغة الاخبار فان كان هو المراد فلا يتجه السؤال من الأساس، حيث يكون المعنى ان الدين هو الاعتقاد، و هو أمر يرجع الى الاقتناع الذي لا إكراه عليه .. و ان كان المراد به الإنشاء و النهي عن الإكراه في الدين يكون المعنى ايها المسلمون لا تكرهوا أحدا على قول: لا إله إلا اللّه، محمد رسول اللّه بعد أن قامت الدلائل و البينات على التوحيد و النبوة.

و لكن يتولد من هذا الجواب سؤال جديد، و هو ان هذا لا يجتمع مع قول الرسول الأعظم (ص): «أمرت ان أقاتل الناس، حتى يقولوا: لا إله إلا اللّه، فان قالوها عصموا مني دماءهم و أموالهم».

و جوابه: ان الإسلام أجاز القتال لأسباب: منها الدفاع عن النفس، قال تعالى: «وَ قاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقاتِلُونَكُمْ وَ لا تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ- البقرة ١٩٠». و منها البغي قال تعالى: «فَقاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلى أَمْرِ اللهِ- الحجرات- ٩». و منها اظهار الإسلام، و لو باللسان من المعاندين له و للمسلمين، لمصلحة تعود على الجميع، لا على المسلمين وحدهم، و هذه المصلحة يقدرها المعصوم، أو نائبه، و لا يجوز لأي مسلم كائنا من كان أن يقاتل من أجل النطق بكلمة الإسلام، أو انتشارها إلا بأمر المعصوم، أو من ينوب عنه، و هو الحاكم المجتهد العادل، و على هذه الصورة وحدها يحمل حديث: «أمرت أن أقاتل الناس». أي اني أقاتلهم حين أرى أنا أو من يقوم مقامي ان مصلحة الانسانية تحتم القتال من أجل كلمة لا إله إلا اللّه، و فيما عدا ذلك لا يجوز لأحد كائنا من كان ان يكره أحدا على قول لا إله إلا اللّه .. و تجمل الاشارة الى ان القتال دفاعا عن النفس، أو عن الدين و الحق لا يتوقف على اذن الحاكم و لا غيره. و تقدم الكلام عن ذلك في تفسير الآية ١٩٣، فقرة الإسلام حرب على الظلم و الفساد.

(قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ). لقد بين اللّه سبحانه الحق بأوضح بيان،

تفسير الكاشف، ج ١، ص ٣٩٨

و أقوى برهان، حتى لم يبق حجة لكافر، و لا عذرا لمعتذر .. و من عرف طريق الرشد و الحق عرف طريق الغي و الباطل، إذ لا شيء بعد الحق الا الضلال.

قال الملا صدرا ما توضيحه: ان معنى تبيين الرشد من الغي هو تمييز الحق من الباطل، و الايمان من الكفر بالأدلة و البراهين، مع تفهمها و تدبرها، أما من يعتقد بالحق عن تقليد فلا فرق بينه و بين الحيوان إلا الاعتقاد .. أجل، ان من يقتدي بالصالحين عن صدق نية، و صفاء طوية يناله نصيب مما ينالونه غدا.

(فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَ يُؤْمِنْ بِاللهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقىٰ لَا انْفِصامَ لَهٰا).

تعددت الأقوال في تفسير الطاغوت، و قد أنهاها بعض المفسرين الى تسعة، منها ان المراد به الشيطان، و منها الدنيا الدنية، و أقربها الى الفهم، و دلالة اللفظ تفسير الشيخ محمد عبده، و هو ان الطاغوت ما تكون عبادته و الايمان به سببا للطغيان و الخروج عن الحق، و المراد من الاستمساك بالعروة الوثقى السير على الصراط المستقيم الذي لا يضل سالكه، تماما كالمتعلق بعروة هي أوثق العرى و أحكمها، و المراد بلا انفصام لها قوتها و عدم انقطاعها، و محصل المعنى ان الايمان باللّه عروة وثيقة متينة لا تنقطع أبدا، و ان المتمسك بها لا يضل طريق النجاة، و في صحيح مسلم ان رسول اللّه قال: اني تارك فيكم ما ان تمسكتم به لن تضلوا بعدي، أحدهما أعظم من الآخر، و هو كتاب اللّه حبل ممدود من السماء الى الأرض، و عترتي أهل بيتي، لن يفترقا، حتى يردا عليّ الحوض.

و رواه الترمذي أيضا.

و لكن في زماننا ترك الأمران معا، و اليه أشار الإمام علي (ع) بقوله:

يأتي على الناس زمان لا يبقى من القرآن إلا رسمه، و من الإسلام إلا اسمه.

(وَ اللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ). يسمع كلمة التوحيد من المؤمنين، و قول الكفر من الكافرين، و يعلم ما في قلب الاثنين، و يجزي كلا بأعماله.

(اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمٰاتِ إِلَى النُّورِ). اختلف المفسرون في المراد من هذه الآية اختلافا كبيرا، و تولد من بعض الأقوال إشكالات عقائدية، حتى قال الملا صدرا: ان في المقام اشكالا عظيما يعسر حله على ذوي الافهام، و قال الشيخ محمد عبده: ان بعض التفاسير هي من تفسير العوام

تفسير الكاشف، ج ١، ص ٣٩٩

الذين لا يفهمون أساليب اللغة العالية، أو تفسير الأعاجم الذين هم أجدر بعدم الفهم.

أما السبب لاختلاف المفسرين، و ما تولد منه من الإشكالات فهو انهم فهموا من الآية ان اللّه سبحانه يتولى و يدبر أمور المؤمنين دون غيرهم، لا ان المؤمنين هم الذين يتخذونه وليا لهم دون غيره، و الفرق كبير بين المعنيين، و من هنا ورد الاشكال على فهم المفسرين بأن ولاية اللّه و عنايته تشمل جميع الخلائق على نسق واحد، لا المؤمنين فقط.

و كيف كان، فان أقوال المفسرين، أو أكثرهم لا تلتئم مع السياق، و ان المعنى السليم الذي لا ترد عليه أية شبهة، و يلتئم مع قوله تعالى: «**فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَ يُؤْمِنْ بِاللهِ**» الخ هو ان المؤمنين لا يتخذون لهم وليا من دون اللّه، و لا يجعلون لأحد سلطانا عليهم الا له وحده .. اليه يلجئون، و بكتابه و سنة نبيه يهتدون في عقائدهم، و جميع أقوالهم و أفعالهم، و لا يثقون بأهل الضلالة و الطغيان، مهما علت منزلتهم .. على العكس من الكافرين الذين يتخذون الطاغوت أولياء لهم من دون اللّه.

و ليس من شك ان من آمن باللّه، و صمم على طاعته و الاهتداء بآياته و بيناته عن صدق و اخلاص فانه يسلم بتوفيق اللّه و عنايته من ظلمة البدع و الضلالات، و الأهواء و الجهالات، و يستضيء بنور المعرفة الحقة، و الايمان الصحيح، و

هذا هو معنى يخرجهم من الظلمات الى النور.

(وَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِياؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُماتِ). قال الرازي: «الطاغوت مصدر كالملكوت، و يقع على المفرد و الجمع» و عليه فلا يرد السؤال، أو الاشكال بأن المناسب أن يلائم بين لفظه و لفظ الأولياء، فيقول: أولياؤهم الطواغيت، أو وليهم الطاغوت. و المعنى ان الكافرين يتخذون أهل الضلالة و الطغيان أولياء لهم من دون اللّه، فيأتمرون بأمرهم، و ينتهون بنهيهم، و هؤلاء يسيرون بهم في طريق المهالك، و يخرجونهم من نور العقل و الفطرة الى ظلمات الكفر و البدع.

تفسير الكاشف، ج ١، ص ٤٠٠

الخلود في النار:

نص القرآن الكريم في أكثر من آية على ان نوعا من العصاة مخلدون في النار، و بين ان من هذا النوع من كفر باللّه و كذب بآياته، قال جلت كلمته: «وَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ كَذَّبُوا بِآياتِنا أُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ- البقرة ٣٩.» و من قتل مؤمنا متعمدا، قال جل جلاله: «وَ مَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزاؤُهُ جَهَنَّمُ خالِداً فِيها- النساء ٩٢». «وَ مَنْ يَعْصِ اللهَ وَ رَسُولَهُ وَ يَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ ناراً خالِداً فِيها- النساء ١٣». و من أحاطت به خطيئته: «بَلى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَ أَحاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ- البقرة ٨١».

و ليس من شك ان اللّه بموجب عدله لا يعذب الا من يستحق العذاب، و ان عذابه يختلف شدة و ضعفا على حسب الجريمة و المعصية، فجريمة من سعى في الأرض فسادا، و أهلك الحرث و النسل غير جريمة من سرق درهما، أو استغاب منافسا له في المهنة، و مع هذا لنا أن نتساءل: ان في خلود الإنسان في النار الى ما لا نهاية، تقذف رأسه بشرر كالقصر، و تلهب ظهره بمقامع من حديد، و تملأ جوفه بماء الصديد، ثم لا يقضى عليه فيستريح، و لا يخفف عنه فيسترد بعض أنفاسه، و هو على ما هو من الضعف تؤلمه البقة، و تقتله الشرقة، و تنتنه العرقة، كما قال علي أمير المؤمنين (ع)، نتساءل: هل هذا الأليم العظيم من العذاب لهذا العاجز الضعيف يلتئم مع ذات اللّه التي هي محض الخير و الرحمة، و الكرم و الامتنان، و اللطف و الإحسان؟ .. و من المعقول أن يعذب الى حين، أو يحرم إطلاقا من النعيم .. أما هكذا أبدا كلما نضجت جلودهم بدّلهم جلودا غيرها، دون انقطاع و بلا فترة استراحة، أما هكذا أبدا و دائما فمحل تساؤل.

و إذا قال قائل: و أي عذاب مهما كان نوعه، و طال أمده يكثر على قاتل الحسين بن علي (ع)، أو على من ألقى قنبلة ذرية أو هيدروجينية على شعب فأفناه بكامله، أو على من سن سنة سيئة طال أمدها، و كثرت مفاسدها؟

قلنا في جوابه: أجل، لا يكثر على من ذكرت أي أليم من العذاب، و لكن ليس كل العصاة «يزيد»، و لا كل القنابل ذرية و هيدروجينية، و لا كل السنن

تفسير الكاشف، ج ١، ص ٤٠١

تفرق الناس شيعا و أحزابا متناحرة .. و لكن السؤال لم يقع عن هؤلاء و من اليهم بل عن تخليد من هو دونهم بمراتب و مراتب.

و تقول: و ما ذا تصنع بنصوص القرآن و السنة النبوية على التخليد بالنار؟.

و أجيب: لا شيء منها يرفض التأويل و يأباه.

و تقول ثانية: كل ما جاء به النص، و كان الأخذ به ممكنا يجب بقاؤه على ظاهره، و تخليد بعض العصاة في النار ليس محالا في ذاته؟

و أقول: أجل، و لكن حمل الخلود على طول الأمد، دون الأبد جمعا بين النص، و بين أدلة الرحمة لا تأباه الصناعة، و لا يرفضه الشرع و العقل.

و تقول مرة ثالثة: ان الفقهاء لا يرتضون هذا الجواب، لأنهم لا يجيزون حمل اللفظ على غير ظاهره الا بأسباب ثلاثة: قرينة عرفية، كحمل العام على الخاص، أو شرعية، كالنقل الصريح الثابت عن المعصوم، أو عقلية لا تقبل احتمال الخلاف، و لا شيء منها فيما نحن فيه.

الجواب أولا: أحسب ان الفقهاء الذين اطلعوا على أدلة رحمة اللّه تعالى يوافقونني على انها تصلح لصرف أدلة الخلود في النار عن ظاهرها بالنسبة الى بعض العصاة .. و من تلك الأدلة الحديث القدسي: سبقت رحمتي غضبي، و الحديث الشريف: ان الشفعاء يوم القيامة كثيرون، و آخر من يشفع هو أرحم الراحمين .. و ان اللّه ينشر رحمته يوم القيامة، حتى يطمع بها إبليس، و يمتد لها عنقه .. و في بعض الروايات: ان الحسن البصري قال: ليس العجب ممن هلك كيف هلك، و لكن العجب ممن نجا كيف نجا، فقال الإمام زين العابدين (ع):

أما أنا فأقول: ليس العجب ممن نجا كيف نجا، و انما العجب ممن هلك كيف هلك، مع سعة رحمة اللّه. فإذا عطفنا هذه الروايات على الآية ٥٣ من سورة الزمر:

«قُلْ يا عِبادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً». إذا عطفنا روايات الرحمة على هذه الآية تشكل لدينا قرينة قطعية على صرف أدلة الخلود في النار عن ظاهرها و اختصاصها ببعض العصاة.

ثانيا: نحن نتكلم في الأمور العقائدية القطعية، لا في المسائل الفرعية الظنية، و الفقهاء على ورعهم و قوة ايمانهم فإنهم علماء بأحكام اللّه الشرعية، لا بالأمور العقائدية، بل ان الكثير منهم بمنزلة المقلدين فيما يعود الى صفات اللّه و أفعاله،

تفسير الكاشف، ج١، ص ٤٠٢

أما فيما يعود الى الأدلة على وجود الباري سبحانه فيعلمون منها دليل الدور و التسلسل، و البعرة و البعير (ملحوظة نحن من القائلين بصحة التقليد في أصول العقائد، مع موافقتها للواقع).

ثالثا: ان العقل يستقبح الخلف بالوعد دون الوعيد، فإذا قلت لآخر:

سأحسن اليك، ثم أخلفت كنت ملوما عند العقل و العقلاء، أما إذا قلت لمن يلزمه أداء حقك: سآخذ حقي منك، ثم سامحت و صفحت، فأنت ممدوح عند اللّه و الناس، بخاصة إذا كان من له الحق غنيا عنه، و من عليه الحق فقيرا الى التسامح، و اللّه غني عن العالمين و عذابهم، و هم في أمس الحاجة الى رحمته و عفوه.

سؤال رابع و أخير: بماذا تؤول آيات الخلود في النار؟. و على أي معنى تحملها؟.

الجواب: يمكن حملها على طول الأمد، لا على الأبد، أو على البقاء في النار من غير عذاب، تماما كخيمة حاتم الطائي «١» أو وجود ابراهيم في النار، و يعزز هذا ما جاء في بعض الأحاديث ان بعض أهل النار يتلاعبون بجمراتها كالأكرة، و يقذف بها بعضهم بعضا. و ليس من شك ان هذه اللعبة لا تجتمع أبدا مع خفيف العذاب فضلا عن شدته، و ليس على اللّه بعزيز أن يجعل النار بردا و سلاما على غير ابراهيم كما جعلها على ابراهيم (ع). قال محيي الدين ابن العربي في

الجزء الثاني من كتاب الفتوح المكية ص ١٢٧: «لا يبقى في النار موحد ممن بعث اليه رسول اللّه (ص)، لأن النار ترجع بردا و سلاما على الموحدين ببركة أهل البيت في الآخرة، فما أعظم بركة أهل البيت».

[سورة البقرة (٢): آية ٢٥٨]

أَ لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْراٰهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْراٰهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَ يُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَ أُمِيتُ قَالَ إِبْراٰهِيمُ فَإِنَّ اللهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهاٰ مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَ اللهُ لاٰ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٢٥٨)

---

(١) في بعض الروايات ان حاتما يدخل النار لكفره، و لكنه في خيمة تقيه حرها لكرمه. [.....]

تفسير الكاشف، ج ١، ص ٤٠٣

اللغة:

حاجّ جادل، و بهت أفحم.

الإعراب:

ان آتاه المصدر المنسبك من أن وصلتها مفعول من أجله لحاجّ، لأن الذي حمله على المحاجة هو إيتاء الملك.

المعنى:

بيّن اللّه سبحانه في الآية السابقة ان المؤمنين وليهم اللّه، و انهم يخرجون من ظلمة الشك الى نور الهداية و الايمان، و ان الكافرين أولياؤهم الطاغوت، و يخرجون من نور الفطرة الى ظلمة الكفر و الضلال. ثم قص على نبيه الأكرم قصة المؤمن الذي خرج من ظلمة الشك الى نور الايمان في الآية الآتية، و قصة الكافر الذي حاج ابراهيم بعد أن خرج من نور الفطرة الى ظلمة الكفر، قال سبحانه:

(أَ لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْراٰهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْراٰهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَ يُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَ أُمِيتُ). و هذا الحوار يذكره اللّه تعالى لنبيه و للناس كافة في أسلوب التعجب من المجادل مع الإنكار عليه.

دعا ابراهيم (ع) الى نبذ الأصنام و الطغاة، و الى دين العدالة و المساواة، فعارضه و قاومه أهل الامتياز و الحكام، لا ايمانا منهم ببطلان دعوته، بل خوفا على منافعهم و مكاسبهم، و حرصا على استغلالهم و مناصبهم .. و كالمعتاد جادلوا

تفسير الكاشف، ج ١، ص ٤٠٤

ابراهيم باللسان، و لما عجزوا و أفحموا أعلنوا عليه الحرب، و حاولوا الخلاص منه باحراقه في النار، تماما كما يفعل المستعمرون في هذا العصر، يبثون دعايات التضليل و التمويه عن طريق الصحف و الاذاعات و الأبواق المأجورة، فان أخفقوا دبروا مؤامرات الانقلاب، فان فشلوا ألقوا قنابل «النابالم» و غيرها على الآمنين و المستضعفين.

قال الذي أطغاه الجاه و المال لإبراهيم: من ربك؟ قال ابراهيم: ربي الذي يهب الحياة لمن يشاء، ثم يزيلها، و لا أحد يشاركه في ذلك. قال الطاغية:

و أنا أيضا أقدر على ذلك، ثم احضر رجلين، فقتل أحدهما، و أرسل الآخر ..

و لما رأى ابراهيم مغالطة الطاغية و تدليسه بالاعتماد على حرفية اللفظ، متجاهلا وجه الحجة، و المعنى المقصود جاءه

بمثال آخر لا يمكن أن يغالط فيه و يدعيه، و قال:

(فَإِنَّ اللهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهٰا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ).

لأنه عجز عن التمويه و التضليل، و هكذا كل مبطل يلجأ في تلفيق حججه الى التزييف و التدليس، فإذا لم تنطل الحيلة أسقط في يده، و أخذته الدهشة و الحيرة.

و قال جماعة من المفسرين: ان ابراهيم عدل عن الجواب الأول، و هو يحيي و يميت الى جواب ثان، و هو فأت بها من المغرب، ليقطع الجدال عن قريب، و لا يطيل النقاش. و قال الرازي و الشيخ محمد عبده: ليس قوله: فأت بها من المغرب جوابا آخر، بل هو انتقال من مثال، لتوضيح الدليل، إذ المعنى ان الذي أعطى الحياة هو الذي أتى بالشمس من المشرق، و إذا استطعت التمويه على قومك بالمثال الأول فإنك أعجز من أن تموه عليهم في هذا المثال.

و سواء أ كان قول ابراهيم جوابين، أم مثالين فان الذي كفر قد أفحم، و انما افحم لأنه مبطل، و هو مبطل لأنه كافر. (وَ اللهُ لاٰ يَهْدِي الْقَوْمَ الظّٰالِمِينَ).

الذين ظلموا أنفسهم بمناصرة الباطل، و معارضة الحق.

و لم تذكر الآية اسم الطاغية، لأن المهم استخراج العبرة من القصة، لا اسم (بطلها). و المشهور انه نمرود بن كنعان بن سام بن نوح، و قيل: هو أول من وضع التاج على رأسه، و تجبر و ادعى الربوبية .. و سنعود الى قصة ابراهيم و قومه في سورة الأنبياء، و غيرها، حيث تدعو المناسبة.

تفسير الكاشف، ج ١، ص ٤٠٥

[سورة البقرة (٢): آية ٢٥٩]

أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلىٰ قَرْيَةٍ وَ هِيَ خٰاوِيَةٌ عَلىٰ عُرُوشِهٰا قٰالَ أَنّٰى يُحْيِي هٰذِهِ اللهُ بَعْدَ مَوْتِهٰا فَأَمٰاتَهُ اللهُ مِائَةَ عٰامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قٰالَ كَمْ لَبِثْتَ قٰالَ لَبِثْتُ يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قٰالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عٰامٍ فَانْظُرْ إِلىٰ طَعٰامِكَ وَ شَرٰابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَ انْظُرْ إِلىٰ حِمٰارِكَ وَ لِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنّٰاسِ وَ انْظُرْ إِلَى الْعِظٰامِ كَيْفَ نُنْشِزُهٰا ثُمَّ نَكْسُوهٰا لَحْماً فَلَمّٰا تَبَيَّنَ لَهُ قٰالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللهَ عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٥٩)

اللغة:

خاوية أي خالية، يقال: خوت الدار إذا باد أهلها لخلوها منهم، و عروش جمع عرش، و هو سقف البيت، و كل ما هيئ ليستظل به فهو عرش و عريش.

و لم يتسنه أي لم يتغير، و قيل: مأخوذ من السنة، أي مرت عليه السنون و الأعوام، و على هذا تكون الهاء أصلية، و قيل: بل مأخوذ من تسنن الشيء إذا فسد، و عليه تكون الهاء في يتسنه للسكت، مثل الهاء في حسابيه و ماليه و سلطانيه الواردة في آيات من سورة الحاقة. و ننشزها قرئ بالراء، أي نحييها، و قرئ بالزاي، و معناه نرفعها.

الاعراب:

كالذي الكاف اسم بمعنى مثل، و محلها الجر عطفا على الذي حاج ابراهيم، و جملة و هي خاوية على عروشها حال من قرية، و لا يلتفت الى قول النحاة بأن صاحب الحال لا يكون الا معرفة، لأن القرآن حجة على النحاة، و ليس

تفسير الكاشف، ج ١، ص ٤٠٦

النحاة حجة على القرآن .. أجل، في الغالب يكون صاحب الحال معرفة، و أنّى في موضع نصب على الحال، و صاحب الحال لفظ الجلالة، و كم في محل نصب على الظرفية بلبثت، أي كم مدة لبثت، و كيف في موضع نصب على الحال من الضمير المستتر في ننشز، كما قال صاحب مجمع البيان، و قال صاحب البحر المحيط: انها بدل من العظام.

المعنى:

كانت الآية السابقة مثالا للكافر الذي اتخذ الطاغوت وليا، و خرج من النور الى الظلمات، و هذه الآية مثال للمؤمن الذي اتخذ اللّه وليا، و خرج من الظلمات الى النور.

(أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلىٰ قَرْيَةٍ وَ هِيَ خٰاوِيَةٌ عَلىٰ عُرُوشِهٰا قٰالَ أَنّٰى يُحْيِي هٰذِهِ اللّٰهُ بَعْدَ مَوْتِهٰا). لم يفصح اللّه سبحانه عن اسم القرية، و لا عن اسم المار بها، و من هنا اختلف المفسرون: هل كان كافرا، أو نبيا أو صدّيقا؟. و إذا لم يكن كافرا فهل هو عزير أو ارمياء أو الخضر؟. و أيضا اختلفوا في القرية: هل هي بيت المقدس، أو غيره؟. و لا دليل على التعيين، و لا للقائلين به الا الاسرائيليات.

و معنى خاوية خالية من السكان، و العروش سقوف البيوت، و المراد ان بيوت القرية منهدمة و ليس فيها أحد، و الاستعظام كان لإحياء أهل القرية، لا للقرية نفسها.

و نقول لمن زعم ان الذي مر على القرية كان كافرا، لأنه شكك في قدرة اللّه، نقول له: ليس كل من مرّت شبهة بذهنه، و طلب لها مخرجا يكون من الكافرين، بل العكس هو الصحيح، فلقد طلب ابراهيم من ربه أن يريه كيف يحيي الموتى، و هو داعية الايمان و الإيقان .. هذا الى أن طلب المزيد من العلم بقدرة اللّه من صميم الايمان، و بهذا يتبين خطأ من قال: ان الذي مر على القرية كان كافرا، لا لشيء الا لأنه قال: **(أَنّٰى يُحْيِي هٰذِهِ اللّٰهُ بَعْدَ مَوْتِهٰا)**.

تفسير الكاشف، ج ١، ص ٤٠٧

كلا، ليس هذا إنكارا، و لكن مشهد الخراب العنيف جعله في حيرة، و عجز عن ادراك السبيل التي بها يعود أهل القرية الى الحياة.

(فَأَمٰاتَهُ اللّٰهُ مِائَةَ عٰامٍ). موتا حقيقيا، لا مجازيا، إذ لا موجب للتأويل.

(ثُمَّ بَعَثَهُ). كما كان، و لا يكثر شيء على من يقول للكون بمن فيه، و ما فيه: كن فيكون. و لا شيء أعجب و أغرب ممن قاس الخالق على المخلوق في قدرته .. و لا أدري: ما هو الوجه و القاسم المشترك المصحح للقياس.

حساب القبر:

(قٰالَ كَمْ لَبِثْتَ). هذا سؤال على وجه التقرير، دون الاستفهام. **(قٰالَ لَبِثْتُ يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ)**. و لو لا الإجماع و الاخبار لأمكن القول بأنه لا حساب في القبر، و لا سؤال إلا يوم الحشر، استنادا الى هذه الآية، و الى الآية ٥٥ من سورة الروم: «وَ يَوْمَ تَقُومُ السّٰاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مٰا لَبِثُوا غَيْرَ سٰاعَةٍ».

و لا سبب لقسم المجرمين، و غفلتهم عن الأمد الذي مر على موتهم الا عدم الحياة، لأن الاحساس بالزمن لا يكون الا مع الحياة و الوعي.

و قال الشيخ المفيد في كتاب أوائل المقالات، فصل «القول في أحوال المكلفين من رعايا الأئمة بعد الوفاة»: «ان الناس في ذلك على أربع طبقات: الأولى عرفت الحق و عملت به، و هذه تحيا و تسعد بعد الموت، و قبل النشر. الطبقة الثانية: عرفت الحق، و لم تعمل به عنادا، و هذه أيضا تحيا، و لكن في العذاب و الشقاء. الطبقة الثالثة: اقترفت الآثام و المعاصي

تهاونا، لا عنادا و استحلالا للحرام، و هذه مشكوك في حياتها بعد الموت، و قبل النشر. الطبقة الرابعة: المقصرون عن الطاعة من غير عناد، و المستضعفون من سائر الناس، و هؤلاء لا يحيون، بل يبقون في عالم الأموات الى يوم النشر».

و أخذ الشيخ المفيد هذا التقسيم من روايات عن أهل البيت (ع)، منها:

«لا يعذّب في القبر كل ميت، و انما يعذب من محض الكفر محضا، و ينعم من محض الإيمان محضا، و ما سوى هذين يلهى عنه و لا يسأل عن شيء الى يوم البعث و النشور». و قد تكلمنا عن ذلك مفصلا في كتاب فلسفة المبدأ

تفسير الكاشف، ج ١، ص ٤٠٨

و المعاد، فصل «بين الدنيا و الآخرة» و فصل «حساب القبر».

(قالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عامٍ فَانْظُرْ إِلى طَعامِكَ وَ شَرابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ). قال لم يتسنه بالإفراد، دون التثنية، لأن الطعام و الشراب من فصيلة واحدة، من حيث سرعة الفساد اليهما، و معنى لم يتسنه لم يتغير بمرور السنين، بل بقي على حاله، و هذه معجزة إلهية، لأن الطعام و الشراب يسرع اليهما الفساد، و أخشى أن يقول من يحاول تطبيق القرآن على العلم الحديث: انهما كانا في ثلاثة ..

(وَ انْظُرْ إِلى حِمارِكَ). كيف صار رميما، مع بقاء طعامك و شرابك على حالهما، و هذا أبلغ في المعجزة، و اظهار المقدرة في خرق العوائد، لأن الجو واحد، و الظروف واحدة، فلو كانت هي المؤثرة لأسرع البلى الى الطعام و الشراب قبل أن يسرع الى الحمار، لأنه أقوى منهما على البقاء، فموته هو مع بقائهما مائة سنة على ما كانا عليه من أصدق الدلائل على ان اللّه لا يعجزه شيء على الإطلاق.

و قيل: ان الحمار بقي حيا طوال المائة عام بلا طعام و لا شراب .. و على الحالين فان اللّه سبحانه قد فعل ذلك ليزيل تعجب عزير، و استبعاده لإحياء أهل القرية، و أيضا ليجعله آية على وجود البعث عند من علم بحاله من أهل عصره، و هذا هو المراد بقوله تعالى: **(وَ لِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ)**.

(وَ انْظُرْ إِلَى الْعِظامِ كَيْفَ نُنْشِزُها ثُمَّ نَكْسُوها لَحْماً). اختلفوا في هذه العظام:

هل هي عظام عزير، أو عظام حماره؟. و قال قائل: انها عظام صاحب الحمار، و ان اللّه سبحانه أحيا أولا عينيه، لينظر الى بقية جسده كيف يتجمع و يحيا ..

و هذا قول على اللّه بلا علم، و الأرجح انها عظام الحمار، لقول صاحبه: لبثت يوما أو بعض يوم. إذ لو كان قد رأى عظامه هو رميما لتنبه الى طول الأمد.

و ننشزها بالزاي، أي نرفعها، و نركّب بعضها ببعض، كساها سبحانه لحما، تماما كما بدأ أول خلقه يعيده، قال الإمام علي (ع): ليس فناء الدنيا بعد ابتداعها بأعجب من شأنها و اختراعها.

(فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ). قال هذا بعد أن مر بالتجربة الشخصية التي لا تقبل الشك، و كيف يشك، و قد شاهد بالعيان معاجز ثلاثا: الأولى إعادته الى الحياة بعد الموت. الثانية: احياء حماره.

الثالثة: بقاء طعامه مائة عام.

تفسير الكاشف، ج ١، ص ٤٠٩

و العبرة التي نستخلصها من هذه القصة ان العاقل لا ينبغي له أن ينكر ما يعجز عقله عن إدراكه، أو لا يتفق مع ما قرأه في

كتاب أو صحيفة، أو سمعه من أستاذ، بل ينبغي أن يتحفظ، حتى فيما يراه مخالفا لقوانين الطبيعة ..

فلقد أثبت العلم انه لا قوانين لها مطلقة و نهائية.

[سورة البقرة (٢): آية ٢٦٠]

وَ إِذْ قٰالَ إِبْرٰاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتىٰ قٰالَ أَ وَ لَمْ تُؤْمِنْ قٰالَ بَلىٰ وَ لٰكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قٰالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءاً ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْياً وَ اعْلَمْ أَنَّ اللّٰهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٦٠)

اللغة:

فصرهن، أي اضممهن و اجمعهن.

الاعراب:

إذ ظرف بمعنى وقت، و العامل محذوف تقديره اذكر، و كيف في محل نصب على الحال، و العامل تحيي، و ليطمئن في محل نصب بأن مضمرة، و المصدر المنسبك مجرور باللام، متعلق بمحذوف، و التقدير سألتك للاطمئنان، و سعيا مفعول مطلق ليأتينك، أو حال بمعنى ساعيات.

المعنى:

معنى الآية واضح، و لكن المفسرين يريدون أن يوجدوا سببا للكلام على كل

تفسير الكاشف، ج ١، ص ٤١٠

حال، و لذلك تساءلوا عن السبب الذي دعا ابراهيم (ع) الى هذا السؤال، مع العلم بأنه مؤمن بالبعث ايمانا لا يشوبه شك، ثم اختلفوا في جوابه على اثني عشر قولا، ذكرها الرازي، و لا وجه لبحثهم من الأساس، لأن الايمان بالغيب لا يتنافى مع طلب المشاهدة بالعيان، فان كل من آمن باللّه و ملائكته، و بما جاء في كتبه من أخبار الغيب، كل المؤمنين من أكبر كبير الى أصغر صغير يتمنون أن يشاهدوا بالعيان ما آمنوا به عن طريق الغيب و الوحي الا علي بن أبي طالب الذي قال: «لو كشف لي الغطاء ما ازددت يقينا».

و كيف كان، فان خليل الرحمن (ص) آمن بالبعث ايمانا غيبيا عن طريق الوحي كغيره من الأنبياء و الصديقين، ثم أحب أن يشاهد الحادثة بعينه بعد أن شاهدها بقلبه و عقله، و بذلك تتم لديه جميع طرق المعرفة قلبا و عقلا و تجربة.

و قد أجاب اللّه سؤله، و أمره أن يأخذ أربعة من الطير، و يضمها اليه، ثم يقطّعها أجزاء، و يفرقها أشلاء، و يجعل على كل جبل منهن جزءا، ثم يدعوهن اليه، فيأتينه سعيا بإذن اللّه. و امتثل ابراهيم أمر ربه، فعادت الأشلاء الى مكانها، و رجعت الحياة اليها، وسعت اليه بقدرة اللّه.

و الذي ننتهي اليه من هذه الآية ان طلب الكشف عن سر الخلق أو البعث ينشأ تارة عن الشك و التردد، و هذا يتنافى مع الايمان بقدرة اللّه و الثقة بوحيه و أنبيائه، و تارة ينشأ عن حب الاطلاع و المعرفة الحسية، مع الايمان بقدرة الخالق، و الثقة بأنبيائه، حتى و لو لم ير كيف يحيي اللّه الموتى، كما هو الشأن في ايمان ابراهيم، و هذا الطلب لا يضر بالايمان في شيء، و لكنه صعب المنال، بل و محال ان يتحقق لراغب إلا إذا كان نبيا كإبراهيم الذي لا يزعزع إيمانه بقدرة اللّه شيء، حتى و لو لم يستجب اللّه لسؤله، و على هذا فمن اشترط التجربة و المشاهدة لإيمانه بالبعث فهو كافر من الأساس، و لو كان مؤمنا بقدرة اللّه حقا لكان في غنى عن هذا الشرط، لأن قدرته تعالى لا يعجزها شيء في السموات و لا في الأرض.

تفسير الكاشف، ج١، ص ٤١١

[سورة البقرة (٢): الآيات ٢٦١ الى ٢٦٣]

مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَ اللهُ يُضاعِفُ لِمَنْ يَشاءُ وَ اللهُ واسِعٌ عَلِيمٌ (٢٦١) الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ ثُمَّ لا يُتْبِعُونَ ما أَنْفَقُوا مَنًّا وَ لا أَذىً لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لا هُمْ يَحْزَنُونَ (٢٦٢) قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَ مَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُها أَذىً وَ اللهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ (٢٦٣)

الاعراب:

مثل الذين مثل مبتدأ، و المضاف محذوف، أي مثل صدقات الذين، لأن اسم العين لا يخبر عنه باسم المعنى، و كمثل حبة الكاف زائدة، و مثل خبر، و الذين الثانية مبتدأ خبره جملة لهم أجرهم.

المعنى:

من تتبع آيات القرآن، و تدبر معانيها يجد انها تهتم بأصول ثلاثة: بث الدعوة الاسلامية، و الجهاد، و انفاق المال في سبيل اللّه، ذلك ان لهذه الأصول أعظم الأثر في تدعيم الإسلام و انتشاره، و لذا حث عليها بشتى أساليب الترغيب و الترهيب، و تقدم العديد من آيات الحث على الجهاد و بذل المال، و يأتي كثير غيرها، و أمامنا الآن أكثر من عشر آيات في البذل و الإنفاق .. منها تعد المنفق بالتعويض سبعمائة ضعف، أو تزيد، و منها تنهاه عن اتباع الصدقة بالمن و الأذى، و منها تأمره أن يكون العطاء خالصا لوجه اللّه و منها أن يكون من طيب الكسب و حلاله،

تفسير الكاشف، ج١، ص ٤١٢

لا من خبيثه و حرامه، إلى غير ذلك «١».

(مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَ اللهُ يُضاعِفُ لِمَنْ يَشاءُ). تساءل المفسرون: كيف ضرب اللّه مثلا بحبة تنتج هذا الانتاج، مع العلم بأنه لا وجود لها؟ و بعضهم أجاب بأن المثال كناية عن الكثرة، لا تعبيرا عن الواقع، و قال آخر: انه مجرد فرض أريد منه أن العاقل إذا علم ان بذرته تعود عليه بسبعمائة ضعف يقدم و لا يحجم.

و ليس من شك ان المفسرين استبعدوا هذا المثال، لأنهم قاسوا الزراعة من حيث هي على الزراعة في العصر الذي عاشوا فيه، حيث لا وسيلة اليها سوى الثور و الحمار، و المعول و المسحاة، و لو كانوا في هذا العصر لم يروا في مثال اللّه أية غرابة بعد ان دخل العلم الى كل شيء، و استعملت أدواته في الزراعة، و في كل مظهر من مظاهر الحياة.

هذا و ان عطاء ربك لا ينضب، و لا تحصيه كثرة، و لا يضيق على من يرتضي من عباده، فالسبعمائة ضعف ليست حدا أعلى لفضله و عطائه، و لذا قال: **(وَ اللهُ يُضاعِفُ لِمَنْ يَشاءُ وَ اللهُ واسِعٌ عَلِيمٌ).** و كما تقبل الـ ٧٠٠ ضعف الزيادة فإنها تقبل النقصان أيضا .. حيث يراعى حال الباذل، و مورد الشيء المبذول .. فرب درهم واحد ممن يحتاج اليه يكون أعظم أجرا عند اللّه من ألف ممن هو في غنى عنها .. و أيضا درهم واحد يبذل في إعلاء شأن الحق، و التربية على الدين و الأخلاق، أو يبذل في إسعاد الناس، و خلاصهم من الظلم و الفقر، هذا الدرهم الواحد الذي يبقى أثره، و يدوم نفعه زمنا طويلا أفضل مليون مرة من ألوف تعطى لمن ينفقها على ترف أبنائه، و أزواج بناته.

(الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ ثُمَّ لا يُتْبِعُونَ ما أَنْفَقُوا مَنًّا وَ لا أَذىً لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ).

(١) قال بعض المفسرين الجدد: ان هذه الآيات «تضع النظام الاقتصادي» .. و الحقيقة انها أبعد ما تكون عنه، لأن النظام الاقتصادي يرتكز أولا و قبل كل شيء على تحديد و سائل الانتاج، و تعيين أربابها، و هذه الآيات و غيرها لم تتعرض لشيء من ذلك .. و إنما حثت الأغنياء أن يبذلوا من أموالهم في سبيل اللّه.

تفسير الكاشف، ج ١، ص ٤١٣

للمن معان في اللغة، منها الانعام، يقال: أنعم اللّه عليك، أي منّ عليك. و يقال: اللّه المنان، أي المنعم، و منها القطع، قال تعالى: (وَ إِنَّ لَكَ لَأَجْراً غَيْرَ مَمْنُونٍ) أي غير مقطوع، و منها اظهار الصنيعة و الفضل، و هو المراد هنا، قال صاحب مجمع البيان: المنّ أن تقول له:

ألم أعطك؟ ألم احسن اليك؟ و الأذى أن تقول: أراحني اللّه منك، و من ابتلائي بك.

و المعنى ان الإنفاق و البذل الذي يعوضه اللّه أضعافا هو الذي يتجه للّه وحده، لا للشهرة و المظاهر، و لا يخدش شعور انسان، لأن هذا يكدر الصنيعة، و ينغص النعمة، و يبطل الثواب.

(قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَ مَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهٰا أَذىً). القول المعروف هو الكلام الذي تقبله القلوب، و لا تنكره، و المراد بالمغفرة هنا أن يتسامح المسئول مع السائل إذا ألحّ بالسؤال، أو فاه بالبذاءة و الوقاحة إذا ردّ بغير مقصوده، كما هو شأن بعض السائلين .. و المعنى ان مقابلة السائل بكلمة طيبة، و الصبر عليه أفضل عند اللّه من العطاء مع الإيذاء بسوء المقابلة .. و في الحديث عن النبي (ص) انه قال: «إذا سأل السائل فلا تقطعوا عليه مسألته، حتى يفرغ منها، ثم ردوا عليه بوقار و لين، إما بذل يسير، و اما رد جميل».

(وَ اللّٰهُ غَنِيٌّ). عن جميع الصدقات و الطاعات، و نحن الفقراء الى عنايته و لطفه و ثوابه.

(حَلِيمٌ). لا يعاجل بالعقوبة في هذه الحياة، و انما يؤخر العاصي ليوم لا ريب فيه.

[سورة البقرة (٢): الآيات ٢٦٤ الى ٢٦٥]

يٰا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاٰ تُبْطِلُوا صَدَقٰاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَ الْأَذىٰ كَالَّذِي يُنْفِقُ مٰالَهُ رِئٰاءَ النّٰاسِ وَ لاٰ يُؤْمِنُ بِاللّٰهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوٰانٍ عَلَيْهِ تُرٰابٌ فَأَصٰابَهُ وٰابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْداً لاٰ يَقْدِرُونَ عَلىٰ شَيْءٍ مِمّٰا كَسَبُوا وَ اللّٰهُ لاٰ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكٰافِرِينَ (٢٦٤) وَ مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوٰالَهُمُ ابْتِغٰاءَ مَرْضٰاتِ اللّٰهِ وَ تَثْبِيتاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصٰابَهٰا وٰابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهٰا ضِعْفَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُصِبْهٰا وٰابِلٌ فَطَلٌّ وَ اللّٰهُ بِمٰا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢٦٥)

تفسير الكاشف، ج ١، ص ٤١٤

اللغة:

الرئاء المراءاة، أي تري الناس انك تفعل الخير، و انك من أهله، و الصفوان الحجر الأملس، و الوابل المطر الشديد، و الوبال سوء العاقبة، و الصلد من الأرض ما لا ينبت شيئا لصلابته، و الربوة بتثليث الراء الرابية، و أكلها أي ما يؤكل منها، و الطل الندى و المطر الخفيف.

الاعراب:

الكاف في قوله: كالذي اسم بمعنى مثل، و محله النصب على الحال من الواو في لا تبطلوا، و رئاء الناس مفعول من أجله لينفق، و الكاف في كمثل زائدة، و عليه تراب مبتدأ و خبر، و الجملة في محل جر صفة لصفوان، و صلدا حال من الهاء في تركه، و هو مؤوّل بيابس، و ابتغاء مرضاة اللّه مفعول من أجله، و تثبيتا معطوف عليه، و ضعفين حال من أكلها، و فطلّ فاعل لفعل محذوف، و التقدير فيصيبها طل.

المعنى:

(يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَ الْأَذى كَالَّذِي يُنْفِقُ مالَهُ رِئاءَ النَّاسِ وَ لا يُؤْمِنُ بِاللهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ). بيّن سبحانه فيما سبق أن ترك المن

تفسير الكاشف، ج١، ص ٤١٥

و الأذى شرط لحصول الأجر و الثواب على البذل و الإنفاق، و ان عدم الصدقة، مع قول معروف خير منها مع المن و الأذى، و ان من يبذل بلا من و أذى يضاعف له الأجر و الثواب بلا حد و حساب، و ضرب لذلك مثلا بحبة عادت على الزارع بـ ٧٠٠ ضعف .. بعد أن بيّن هذا كله ضرب في هذه الآية مثلا لأصحاب المن و الأذى بالمنافق المرائي الذي ينفق ماله طلبا لثناء الناس و حمدهم، لا ابتغاء مرضاة اللّه و ثوابه.

و قوله تعالى: **(وَ لا يُؤْمِنُ بِاللهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ)** المراد به أن عمل المرائي، و عمل الكافر سواء، لأن كلا منهما لم يبتغ وجه اللّه، و من هنا تواتر الحديث في ان الرياء شرك خفي.

(فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوانٍ عَلَيْهِ تُرابٌ فَأَصابَهُ وابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْداً لا يَقْدِرُونَ عَلى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا). الضمير في مثله يعود الى المرائي .. لقد شبه اللّه أولا المانّ المؤذي بالمنافق المرائي، ثم شبه هذا بصفوان عليه تراب، و بديهة ان شبيه الشبيه شبيه، كصديق الصديق، و عليه يكون كل من المانّ المؤذي و المنافق المرائي كالصفوان، أي الحجر الصلب الأملس، يغطيه تراب خفيف يحجب صلابته، فأصابه مطر غزير ذهب بالتراب .. و هكذا صدقة المؤذي و المرائي، تماما كالتراب على الحجر الأملس، و الأذى و الرياء كالمطر الذي ذهب بالتراب .. و قوله تعالى:

(لا يَقْدِرُونَ عَلى شَيْءٍ) معناه كما انه لا أحد من الخلق يقدر على رد ذلك التراب الذي اجتاحته السيول كذلك لا يقدر المراءون و المؤذون على رد صدقاتهم ..

و الغرض انهم لا ينتفعون بها في الدنيا، لأنها ذهبت من أيديهم، و لا في الآخرة، حيث أفسدها الأذى و الرياء.

(وَ اللهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكافِرِينَ). المراد بالهداية هنا ثواب الآخرة بقرينة السياق، لأن الكلام في ثواب اللّه، و المراد بالكافرين من عمل لغير وجه اللّه، فلقد جاء في الحديث الشريف: «إذا كان يوم القيامة نادى مناد: أين الذين كانوا يعبدون الناس؟ قوموا خذوا أجوركم ممن عملتم له، فاني لا أقبل عملا خالطه شيء من الدنيا و أهلها».

(وَ مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمُ ابْتِغاءَ مَرْضاتِ اللهِ وَ تَثْبِيتاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصابَها وابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَها ضِعْفَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُصِبْها وابِلٌ فَطَلٌّ). بعد أن ضرب

تفسير الكاشف، ج١، ص ٤١٦

اللّه مثلا لصدقة المراءين و المؤذين ضرب مثلا في هذه الآية لصدقة المخلصين، كما هو شأنه عز و جل في المقابلة بين الضدين، و إذا كانت صدقة أولئك كصفوان عليه تراب فان صدقة هؤلاء كجنة في مرتفع من الأرض، عميقة التربة،

لا يخشى عليها من السيول، كما هي حال حفنة التراب على الحجر الأملس، و هذه الجنة تثمر في السنة مثلي ما يثمر غيرها في المعتاد، و لا تمحل إطلاقا، لجودة تربتها، و يكفيها القليل من الري، حتى الندى، لرطوبة ثراها، و اعتدال جوها، و هذا هو معنى قوله: فآتت أكلها- أي ثمرها- ضعفين فان لم يصبها وابل- مطر غزير- فطل، و هو الندى.

أما قوله: «ابتغاء مرضاة اللّه و تثبيتا من أنفسهم» فانه اشارة الى أمرين: الأول ان المؤمنين يطلبون مرضاة اللّه من الإنفاق. الثاني ان هذا الإنفاق كان بدافع من أنفسهم، لا بدافع خارجي: و قيل: تثبيتا من أنفسهم معناه انهم يجاهدون أنفسهم، و يمرنونها على الطاعة بالبذل .. و هذا المعنى يصح إذا كانت من هنا بمعنى اللام، كقوله تعالى .. «مِمَّا خَطِيئٰاتِهِمْ أُغْرِقُوا» أي لخطاياهم، و كقول الفرزدق في الإمام زين العابدين: يغضي حياء و يغضى من مهابته.

و بعد، فان في هاتين الآيتين من معجزة البلاغة ما لا تجدها في غير كلامه جلت عظمته .. فقد شبه أولا صدقة الأذى بصدقة الرياء، و شبه هذه بالتراب على الصفوان يذهب مع الريح و الأمطار، ثم ذكر في مقابل هذه الصدقة الخاسرة الصدقة الرابحة، و هي صدقة الايمان، و انها كبستان خصب التربة، يهب الخيرات على الدوام و في كل عام، سواء أجادت السماء بالمطر الغزير، أو الخفيف.

[سورة البقرة (٢): آية ٢٦٦]

أَ يَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَ أَعْنٰابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهٰارُ لَهُ فِيهٰا مِنْ كُلِّ الثَّمَرٰاتِ وَ أَصٰابَهُ الْكِبَرُ وَ لَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفٰاءُ فَأَصٰابَهٰا إِعْصٰارٌ فِيهِ نٰارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذٰلِكَ يُبَيِّنُ اللّٰهُ لَكُمُ الْآيٰاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ (٢٦٦)

تفسير الكاشف، ج ١، ص ٤١٧

اللغة:

الاعصار ريح عاصفة تستدير في الأرض، ثم تنعكس منها الى السماء حاملة الغبار، فتكون كهيئة العمود، و تسمى «الزوبعة».

الإعراب:

أ يود الهمزة للنفي و الإنكار، أي لا يود، و له فيها من كل الثمرات له متعلق بمحذوف خبر لمبتدأ محذوف، أي رزق و من كل الثمرات متعلق بمحذوف صفة للرزق، و يجوز أن يتعلق بالرزق، و نظير هذا المبتدأ المحذوف قول الشاعر العربي: «كأنك من جمال بني اقيش» أي كأنك جمل من جمال بني اقيش.

المعنى:

هذه الآية تصلح مثلا لكل من عمل عملا صالحا، و أتبعه بما يذهب بأجره و ثوابه، كالمن و الأذى، أو الرياء و النفاق، و الكفر و الشرك، فحال كل واحد من هؤلاء، و من اليهم حال من كانت له جنة ينتفع بها هو و من يعول، فأصابتها جائحة أودت بها، و هو أحوج ما يكون اليها لشيخوخته، و ضعف ذريته، و عجزهم عن القيام بشأنه و شأنهم، و لا مورد له غير هذه الجنة.

و وجه التمثيل ان من يفعل الخير و يفسده يأتي يوم القيامة، و هو أشد ما يكون حاجة الى ثواب ما عمل، و لكنه يجد عمله هباء منثورا حيث لم يقصد به وجه اللّه، و يصبح عاجزا لا يقدر على شيء، تماما كالشيخ الذي احترقت جنته بعد أن أقعده الكبر عن الكسب، و له أولاد ضعفاء يلحون عليه بطلب أقواتهم ...

و بهذا نجد تفسير قوله تعالى: (وَ أَصابَهُ الْكِبَرُ وَ لَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفاءُ فَأَصابَها إِعْصارٌ فِيهِ نارٌ فَاحْتَرَقَتْ).

و قال المفسرون: انما خص النخيل و الأعناب بالذكر لأنهما أحسن الفواكه نفعا و طعما و منظرا .. و جاء جوابهم من وحي العصر الذي عاشوا فيه، حيث

تفسير الكاشف، ج ١، ص ٤١٨

لا خوخ و لا تفاح و لا إجاص و لا برتقال .. و لو كانوا في هذا العصر لقالوا:

انما خصهما بالذكر لأنهما كانا خير الفواكه يومذاك، و بهذا يتبين معنا ان الحكم على الأشياء الطبيعية يجب أن يكون نسبيا مقيدا بالزمان و المكان.

و تسأل: ألا يتنافى التخصيص في قوله تعالى: «جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَ أَعْنابٍ» مع التعميم في قوله: «لَهُ فِيها مِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ»؟.

الجواب: من الجائز ان أشجار النخيل و الأعناب هي الكثرة الغالبة في الجنة ..

و يجوز أيضا أن يكون المراد بالثمرات المنافع، و يكون المعنى ان صاحب الجنة متمتع بجميع منافعها و فوائدها.

[سورة البقرة (٢): الآيات ٢٦٧ الى ٢٦٨]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّباتِ ما كَسَبْتُمْ وَ مِمَّا أَخْرَجْنا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَ لا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَ لَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلاَّ أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (٢٦٧) الشَّيْطانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَ يَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشاءِ وَ اللهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَ فَضْلاً وَ اللهُ واسِعٌ عَلِيمٌ (٢٦٨)

اللغة:

المراد بالطيب هنا الجيد، و بالخبيث الرديء، و التيمم القصد و العمد، و معنى الغموض الخفاء، و المراد به في الآية التساهل و التسامح، يقال: أغمض فلان عن حقه إذا سامح و تساهل، و الفحشاء و الفحش التجاوز عن الحد، و المراد بالفحشاء هنا البخل.

تفسير الكاشف، ج ١، ص ٤١٩

الإعراب:

ان تغمضوا المصدر المنسبك من ان وصلتها في موضع نصب مفعول من أجله لآخذيه، و التقدير لستم بآخذيه إلا لاغماضكم.

المعنى:

بعد ان حث اللّه سبحانه في الآيات السابقة على الصدقة، و بين ما يجب أن يتصف به المتصدق من الإخلاص للّه في صدقته، و البعد عن الرياء، و المنّ و الأذى، بعد هذا أشار هنا الى صفة الصدقة، و انها ينبغي أن تكون من جيد المال، لا من رديئه، و بذلك تكمل الصدقة من سائر جهاتها، قال تعالى:

(يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّباتِ ما كَسَبْتُمْ وَ مِمَّا أَخْرَجْنا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ).

لو نظرنا الى ظاهر هذه الآية صارفين النظر عما جاء في السنة النبوية من بيان الواجبات المالية، و تحديد نوعها و مقدارها و مصرفها- لو نظرنا الى الآية من حيث هي لاستفدنا منها ان في كل مال يكسبه الإنسان حقا للّه، يجب أن ينفق

في سبيل مرضاته سبحانه، على شريطة أن يكون الإنفاق من جيد ما يملك، لا من رديئه، و أصرح من هذه الآية قوله تعالى: «لَنْ تَنالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ- آل عمران ٩٢».

و هذا الإنفاق يجب في كل مال سواء أ كان مصدره الصناعة أو التجارة أو الزراعة أو الهدية أو الإرث أو الغوص أو المعدن، أو أي شيء آخر .. هذا ما تدل عليه ألفاظ الآية، لأن الإنفاق جاء بصيغة الأمر، و هو يدل على الوجوب و قوله: «مِنْ طَيِّباتِ ما كَسَبْتُمْ» يشمل جميع المكاسب، و قوله: «مِمَّا أَخْرَجْنا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ» يشمل النبات و المعدن و البترول، و لكن السنة النبوية- و هي تفسير و بيان للقرآن، بخاصة ما يتصل بآيات الأحكام الشرعية- قد حددت الواجب المالي زكاة كان أو خمسا، أو نذورات أو كفارات، و بينت المقدار و المصرف ..

و قد تعرض الفقهاء لكل ذلك بالتفصيل في باب الزكاة و الخمس و الكفارات و النذورات .. و عليه تكون الآية واردة لمجرد تشريع الإنفاق و رجحانه، تماما كقوله تعالى: «أَقِيمُوا الصَّلاةَ وَ آتُوا الزَّكاةَ».

تفسير الكاشف، ج ١، ص ٤٢٠

(وَ لا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ). أي لا تقصدوا الرديء من أموالكم فتنفقوا منه .. و قيل في سبب نزول الآية: ان بعض المسلمين كانوا يأتون بصدقتهم من حشف التمر، أي رديئه، و هذه الجملة، و هي لا تيمموا الخبيث تأكيد للجملة الأولى، و هي أنفقوا من طيبات، و مجمل المعنى: أنفقوا من الجيد دون الرديء.

و أفتى الفقهاء في من يملك نوعا من المال، بعضه جيد، و بعضه رديء، أفتوا بأنه لا يجوز لهذا أن يخرج حق اللّه من القسم الرديء، و عليه أن يخرجه من وسط الجيد، و ان اختار الأعلى فأفضل، و بالأولى أن لا يكفي الرديء إذا كان جميع المال جيدا .. أجل، يجوز الإخراج من الرديء إذا كان المال كله كذلك، لأن الحق يتعلق بالعين الخارجية، لا بالذمة.

(وَ لَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلاَّ أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ). ان المنصف يعامل الناس بما يحب أن يعاملوه به .. فإذا كان له مال جيد على غيره فلا يقبل الرديء بدلا عنه الا إذا أغمض و تنازل، اذن يلزمه- و الحال هذه- إذا كان عليه مال جيد أن لا يدفع الرديء بدلا عنه الا إذا أغمض صاحب الحق و تسامح، و هذا هو المراد من قوله تعالى: **(وَ لَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلاَّ أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ)**. فهذا حجة بالغة على من يتصدق بالرديء، مع انه لا يستوفيه بدلا عن الجيد الا إذا تساهل هو و تسامح، قال الإمام علي (ع): كما تدين تدان.

(الشَّيْطانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَ يَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشاءِ). معنى وعد الشيطان بالفقر ان يحرض بالوسوسة على الحرص و الشح و التكالب، و ان يخوف من الإنفاق بأنه يؤدي الى الفقر و سوء الحال، و معنى أمره بالفحشاء أن يغري بوسوسته بارتكاب المعاصي، و ترك الطاعات، و منها البخل و الشح.

(وَ اللهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَ فَضْلاً). لقد وعد اللّه سبحانه من ينفق الجيد من ماله ابتغاء مرضاته سبحانه، وعد هذا في كتابه و على لسان نبيه بأمرين: الأول أن يكفر عنه الكثير من الخطايا، قال تعالى: «خُذْ مِنْ أَمْوالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَ تُزَكِّيهِمْ بِها- التوبة ١٠٤». الثاني أن يخلف على المنفق خيرا مما أنفق، قال تعالى: «وَ ما أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَ هُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ- سبأ ٣٩».

تفسير الكاشف، ج ١، ص ٤٢١

و من حكم الإمام علي (ع): «الصدقة دواء منجح .. استنزلوا الرزق بالصدقة ..

تاجروا اللّه بالصدقة».

و يوم كانت الروح الدينية مسيطرة على النفوس، و موجهة التربية و سلوك الأفراد كان الأب يعطي بعض المال لولده الصغير، و يأمره أن يتصدق به على الفقير معتقدا ان هذه الصدقة تمهد له سبيل التوفيق و النجاح.

[سورة البقرة (٢): آية ٢٦٩]

يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشاءُ وَ مَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً وَ ما يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُولُوا الْأَلْبابِ (٢٦٩)

المعنى:

تطلق الحكمة على معان: منها المصلحة، كقولك: الحكمة من هذا الشيء كذا. و منها الموعظة، مثل الحكمة ضالة المؤمن، و منها العلم و الفهم، و منه قوله تعالى: «وَ لَقَدْ آتَيْنا لُقْمانَ الْحِكْمَةَ». و منها النبوة، كقوله: و آتيناه الحكمة و فصل الخطاب .. و تطلق الحكمة على الفلسفة. و قال قائل: الحكمة هي علم الفقه.

و قال آخر: هي جميع العلوم الدينية. و قال ثالث: هي طاعة اللّه فقط.

و مهما قيل أو يقال فان الحكمة لا تخرج أبدا عن معنى السداد و الصواب، و وضع الشيء في موضعه قولا و عملا، فالحكيم هو الذي يحكم الشيء، و يأتي به على مقتضى العقل و الواقع، لا حسب الميول و الرغبات، و لا يستعجله قبل أوانه، أو يمسك عنه في زمانه، أو ينحرف به عن حدوده و قيوده.

و على هذا فالحكمة لا تختص بالأنبياء و الأولياء، و لا بالفلاسفة و العلماء، فكل من اتقن عملا و أحكمه فهو حكيم فيه، سواء أ كان فلاحا، أو صانعا، أو تاجرا، أو موظفا، أو واعظا، أو أديبا، أو خطيبا، أو حاكما، أو جنديا،

تفسير الكاشف، ج ١، ص ٤٢٢

أو غيره .. فالشرط الأول و الأخير للحكمة و الحكيم أن يحقق العمل الغرض المطلوب منه عقلا و شرعا، دنيا و دينا.

و ليس من شك ان من كانت الحكمة رائده و مرشده كان سعيدا في الدارين، قال الإمام جعفر الصادق (ع): «ما أنعم اللّه على عبد بنعمة أعظم و أرفع و أجزل و أبهى من الحكمة، قال تعالى **(وَ مَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً وَ ما يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُولُوا الْأَلْبابِ)**. أي لا يعلم أحد ما أودع اللّه في الحكمة من الأسرار إلا من استخلصه لنفسه، فالحكمة هي النجاة، و صفة الثبات عند أوائل الأمور، و الوقوف عند عواقبها».

و تجمل الاشارة هنا الى الفرق بين العلم و الحكمة .. فالعلم يقيس الكميات، و يتعرف على العلاقات التي تربط هذه الكميات بعضها ببعض، و يكتشف القوانين التي تجمعها في شمل واحد، و الأثر الذي يترتب عليها من خير أو شر. أما الحكمة فإنها تأمر باتباع العقل السليم، و الدين القويم، و استعمال الشيء فيما وضع له، و خلق من أجله- مثلا- العلم يفتت الذرة، و يوجد السفن الفضائية، و لكنه لا ينظر الى الهدف الذي يرمي اليه العالم خيرا كان أو شرا، و لا ينهاه عن هذا، و يأمره بذاك، أما الحكمة فلا يعنيها من تفتيت الذرة، و اختراع السفن كثير و لا قليل، و انما تنظر الى ما تستعمل فيه الذرة و سفن الفضاء، و توجه الإنسان الى أن يبتغي بهما خير الانسانية و هناءها، لا شرها و شقاءها «١».

[سورة البقرة (٢): الآيات ٢٧٠ الى ٢٧١]

وَ ما أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللهَ يَعْلَمُهُ وَ ما لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصارٍ (٢٧٠) إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَ إِنْ تُخْفُوها وَ تُؤْتُوها الْفُقَراءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَ يُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئاتِكُمْ وَ اللهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٢٧١)

(١) قرأت فيما قرأت ان لدى الدول الكبرى قنابل، الواحدة منها في طاقة مائة مليون طن من المتفجرات، و انها يمكن أن تقتل في لحظات مائة و عشرين مليون نسمة، و ان سفن الفضاء تزود الطائرات الحربية بصور دقيقة للأهداف و المنشئات التي يريد العدو تدميرها، كما تصور ثروات الأرض التي يطمع بها أهل الاحتكار و الاستغلال، و يدلنا هذا على كذب الدعايات التي يذيعها أصحاب هذه المخترعات بأن الغاية منها السلم و رفاهية الإنسان و سعادته، و حمله في رحلات ترفيهية إلى القمر، و الزهرة.

تفسير الكاشف، ج ١، ص ٤٢٣

الإعراب:

نعم فعل ماض، و فاعلها مستتر، و ما نكرة في محل نصب على التمييز، أي نعم شيئا و هي أصلها ابداؤها، ثم حذف المضاف، و هو الإبداء، لدلالة الكلام عليه، و أقيم المضاف اليه، و هو ضمير الصدقات مقامه، و التقدير نعم شيئا هو إبداء الصدقات، و هو مبتدأ، و الإبداء خبر.

المعنى:

ثم عاد سبحانه الى ذكر الإنفاق، و الترغيب فيه فقال: **(وَ ما أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللهَ يَعْلَمُهُ)**. لفظ النفقة يشمل كل ما يصدق عليه هذا الاسم، واجبة كانت النفقة أو مستحبة، كثيرة أو قليلة، في طاعة أو معصية، سرا كان الإنفاق أو جهرا.

و معنى النذر لغة الوعد، و شرعا الزام الإنسان نفسه بفعل شيء أو تركه لوجه اللّه، و صيغته أن يقول الناذر: عليّ للّه، أو نذرت للّه، و لا يكفي مجرد القصد بلا صيغة، و لا الصيغة بلا ذكر اللّه، أو احد أسمائه الحسنى، فلو قال:

نذر عليّ لئن كان كذا ان أفعل كذا لم يكن هذا من النذر في شيء لخلوه عن ذكر اللّه، و أيضا لا ينعقد النذر إطلاقا إذا تعلق بمحرم أو مكروه .. فقد نذر شخص في عهد رسول اللّه (ص) أن يقوم و لا يقعد، و لا يستظل و لا يتكلم، و يصوم .. فقال الرسول (ص): مروه فليتكلم، و يستظل، و يقعد، و ليتم صومه.

و الضمير في يعلمه يعود الى (ما) في قوله: **(وَ ما أَنْفَقْتُمْ)**. أي ان اللّه

تفسير الكاشف، ج ١، ص ٤٢٤

يعلم النفقة بأي دافع تكون، و يجازي عليها ان خيرا فخير، و ان شرا فشر.

(وَ ما لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصارٍ). المراد جميع الظالمين، دون استثناء، و منهم الذين لا ينفقون إطلاقا، أو ينفقون الرديء، أو رياء، أو يتبعون النفقة بالمنّ و الأذى، أو يضعونها في غير موضعها .. و منهم أيضا الذين ينكثون العهد، و لا يفون بالنذر، كل هؤلاء، و من اليهم لا أعوان و لا شفعاء لهم يدفعون عنهم بأس اللّه و عقابه.

(إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقاتِ فَنِعِمَّا هِيَ). أي لا كراهية في اظهار الصدقة، ما دام القصد منها وجه اللّه سبحانه .. سئل الإمام أبو جعفر الصادق (ع) عن الرجل يعمل الشيء من الخير، فيراه انسان، فيسره ذلك؟. قال: لا بأس، ما من أحد الا و هو يحب أن يظهر له في الناس الخير إذا لم يصنع ذلك لذلك.

(وَ إِنْ تُخْفُوها وَ تُؤْتُوها الْفُقَراءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ). ليس من شك ان إخفاء الصدقة أفضل من ابدائها، لبعدها عن شبهة الرياء، و اظهار حاجة الفقير أمام الناس، و قد يكون في الإبداء مصلحة، كما لو كان مدعاة للاسوة و الاقتداء، و عندها

يكون الإبداء أفضل .. و قيل: ان إخفاء صدقة التطوع أفضل من ابدائها، و بالعكس الصدقة المفروضة، و لا نعرف حجة لهذا التفصيل، و حديث: «صدقة السر تطفئ غضب الرب» يشمل الواجبة و المستحبة، كما ان لفظ الفقراء في الآية يشمل الفقير المسلم، و غير المسلم، و قد أفتى الفقهاء بإعطاء الصدقة المستحبة لغير المسلم إذا كان محتاجا، لقول الرسول الأعظم (ص): «لكل كبد حرى أجر».

(وَ يُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئاتِكُمْ). من هنا للتبعيض، أي بعض سيئاتكم، و جيء بها، لأن الصدقة لا تمحو جميع الذنوب، و انما تمحو بعضها.

(وَ اللهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ). و ما دام اللّه سبحانه يعلم السر، تماما كما يعلم الجهر، فالأفضل السر، لأنه أبعد عن الرياء الا إذا كان في العلانية مصلحة، كالاسوة و الاقتداء، و ان كثيرا من المخلصين يبالغون في إخفاء صدقاتهم، فيتبرعون للمشاريع الخيرية باسم بعض المحسنين.

تفسير الكاشف، ج ١، ص ٤٢٥

[سورة البقرة (٢): الآيات ٢٧٣ الى ٢٧٤]

لَيْسَ عَلَيْكَ هُداهُمْ وَ لكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ وَ ما تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنْفُسِكُمْ وَ ما تُنْفِقُونَ إِلاَّ ابْتِغاءَ وَجْهِ اللهِ وَ ما تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَ أَنْتُمْ لا تُظْلَمُونَ (٢٧٢) لِلْفُقَراءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللهِ لا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْباً فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجاهِلُ أَغْنِياءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيماهُمْ لا يَسْئَلُونَ النَّاسَ إِلْحافاً وَ ما تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللهَ بِهِ عَلِيمٌ (٢٧٣) الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَ النَّهارِ سِرًّا وَ عَلانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لا هُمْ يَحْزَنُونَ (٢٧٤)

اللغة:

الحصر المنع و الحبس، و الضرب في الأرض السير فيها، و التعفف اظهار العفة، و السيما العلامة التي يعرف بها الشيء، و الالحاف الإلحاح.

الاعراب:

لأنفسكم خبر لمبتدأ محذوف، أي فهو لأنفسكم، و أيضا للفقراء خبر لمبتدأ محذوف تقديره صدقاتكم للفقراء، و إلحافا قائم مقام المفعول المطلق، أي لا يسألون الناس سؤالا ملحفا، و يجوز أن يكون منصوبا على المصدر، أي يلحفون إلحافا، و سرا قائم مقام المفعول المطلق، أي إنفاقا سرا، مثل قمت طويلا، أي قياما طويلا، و علانية عطف على سرا، و يجوز نصبهما على الحال، أي مسرين و معلنين.

تفسير الكاشف، ج ١، ص ٤٢٦

المعنى:

(لَيْسَ عَلَيْكَ هُداهُمْ وَ لكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ). سبق في الآية ٢٦ من هذه السورة ان الهدى يطلق على معان: منها الهدى بالبيان و الإرشاد، و هذا وظيفة النبي، و منها التوفيق من اللّه الى عمل الخير بتمهيد السبيل اليه، و منها الاهتداء، أي تقبّل النصيحة و العمل بها، و هذا يسند الى العبد، و منها الثواب، و منها الحكم على العبد بالهداية ..

و معنى الهدى في قوله تعالى: **(لَيْسَ عَلَيْكَ هُداهُمْ)** الاهتداء و قبول النصح أي ليس عليك أن يعملوا بالحق، و انما

عليك إبلاغ الحق، و كفى: «فَإِنَّما عَلَيْكَ الْبَلاٰغُ وَ عَلَيْنَا الْحِسٰابُ- الرعد ٤٠». و معنى الهدى في قوله: (وَ لٰكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يَشٰاءُ) التوفيق الى طريق الخير.

و قيل في سبب نزول قوله: (لَيْسَ عَلَيْكَ هُداٰهُمْ): ان المسلمين كانوا لا يتصدقون إلا على أهل دينهم، فخاطب اللّه نبيه بهذه الآية، و أراد بها جميع المسلمين مبينا لهم ان الكافر لا يعاقب على كفره في هذه الحياة بمنع الرزق عنه، و التضييق عليه كي يضطر الى الايمان .. و ليس لأحد أن يعامله بذلك، حتى و لو كان رسولا من عند اللّه: «أَ فَأَنْتَ تُكْرِهُ النّٰاسَ حَتّٰى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ- يونس ٩٩».

و تدل الآية ان الصدقة على غير المسلم جائزة، فرضا كانت أو ندبا، و لكن قول النبي (ص): «أمرت ان آخذ الصدقة من أغنيائكم، و أردها على فقرائكم».

ان هذا الحديث يخصص الآية بصدقة الندب، دون الفرض.

(وَ مٰا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنْفُسِكُمْ). ربما توهم متوهم ان في الإنفاق خسارة له، و حرمانا لأهله و عياله، فدفع اللّه هذا الوهم بأنه يعود على المنفق بالخير و النفع دنيا و آخرة، أما في الآخرة فالأجر و الثواب، و أما في الدنيا فقال الشيخ محمد عبده: «ان الإنفاق يكف شر الفقراء عن الأغنياء، لأن الفقراء إذا ضاق بهم الأمر يندفعون على أهل الثروة بالسرقة و الإيذاء و النهب، ثم يسري شرهم الى غيرهم، و ربما صار فسادا عاما يذهب بالأمن و الراحة».

و لا أدري هل استوحى الشيخ محمد عبده قوله هذا من النقابات العمالية التي

تفسير الكاشف، ج ١، ص ٤٢٧

خلقت المعضلات و المشكلات لأرباب العمل، و أرغمتهم على الاعتراف بالكثير من حقوق العمال؟ ..

(وَ مٰا تُنْفِقُونَ إِلاَّ ابْتِغٰاءَ وَجْهِ اللهِ). أي ما دمتم تقصدون بالنفقة وجه اللّه الكريم فهو يقبلها منكم، سواء أعطيتموها لمسلم أو غير مسلم، شريطة أن تكون من المال الجيد دون الرديء، و ان لا تكون مع المن و الأذى .. و قيل:

ان هذا نهي بصيغة الإخبار، أي لا تنفقوا إلا ابتغاء وجه اللّه.

(وَ مٰا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَ أَنْتُمْ لاٰ تُظْلَمُونَ). حتى و لو كان الإنفاق على غير المسلم، فإنكم لا تنقصون من الجزاء شيئا إذا كان الذي أنفقتم عليه محتاجا.

أهل الصّفّة:

هاجر جماعة بدينهم الى مدينة الرسول (ص) في عهده تاركين بلادهم و أموالهم و أهليهم، و لم يكن لهم في المدينة مسكن و لا عشيرة، و لم يجدوا فيها وسيلة للعيش، و لا يستطيعون السفر طلبا للرزق، و يبلغ عددهم ٣٠٠ و قيل ٤٠٠ فلازموا المسجد يتعبدون فيه، و يحرسون بيوت الرسول، و يتعلمون القرآن، و كان حفظه و تعلمه من أفضل الطاعات، لأنه حفظ للدين، و في الوقت نفسه كانوا يخرجون مع الرسول في كل غزوة .. و كانوا يقيمون في صفّة المسجد، و هي موضع مظلل منه، و من هنا جاءت التسمية بأهل الصفة.

و كان النبي (ص) يطيّب قلوبهم، و يقول لهم: «ابشروا يا أصحاب الصفة، فمن لقيني من أمتي على النعت الذي أنتم عليه راضيا بما فيه فانه من رفاقي».

و هم أولى الناس بالصدقة، لهذه الآية التي نزلت بهم، و هي:

(لِلْفُقَرٰاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللهِ لاٰ يَسْتَطِيعُونَ ضَرْباً فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجٰاهِلُ أَغْنِيٰاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ

تَعْرِفُهُمْ بِسِيماهُمْ لا يَسْئَلُونَ النَّاسَ إِلْحافاً). و قد وصفت هذه الآية أهل الصفّة بصفات خمس:

١- التفرغ للجهاد و طلب العلم، و هذا معنى قوله: (**أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللهِ**). لأن البطال لا يصدق عليه انه حبس نفسه في سبيل اللّه.

تفسير الكاشف، ج ١، ص ٤٢٨

٢- العجز عن الكسب، و هو المقصود بقوله: (**لا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْباً فِي الأَرْضِ**).

٣- التعفف: (**يَحْسَبُهُمُ الْجاهِلُ أَغْنِياءَ مِنَ التَّعَفُّفِ**).

٤- ظهور علامة الفقر من وضعهم و حالهم، لا من الحاحهم في السؤال، و هذا ما عناه سبحانه بقوله: (**تَعْرِفُهُمْ بِسِيماهُمْ**).

٥- عدم السؤال مما في أيدي الناس سؤال إلحاح، و اليه أشار سبحانه:

(**لا يَسْئَلُونَ النَّاسَ إِلْحافاً**).

و ذكرنا في تفسير الآية ١٧٧ من هذه السورة ان السؤال محرم لغير ضرورة.

(**الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَ النَّهارِ سِرًّا وَ عَلانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لا هُمْ يَحْزَنُونَ**). ذكر سبحانه ١٤ آية متوالية في أحكام الإنفاق آخرها هذه الآية، و هي خلاصة ما تقدم، و تأكيد لفضيلة الإنفاق في جميع الأوقات ليلا و نهارا، و في سائر الأحوال سرا و جهرا .. و ذكر الرازي في سبب نزول هذه الآية أقوالا، منها ما روي عن ابن عباس ان علي بن أبي طالب (ع) كان يملك أربعة دراهم فقط، فتصدق بدرهم ليلا، و بدرهم نهارا، و بدرهم سرا، و بدرهم علانية، فأنزل اللّه تعالى هذه الآية.

الزكاة:

الزكاة غير صدقة التطوع، لأن هذه الصدقة يدفعها المسلم، و هو مخير بين فعلها و تركها، و لا تخضع لشرط النصاب، و لا لغيره سوى قصد التقرب بها الى اللّه وحده، و يبدأ أجرها من عشرة أضعافها الى سبعمائة ضعف، الى ما لا نهاية حسب دوافعها و أهدافها.

أما الزكاة فهي فرض عين، و حق لازم و معلوم في أموال المقتدر يدفعها لمستحقها، و هي ثالث أركان الإسلام الخمسة: الشهادتين، و الصلاة، و الزكاة، و الصوم، و الحج.

و يرى بعض الغيورين على الإسلام ان الزكاة نظام اقتصادي، أو من النظام الاقتصادي للإسلام، و اعتبرها آخرون ضريبة في أموال الأغنياء.

تفسير الكاشف، ج ١، ص ٤٢٩

و الصحيح ان الزكاة أبعد ما تكون عن الضريبة و النظام الاقتصادي، لأن الشرط الأساسي لصحة الزكاة و قبولها هي نية التقرب بها الى اللّه، و بدونها لا تقبل إطلاقا .. و لا شيء من الضرائب و الأنظمة الاقتصادية يعتبر فيه هذا الشرط.

هذا، الى ان النظام الاقتصادي بمعناه الحديث ينظر أول ما ينظر الى وسائل الانتاج، كالأرض و المعدن و المصنع و يعتبرها ملكا شخصيا للأفراد يسيطرون عليها، و يتحكمون بها، كما هي الحال في النظام الرأسمالي، أو يعتبرها ملكا للجماعة تديرها و تتحكم بها الدولة، كالنظام الاشتراكي، و الزكاة لا تنظر الى هذه الجهة إطلاقا ..

ثم ان الضريبة تتولى السلطة الحاكمة أمر تحصيلها و إنفاقها، و لا تجيز بحال أن يمتنع المالك عن اعطائها للسلطة: و

يتولى هو بنفسه صرفها في مواردها.

و قد أجمع فقهاء المسلمين كافة على ان للمالك أن ينفق الزكاة بنفسه دون اذن الحاكم، و انه يصدّق بلا بينة و يمين إذا قال: أنفقتها في وجهها، و أين هذا من الضريبة؟!. بل أجاز الفقهاء للجابي أن يصرف الزكاة الى الفقراء بنفسه، و لا يردها الى بيت المال .. قال الإمام علي (ع) لأحد عماله: اصرف ما عندك من المال الى من قبلك من ذوي العيال و المجاعة مصيبا به مواضع الفاقة و الخلات.

و بديهة ان هذا التصرف محظور على جابي الضرائب.

و قد يقول قائل: ان فريضة الزكاة معناها الاعتراف بأن الفقر محتوم لا مفر منه، و ان الإسلام يعالجه بالصدقات و التبرعات، و انه يقيم الحياة على البذل و العطاء، و بالنتيجة يقسم الناس الى طبقات على أساس الغنى و الفقر.

الجواب أولا: ان مصرف الزكاة لا ينحصر بالفقراء و المساكين فقط، فان من جملة مصرفها المصالح العامة التي عبّر اللّه عنها بسبيل اللّه في العديد من الآيات، فإذا لم يوجد الفقير صرفت الزكاة في هذا السبيل .. اذن، فريضة الزكاة لا تحتم وجود الفقر على كل حال، كي يقال: انها اعتراف و اقرار بأن الفقر ضربة لازم لا مفر منها.

ثانيا: ان الضمان الاجتماعي يكفل للمعوزين ما يصونهم عن التسول و التشرد، و هذا الضمان موجود في البلاد الاشتراكية التي لا تعترف بالفوارق المادية و الطبقات.

تفسير الكاشف، ج ١، ص ٤٣٠

ثالثا: ما ذا نصنع بالمريض الذي لا يملك ثمن الدواء، و بالجائع الذي لا يجد وسيلة للغذاء في مجتمع يسوده فساد الأوضاع: هل نتركهما، حتى تصلح الأوضاع، و يمحى من الوجود أثر الفاقة و البؤس: أو نشرّع قانونا يضمن لهما الحياة و سد الخلة؟ ثم هل يمكن تغيير الأوضاع، و محو الفقر بجرة قلم، و دون أن يمر المجتمع بأكثر من مرحلة؟.

ان الإسلام حرب على الضعف بشتى مظاهره، بخاصة الفقر، و قد تعوذ النبي (ص) منه، و عنه في بعض الروايات: «كاد الفقر يكون كفرا ..

المؤمن القوي خير من المؤمن الضعيف».

ان رسالة السماء تستهدف كرامة الإنسان و سعادته، و الفقر منقصة و مذلة، و شقاء و بلاء .. فمحال ان يقره الإسلام .. ان الإسلام لا يأبى ان يكون في المجتمع غني و أغنى، و قوي و أقوى، و لكنه يأبى أن يكون فيه فقير و ضعيف.

ان الإسلام لم يشرع الزكاة من أجل الفقراء فقط- كما يظن- و انما شرعها حلا للعديد من المشاكل، منها مشكلة الفقر، حيث يوجد، و منها مشكلة الرق، حيث تفك رقاب العبيد بأموال الزكاة، و منها مشكلة الإنفاق على الجند المجاهد، و ما الى ذلك من المصالح العامة، كإنشاء المدارس و المصحات و دور الأيتام، و شق الطرق و الري .. و يأتي الكلام ان شاء اللّه عن مصرف الزكاة في الآية ٦٠ من سورة التوبة. و لو افترض ان مر على الانسانية زمان لا فقير فيه، و جميع المصالح العامة متحققة متوافرة بحيث لا يوجد إطلاقا مصرف للزكاة فإنها تلغى من غير شك، و هذا الزمان آت لا محالة، فقد جاء في الجزء التاسع من صحيح البخاري، باب الفتن، عن النبي (ص) انه قال: «تصدقوا، فسيأتي على الناس زمان، يمشي الرجل بصدقته، فلا يجد من يقبلها».

هذا، إلى أن الإسلام أوجب على صاحب الزكاة حين يؤديها الى المحتاج أن لا يؤذي كرامته، و لا يخدش شعوره، و ان يعتقد انه يؤدي واجبا عليه، و دينا لا بد من وفائه، و ليؤكد القرآن هذا المعنى قال: «وَ الَّذِينَ فِي أَمْوالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ

لِلسَّائِلِ وَ الْمَحْرُومِ- المعارج ٢٤- ٢٥» .. و تقدم تفسير الآية ٢٦٢- ٢٦٣:

«الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ ثُمَّ لا يُتْبِعُونَ ما أَنْفَقُوا مَنًّا وَ لا أَذىً لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لا هُمْ يَحْزَنُونَ قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَ مَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُها أَذىً ٩».

تفسير الكاشف، ج ١، ص ٤٣١

و بالرغم من أن الإسلام سبق الشرائع كلها السماوية و الوضعية الى تشريع الزكاة، هذا التشريع الانساني الذي لم يهتد اليه أرباب الأنظمة إلا بعد الإسلام بمئات السنين، و أسموه بالضمان الاجتماعي- على الرغم من ذلك فان أفضل شيء يقدم للمحتاجين في نظر الإسلام ان تهيأ لهم الأعمال المناسبة لقدراتهم، حتى يشعروا بقيمتهم في الحياة: و اللّه تعالى يحب عبده المؤمن المحترف.

و خير ما نختم به هذه الفقرة قول الإمام جعفر الصادق (ع): على كل جزء من أجزائك زكاة للّه، فزكاة العين الاعتبار، و الغض عن المحرمات، و زكاة الأذن الاستماع الى العلم و الحكمة، و زكاة اللسان الحمد و الشكر للّه، و النصيحة للمسلمين، و زكاة اليد البذل، و زكاة الرجل السعي للجهاد و الإصلاح بين الناس.

[سورة البقرة (٢): الآيات ٢٧٥ الى ٢٨١]

الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبا لا يَقُومُونَ إِلاَّ كَما يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطانُ مِنَ الْمَسِّ ذلِكَ بِأَنَّهُمْ قالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبا وَ أَحَلَّ اللهُ الْبَيْعَ وَ حَرَّمَ الرِّبا فَمَنْ جاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهى فَلَهُ ما سَلَفَ وَ أَمْرُهُ إِلَى اللهِ وَ مَنْ عادَ فَأُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ (٢٧٥) يَمْحَقُ اللهُ الرِّبا وَ يُرْبِي الصَّدَقاتِ وَ اللهُ لا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ (٢٧٦) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ وَ أَقامُوا الصَّلاةَ وَ آتَوُا الزَّكاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لا هُمْ يَحْزَنُونَ (٢٧٧) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَ ذَرُوا ما بَقِيَ مِنَ الرِّبا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٢٧٨) فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللهِ وَ رَسُولِهِ وَ إِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُؤُسُ أَمْوالِكُمْ لا تَظْلِمُونَ وَ لا تُظْلَمُونَ (٢٧٩)

وَ إِنْ كانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلى مَيْسَرَةٍ وَ أَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٨٠) وَ اتَّقُوا يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ ما كَسَبَتْ وَ هُمْ لا يُظْلَمُونَ (٢٨١)

تفسير الكاشف، ج ١، ص ٤٣٢

اللغة:

الربا الزيادة، و الخبط الضرب على غير هدى، و منه يخبط خبط عشواء- العشواء الناقة الضعيفة البصر- و المس الجنون، و المحق النقص، و فأذنوا، أي فاعلموا، و النظرة الانتظار.

الاعراب:

كما يقوم الكاف اسم بمعنى مثل قائمة مقام المفعول المطلق، أي لا يقومون الا قياما مثل قيام الذي يتخبطه الشيطان، و ان كان ذو عسرة كان تامة، و ذو فاعل، و فنظرة خبر لمبتدأ محذوف، أي فالواجب نظرة، و ان تصدقوا، أي تتصدقوا و ان وصلتها في موضع رفع على الابتداء، و الخبر خير لكم، و التقدير الصدقة خير لكم.

وجه المناسبة:

موضوع كل من الصدقة و الربا هو المال، مع وجود الفارق، لأن الصدقة بذل بلا عوض، و طهارة و زكاة، و تكافل و

تضامن، و الربا استرداد للمال مع الزيادة، و طمع و جشع، و دنس و قذارة، و سلب و استغلال، فالمقابلة بينهما من حيث الموضوع مقابلة النظير للنظير، و من حيث الحكم و الغاية مقابلة الضد للضد .. و إذا كانت الأشياء تذكر بنظائرها فإنها تذكر أيضا بأضدادها، و لذا

تفسير الكاشف، ج ١، ص ٤٣٣

جاء حكم الربا عقب حكم الصدقات مباشرة، و قبل أن نتعرض لتفسير الآيات نمهد بالاشارة الى تحديد الربا في الشريعة، و دليل تحريمه، و السبب الموجب له.

تحديد الربا:

الربا في اللغة الزيادة، و منه قوله تعالى: (اهْتَزَّتْ وَ رَبَتْ). أي زادت، و في الشريعة ينقسم الى ربا النسيئة، أي القرض، و ربا الفضل، أي الزيادة بسبب المعاوضة بين متجانسين على التفصيل التالي:

و معنى ربا النسيئة أو القرض أن يقرض الإنسان شيئا لغيره، أي شيء كان، و يشترط على المستقرض المنفعة من وراء القرض، سواء أ كانت المنفعة من جنس المال، كمن أقرض عشرة دراهم بشرط أن يردها أحد عشر، أو من غير جنس المال الذي أقرضه، كما لو اشترط صاحب المال على المستقرض أن يعمل له عملا، أو يعيره كتابا، أو أي شيء، قال رسول اللّه (ص): «كل قرض جر نفعا فهو حرام» .. فلم يفرق بين أنواع النفع .. أجل، إذا رد المستقرض المال، مع الزيادة تبرعا منه، و دون شرط كان له ذلك، و جاز للمقرض أن يأخذه، فقد كان النبي (ص) يرد القرض مع الزيادة، و يقول: ان خير الناس أحسنهم قرضا.

و ينبغي أن نتنبه الى أن الربا يثبت في القرض بشرط الزيادة و المنفعة إطلاقا، سواء أ كانت العين من نوع المكيل أو الموزون أو المعدود أو المذروع، و سواء أ كانت من نوع المال المقترض، أو من غيره .. و بكلمة ان ربا القرض لا فرق فيه بين عين و عين، و لا بين منفعة و منفعة.

أما ربا الفضل، و هو الزيادة في المعاوضة، فيشترط فيه أمران: الأول أن يصدق على كل من العوضين اسم الحقيقة النوعية التي توجد فيهما بجميع مقوماتهما، كبيع الحنطة بالحنطة، أو بيع الحنطة بالدقيق، لأن الثاني متفرع عن الأول، أو بيع النشاء بالدقيق، لأن الاثنين متفرعان عن أصل واحد، و هو الحنطة، و الدليل على هذا الشرط قول النبي (ص): «إذا اختلف الجنسان فبيعوا كيف شئتم». و أجمع الفقهاء الا من شذ على ان الحنطة و الشعير من جنس واحد.

تفسير الكاشف، ج ١، ص ٤٣٤

الشرط الثاني: أن يكون العوضان مما يكال أو يوزن، فلا ربا فيما يباع عدا كالبيض، و لا مشاهدة كالثوب و الحيوان، فيجوز بيع بيضة ببيضتين، و ثوب بثوبين نقدا و نسيئة.

و الخلاصة ان الربا محرم في الدين إطلاقا، و في المعاوضة في خصوص ما يكال أو يوزن معدنا كان كالذهب و الفضة، أو حبا كالحنطة و الشعير، أو فاكهة أو نباتا مع كون الاثنين من جنس واحد. و تكلمنا عن ذلك مفصلا في الجزء الثالث من كتاب فقه الإمام جعفر الصادق (ع)، فصل «الربا».

التحريم:

يحرم الربا بنص الكتاب و السنة المتواترة، و اجماع المسلمين كافة من يوم الرسول (ص) الى اليوم، بل لا يحتاج التحريم الى دليل، لأنه من الواضحات البديهية، تماما كوجوب الصلاة، و تحريم الزنا، و من هنا حكم الفقهاء بكفر من

أنكر تحريم الربا، لأنه ينكر ما ثبت بضرورة الدين .. و كما يحرم أخذ الربا يحرم إعطاؤه، فقد جاء في الحديث: «لعن اللّه الربا و آكله و بائعه و مشتريه و كاتبه و الشاهد عليه».

سبب التحريم:

ان من يؤمن باللّه، و أنه المشرع الأول للحرام و الحلال لا يطلب أكثر من وجود الوحي على تحريم الربا، و إذا سأل عن السبب الموجب فلا يسأل ليقتنع، بل لمجرد حب الاطلاع، أو ليقنع الذين أشارت اليهم هذه الآية: «وَ إِذٰا ذُكِرَ اللّٰهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لاٰ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَ إِذٰا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذٰا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ- الزمر ٤٥» و كيف كان، فقد ذكروا لتحريم الربا أسبابا:

«منها»: انه يتنافى مع أسمى المبادئ الانسانية، كالبر و التعاون و التعاطف.

و «منها»: انه أكل للمال بالباطل، لأن المرابي يأخذه بلا عوض ..

و إذا قال قائل: ان العوض موجود، و هو ان صاحب المال قد سلط المستقرض

تفسير الكاشف، ج ١، ص ٤٣٥

على ماله، و مكنه من استغلاله و الانتفاع به، فيكون حال الربا، تماما كحال ايجار الأرض و الدار و الحيوان.

قلنا في جوابه: فرق بعيد بين الايجار و الربا، ذلك ان المستأجر غير مسؤول عن العين المستأجرة إذا تلفت، أو اعيبت إلا إذا تسبب هو في ذلك، تماما كالأجنبي، اما إذا تلف الشيء المقترض- بفتح الراء- فانه يتلف من مال المستقرض.

و «منها» ان المرابي يربح دائما، و المستقرض معرّض للخسارة، و في النهاية يحتكر المرابي الثروة بكاملها، و قد تنبه لهذا العيب بعض أساتذة الاقتصاد الغربيين الذين نشأوا في ظل النظام الربوي، و من هؤلاء الدكتور شاخت الألماني مدير بنك الرايخ سابقا، قال من محاضرة ألقاها بدمشق عام ١٩٥٣:

«يمكننا بعملية رياضية ان نعلم ان جميع المال في الأرض سوف ينتهي الى عدد قليل جدا من المرابين، و ذلك ان الدائن المرابي يربح دائما في كل عملية، بينما المدين معرض للربح و الخسارة، و من ثم فان المال كله في النهاية لا بد أن يصير الى الذي يربح دائما، و هذه النظرية في طريقها الى التحقيق الكامل، فان معظم ملاك المال يملكه بضعة آلاف. أما جميع الملاك، و أصحاب المصانع الذين يستدينون من البنوك و العمال و غيرهم فليسوا سوى أجراء، يعملون لحساب أصحاب المال، و يجني ثمرة كدهم أولئك الآلاف».

و من المتخصصين بعلم الاقتصاد من أثبت ان فكرة الربا أساسها و مصدرها الأول اليهود، و ان غيرهم أخذها عنهم .. و ليس ذلك ببعيد، فان تاريخ اليهود القديم و الحديث يثبت بأن إلههم و دينهم و شرفهم و سياستهم هو المال وحده لا شريك له، و ان أية وسيلة تؤدي اليه فهي شريفة و نبيلة، حتى و لو كانت دعارة، أو تدييثا، أو قتلا أو سرقة، أو نفاقا و رياء، أو أية جريمة و رذيلة.

المعنى:

(الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبٰا لاٰ يَقُومُونَ إِلاّٰ كَمٰا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطٰانُ مِنَ الْمَسِّ).

تفسير الكاشف، ج ١، ص ٤٣٦

ان الشيطان لا يمس أحدا، و لا سلطان له على أحد في الخبل و الصرع، و انما القصد مجرد التشبيه و التقريب لأذهان العرب الذين يقولون عمن يصاب بالصرع: مسه الشيطان .. و معنى الآية ان حال الذين يتعاملون بالربا، تماما كحال

المجنون و المصروع الذي يخبط في تصرفاته خبط عشواء، و روي عن ابن عباس: ان المرابين يقومون من قبورهم غدا كالمصروعين، و يكون ذلك امارة لأهل الموقف على انهم اكلة الربا.

(ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قٰالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبٰا). ذلك اشارة الى استحلالهم للربا، و قد فلسفوه بأن البيع و الربا متماثلان من جميع الوجوه، فكيف يكون البيع حلالا دون الربا؟! أ ليس للإنسان أن يبيع ما يساوي خمسة دراهم بستة، و ان يبيع ما يساوي درهما معجلا بدرهمين مؤجلين؟ .. اذن، ينبغي أن يسمح له بإعطاء عشرة دراهم بأحد عشر الى شهر، و الفرق تحكم في نظر العقل.

ورد اللّه سبحانه هذا الزعم بقوله: **(وَ أَحَلَّ اللّٰهُ الْبَيْعَ وَ حَرَّمَ الرِّبٰا)**. و وجه الرد ان مجرد تماثلهما في الظاهر لا يستدعي أن يكونا كذلك في الواقع، فان البيع عملية تجارية نافعة، و البائع يقوم بدور الوسيط بين المنتج و المستهلك، فيكون ربحه عوضا عن أتعابه، و ليس أكلا للمال بالباطل، أما الربا فهو استغلال محض، و أخذ للزيادة من غير مقابل، فيكون أكلا للمال بالباطل .. و من أجل هذا أحل اللّه البيع، و حرم الربا .. فاختلافهما حكما عند اللّه دليل على اختلافهما واقعا، و كذلك العكس.

(فَمَنْ جٰاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهىٰ فَلَهُ مٰا سَلَفَ). أي من كان قد أخذ الربا قبل أن ينزل به التحريم، ثم تركه بعد التحريم لا يكلّف رده الى من أخذه منه، و كذلك من يسلم الآن، فان كان قد أخذ الربا قبل إسلامه لا يجب عليه الرد بعد ان يسلم، فهذه الآية، تماما كقوله تعالى: «وَ لاٰ تَنْكِحُوا مٰا نَكَحَ آبٰاؤُكُمْ مِنَ النِّسٰاءِ إِلاّٰ مٰا قَدْ سَلَفَ».

و مبدأ عدم المفعول الرجعي للقانون أخذ به التشريع الجديد في موارد كثيرة، بخاصة في الأمور المالية، و عللوه بأنه يحدث هزة اقتصادية يصعب تلافيها.

(وَ أَمْرُهُ إِلَى اللّٰهِ). ذكروا في تفسير العبارة وجوها لم تركن النفس اليها. و الذي فهمناه نحن ان من أخذ الربا جهلا بحكمه، و تركه بعد أن علم نهي اللّه عنه

تفسير الكاشف، ج ١، ص ٤٣٧

طاعة له فان اللّه سبحانه يشمله بعنايته، و يغنيه بحلاله عن حرامه، لأنه ترك الحرام توكلا على اللّه، و من يتوكل على اللّه فهو حسبه.

(وَ مَنْ عٰادَ فَأُولٰئِكَ أَصْحٰابُ النّٰارِ هُمْ فِيهٰا خٰالِدُونَ). معناه ان الذين لا يأتمرون بأمر اللّه، و لا ينتهون بنهيه، يستمرون على أكل الربا عنادا و استخفافا فهم مخلدون في النار، لأن مثل هذا العناد و الإصرار لا يصدر إلا عن كافر جاحد.

(يَمْحَقُ اللّٰهُ الرِّبٰا وَ يُرْبِي الصَّدَقٰاتِ وَ اللّٰهُ لاٰ يُحِبُّ كُلَّ كَفّٰارٍ أَثِيمٍ). المحق هو النقصان، و الربا الزيادة، و المعنى ان المرابي طلب المزيد في ماله، و لكن الربا في الحقيقة نقصان للمال، حيث يصبح رجسا محرما، و الحرام يخرج المال عن المالك، و يجعل تصرف المرابي فيه كتصرف الغاصب في المال المغصوب، هذا بالاضافة الى الإثم و العذاب، و بديهة ان كل ما كان سببا لغضب اللّه و عذابه فهو رجس و نقصان، و عمل من وحي الشيطان.

أما الصدقة فإنها تطهر المال و تزكيه، و تثبته على ملك المتصدق و المزكي، و تستدعي مرضاة اللّه و ثوابه، و هذا هو عين الكمال و الزيادة .. و بكلمة ان كثير المال الحرام قليل، و قليل المال الحلال كثير .. (و الكفار الأثيم) هو الذي يتمادى في أكل الربا، لا يرتدع عنه، و كذا من يتمادى في ترك الزكاة، و لا يكترث بتهديد اللّه و وعيده.

و استنادا الى هذه الآية يصح القول: ان أكثر المنتمين الى الإسلام في هذا العصر كفار آثمون، لتماديهم في أكل الربا، و ترك الخمس و الزكاة.

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ وَ أَقامُوا الصَّلاةَ وَ آتَوُا الزَّكاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لا هُمْ يَحْزَنُونَ). هذه الآية ظاهرة المعنى لا تحتاج الى تفسير، و مع هذا فقد مر تفسيرها في الآية ٢٥ و ٨٢.. و انما أعاد اللّه سبحانه هذا الوعد اطرادا في ذكر الوعد بعد الوعيد، و بالعكس، و لما بالغ هنا في وعيد المرابين اتبعه بوعد الصالحين .. و تجمل الاشارة إلى أن ظاهر الآية يدل على ان الايمان النظري مجردا عن العمل ليس بشيء.

(يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا) بألسنتهم (اتَّقُوا اللهَ وَ ذَرُوا ما بَقِيَ مِنَ الرِّبا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) حقا في قلوبكم. و قوله: ذروا ما بقي من الربا يشعر بأن التحريم ليس له مفعول رجعي، كما أشرنا.

تفسير الكاشف، ج ١، ص ٤٣٨

(فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللهِ وَ رَسُولِهِ). و لا موجب لاعلان الحرب من اللّه و رسوله على من أصر على أكل الربا الا انه كافر، أو بحكم الكافر، حتى و لو أكله تهاونا لا جحودا .. و لكن الروايات عن المعصوم قسمت أكل الربا الى نوعين: الأول من يأكله مستحلا له، و هذا كافر من غير شك، لأنه قد أنكر ما ثبت بضرورة الدين. قبل للإمام جعفر الصادق (ع): ان فلانا يأكل الربا و يسميه اللبأ. قال: لئن أمكنني اللّه منه لأضربن عنقه. النوع الثاني: ان يأكله تهاونا بحكم اللّه، مع الايمان بتحريمه، و هذا يستتاب أولا و ثانيا فان أصر يقتل. فعن الإمام الصادق (ع): «آكل الربا يؤدب بعد البينة، فان عاد أدب، فان عاد قتل». و قيل: يقتل في الرابعة.

(وَ إِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُؤُسُ أَمْوالِكُمْ لا تَظْلِمُونَ وَ لا تُظْلَمُونَ). أي لا تظلمون الغريم بطلب الزيادة على رأس المال، و لا تظلمون أنتم بنقصان رأس المال.

(وَ إِنْ كانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلى مَيْسَرَةٍ). كل مدين سواء استدان بالربا، أو بدونه لا تجوز مضايقته، إذا كان معسرا، كما لا يجوز للمدين الموسر أن يماطل بالوفاء، قال رسول اللّه (ص): «كما لا يحل لغريمك أن يمطلك، و هو موسر كذلك لا يحل لك أن تعسره- أي تضايقه- إذا كان معسرا».

و حدّ المعسر الذي لا تجوز مضايقته في الشريعة الاسلامية هو الذي لا يملك الا دار سكناه، و ما تدعو اليه الضرورة كثيابه و كتبه و أثاث بيته اللازمة لحياته، و أدوات الصناعة التي يكتسب منها قوته، و مؤنة يوم واحد له و لعياله، كل هذه لا يجب بيعها لقضاء الدين. و ذكرنا مستثنيات الدين مفصلا في الجزء الخامس من فقه الإمام جعفر الصادق (ع)، فصل المفلس.

(وَ أَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ). ليس من شك ان إبراء المعسر من الدين فضيلة، بل و من أعظم الطاعات، لأن فيه تنفيسا لكربته، و قضاء لحاجته، و قد جاء في الحديث: «من انظر معسرا، أو وضع عنه أظله اللّه تحت ظله يوم لا ظل الا ظله».

و اتفق الفقهاء كلمة واحدة على ان من استدان في غير معصية، ثم عجز عن الوفاء تسدد ديونه من بيت المال، قال الإمام جعفر الصادق (ع): «من طلب هذا الرزق من حله، ليعود به على نفسه، و على عياله كان كالمجاهد

تفسير الكاشف، ج ١، ص ٤٣٩

في سبيل اللّه، فان غلب عليه، فليستدن على اللّه، و على رسوله ما يقوت به عياله». و معنى فليستدن على اللّه و رسوله

ان دينه يسدد من بيت المال الذي يجب صرفه في سبيل اللّه.

و قد نص القرآن الكريم على ذلك في الآية ٦٠ من سورة التوبة: «إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَ الْمَسَاكِينِ وَ الْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَ الْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَ فِي الرِّقَابِ وَ الْغَارِمِينَ وَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَ ابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللهِ وَ اللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ». و الغارمون قوم وقعت عليهم ديون أنفقوها في طاعة اللّه.

و قوله تعالى: **(إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ)** ترغيب في العمل بالعلم، أي ما دمتم تعلمون ان إبراء المعسر من الدين خير فعليكم أن تعملوا بعلمكم هذا، و قيل:

ان المراد بـ«تعلمون» هنا تعملون، أي ان كنتم عاملين بالخير فتصدقوا بالدين على المعسر .. و ليس هذا ببعيد .. قال الإمام علي (ع): العلم مقرون بالعمل، فمن علم عمل، و العلم يهتف بالعمل، فان أجابه و الا ارتحل عنه .. و كثير من علماء هذا العصر لا يسمون النظرية، أية نظرية، علما الا بعد أن يلمسوا صدقها بالتطبيق و التجربة.

(وَ اتَّقُوا يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مٰا كَسَبَتْ وَ هُمْ لاٰ يُظْلَمُونَ). بعد أن نهى سبحانه عن الربا، و تشدد فيه و أمر بالصبر على المدين المعسر، أو ابرائه من الدين في سبع آيات، بعد هذا عقب سبحانه بهذه الآية التي خوف فيها العصاة من يوم الحساب و الجزاء، و هوله و عذابه.

و في مجمع البيان ان هذه الآية آخر آية نزلت على رسول اللّه (ص)، و انه عاش بعدها واحدا و عشرين يوما.

[سورة البقرة (٢): الآيات ٢٨٢ الى ٢٨٣]

يٰا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذٰا تَدٰايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَ لْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كٰاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَ لاٰ يَأْبَ كٰاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمٰا عَلَّمَهُ اللهُ فَلْيَكْتُبْ وَ لْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَ لْيَتَّقِ اللهَ رَبَّهُ وَ لاٰ يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئاً فَإِنْ كٰانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهاً أَوْ ضَعِيفاً أَوْ لاٰ يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَ اسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجٰالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونٰا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَ امْرَأَتٰانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدٰاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدٰاهُمٰا فَتُذَكِّرَ إِحْدٰاهُمَا الْأُخْرىٰ وَ لاٰ يَأْبَ الشُّهَدٰاءُ إِذٰا مٰا دُعُوا وَ لاٰ تَسْئَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيراً أَوْ كَبِيراً إِلىٰ أَجَلِهِ ذٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللهِ وَ أَقْوَمُ لِلشَّهٰادَةِ وَ أَدْنىٰ أَلاّٰ تَرْتٰابُوا إِلاّٰ أَنْ تَكُونَ تِجٰارَةً حٰاضِرَةً تُدِيرُونَهٰا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنٰاحٌ أَلاّٰ تَكْتُبُوهٰا وَ أَشْهِدُوا إِذٰا تَبٰايَعْتُمْ وَ لاٰ يُضٰارَّ كٰاتِبٌ وَ لاٰ شَهِيدٌ وَ إِنْ تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَ اتَّقُوا اللهَ وَ يُعَلِّمُكُمُ اللهُ وَ اللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٢٨٢) وَ إِنْ كُنْتُمْ عَلىٰ سَفَرٍ وَ لَمْ تَجِدُوا كٰاتِباً فَرِهٰانٌ مَقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضاً فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمٰانَتَهُ وَ لْيَتَّقِ اللهَ رَبَّهُ وَ لاٰ تَكْتُمُوا الشَّهٰادَةَ وَ مَنْ يَكْتُمْهٰا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَ اللهُ بِمٰا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٢٨٣)

تفسير الكاشف، ج ١، ص ٤٤٠

اللغة:

الإملال و الاملاء بمعنى واحد، و هو الإلقاء، و البخس النقص، و الشهيد مبالغة الشاهد، و هو من شهد الشيء و حضره، و الضلال عدم الاهتداء، و المراد به هنا الخطأ، و السأم الملل و الضجر، و أقسط، أي أعدل، و أقوم، أي أبلغ في الاستقامة، و أدنى، أي أقرب، و الفسوق هو الفسق، أي الخروج

تفسير الكاشف، ج ١، ص ٤٤١

عن طاعة اللّه، و رهان جمع رهن، و معناه في اللغة الحبس، و المراد به هنا وثيقة لدين المرتهن.

الإعراب:

فرجل و امرأتان رجل فاعل لفعل محذوف، أي فليشهد رجل و امرأتان، و يجوز جعله خبرا لمبتدأ محذوف، أي فالذي يشهد رجل و امرأتان، و المصدر من أن تضل مفعول لأجله لتذكر الأخرى، و المصدر من أن تكتبوه مفعول لـ«**لا تَسْئَمُوا**»، و صغيرا أو كبيرا حال من الضمير في تكتبوه، و تجارة بالنصب خبر كان، و اسمها محذوف، أي الا ان تكون التجارة تجارة حاضرة، و يجوز الرفع على أن تكون تامة لا تحتاج الى خبر، و رهان خبر مبتدأ محذوف، و التقدير فالوثيقة رهان، و قلبه فاعل لآثم.

المعنى:

ذكر اللّه سبحانه في آخر هذه السورة احكاما شرعية تتعلق بالصدقات و الربا و الدّين و التجارة و الرهن، و تقدم الكلام عن الصدقة و الربا، و الكلام الآن في بعض مسائل الدّين و الرهن و التجارة، و قد اهتمت الآية كثيرا بكتابة الدين، و الاشهاد عليه، حيث أمر اللّه بالكتابة أولا بقوله: (**فَاكْتُبُوهُ**). و ثانيا:

(**وَ لا تَسْئَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ**). و ثالثا في بيان الحكمة من الكتابة و الاشهاد:

(**ذٰلِكُمْ أَقْسَطُ .. وَ أَقْوَمُ .. وَ أَدْنىٰ**).

و بالرغم من ذلك فان أكثر فقهاء المذاهب لم يوجبوا الكتابة في الدين، و لا في البيع، و لا الاشهاد عليهما، و حملوا الأمر بذلك على الاستحباب، و يؤيد قولهم بالاستحباب ان اللّه سبحانه بعد أن أمر بالكتابة و الاشهاد قال: (**فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضاً فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمٰانَتَهُ**). أي إذا ائتمن الدائن المديون من غير صك و لا إشهاد فعلى المديون الوفاء، و هذا ترخيص ظاهر بترك الكتابة و الاشهاد، و قريبا يأتي تفسير هذه الآية، و هي (**فَإِنْ أَمِنَ**).

تفسير الكاشف، ج ١، ص ٤٤٢

(**يٰا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذٰا تَدٰايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ**). التداين على وزن تفاعل، أي داين بعضكم بعضا، و يأتي التداين لمعنيين: الأول التداين بالمال. الثاني المجازاة، قال الإمام علي (ع): كما تدين تدان، و لما كان اللفظ محتملا لهذين المعنيين قال تعالى: تداينتم بدين، دفعا لارادة المجازاة من التداين، و الأجل الوقت المضروب لانقضاء الأمد، و المسمى هو الذي يعين بالتسمية، كالسنة و الشهر، و قوله تعالى: (**فَاكْتُبُوهُ**) أمر بكتابة الدّين، و الأمر يدل على الوجوب، و لكن جرت سيرة المسلمين منذ القديم على عدم الالتزام بكتابة الدّين و الاشهاد عليه، فتعين حمل الأمر على الندب و الإرشاد.

بين القرض و الدّين:

يشترك الدّين مع القرض في ان كلا منهما يتوقف الانتفاع به على استهلاكه، و انه حق ثابت في الذمة، و يفترق القرض عن الدّين في ان العين المقترضة تسدد بمثلها في الجنس و الصفات، فإذا استقرضت نقدا ثبت في ذمتك للمقرض نقد مثله، و كذا إذا استقرضت طعاما أو شرابا أو ثوبا، و على هذا ينحصر القرض في المثليات دون القيميات.

أما الدّين فيثبت في الذمة بسبب من الأسباب الموجبة له، كالقرض، و البيع نسيئة، و الزواج بمهر مؤجل، و الجناية، و ما إلى هذه، و على هذا يكون الدّين أعم من القرض، و يقضى بمثله ان كان مثليا، و بقيمته ان كان قيميا.

(**وَ لْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كٰاتِبٌ بِالْعَدْلِ**). لما كان الغرض من كتابة الدين ضمان الحق لكل من الدائن و المدين، و دفع التنازع و التخاصم بينهما- لما كان كذلك وجب أن يكون الكاتب أمينا عارفا بأحكام الدين، إذ لو كان جاهلا، أو متحيزا انتقض

الغرض المقصود.

و تسأل: لما ذا قال: ليكتب كاتب بالعدل، و لم يقل: ليكتب بينكم كاتب عادل؟

الجواب: لأن الكتابة بين الناس لا يشترط فيها أن يتصف الكاتب بالعدالة

تفسير الكاشف، ج ١، ص ٤٤٣

بمعناها الشرعي، كما هو الشأن في القاضي و المفتي و امام الجماعة في الصلاة، لأن الغرض من كتابة الدّين ضمان الحق و صيانته، كما أشرنا، و يكفي لذلك أن يكون الكاتب عادلا في هذه الجهة فقط، لا في جميع أقواله و أفعاله .. و من هنا يمكن القول بأن هذه الآية تشعر بأن الشاهد لا يشترط فيه العدالة الشرعية، بل يكفي الثقة بكونه صادقا و عادلا في شهادته، لم يتحيز فيها لأحد المتخاصمين، و نحمل عدالة الشاهد التي وردت في الأخبار على العدالة النسبية، دون العدالة المطلقة.

و ان قال قائل: ان إعطاء حكم كاتب الدين للشاهد قياس، و أنت من القائلين ببطلانه؟.

قلنا في جوابه: ان كاتب الدين شاهد على من أملى عليه الدين، و ان لم يسمّ شاهدا عند العرف، و بكلمة ان للشاهد فردين لافظا و كاتبا، هذا يشهد بالكلام المكتوب، و ذاك يشهد بالكلام الملفوظ، و الكتابة أخت اللفظ.

(وَ لا يَأْبَ كاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَما عَلَّمَهُ اللهُ فَلْيَكْتُبْ). المراد بعلمه اللّه أمره و المأمور به الكتابة بالعدل، و من غير تحيز، و قوله: **(فَلْيَكْتُبْ)** تأكيد لقوله: **(لا يَأْبَ)**. و سر هذا التأكيد ان الذين يحسنون الكتابة آنذاك كانوا قلة، فإذا ما امتنع الكاتب تعذر الاستعانة بغيره.

و تسأل: ان قوله تعالى: **(وَ لا يَأْبَ كاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ)** نهي، و النهي يدل على التحريم، و معنى هذا ان الكاتب يجب عليه أن يلبي إذا دعي الى كتابة الدين، مع العلم بأن هذه الكتابة ندب لا فرض، فكيف زاد الفرع على الأصل؟.

الجواب: كما حملنا قوله تعالى: **(فَاكْتُبُوهُ)** على الاستحباب دون الوجوب نحمل قوله: **(لا يَأْبَ)** على الكراهة دون التحريم .. اللهم الا إذا تيقن المدعو الى الكتابة بأن امتناعه سبب تام للفساد، و وقوع المتخاصمين في الحرام .. فعندها يحرم عليه أن يمتنع، و لكن من باب دفع الفساد، لا من باب وجوب كتابة الدين.

(وَ لْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَ لْيَتَّقِ اللهَ رَبَّهُ وَ لا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئاً). يملل، أي يملي، و الذي عليه الحق هو المديون، و الضمير في منه يعود على الدين،

تفسير الكاشف، ج ١، ص ٤٤٤

أو على الحق، و المعنى ان المديون يجب أن يلقي على كاتب الدين الحق الذي عليه للدائن، دون نقصان، يلقيه بلفظ صريح واضح، ليكون إقرارا منه بالحق يلزم به هو أو ورثته عند الاقتضاء، فربما توفي قبل وفاء الدين، و تمنع الورثة عن الدفع، فيذهب الحق على صاحبه إذا لم يكن بيده حجة من غريمه تثبت دعواه.

و هذا أقل ما يجب على المديون تجاه صاحب الدين الذي قضى حاجته، و حل مشكلته ساعة العسرة، و قد رأيت أكثر من واحد يخفض جناح الذل لصاحب المال من الحاجة راجيا أن يقرضه ما يسد به الضرورة، حتى إذا استجاب صاحب المال، و أحسن تنكر له المديون، و اتخذه عدوا، و وصفه بكل قبيح، لا لشيء الا لأنه طالبه بحقه. و فضلا عن ان مقابلة الإحسان بالإساءة حرام شرعا و عقلا فإنها تنبئ عن الخبث و اللؤم.

شكر الخالق و المخلوق:

قال تعالى في الآية ١٤ من سورة لقمان: «أَنِ اشْكُرْ لِي وَ لِوالِدَيْكَ».

و في الحديث: «لا يشكر اللّه من لا يشكر الناس». و في حديث آخر:

«من أسدى معروفا الى انسان، فشكر الخالق، و قال: الشكر للّه. و تجاهل صاحب المعروف، فان اللّه سبحانه لا يقبل منه الشكر، حتى يشكر من أجرى المعروف على يده ..» و من هنا اشتهر: من لا يشكر المخلوق لا يشكر الخالق، و لهذه الملازمة أسرار:

١- ان العقل و الشرع يحكمان بوجوب شكر المنعم، أي منعم كان، و من ترك هذا الشكر فقد عصى اللّه سبحانه، و العصيان كفر و جحود لأنعمه جل و علا.

٢- ان كرامة الإنسان من كرامة اللّه، و في الحديث: «ان اللّه يقول يوم القيامة لعبد من عباده: ما منعك إذا مرضت أن تعودني؟. فيقول العبد:

سبحانك أنت رب العباد، لا تألم و لا تمرض .. فيقول اللّه: مرض أخوك المؤمن، فلم تعده، فوعزتي و جلالي لو عدته لوجدتني عنده، ثم لتكفلت

تفسير الكاشف، ج ١، ص ٤٤٥

بحوائجك، و قضيتها لك، و ذلك من كرامة عبدي، و أنا الرحمن الرحيم».

٣- ان شكر المحسن من الوفاء، و الوفاء دليل الصدق و الإيمان، بل هو أصل الفضائل، فحيث يوجد الوفاء يوجد الصدق و الإخلاص و الأمانة و التضحية ..

و الوفاء لا يتجزأ، فمن يفي لمن احسن اليه فانه يفي أيضا للأهل و الأصدقاء و الوطن، و للانسانية جمعاء، و من غدر بمن أحسن اليه، أو تجاهله، فانه يتجاهل و يغدر أيضا بأهله و أصدقائه و وطنه، و من هنا قيل بحق: من لا وفاء عنده لا دين له.

و أروع ما يكون الوفاء في وقت المحنة و ساعة العسرة، لأن الوفاء في وقت النعمة و الميسرة وفاء للمال، لا لصاحبه، و للدنيا، لا لمن هي في يده.

(فَإِنْ كانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهاً أَوْ ضَعِيفاً أَوْ لا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ ٩). السفيه المبذر الذي لا يحسن التصرف في المال، و الضعيف الصبي، و من لا يستطيع الاملاء المجنون، كل هؤلاء لا يصح منهم الاملاء و الإقرار، فلا بد أن يقوم مقامهم من يتولى شئونهم، و يقوم بعنايتهم ..

و تجمل الاشارة الى أن الولي على قسمين: ولي خاص، و هو الأب و الجد للأب، و ولي عام، و هو الحاكم الشرعي الجامع بين الاجتهاد و العدالة، و لا ولاية له إلا مع فقد الأب و الجد، و التفصيل في كتب الفقه و منها الجزء الخامس من كتاب فقه الإمام جعفر الصادق.

(وَ اسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجالِكُمْ). هذا هو النوع الثاني من الأمور التي اعتبرها اللّه في الدين، الأول الكتابة، و الثاني الاشهاد، و استشهدوا، أي أشهدوا، يقال: استشهدت الرجل، و اشهدته بمعنى واحد، و الشهيدان هما الشاهدان، و قد اعتبر القانون الوضعي وجود شاهدين في تحرير العقود الرسمية، تماما كما جاء في القرآن، و قوله: **(مِنْ رِجالِكُمْ)** استدل به الفقهاء على ان الشاهد يشترط فيه الإسلام.

و قال الشيعة الامامية و الحنفية: هذا إذا كان المشهود عليه مسلما، أما إذا كان غير مسلم فان شهادة أهل ملة تقبل على

ملتهم. و قال المالكية و الشافعية:

لا تقبل شهادة غير المسلم، حتى و لو كان على مثله. (المغني و فتح القدير، باب الشهادة).

تفسير الكاشف، ج ١، ص ٤٤٦

(فَإِنْ لَمْ يَكُونا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَ امْرَأَتانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَداءِ). تثبت الحقوق المالية بشهادة رجلين، و رجل و امرأتين، و رجل و يمين باتفاق المذاهب إلا أبا حنيفة فانه قال: لا يقضى بشاهد و يمين. و القرآن الكريم ذكر شهادة الرجلين، و الرجل و المرأتين فقط. أما ثبوت الحق المالي بالشاهد و اليمين فقد صرحت به السنة النبوية.

و تسأل: هل يثبت الحق المالي بشهادة النساء فقط؟ ثم هل يثبت بشهادة المرأتين و يمين، كما ثبت بشهادة الرجل و اليمين؟

الجواب: اتفقت المذاهب على ان الحقوق في المال لا تثبت بشهادة النساء مفردات عن الرجال، و بدون يمين، و اختلفت في ثبوتها بشهادة امرأتين و يمين. قال المالكية و الامامية: يثبت، و قال غيرهم: لا يثبت.

و قوله تعالى: **(مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَداءِ)** يحتمل معنيين: المعنى الأول أن يكون المراد من الرضا خصوص الرضا لنفس هذه الشهادة الخاصة، لا للشهود بما هم مرضيون دينا و صلاحا بصرف النظر عن شهادتهم هذه و غيرها، و على هذا فلا تشترط العدالة في الشاهد، بل يكفي أن يثق القاضي بأن شهادة الشاهد مطابقة للواقع، كما هو شأن الشهادة في القوانين الوضعية، حيث تركت تقدير الشهادة للقاضي وحده.

المعنى الثاني أن يكون المراد الرضا للشهود أنفسهم بما هم مرضيون دينا و صلاحا، و عليه فلا بد من عدالة الشاهد نفسه .. ان لفظ الآية يحتمل هذا المعنى و المعنى الأول، و لكن الاخبار و فتوى الفقهاء يرجحان ارادة العدالة في الشاهد نفسه .. قال الإمام علي (ع): «اشهدوا ممن ترتضون دينه و أمانته و صلاحه و عفته، و على هذا إذا شهد العدلان فعلى القاضي أن يحكم بموجب شهادتهما، سواء أحصل له العلم من قولهما، أم لم يحصل تعبدا بالنص، أما إذا شهد عنده غير العدول فلا يحكم بشهادتهم الا إذا حصل له العلم من أقوالهم، بحيث يكون العلم هو المصدر للحكم، لا شهادة غير العدول.

(أَنْ تَضِلَّ إِحْداهُما فَتُذَكِّرَ إِحْداهُمَا الْأُخْرى). هنا سؤالان:

الأول: لما ذا قال: ان تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى، و لم يقل

تفسير الكاشف، ج ١، ص ٤٤٧

فتذكرها الأخرى، فأعاد الاسم الظاهر، و هو إحداهما في جملتين لا فاصل بينهما بعيد أو قريب؟.

و أجيب عن ذلك بوجوه خيرها جميعا ان شهادة المرأتين لما كانت بمنزلة شهادة الرجل الواحد وجب الجمع بين المرأتين لتؤدي كل منهما شهادتها على مسمع من الثانية، حتى إذا تركت شيئا من الشهادة ذهولا عنه ذكرتها الأخرى، فإذا انتهت الأولى أدت الثانية بمحضر من زميلتها، و مثلت الدور الذي مثلته تلك، و عليه تكون شهادة كل منهما متممة لشهادة الأخرى، و هذا المعنى لا يتأدى الا باعادة لفظ إحداهما، لكي ينطبق على الاثنتين، و لو قال فتذكرها الأخرى لكان المعنى لئلا تنسى واحدة فتذكر الثانية، فتكون إحداهما ناسية، و الأخرى ذاكرة، و ليس هذا بمراد، و انما المراد ان كلا منهما تذكر الأخرى كما قدمنا.

و تجمل الاشارة الى انه لا يجب الجمع بين الشهود إذا كانوا رجالا، بل التفريق أولى على العكس من النساء الشاهدات.

السؤال الثاني: ما هو السر في ان شهادة امرأتين تساوي شهادة الرجل الواحد؟.

و أجيب عن هذا السؤال بأوجه، منها ان المرأة ضعيفة العقل، و من الطريف جواب بعض المفسرين بأن مزاج المرأة تكثر فيه الرطوبة .. و لو صح هذا القول يكون كل رطب المزاج نصف شاهد، حتى و لو كان رجلا، و كل حار المزاج يكون شاهدا كاملا، حتى و لو كان امرأة .. و أرجح الأقوال نسبيا ان الرجل يملك عاطفته و هواه أكثر من المرأة- غالبا- و الجواب الصحيح ان علينا ان نتعبد بالنص، حتى و لو جهلنا الحكمة منه.

و تجمل الاشارة الى أن القاضي قد تركن نفسه الى شهادة امرأة واحدة، و يحصل له العلم من قولها أكثر مما تركن نفسه إلى شهادة عشرة رجال غير عدول ..

و القاضي يجوز له أن يقضي بعلمه إذا تكوّن هذا العلم من ظروف الدعوى و ملابساتها و قرائنها، و لو كانت هذه القرينة شهادة امرأة، ما دامت وسيلة للعلم أو الاطمئنان.

(وَ لا يَأْبَ الشُّهَداءُ إِذا ما دُعُوا). إذا دعاك داع لتشهد له على حق أو دين وجب عليك أن تستجيب لدعوته على الكفاية، أي إذا قام غيرك بهذه المهمة سقط الوجوب عنك، و الا كنت مسؤولا أمام اللّه سبحانه، و الدليل هذه الآية،

تفسير الكاشف، ج ١، ص ٤٤٨

و الحديث الشريف: «إذا دعاك الرجل، لتشهد له على حق أو دين فلا يسعك أن تتقاعس عنه».

(وَ لا تَسْئَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيراً أَوْ كَبِيراً إِلى أَجَلِهِ). السأم الملال، و الضمير في تكتبوه يعود الى الدين أو الحق، و القصد هو الحث على كتابة الدين من غير فرق بين قليله و كثيره، ما دام الغرض التحفظ من وقوع النزاع و الخلاف.

(ذلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللهِ وَ أَقْوَمُ لِلشَّهادَةِ وَ أَدْنى أَلاَّ تَرْتابُوا). أي ان كتابة الدين و الاشهاد عليه أعدل و أبلغ في الاستقامة و أقرب الى نفي الشك و الارتياب.

و تسأل: ان اللّه سبحانه أمر بالكتابة أولا في قوله: **(فَاكْتُبُوهُ)** و ثانيا:

(وَ لا تَسْئَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ). و ثالثا أشار الى الحكمة من ذلك بأن الكتابة أقسط و أقوم و أدنى، و مع كل هذا فقد أفتى الفقهاء باستحباب الكتابة، لا بوجوبها، لسيرة المسلمين القطعية منذ الصدر الأول، حتى اليوم، و نحن معهم في ذلك، و لكن هناك شيء آخر غير كتابة الدين، و الاشهاد عليه، و هو ان الفقهاء قد أوجبوا على القاضي أن يحكم بموجب البينة العادلة، حتى و لو لم يحصل له العلم منها، و ما ذاك إلا تعبدا بالنص .. و لكن الفقهاء لم يعتبروا الكتابة وسيلة من وسائل الإثبات كالبينة، و قالوا: لا يجوز الحكم بموجبها الا إذا أوجبت العلم أو الاطمئنان .. ألا يدل هذا الأمر المتكرر بالكتابة على انها طريق لاثبات الحق، و لو بالدلالة الالتزامية؟ ..

الجواب: ان الأمر بكتابة الدين صونا للحق الثابت شيء، و اعتبار البينة العادلة طريقا لاثبات الحق شيء آخر، و من هنا يجب الحكم بموجب البينة، سواء أقرّ بها المحكوم عليه، أو أنكرها، أما الكتابة فلا بد من سؤال المدعى عليه عنها، فان أقر بها دخلت في باب الإقرار، و ان أنكرها احتاج إثباتها الى وسيلة من وسائل الإثبات كالبينة أو اليمين أو الاختبار و المقابلة بينها و بين خط الكاتب، و عليه فلا تكون الكتابة وسيلة مستقلة بذاتها، كما هو الشأن في البينة.

(إِلاَّ أَنْ تَكُونَ تِجارَةً حاضِرَةً تُدِيرُونَها بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُناحٌ أَلاَّ تَكْتُبُوها).

المصدر من ان وصلتها في محل نصب على الاستثناء المنقطع، لأن الكلام المتقدم كان في كتابة الدين المؤجل، و الكلام هنا في التجارة الحاضرة، و اباحة عدم كتابتها، و معنى التجارة الحاضرة البيع بثمن معجل، لا مؤجل، و معنى تديرونها

تفسير الكاشف، ج ١، ص ٤٤٩

بينكم تتناقلونها من يد إلى يد، فيأخذ البائع الثمن من المشتري، و يأخذ المشتري المثمن من البائع، و ينتقل بذلك ما كان في يد كل الى ملك الآخر.

و محصل المعنى من مجموع الكلام انه لا بأس عليكم بترك الكتابة في المعاملات التجارية التي تقع بينكم بثمن معجل، أما السر لاباحة ترك الكتابة في ذلك فلأن مثل هذا البيع المعروف ببيع المعاطاة يجري كثيرا بين الناس، فلو كلفوا بكتابة الصكوك لكل المبيعات لشق الأمر عليهم، بخاصة في الأشياء الصغيرة.

و كيف كان، فان المسائل التجارية يوكل الشارع الأقدس أمرها الى الناس يديرونها بينهم حسبما تستدعيه مصالحهم، فان كانت المصلحة في الكتابة و التسجيل فعلوا، كما هو شأنهم في بيع العقارات، و غيرها من المنقولات الثمينة كالسيارات، و ما اليها، و ان كانت المصلحة في ترك الكتابة تركوها، كما هي عادتهم في بيع المأكول و الملبوس .. و إذا أمر اللّه بكتابة الدين و البيع، أو رخص بتركها فإنما يأمر استحبابا و إرشادا إلى ما يجنبهم المشاكل و المتاعب .. أجل، انه تعالى ينهاهم تحريما عن الغش و التغرير، و الربا و الاستغلال، و أكل المال بالباطل من غير عوض و مقابل.

و تسأل: ان نفي الجناح عن ترك كتابة التجارة الحاضرة يشعر بأن ترك كتابة الديون فيه جناح، و عليه تكون كتابة الديون واجبة خلافا لما عليه الفقهاء الذين قالوا باستحبابها، لا بوجوبها.

الجواب: ان المراد بقوله تعالى: **(فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُناحٌ أَلَّا تَكْتُبُوها)** نفي البأس و المضرة الدنيوية، لا نفي الإثم و المضرة الاخروية، كي يكون الأمر بكتابة الديون للوجوب.

(وَ أَشْهِدُوا إِذا تَبايَعْتُمْ). اتفق الفقهاء على ان الاشهاد على البيع ندب، لا فرض إلا الظاهرية، فإنهم قالوا بأنه فرض، لا ندب عملا بظاهر اللفظ.

(وَ لا يُضَارَّ كاتِبٌ وَ لا شَهِيدٌ). إذا اتفق المتبايعان على الكتابة و الاشهاد في الدين أو البيع فعلى الكاتب أن يكتب بالعدل، و على الشاهد أن يشهد بالحق ..

و تقدم الكلام عن لفظ لا يضار و اعرابه في الآية ٢٣٣، و هو قوله تعالى:

(لا تُضَارَّ والِدَةٌ بِوَلَدِها).

(وَ إِنْ تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ). الفسوق هو الخروج عن طاعة اللّه، و كل من

تفسير الكاشف، ج ١، ص ٤٥٠

فعل شيئا نهى اللّه عنه، أو ترك شيئا أمر اللّه به فهو فاسق خارج عن طاعة اللّه، مستحق لغضبه و عقابه. **(وَ اتَّقُوا اللهَ)** في الطاعة لجميع أوامره و نواهيه.

(وَ يُعَلِّمُكُمُ اللهُ وَ اللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ). يعلمكم ما فيه خير لكم دينا و دنيا.

و بديهة ان اللّه سبحانه لا يعلمنا مباشرة، و لا يلقي العلم في عقولنا و قلوبنا إلقاء، و انما يعلمنا بواسطة الوحي الذي ينزله على أنبيائه، هذا الوحي الذي يتضمن كل ما فيه هدايتنا و إرشادنا إلى المصالح التي تضمن بقاءنا و سعادتنا.

مع الصوفية:

قال الصوفية كلهم أو جلهم: لا سبيل الى المعرفة و العلم باللّه و وحيه، و الشريعة و أسرارها إلا الايمان و التقوى، فمن اتقى اللّه عرفه و عرف شريعته و أحكامها، و عرف الآخرة و أهوالها، و فهم القرآن و الحديث من غير درس و تعلم، و

يسمون علمهم هذا بالعلم اللدني، و استدلوا بأدلة منها قوله تعالى:

(وَ اتَّقُوا اللهَ وَ يُعَلِّمُكُمُ اللهُ). و لفظ الآية الكريمة يأبى هذا الاستدلال، لأنه لو كان كما قالوا لجزم يعلمكم جوابا لاتقوا، و لاقترن الجواب بالفاء، لا بالواو ..

هذا، الى ان من أمعن الفكر في قول الصوفية هذا يجده أشبه بهذيان المحموم الذي يلغو و يقول: ان البيت لا يتم بناؤه إلا بعد السكن فيه، و ان الثوب لا يتم نسيجه إلا بعد لبسه.

و لا أدري كيف يدعي الصوفية العلم بالحديث، و قد تواتر عن الرسول (ص):

«اطلبوا العلم و لو بالصين .. العلم بالتعلم»؟ و نحن لا نشك أبدا في أن النظريات تتبلور بالتطبيق و العمل، و ان العالم العامل تتفتح له أبواب بمعلومات جديدة، و لكن هذا شيء، و كون التقوى وسيلة الى المعرفة شيء آخر.

(وَ إِنْ كُنْتُمْ عَلى سَفَرٍ وَ لَمْ تَجِدُوا كاتِباً فَرِهانٌ مَقْبُوضَةٌ). بعد ان أمر اللّه بكتابة الدين صيانة له جعل الرهن وثيقة له بدلا عن الكتابة، حيث تتعذر في السفر.

و اتفق الفقهاء على ان عقد الرهن لا يتم إلا بالقبض، و استدلوا بقوله تعالى:

تفسير الكاشف، ج ١، ص ٤٥١

(فَرِهانٌ مَقْبُوضَةٌ). و التفصيل في كتب الفقه، و منها الجزء الرابع من فقه الإمام جعفر الصادق.

و تسأل: ان الرهن جائز في السفر و الحضر، و مع وجود الكاتب و عدمه، فما هو القصد من التقييد بالسفر، و عدم وجود الكاتب؟

و تخطى بعض المفسرين هذا السؤال، و تجاهله بالمرة، مع انه يسبق الى ذهن كل عارف بالأحكام الشرعية .. و أجاب أكثرهم عنه بأن اللّه أجراه على الأعم الأغلب، إذ الغالب في السفر عدم وجود الكاتب في ذاك العصر .. و يلاحظ بأن الغالب في السفر أيضا عدم وجود الرهن، و من الذي يحمل في سفره أشياءه التي يمكن رهنها إلا ما ندر؟

و الجواب الصحيح ان الآية بظاهرها تدل على عدم جواز الرهن في الحضر، بناء على ان للشرط مفهوما، و هو هنا: ان لم تكونوا على سفر فلا رهان، و لكن هذا الظاهر لا يجوز الاعتماد عليه بعد أن ثبت ان النبي (ص) الذي نزل الوحي على قلبه لم يعمل به، فلقد رهن درعه عند يهودي، و هو حاضر في المدينة، و ليست هذه هي الآية الوحيدة التي نترك ظاهرها بالسنة النبوية، و من هنا أجمعت الأمة على عدم جواز العمل بظاهر آية من آيات الأحكام الشرعية إلا بعد البحث و التنقيب عن الأحاديث النبوية الواردة مورد الحكم المدلول للآية الكريمة.

(فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضاً فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمانَتَهُ وَ لْيَتَّقِ اللهَ رَبَّهُ). أي ان الدائن إذا أحسن الظن بالمديون، و أعطاه بلا صك و لا رهن و لا إشهاد ثقة بصدقه و وفائه، ان كان كذلك فعلى المديون أن يكون عند حسن ظن الدائن، و يرد له الحق كاملا ..

و هذا الحكم عام لا يختص بالدين، بل يشمل الأمانات بكاملها، قال تعالى:

«إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَماناتِ إِلى أَهْلِها- النساء ٥٨». و قال رسول اللّه (ص): لا تنظروا الى صلاة الرجل و صومه، و كثرة حجه و معروفه، و طنطنته بالليل، و لكن انظروا الى صدق حديثه و أدائه للامانة، و قال الإمام زين العابدين (ع): لو ان قاتل أبي ائتمنني على السيف الذي قتله به لأديته اليه.

(وَ لا تَكْتُمُوا الشَّهادَةَ وَ مَنْ يَكْتُمْها فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ) فرق بين تحمل الشهادة، و بين الأداء بها بعد تحملها، فمعنى

تحمل الشهادة ان يدعوك داع لتشهد له

تفسير الكاشف، ج ١، ص ٤٥٢

على حق أو دين، و تجب الاجابة هنا كفاية لا عينا كما ذكرنا في تفسير قوله تعالى: **(وَ لا يَأْبَ الشُّهَداءُ إِذا ما دُعُوا)**. أما الأدلاء بها فهو أن يدعوك صاحب الحق بعد أن تتحمل الشهادة لتدلي بها أمام المحاكم، و لا يسعك أن تمتنع عن اجابته إذا توقف ثبوت الحق على الاستماع إلى شهادتك، و أمنت الضرر، فإذا امتنعت، و الحال هذه، فأنت آثم، لقوله تعالى: **(وَ لا تَكْتُمُوا الشَّهادَةَ وَ مَنْ يَكْتُمْها فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ)**. و المراد بآثم قلبه انه يعاقب عقاب من قصد و تعمد الإثم، لأن القصد و العمد من صفات القلب.

[سورة البقرة (٢): آية ٢٨٤]

لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ وَ إِنْ تُبْدُوا ما فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحاسِبْكُمْ بِهِ اللهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشاءُ وَ يُعَذِّبُ مَنْ يَشاءُ وَ اللهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٨٤)

المعنى:

(وَ إِنْ تُبْدُوا ما فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحاسِبْكُمْ بِهِ اللهُ). قد ترد على قلب الإنسان خواطر سوداء لا يتمكن من دفعها، كما لو تمنى أن تهدم دار فلان، أو تدهسه سيارة، و لا حساب و لا عقاب على هذه ما دامت مجرد خواطر لا يظهر لها أثر في قول أو فعل، لأنها خارجة عن القدرة، فالتكليف بها سلبا أو إيجابا تكليف بما لا يطاق.

و قد يعزم على المعصية عزما أكيدا، و يهم بها عن تصميم، حتى إذا أوشك أن يفعل أحجم و تراجع، إما خوفا من اللّه سبحانه، و اما خوفا من الناس، و الأول مأجور، لأن إحجامه خوفا منه تعالى يعد توبة و انابة يثاب عليها، و الثاني غير مأجور و لا موزور، لا يثاب و لا يعاقب تفضلا من اللّه و كرما،

تفسير الكاشف، ج ١، ص ٤٥٣

فلقد جاء في الحديث: إذا همّ العبد بحسنة فلم يفعلها كتبت له حسنة، فان فعلها كتبت له عشرا، و ان همّ بسيئة فعملها كتبت سيئة واحدة، فان لم يعملها لم تكتب شيئا.

و قد يعزم على المعصية، و يباشرها بالفعل، و هذا العاصي على نوعين: نوع يعصي اللّه علنا غير مكترث بأقوال الناس و انتقادهم و تشهيرهم، و هذا هو المراد بقوله: **(إِنْ تُبْدُوا ما فِي أَنْفُسِكُمْ)**. و نوع يستر معصيته بالنفاق و الرياء، يفسد في الخفاء، و يعلن الصلاح، و كلا النوعين يعلم اللّه بهما **(فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشاءُ وَ يُعَذِّبُ مَنْ يَشاءُ)**. ما دام اللّه سبحانه مالك السموات و الأرض، قادرا على كل شيء فله أن يعفو عمن يشاء من العصاة، و يعذب من يشاء منهم حسبما تقتضيه حكمته .. قال محيي الدين ابن العربي في تفسيره ما معناه: ان اللّه يغفر للعاصي إذا كان قويا في إيمانه، و لكن صدرت منه المعصية عرضا، لا لرسوخ جذورها في نفسه، و يعذب العاصي الضعيف في إيمانه الذي رسخت جذور المعصية في نفسه.

[سورة البقرة (٢): الآيات ٢٨٥ الى ٢٨٦]

آمَنَ الرَّسُولُ بِما أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَ الْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللهِ وَ مَلائِكَتِهِ وَ كُتُبِهِ وَ رُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَ قالُوا سَمِعْنا وَ أَطَعْنا غُفْرانَكَ رَبَّنا وَ إِلَيْكَ الْمَصِيرُ (٢٨٥) لا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَها لَها ما كَسَبَتْ وَ عَلَيْها ما اكْتَسَبَتْ رَبَّنا لا تُؤاخِذْنا إِنْ نَسِينا أَوْ أَخْطَأْنا رَبَّنا وَ لا تَحْمِلْ عَلَيْنا إِصْراً كَما حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنا رَبَّنا وَ لا تُحَمِّلْنا ما لا طاقَةَ لَنا بِهِ وَ

اعْفُ عَنَّا وَ اغْفِرْ لَنا وَ ارْحَمْنا أَنْتَ مَوْلانا فَانْصُرْنا عَلَى الْقَوْمِ الْكافِرِينَ (٢٨٦)

تفسير الكاشف، ج ١، ص ٤٥٤

اللغة:

يطلق الخطأ على ثلاثة معان: الإثم، و ضد العمد، و ضد الصواب، و هذا المعنى الأخير هو المراد من الآية، و الإصر العبء الثقيل، يأصر صاحبه، و يحبسه مكانه.

الاعراب:

المؤمنون مبتدأ، و كلّ مبتدأ ثان، و جملة آمن خبر المبتدأ الثاني، و الجملة منه و من خبره خبر المبتدأ الأول، و جملة لا نفرق مفعول لفعل محذوف، أي يقولون: لا نفرق، و غفرانك نصب على المفعول المطلق، أي اغفر غفرانك، أو مفعول به، أي نطلب غفرانك.

المعنى:

(آمَنَ الرَّسُولُ بِما أُنْزِلَ إِلَيْهِ). هنا سؤال يفرض نفسه، و هو ان كل رسول يؤمن باللّه و بالوحي الذي انزل اليه، و الا لا يكون رسولا، فالاخبار عن ذلك يشبه توضيح الواضح، و تحصيل الحاصل، و هذا غير جائز في كلامه تعالى الذي يجب أن يحمل على أحسن المحامل، فلا بد أن يكون للاخبار عن ذلك هدف يرمي اليه، فما هو هذا الهدف؟.

الجواب: ليس الغرض من الآية مجرد الإخبار بأن النبي (ص) قد آمن باللّه ..

كلا، فان كل نبي يولد مؤمنا باللّه و وحدانيته، و لكن ليس كل نبي يولد نبيا، أو يعلم انه سيكون نبيا- إلا عيسى (ع) الذي قال حين انفصل عن امه اني عبد اللّه آتاني الكتاب و جعلني نبيا .. مريم ٣٠- و محمد (ص) لم ينزل عليه الوحي إلا بعد أن أتم أربعين عاما من عمره الشريف، و حين قال له جبريل أول ما قال: «اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ» شك في أمره و حار، و خشي أن يكون الصوت من الوساوس و الهواجس، حتى انه شكا إلى زوجته الحانية خديجة، فانطلقت به إلى ورقة بن نوفل، ثم اقتنع بالحس و الوجدان ان الذي

تفسير الكاشف، ج ١، ص ٤٥٥

أتاه ملك، و ليس بشيطان، و قد خاطبه اللّه بقوله: «فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنا إِلَيْكَ فَسْئَلِ الَّذِينَ يَقْرَؤُنَ الْكِتابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ- يونس ٩٤». و في الحديث ان النبي عقّب على ذلك قائلا: لا أشك و لا أسأل.

و بهذا يتبين ان الغرض في قوله تعالى: **(آمَنَ الرَّسُولُ بِما أُنْزِلَ إِلَيْهِ)** ان ما جاء في هذه السورة و غيرها من أصول الايمان و العقيدة، و العظات و الأحكام و كل ما أخبر به الرسول هو من وحي اللّه سبحانه، و هذا الوحي لم يؤمن به الرسول إلا بعد أن مر بمرحلة الشك و البحث و الملاحظة الدقيقة، و الا بعد ان تكشفت له الحقيقة بالحس و العيان، اذن، كل ما أخبر به الرسول فهو من عند اللّه لا ريب فيه.

(وَ الْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللهِ وَ مَلائِكَتِهِ وَ كُتُبِهِ وَ رُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ).

ليس الايمان باللّه بمعناه الكامل الشامل ان نعتقد بأنه خالق الكون و كفى .. كلا، ان المؤمن حقا هو الذي يؤمن باللّه، و بما بعث من الرسل، و أنزل من الكتب بما فيها من اصول و مبادئ و احكام و ملائكة، و ما اليها من المغيبات دون

استثناء، فمن آمن باللّه دون كتبه و رسله، أو آمن به و ببعض كتبه و رسله كان حكمه عند اللّه غدا حكم من لم يؤمن به إطلاقا، و لو ان اهل الأديان أخذوا بمبدإ الايمان باللّه، و بكل ما جاء من عنده لما كانت هذه الطوائف و تناحرها و تخاصمها، و لكنهم آمنوا ببعض، و كفروا ببعض فكان بينهم هذا العداء المستمر.

(لا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهٰا). لأن التكليف بغير المقدور ظلم: «وَ أَنَّ اللهَ لَيْسَ بِظَلاَّمٍ لِلْعَبِيدِ- آل عمران ١٨٢». و لكن الاشعرية أجازوا التكليف بغير المقدور، و نفاه الإمامية و المعتزلة.

(لَهٰا مٰا كَسَبَتْ) من الخيرات و الحسنات. **(وَ عَلَيْهٰا مَا اكْتَسَبَتْ)** من الشرور و السيئات، فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره و من يعمل مثقال ذرة شرا يره .. و من رحمة اللّه بعباده ان العبد إذا صدرت منه حسنة كتبها اللّه له في الحال، و بمجرد صدورها منه، و إذا صدرت منه سيئة أمهله حينا، فان استغفر و ندم لم تكتب، و ان أصر كتبت عليه .. و قال جماعة من العارفين ان الإنسان يفعل الخير بدافع من نفسه، لأنه مفطور عليه، و لا يفعل الشر إلا ببواعث خارجية من البيئة و التربية الفاسدة،

تفسير الكاشف، ج ١، ص ٤٥٦

و لهذا جعل تعالى الخير من الكسب، لا من الاكتساب، حيث قال: **(لَهٰا مٰا كَسَبَتْ)** و لم يقل ما اكتسبت، و جعل الشر من الاكتساب، فقال: **(وَ عَلَيْهٰا مَا اكْتَسَبَتْ)** و لم يقل ما كسبت.

(رَبَّنٰا لاٰ تُؤٰاخِذْنٰا إِنْ نَسِينٰا أَوْ أَخْطَأْنٰا). هنا اشكال مشهور كثر حوله الكلام، و حول جوابه في كتب الأصول و علم الكلام، و ملخص الإشكال ان الخطأ و النسيان لا يدخلان تحت ارادة الإنسان و قدرته، فالمؤاخذة عليهما مرفوعة بذاتها، فمن نسي الصلاة، أو أخطأ في فهم الحكم الشرعي و استخراجه من مصدره يحكم بمعذوريته و قبح مؤاخذته .. اذن، فلا معنى لطلب رفع المؤاخذة عنه.

و غريب ما أجاب به الشيخ محمد عبده- كما نقل صاحب المنار في تفسيره- من ان الناسي و المخطئ تصح مؤاخذتهما بدليل ان الشريعة الاسلامية و الشرائع الوضعية قد أوجبت الضمان على من أتلف مال غيره خطأ، كما أوجبت الدية على من قتل إنسانا من غير قصد .. و أخذ هذا الجواب و تبناه في تفسيره الشيخ مصطفى المراغي.

و وجه الغرابة ان المقصود من المؤاخذة في الآية هو العقاب و المسئولية الأدبية، لا الغرامة المادية، فمن قتل إنسانا، أو أتلف ماله خطأ لا يعاقب، و لا يسأل عن شيء من الوجهة الأدبية، و انما يحكم عليه بغرامة مالية، تماما كالمديون.

و الصحيح في الجواب: ان الخطأ و النسيان يصدران تارة من الإنسان بعد تحفظه و احتياطه، و هذا النوع من النسيان و الخطأ يعذر فيه صاحبه، و لا تجوز مؤاخذته أدبيا، و هو المقصود من الآية الكريمة .. و تارة يصدر الخطأ و النسيان عن التهاون و ترك التحفظ، بحيث لو تيقظ و احترز لم يصدرا منه، و هذا النوع لا يعذر فيه صاحبه، و تجوز المؤاخذة عليه، و هو المطلوب رفعه في الدعاء .. و عليه يسقط الاشكال من أساسه.

(رَبَّنٰا وَ لاٰ تَحْمِلْ عَلَيْنٰا إِصْراً كَمٰا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنٰا رَبَّنٰا وَ لاٰ تُحَمِّلْنٰا مٰا لاٰ طٰاقَةَ لَنٰا بِهِ). الإصر العبء الثقيل الذي يأصر صاحبه، أي يحبسه مكانه، و المراد به هنا التكليف الشاق .. و قد وضعه اللّه سبحانه على بني إسرائيل، حيث فرض عليهم خمسين صلاة في اليوم و الليلة، و أمرهم بأداء ربع أموالهم في الزكاة، و غير ذلك من التكاليف الشاقة التي ذكرها أهل التفاسير مفسرين بها قوله تعالى:

تفسير الكاشف، ج ١، ص ٤٥٧

(كَما حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنا). و عليه يكون معنى: لا تحمل علينا إصرا، لا تكلفنا بما يثقل علينا حمله.

و تسأل: ان قوله تعالى: (وَ لا تُحَمِّلْنا ما لا طاقَةَ لَنا بِهِ) يفيد هذا المعنى بالذات، مع العلم بأن هذه الجملة معطوفة على و لا تحمل علينا إصرا، و العطف يقتضي المغايرة، حيث لا يجوز عطف الشيء على نفسه؟.

الجواب: لو نظرنا إلى قوله: (وَ لا تُحَمِّلْنا ما لا طاقَةَ لَنا بِهِ) مستقلا عن السياق لكان الأمر كما قلت، لأن المعنى الظاهر هو ان لا تكلفنا بما يشق علينا .. أما إذا نظرنا اليه مع ملاحظة السياق فيتعين أن يكون المراد لا تعاقبنا عقوبة لا نطيقها .. فعبّر عن العقوبة بما تؤدي اليه من عدم إطاقتها و الصبر عليها، قال الشيخ مرتضى الأنصاري في كتابه المعروف بالرسائل، باب البراءة: «لا يبعد أن يراد بما لا يطاق في الآية العذاب و العقوبة، فمعنى لا تحملنا ما لا طاقة لنا به لا تورد علينا ما لا نطيقه من العقوبة».

(وَ اعْفُ عَنَّا وَ اغْفِرْ لَنا وَ ارْحَمْنا). العفو و المغفرة و الرحمة ألفاظ متقاربة، و الفرق بينها بسيط، هو ان العفو مجرد ترك العقاب على الذنب، و المغفرة ترك العقاب، مع الستر على الذنب، و الرحمة طلب التفضل و الانعام بالثواب. (أَنْتَ مَوْلانا فَانْصُرْنا عَلَى الْقَوْمِ الْكافِرِينَ) الذين يستخفون بدين اللّه، و يعتزون بغير اللّه .. و جاء في مجمع البيان عن النبي (ص): «ان اللّه سبحانه قال عند كل فصل من هذا الدعاء: فعلت و استجبت». و لهذا استحب الإكثار من هذا الدعاء.

ربنا لا تؤاخذنا ان نسينا أو أخطأنا ربنا و لا تحمل علينا إصرا كما حملته على الذين من قبلنا ربنا و لا تحملنا ما لا طاقة لنا به و اعف عنا و اغفر لنا و ارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين.